دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ٤

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

مذلون مهانون

دار ابن رشد



الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الرابع

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلداً

ترجمها عن الفرنسية : د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية : دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص. ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٣

الخطوط والغلاف : عماد حليم

طبعت بإشراف : نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

مُذلُّونْ
مُهَانُونْ

«مذلون مهانون» Ounijennyié i oskorblennyié

كتب دوستويفسكي هذه الرواية سنة ١٨٦٠ — ١٨٦١ ، ونشرها فى المجلة التى اصدرها مع أخيه وهى مجلة ((الزمان)) فى الأعداد المتسلسل صدورها من كانون الثانى (يناير) الى تموز (يوليو) ١٨٦١ ، وقد ظهرت طبعة مستقلة لها فى نهاية ١٨٦١ ، ونشرت كاملة فى جميع طبعات أعمال دوستويفسكى .

تقديم

كتب دوستويفسكى هذه الرواية عند عودته من السجن فى المنفى، فيمكن القول انها جسر بين ما أنتجه من قصص فى أيام الشباب وبين الأعمال الكبيرة التى كتبها فى سن النضج • وقد استقبل النقاد هذه الرواية الحافلة الصاخبة ، استقبلوها عند ظهورها استقبالا متفاوتا أشد التفاوت ، فمنهم من تحمس لها أكبر الحماسة ، ومنهم من ظلمها أكبر الظلم • وكان دوستويفسكى نفسه بين الذين ظلموها • كتب يقول سنة ١٨٦٤ ، فى مجلة « العصر » :

« أنا أعلم حق العلم أن فى كتابى هذا دمى كثيرة ليست كائنات انسانية » وأضاف : « لم أدرك هذا طبعا حين كنت فى حمى العمل السريع ولم أكد أشعر به • » • ويردد دوستويفسكى ما قاله بعض النقاد فى حق هذه الرواية من أنها بعيدة عن الواقع ، ومن أنها مفككة بعض التفكك، فها هوذا يقول فى الاعتذار عن ذلك انه كتبها فى ظروف خاصة فرضت عليه أن يسرع فى الكتابة ما أمكن الاسراع ، لأن المجلة الناشئة التى شرع فى اصدارها أخوه ، وهى مجلة « الزمان » ، كانت فى حاجة الى رواية تنشر فى أعدادها المتسلسلة تباعا ، فلم يتسع وقته لبناء روايته البناء المحكم ، ولا لصقلها الصقل الفنى الذى يرضى عنه • وعندنا أن دوستويفسكى قد ظلم نفسه حين اعترف للظالمين من نقاده ببعض ما عابوه على روايته • فالرواية ليست مفككة الا فى نظر من يقرؤها قراءة عجلى ، فيتيه فى سراديبها دون أن يلاحظ ارتباط أجزائها بعضها ببعض ارتباطا وثيقا ، ويصرفه الغوص فى أعماق النفس الانسانية عن رؤية الجمال

الشعرى فى صياغتها نفسها • وكان دوستويفسكى يدرك حتما أنه يظلم نفسه حين يعترف لنقاده الظالمين بما أخذوه على الرواية ، سواء أكان ذلك من قبيل المجاراة لهم والتقرب منهم أم كان من قبيل الشعور بأن عبقريته قادرة على ما هو خير من ذلك انسجاما وشاعرية ؛ فها هوذا يستدرك قائلا: « ولكن اليكم ما كنت أعرفه حين شرعت فى كتابتها : « ١ ـ أن روايتى هذه ستشتمل على شعر ولو لم تنجح ، ٢ ـ وأنها ستشتمل على فصول تفيض حرارة وقوة ؛ ٣ ـ وأنها ستشتمل على وصف صـــادق وفنى لشخصيتين حيتين الى أبعد الحدود • وكانت هذه الثقة تكفينى • وقد خرجت الرواية غريبة بعض الغرابة ، غير أن فيها قرابة خمسين صفحة أعتز بها • » •

والحق أن دوستويفســكى ، حتى فى دفاعه هذا عن كتابه ، كان خجولا متهيبا مترددا ، فالشخصيات التى يصورها فى هذه الرواية حية أصيلة صادقة كلها ، والخيط الذى ينظم أجزاء الرواية بعضـــها ببعض يربط هذا الأجزاء ربطا محكما قويا ، والشعر يترقرق فى الرواية من أولها الى آخرها ، ولا شك أن دوستويفسكى كان حين استسلامه للالهــام الخصب والوحى المتدفق أثناء كتـابة الرواية أصـدق نظرة وأصـــدق حكما منه حين نظر الى الرواية ناقدا بعد ذلك • أية شـــخصية فى هذه الرواية يمكن أن توصف بأنها غير واقعية ؟ ان جميع الشخصيات التى يصورها واقعية مستمدة من الحياة ؛ لا من الحياة المرضية غير الطبيعيــة فحسب ، بل من الحياة السوية السليمة أيضا • ان شـــخوص هذه الرواية الذين قد يتراءى للنظرة السطحية الأولى أنهم مرضى ، ليســوا بمرضى فى الواقع • وما أصدق ما قاله هنرى ترويا بهذا الصدد ! قال هنرى ترويا : « اننا لا نشـــعر ، فى الوهلة الأولى ، بأن هناك أى شىء مشترك بيننا وبين أولئك الذين يصفهم دوستويفسكى من المتشردين ، والفوضويين ، والسكارى ، والمدمنين ، وأشباه القديسين ، وقتلة آبائهم، والمصابين بالهستريا ••• الخ • اننا لم نلتق بهم يوما فى هذه الحيــاة • وسلوكنا المعتاد يختلف عن ســـلوكهم اختلافا كاملا • ومع ذلك فنحن نشعر بأنهم معروفون لنا ، مألوفون عندنا ، على نحو سرى عجيب • اننا نفهمهم واننا نحبهم • بل اننا نتعرف أنفسنا فيهم • فكيف يمكن تعليل هذا التجاوب وهذا التعاطف معهم ، ماداموا هم أشخاصا مرضى ، وما دمنا نحن أفرادا أسوياء من حيث المبدأ ؟ من ذا الذى يستطيع أن يزعم أن

دوستويفسكي كان يمكن أن يجتذب هذه الأعداد الكبيرة من جماهير القراء الذين ما ينفكون يتزايدون ، لو قد توفر على دراســـــة المجانين والمدمنين واضرابهم دون غيرهم ؟ الحقيقة هي أن مجانين دوستويفسكي ليسوا مجانين الى الحد الذى نتوهمه من أول وهلة ٠ كل ما هنالك أنهم ما لا نجرؤ أن نكونه ٠ انهم يعملون ويقولون مالا نجرؤ أن نعمله وأن نقوله ٠ انهم يظهرون الى النور ما نكبته نحن فى ظلمات اللاشعور ٠ انهم نحن ، اذا لوحظنا ورصدنا من داخل ٠ هذه الطريقة فى التقاط المناظر ، وهى أقرب ما تكون الى عمل الجراح ، تتنـــــاول ما هو مختبىء فى أبعد الأغوار من أعماقنا ٠٠٠ انه يصور عالمنا الداخلى المختفى ، أما العـــالم الخارجى فيبقى غامضا كأنه فى حلم ٠ ولئن كان دوستويفسكي يخضـع أحيانا للاغراء الذى يغرى بالصاق عنوان طبى على مخلوقاته ، فهو انما يفعل ذلك ليبرر سلوكهم العجيب الشاذ ، وليبرر أقوالهم المتدفقة من تلقاء نفسها بما يشبه الوحى والالهام ، أمام قراء مفتونين بالكلام المنطقى والحديث المتسق ٠ انهم ليسوا بمرضى ، ماداموا بغير أجسام ، أو قل ان أجسامهم ليســـت الا فكرا ٠ وكل من أدرك ذلك ، فســـوف يقرأ دوستويفسكي ناسيا ما يتصف به أبطاله من طابع المرض ، فلا يرى فيهم الا الصراع الروحى الذى يمثلونه بغير أجساد وغير تعب ٠

« ومع ذلك ، اذا لم تكن شخصــيات دوستويفسكي شخصيات مختلفة حقا ، فانه لم يستطع أن يصور هذه الشخصــيات ذلك التصوير الدقيق كل الدقة ، ولا أن يبث فيها الحياة على هذه الصــورة الرائعة ، الا لأنه كان هو نفسه يعانى بعض الاختلال ٠ لقد كانت نوبات الصرعة تلقيه ، باعترافه هو نفسه ، الى ملذات رهيبة ٠ كان وهو فى ذروة هذا التوتر العصبى ، يعانى الموت حيا ، ويتصل بالوجه الآخر من هذا العالم الذى نعيش فيه ، فيفهم مالا سبيل الى فهمه ؛ ثم يعود الى الأرض بعد التشنج الأخير مبهورا مفئودا ٠ فهذه القـدرة على التحليق فوق الظرف الانسانى ، ثوانى أو دقائق ، تتيح له أن يؤكد وجود منطقة وسيطة لا هى الواقع ولا هى الحلم ٠ فعلى مشارف هذه الحماسة ، تزدوج الشخصية ، ويسود الفكر ، ولا يبقى للجسد وزن ولا قوة ولا قيمة ٠٠٠ وفى رحاب هذا الضياء الذى فوق الطبيعة ، لا تبقى فروق ألوان ٠٠٠ ان السعاده ، عند دوستويفسكي وعند أبطاله ، هى الوجد ٠٠٠ وان الشـــقاء هو التلاشي ٠٠٠ ان فى وسع كل انسان‌ان يقول مثله : « لم أزد خلال حياتى

كلها على أن أدفع الى النهاية القصوى ما لم تجرؤ أنت أن تدفعه الا الى منتصف الطريق ... » .

ومن أجل هذا فان هذه الرواية التي قد يصفها ناقد سطحي بأنها « غريبة » أو بأنها « ملفقة » ، أو بأنها « مفككة » ، تؤثر في نفس القارىء الذى يتعاطف مع أبطالها ويستسلم كاستسلام المؤلف لحياتهم ومشاعرهم ، فاذا هي تنبض في نظره ، بل تنبض في قلبه وتهز أعمق أعماقه . وان في هذه الرواية لكثيرا من حياة دوستويفسكي نفسه. انها توشك أن تكون اعترافات ، وأن تكون مرآة تعكس نظرته البكر الى الحياة والوجود في هذه المرحلة من أيامه . ولا يصعب على القارىء أن يتعرف في سمات بطلها ايفان بتروفتش وفى ملامح روحه وفى أحداث حياته ، شخصية الكاتب نفسه . ان ايفان بتروفتش الذى يقص هذه الحكاية هو دوستويفسكي نفسه : عرف الفقر والبدايات الصعبة الشاقة والسند يحظى به من ناقد كبير هو بيلنسكي ، وعرف لحظة قصيرة من شهرة ومجد ، وهو يحمل في مزاجه التناقض بين فكر قوى جبار منظم ممتلىء رجولة ، وبين حساسية مفرطة ، وأعصاب مهتزة ، وصحة مهددة وروح مرهقة . غير أن بين المؤلف والبطل فرقا كبيرا ؛ فالمؤلف ، وقد بلغ الأربعين من عمره وأنضجته تجربةالمعتقل بالمنفى ، وعاش حياة مزروعة بالمكائد ، يبدأ الآن كتابة عمل ضخم جبار ، ويملك ناصية موهبته ويهتدى الى ينابيعه الثرة أثناء ذلك بجهاد شاق بطىء ، أما بطله فهو يصل الى نهاية حياته ولما يزل شابا في مقتبل العمر . انه يكتب ذكرياته في المستشفى منتظرا خاتمة المطاف من عمره القصير . ولا شك أن في ايفان بتروفتش هذا ، أحد أبطال « مذلون مهانون » ، شيئا كرهه دستويفسكي في نفسه ونفر منه ، أعنى تلك الرومانسية العاطفية الانسانية التي عبر عنها في « الفقراء » وفى « الليالى البيضاء » .. ولكن هذا لا ينفى أن ايفان بتروفتش يمتحن في هذه الرواية امتحانا قاسيا مر به دستويفسكي نفسه في حياته ، حين عرف الكسندرا ديمتروفنا : فانه حين لم تقبله الكسندرا التي يحبها هو حبا عارما قويا ، لم يأخذ بندب حظه ولا باظهار العذاب والألم ، بل وضع خير ما عنده في خدمة عواطف حبيبته ــ وهي تسمى في هذه الرواية ناتاشا ــ وفى خدمة علاقاتها بغريمه « السعيد » . وهذا الموقف كان بعينه موقف ذلك الموظف الصغير ماكار دييفوشكين ، أحد شخوص روايته « الفقراء » ،

وكان موقف ذلك المتنزه الحالم الذى وصفه دوستويفسكى فى قصة « الليالى البيضاء » • يظهر أن هذا الموضوع كان يحاصر ذهن دوستويفسكي محاصرة قوية ، وذلك يتفق أيضا مع اهتماماته الأساسية في الأعمال التي سيكتبها في المستقبل • فمن أعماق الاخفاق القاسى الذى يمنى به هؤلاء الشخوص الثلاثة فى هذه الأعمال الثلاثة ، يكتشف هؤلاء الشخوص في أنفسهم طاقة جبارة تخلصهم من قوى اليأس المرير وندب الحظ العاثر : هذه الطاقة الجبارة هي « الشفقة » هى « الرحمة » التى تكشف عن أنبل ما فى القلب ، وتجعل صاحبها يقبل التضحية ، فى ذات نفسه ، بما فى كل حب من توق الى الامتلاك • وهذا التأثير القوى الذى تؤثره الرحمة فى القلوب ، والذى هو أعمق من جميع أعماق الشر ، نحن نجده لدى جميع شخوص « مذلون مهانون » تقريبا ، نجده فى هذا الحب الغريب الذى تحمله ناتاشا وكاتيا كلتاهما ، وهما الغريمتان المتنافستان ، للشاب الطائش الخفيف أليوشا : ان ايفان بتروفتش يتساءل فى بعض اللحظات ، ويتساءل معه القارىء أيضا ، كيف أمكن أن تفتتن فتاة مثل ناتاشا طهارة وحرارة وعقلا ، بشاب يبلغ ما يبلغه أليوشا من تفاهة و « فراغ » وتردد وأثرة ، وكيف أمكنها أن تتوله بحبه! وها هو ذا دوستويفسكي يجيب على هذا التساؤل بعبارات عنيفة قوية تعرى ما يتصف به الحب الجارف من « التباس » و « تناقضات » • ان ناتاشا ، حين تنظر الى حبها ، تدرك فى قرارة نفسها أن حبها انما تداخله شفقه و « رحمة » ، وكذلك كاتيا • فهى رغم ما يتصف به أليوشا من ضعف وتفاهة انما تحبه كما تحب أم ابنها • وهى تفصح عن هذه الحقيقة بلسانها نفسه : انها تشعر نحوه أحيانا بشفقة • انها حين تنظر الى ما فيه من خفة ساحرة ، ومن ثرثرة مثالية ، ومن تناقض وتفكك وتذبذب ، ترى فيه « انسانا مسكينا » ، فتشفق عليه ، بل انها لتبلغ من ذلك حدا لا يكاد يصدقه العقل فهى تحب حتى خيانته لها مع نساء بغايا ••• ذلك انها تريد أن ترى أنه « رجل » ، وتحب أن تغفر له ، أن تصفح عنه ، تحب أن تسامح وتعفو ••• ان حبها مزيج من حب وشفقة ••• بل ان فى حبها شيئا من « الاحسان » بالمعنى المسيحى ••• واذا كان الهوى يصطرع مع هذا « الاحسان » ، فان « الاحسان » هو الذى يكتب له النصر ، وان الهوى هو الذى يمنى بالهزيمة • ان دوستويفسكى يرينا وراء اخفاق الحب انتصار الانسان ••• لقد قبلت ناتاشا القطيعة ؛

وارتضت أن ترى غريمتها وأن تناقشها • وها هى ذى تتنازل لها عن حبيبها ، بل وتسألها أن تحقق للشباب سعادته •

ومن شأن تغلغل الشفقة في ملكوت الحب أن يخرب النفوس ـ ذلك الجنون • تلك لحظة من لحظات الصراع ، في نظر دوستويفسكى ، بين قوى ما سيحدث للأمير ميشكين في رواية « الأهبل » ـ وأن ترمى بهـــا الى الخير وقوى الشر فى كل انســـان • ويكتسى الحب المخفق ، عنـــد دوستويفسكى ، دلالة خاصة ، فهو كالادمان والشهوة يكشف لنا عن انفسنا على حقيقتها ، وينير بضيائه بنية شخصيتنا ، ويكون مرآة لكياننا النفسى الداخلى •

فاذا نظرنا الى هذا العالم الذى تدور فيه أحداث الرواية ويضطرب فيه شخوصها ، اذا نظرنا الى هذا العالم من خارج ، رأيناه عالم جريمة واستحالة • فالبشر الشرفاء النبلاء أصحاب العواطف القوية ، والمبـــادىء الثابتة ـ مثل ايفان بتروفتش ، وناتاشا ، والصغيرة نللى ـ يخفقون ، على حين أن أليوشا الضعيف ، وكاتيا الطفلة فى أنانيتها سيعرفان شيئا من سعادة ، ولن يضيعا على كل حال ؛ كما أن سميث والعجوز اخمنيف ، وهما انسانان مستيقمان ولكنهما فى استقامتهما شديدا العزة والكبرياء ، ســـيكونان الســـبب فى شـــقاء ذويهم ، على حـــين أن الظـــافر الاكبر والمنتصر الأعظـــم انمـــا هو ذلك الوغد الحقـــير اللئيم الذى لا يتـــورع عن شىء ولا يحجم عن شر : الأمير فالكوفسكى : فله النساء ، وله المال ، وله الاعتبار والجاه ، وله كل قوى هذا العالم • ذلك ما نراه فى هـــــذا العالم : « الشر قوى على هذه الأرض ، فان لم تقف فى مواجهته الا فضائل صغيرة ، فلواء النصر معقود له • ولعل هذه النتيجة هى التى خلص اليها دستويفسكى » • ذلك ما قاله بيير باسكال فى كلام له عن دستويفسكى • ان دستويفسكى يطرح مشكلة الشر فى هذه الرواية العنيفة طرحا خفيا ، وسيزيد طرحه لها قوة وسيجسدها مزيدا من التجسيد فى أعماله المقبلة التى ستدور فى الواقع حول هذا الموضوع : كيف نكافح قوى الشر التى هى فى الانسان جزء من ظروف وجوده • صحيح أن دوستويفسكى لم « يعالج » شيئا من هذا بدراسة صريحة فى « مذلون مهانون » • وهذه الرواية المعقدة الغنية شعرا ، شعرا قاتما مظلما ، تسطع بألف لون من ألوان الجمال •• ولكن قاعها يظل مظلما مظلما الى أبعد حدود الاظلام ••

قال جورج هالداس : « ان هذا القاع المظلم ، هذا القاع المؤلف من خوف وقلق ، وبؤس واختلال عصبى ، يذكرنا ببودلير « سام باريس » (وقد ولد الشـــاعر الفرنسى والروائى الروسى فى سنة واحـــــدة : ١٨٢١) ٠ فالكاتبان ، على اختلاف عبقريتيهما ، يتشابهان أكبر التشابه فى ادراك الخطر الذى يهدد عافية البشر النفسية ، ويحسان « الشر » احساسا واحدا من حيث هو أساس الوجود ، ويحسان « الخطيئة » هذا الاحساس نفسه تبعا لذلك ٠ وهما قادران قدرة واحدة على أن يكثفا مصير انسان فى بضع كلمات ، ويعرفان معرفة واحدة كيف يضعانه فى موضعه من الوجود ، وكيف يرسمان نظرة واحدة من نظراته الى واحدة من مضيئات ذكريات طفولته ، فاذا هى أشبه بقوس قزح فوق حياته الخربة ؛ وهما أخيرا يملكان احساسا واحدا بجحيم العواصم التى يترسب فيها الشقاء ٠ وحسبك أن تقرأ هذه الفقرة من فقرات هذه الرواية القاتمة المظلمة المتحركة « مذلون مهانون » حتى ترى فى هذه الفقرة بذرة الرواية كلها ، قصيدة شـعرية تجمعها وتلخصها : « انها قصة رهيبة : قصة امرأة هجرها صاحبهـا وما يزال يعيش على أنقاض سعادتها ، قصة امرأة مريضة هدها الألم وانصرف عنها جميع الناس ، وأنكرها الانسان الذى أساءت اليه فى الماضى وفقد عقله هو الآخر تحت وطأةانواع العذاب والذل التى لا يمكن أن يحتملها بشر ، قصة امرأة استبد بها اليأس فأخذت تطوف فى شوارع بطرسبرج الباردة القذرة ، تطلب الصدقات من الناس مع ابنتها التى ترى أنهـــا ما تزال طفلة صغيرة ، قصة امرأة فنيت بعد ذلك خلال شهور فى قبو رطب ، ورفض أبوها أن يمن عليها بغفرانه الى آخر لحظة من حياتها ، حتى اذا ثاب الى صوابه فهرع اليهــا ليغفر لها لم يجد فى مكان ابنته الا جثة باردة ٠ انها قصة غريبة ، قصة علاقات عجيبة لا يكاد يفهمـا المرء ، بين شيخ هرم ارتد الى الطفولة وبين حفيدة له كانت تفهمه على صغر سنها ، وكان لها من نفاذ الفكر مالا يصل اليه كثير من الناس خلال حياتهم الهادئة الرخية ٠ انها قصة مظلمة ، قصة من تلك القصص السوداء الأليمة التى كثيرا ما تجرى دون أن يلمحها أحد ، كأنها أسرار خفية ، تحت سماء بطرسبرج الثقيلة ، فى الزوايا المعتمة المستسرة من المدينة الكبيرة، وسط اصطخاب الحياةوالأنانية الضاربة والمصالح المصطرعة والفجور الكالح والجرائم الخبيثة ، فى كل هذا الجحيم من الحياة المجنونة الشاذة ٠ »

ويختتم جورج هالداس كلامه بقوله : « ذلك ، بقلم المؤلف نفسه ، مدخل جيد الى متاهة دوستويفسكى التى لا تشـــكل روايته « مذلون مهانون » الا مرحلة أولى منها » •

وعبث ، بعد ذلك ، أن نحاول تلخيص أحداث هذه الرواية المتشابكة المتداخلة الأجزاء والفصول •

س • د •

الجزء الأول

الفصل الأول

في الثاني والعشرين من شهر مارس (آذار) من العام الماضي وقع لى حادث من أغرب مايقع من حوادث •• كنت قد قضيت النهار كله أبحث عن منـزل أستأجره • فقد كان بيتي القديم رطبا جدا وكنت في ذلك الوقت أعاني سعالا شديدا • كنت منـذ الخريف أود أن أترك هذا البيت ، الا أنني سوّفت حتى الربيع • انقضى النهار دون أن أجـد ما يرضيني • فقد كنت أريد أن يكون البيت مستقلا لا جيران لى فيه ، وكان يمكن أن أكتفي بغرفة ، ولكن لابد أن تكون الغرفة واسعة (وكان لا بد طبعا أن يكون أجرها زهيدا) ، فقد لاحظت أن الغـرفة الصـغيرة تضيق الخناق على الأفكار نفسها ، وكنت أحب دائما ، حين أفكر فيما سأكتب من قصص ، أن أسير فى الغرفة جيئـة وذهابا • وأذكر فى هذه المناسبة أن التفكير فى مؤلفاتي والتأمل فيما سأعمد اليـه من أسلوب فى تأليفها كانا دائما أحبّ الى نفسي من كتابتها • وصدقوني اذا قلت لكم ان ذلك لا يرجع الى الكسل •• لكنني لا أدرى له سببا ••

ولقد كنت ، منذ الصباح ، أشعر بشيء من الاعياء ، فلما جاء الغروب شعرت بأنني مريض ، وانتابني نوع من الحمى • ثم انى قد ظللت على قدميّ النهارَ كله ، وأخذ منى التعب مأخذه • وفى المساء ، قبيل الشفق ، مررت بشارع «الصعود» • انى أحب شمس مارس (آذار) فى بطرسبرج، وأحب الغروب خاصة حين يكون النهار بارداً نيراً • ان الشارع كله يضيء

فجاة ويغرق فى أنوار جميلة • أخذت البيوت كلها تتألق ، فاذا الوانها الشهباء أو الصفراء أو الخضراء الكابية تفقد منظرها المتجهم فى طرفة عين• وشعرت كان نفسي تشرق ، وشعرت كان رعشة تسري في جوانحي : نظرة جديدة ، ومعان جديدة ! ما أعجب ما يستطيع ان يفعله في نفس انسان شعاع من شمس ! •••

ولكن شعاع الشمس غاب ، واشتد البرد ، وأخذ ينقر الأنوف ••• وتكاثف الظلام ، وأخذت مصابيح الغاز تتلالا فى المخازن والحوانيت• فلما وصلت الى مستوى مقهى موللر على الطرف الثاني من الشارع ، رأيتني أتسمر في مكاني ، ورايتني أنظر الى الطرف الاخر ، كأنما اوجست أن أمرا خارقا سيقع لى على الفور • وفي هذه اللحظة تماما أبصرت على ذلك الطرف الآخر رجلا عجوزا وراءه كلبه • انى لأتذكر الآن أن صدري انقبض فى تلك اللحظة انقباضا شديدا ، تحت وطأة احساس مزعج لم أستطع أنا نفسي أن أعرف كنهه •

لست بالانسان المتطيّر ، ولا أكاد أؤمن بمشاعر التنبؤ • ومع ذلك فقد وقعت لى فى حياتى حوادث كثيرة لا يمكن تعليلها ، كما وقع ذلك لجميع الناس فيما أظن • مثال ذلك هذا العجوز الذى رأيته : لماذا شعرت فورا ، حين أبصرته ، ان شيئا غير عادي سيقع لى فى المساء ؟ على أنني كنت مريضا ، والمشاعر المرضية تكاد تكون دائما خداعة •

كان العجوز يقترب من المقهى بخطوات بطيئة متقلقلة ، يقدم رجليه كأنهما عصوان ، لا يكاد يثنيهما ، وقد تقوس ظهره ، وأخذ يضرب بعصاه بلاط الرصيف • لم أرَ فى حياتى شكلا أعجب ولا أغرب من شكل هذا العجوز •

لقد كان يؤلمني منظره دائما حين كنت ألقاه فى مقهى موللر • ان

قامته الطويلة ، وظهره المحدودب ، ووجهه الذى لاح فيه فناء ابن الثمانين، وسرواله العتيق المتفتق ، وقبعته المدورة المتشوهة التى يرجع عهـدها الى عشرين عاما خلت والتى تغطى جمجمة عارية الا من كثة صغيرة من الشعر على النقرة تماما ، كثة صفراء لا بيضاء ، وحركاته التى تبدو خالية من المعنى حتى لكأنها حركات نابض آلى ، كل ذلك كان يفجأ حتما نظر من يراه لأول مرة • وانه لغريب حقا أن يرى المرء عجوزاً فى هذه السن ، وحيدا ، لا يلاحظه أحد ، لا سيما وانه يبدو كمجنونٍ أفلت من قبضـة حراسه • وقد فجأ نظرى نحوله الشديد • هذا انسان لا يكاد يكون له جسم • انه عظم وجلد • وكانت عيناه كبيرتين ، ولكن منطفئتين ، تحف بهما هالة زرقاء قاتمة ، وكانتا تنظران الى امام دائما ، لا تنحرفان يمنـة ولا يسرة قط ، ويقينى انهما ما كانتا تريان شيئا البتة • تراه ينظر اليك ، ولكنه يسير نحوك كأن أمامه فضاء • لقد لاحظته عدة مرات ، حين ظهر فى مقهى موللر منذ مدة يسيرة ، لم يعرف أحد من أين أتى ، وكان يصحبه كلبه دائما • وما ارتأى أحد من زبائن المقهى يوما أن يتجه اليه بكلمة ، ولا فكر هو أن يتجه الى أحد من روّاد المقهى يوما بكلمة •

قلت فى نفسى وقد تسمرت فى مكانى على الطرف الثانى من الشارع ، وأخذت أتابعه بنظرى متابعة لا حيلة لى فى دفعها : « لماذا يجر نفسه الى مقهى موللر ، ماله ولهذا المقهى ؟ » •

وأخذ يغلى فى نفسى اضطراب شديد ، نتيجةً للمرض والتعب • ثم تابعت أسائل نفسى : « بماذا يفكر هذا الرجل ؟ ماذا يدور فى رأسه ؟ أ لايزال قادراً على أن يفـكر فى أى أمرٍ من الأمور ؟ ان وجهـه ميت لا يعبر عن شىء البتة • ثم أين عثر على هذا الكلب الكريه الذى لايفارقه لحظة ، كأنه جزء منه لا ينفصل عنه ، والذى يشبهه هذا الشبه العظيم ؟ »•

لقد كان الكلب يبدو فى الثمانين من العمر هو أيضا • نعم ، لا بد

انه كان فى الثمانين ... انه يبدو أكبر سناً من أى كلب فى العالم ؛ حين رأيته أول مرة ، تراءى لى على الفور ان هذا الكلب لا يمكن أن يكون كسائر الكلاب ؛ انه كلب خارق ؛ انه ينطوى ولا شك على شيء عجيب سحرى ؛ لا بد أن يكون جنياً فى هيئة كلب ، ولا بد أن مصيره قد ارتبط بمصير صاحبه بروابط سرية مجهولة ... انك حين تراه توافق فوراً على أن آخر مرة ذاق فيها الطعام ترجع الى عشرين سنة خلت . انه نحيل كهيكل عظمى ، بل قل كصاحبه ، وقد سقط كل شعره تقريبا ، حتى عن ذنبه الذى كان يضعه دائما بين ساقيه ، والذى يبس كأنه عصى . وكانت أذناه الطويلتان تتدليان حزينتين . أقسم ما رأيت فى حياتى كلبا أبغض الى النفس من هذا الكلب ، ولا أدعى الى النفـرة . وحين كان الاثنـان يسيران فى الشارع ، العجوز من أمام والكلب من خلف ، وهو يمس ببوزه حـوافى معطف صاحبـه كأنه مربوط به ، كانت مشيتهما بل كان منظرهما كله كأنما يصرخ فى كل خطوة قائلا : « نحن عجوزان ، نعم نحن عجـوزان . » ولا أنسى انه تراءى لى أيضا ذات يوم ان العجـوز وصاحبه قد فرا من صـفحة من صـفحات كتاب هوفمـان الذى صـوره جافارنى*، وانهما يطوفان فى أرجاء العالم اعلانا متجولا عن هذا الكتاب .

واجتزت الشارع ، ودخلت الى المقهى وراء العجوز . كان سلوك العجوز فى المقهى غريبا جدا ؛ حتى ان موللر الذى يقف فى صدر المقهى وراء البسطة أخذت تظهر على وجهه ، فى الأيام الأخيرة ، علائم التململ من هذا الزائر المزعج . لم يكن هذا الزبون يطلب شيئا قط . وكان فى كل مرة يتجه قدما نحو المدفأة ، ويجلس على مقعد الى جانبها . فاذا لم يجد ذلك المقعد خاليا ظل خلال لحظة من الوقت واقفا فى حيرة غبية أمام الشخص الذى احتل مكانه ، ثم أسرع كالمشدوه الى الطرف الآخر قرب النافذة . وهناك يختار أحد المقاعد يجلس عليه ببطء ، ويرفع قبعته ، ثم

يلقي بنفسه الى وراء مستندا على ظهر الكرسي ، ويظل ساكنا هكذا ثلاث ساعات أو أربعاً . لم يتناول جريدة في يوم من الأيام ، ولا نطق بكلمة ، ولا سمع أحد صوته . كان يكتفي بأن يظل جالسا يحملق أمامه .. الا ان نظرته مشدوهة خالية من الحياة بحيث يصح أن يراهن المرء على انه لا يرى شيئا مما يدور حوله ، ولا يسمع شيئا . اما الكلب فانه بعد أن يدور مرتين أو ثلاثا في مكانه ، يقعو حزينا بين قدمي سيده ، ويدس بوزه بين حذائيه ، ويزفر زفرة عميقة ، ثم يتمدد بكامل جسمه على الارض ، ويظل ساكنا هو الآخر خلال السهرة كلها ، كما لو كان يموت أثناء ذلك . ان المرء ليستطيع آن يتصور ان هذين الكائنين كانا يقبعان ميتين في مكان ما ، خلال النهار كله ، حتى اذا غابت الشمس بُعثا من الموت على حين غرة ، لا لشيء الا ليأتيا الى مقهى موللر فيقوما هكذا بواجب سري يجهله جميع الناس . وكان العجوز بعد أن يظل جالسا ثلاث ساعات أو أربعاً ، ينهض من مكانه ، ويتناول قبعته ويمضي الى بيته ؛ كان الكلب ينهض هو الآخر ، ويتبع صاحبه ذاهلا ، بخطى بطيئة كخطاه ، جاعلا ذنبه بين قائمتيه ، خافضاً رأسه . كان رواد المقهى في المدة الأخيرة يتحاشون العجوز بشتى الصور ، ويمتنعون حتى عن الجلوس قربه ، كأنهم يشمئزون منه . أما هو فكأنه لا يلاحظ شيئا من ذلك البتة .

كان معظم رواد هذا المقهى من الألمان ، يفدون اليه من أرجاء شارع « الصعود » ، وكانوا جميعا من أصحاب الحوانيت : بقالين ، خبازين ، صباغين ، صانعي قبعات ، سراجين ، الخ .. وكان صاحب المقهى كثيرا ما ينضم الى حلقاتهم، يجلس الى موائدهم ، ويشرب معهم . وكانت كلاب صاحب المقهى وأطفاله تأتي كذلك الى الزبائن ، فكان الزبائن يداعبون الكلاب والأطفال جميعا . وكان جميع الزبائن يعرف بعضهم بعضا ، ويقدر بعضهم بعضا . وبينما يستغرق الزبائن في قراءة الصحف الألمانية ، كنت

تسمع من وراء الباب ، في منزل صاحب المقهى ، أغنية «حبيبي أوغسطين»* تعزفها على البيانو ، بنغمات رقيقة ، الابنة الكبرى لصاحب المقهى ، وهي ألمانية قصيرة شقراء الضفائر ، ما أشبهها بفأرة بيضاء • كان جميع الناس يرتاحون الى سماع أنغـام الفالس • وكنت أذهب الى مقهى موللر في الأيام الأولى من كل شهر أقرأ الصحف الروسية •

حين دخلت الى المقهى رأيت العجوز قد جلس قريبـا من النافذة ، ورأيت كلبا ممـددا بين رجليـه على عادته • فجلست في أحد أركان المقهى دون أن أقول شيئا ، وطرحت على نفسي هذا السؤال : « لمـاذا دخلت الى هنا ، مع انني لست في حاجة الى ذلك قط ، ومع انني مريض، أحوج الى الذهاب الى البيت لأحتسي قليلا من الشاي وأنام ؟ » وانتابني شعور بالانقباض • قلت في نفسي وأنا أتذكر ذلك الاحساس الغـريب المرضي الذي شعرت به حين أبصرت الرجل في الشـارع : « مالي ولهذا الرجل ؟ لماذا أهتم بأمره ؟ بل مالي ولهؤلاء الألمان المملين جميعا ؟ علام هذا القلق السخيف لترهات لا قيمة لها ؟ هذا القلق الذي ألاحظه على نفسي في الأيام الأخـيرة ، والذي يمنعني من أن أحيـا ، وأن ألقي على الحياة نظرة واضحة ، كما أشار الى ذلك ناقد عميق نافذ البصيرة في نقده المرّ لقصتي الأخيرة ؟ » على انني رغم التردد والحزن ، ظللت في مكاني لم أبرحه ، وكان شعوري بالمرض يتفاقم أثناء ذلك ، حتى بدا لي انه ليس يحسن أن أترك هذا الجو المعتدل اللطيف في المقهى ، فتناولت جـريدة « فرانكفورت » ، وما قرأت منهـا سـطرين حتى أخـذني الكرى • ان هؤلاء الألمان لا يزعجونني : انهم يقرأون ويدخنون ، ومن حين الى حين، في كل نصف ساعة تقريبا ، يفضي بعضهم الى بعض ، في صوت خفيض ، بنبأ من أنباء فرانكفورت ، أو يروى بعضهم لبعض قولا أو نكتة للفكاهي

الألماني الشـــهير « زافير »*، ثم يعودون يستغرقون في قراءتهم ، وقد ازدادوا بقوميتهم زهوا •

غفوت ما يقرب من نصف ساعة ، ثم استيقظت على رعشة قوية • كان لا بد آن أعود الى بيتي حتما • ولكن ، في هذه اللحظة ، وقع بصري على مشهد صامت في المقهى ، منعني من الخروج مرة أخرى • سـبق ان قلت ان العجـوز متى جلس على كرسيه وجه نظره الى ناحيـــة من النواحي لا يحوله عنها أبداً خلال السهرة كلها • وقد اتفق غير مرة ان كنت انا هدف هذه النظرة العنيدة السخيفة التي لا ترى شـيئًا ولا تميز شيئا ، فكنت أشعر بامتعاض شديد لا يحتمل ، وكنت أنتقل الى مكان آخر بأقصى سرعة • أما في هذه اللحظة فان نظرة العجوز قد وقعت على ضحية أخرى ، هي رجل ألماني قصير بدين ، مفرط العناية بهندامه ، ذو ياقة منشاة قاسية ، ووجه أحمر صارخ الحمرة • كان هذا الرجل زبونا عابرا، هو تاجر في ريفا ، اسمه آدم ايفانتش شولتس ، كما عرفت ذلك فيما بعد، وكان صديقا حميما لصاحب المقهى، الا انه لم يكن يعرف العجوز ولا عددا كبيرا من رواد المقهى • كان يقرأ في جريدة دوورفباربير (حلاق القرية)*، ويحتسي كأسه جرعات صغيرة ، حين رفع رأسه فجأة فرأى العجوز يحدق فيه • فشـــده من ذلك واضطرب • ان آدم ايفانتش رجل سريع التأذي شديد الاهتياج ، شأنه في ذلك شأن جميع الألمان « النبلاء » • لقد بدا له غريبا ومهينا أن يتفرس فيه هذا العجوز بمثل هذا الالحاح والبرود وقلة الاكتراث • ولكنه كظم غيظه ، وحول نظره عن هذا الزبون الفج ، ودمدم في لحيته ببضع كلمات ، ثم اختبأ وراء جريدته دون أن يقول شيئا • غير انه لم يستطع أن يظل على هذه الحال ، فما هي الا دقائق حتى ألقى من وراء جريدته نظـرة مرتابة ، فلاحظ تلك النظرة العنيـدة عينهـا وذلك التحديق الأبله نفسه • وسكت آدم ايفانتش هـــذه المرة أيضا ، ولكن

حين حصل هـذا الأمر مرة ثالثة انفجـر غيظه ورأى ان من واجبه أن يدافع عن نبالته ، وأن لا يدع أحدا يسيء أمام حفل من النـاس الى نبيل المدينة الجميلة ، مدينة ريفا ، التي لعله كان يعد نفسه ممثلا لها ، فاذا هو ، في حركة من عيل صبره ، يرمي بجريدته على المنضدة ، بل يضرب المنضدة بعصا الجريدة في قوة ، ويلتهب وجهه كبراً وخيلاء ، وقد احمر من الخمرة والشجاعة جميعا ، ويأخذ يحدق بعينيه الصغيرتين المشتعلتين الى العجوز المثير • من ينظر الى هذين الشخصين ، الألماني وخصمه ، في تلك اللحظة يخيل اليه ان كلا منهما يريد أن يهلك الآخر بما في نظرته من قوة مغناطيسية ، وينتظر أن يضعف خصمه فيخفض بصره • وقد أثار صوت العصا ووضع ايفانتش العجيب ، انتباهَ جميع الحاضرين • فاذا هم يرجئون ما هم فيه من مشـاغل ليراقبوا الخصمين باهتمـام خطير صامت • وأصبح المشهد مضحكا ، الا أن مغناطيسية العينين الصغيرتين المتحديتين ، عيني آدم ايفانتش القرمزي ، لم تؤثرا أي تأثير ، فكان العجوز يتابع تحديقه الجريء في السيد شولتس ، دون أن ينتبه الى شيء ، وكان شولتس يستشيط غيظا حتى ليكاد يجن ، ولم يلاحظ العجوز حتما انه أصبح هدف نظرات جميع الناس • لكأنه في القمر لا في الأرض • وأخيراً نفد صبر آدم ايفانتش ، فانفجر :

صرخ بالألمانية في صوت خشن حاد ، وهيئة مهددة متوعدة :

ـ لماذا تنظر اليَّ هكذا ؟

غير أن خصمه ظل على صمته ، كأنه لم يفهم السؤال ولا سمعه • فقرر آدم ايفانتش أن يتكلم بالروسية :

ـ أسألك لماذا تنظر اليَّ هكذا ؟

قال ذلك وقد زاد سخطه وحنقه ، ثم أردف يقول فجأة :

ـ أنا معروف في البلاط ، بينما انت غير معروف .

ولم تطرف عين العجوز . وركضت بين الألمان ضجة استياء ، حتى سمع موللر نفسه الضجة ، فدخل الى حجرة المقهى ، فلمـا أطلعوه على الأمر ، تراءى له أن العجـوز أصم ، فانحنى عـلى أذنه ، وقال له بأعلى صوته ، وهو يتفرس في عيني هذا الزائر العجيب :

ـ ان السيد شولتس يطلب اليك ان لا تنظر اليه هكذا .

فاذا بالعجوز يلقي نظرة على موللر ، بلا شعور ، ثم اذا بوجهه الذي ظل الى ذلك الحين سـاكنا هادئا يسـفر فجأة عن علائم خـوف وامارات اضطراب قلقة . وأخذ يتحرك ، فانحنى نحو قبعته وهو يئن أنة خافتة ، وأسرع فتناولها ، وتناول عصاه ، ثم نهض يتهيأ لترك القاعة وقد لاحت على فمه ابتسامة حزينة ، هي الابتسامة الذليلة على فم الفقير البائس يُطرد من مكان احتله خطأ . هذه السرعة الطيعة الذليلة التي ظهرت على العجوز البائس المرتعد أثارت الشفقة ، وأثارت ذلك الشعور الذي يجمد القلب في الصدر ، فاذا بالحضور جميعا وعلى رأسهم آدم ايفانتش ينظرون الى الأمر الآن نظرة أخرى . كان واضحا أن العجوز لا يمكن أن يقصـد الاساءة الى أحد ، وانه على العكس يشعر في كل لحظة بأن في وسـع الآخرين أن يطردوه من كل مكان ، طردَ المتسولين .

وكان موللر رجـلا طيبا عطـوفا ، فقال له وهـو يربت على كتفه مواسيا :

ـ لا ، لا ، اجلس . ان السيد شولتش يرجوك أن لا تحدق فيه هذا التحديق . انه رجل معروف في البلاط .

غير ان العجوز البائس لم يزدد فهما للأمر ، بل اشتد اضطرابه ، وانحنى على الأرض يتناول منديله ، وهو منديل أزرق قاتم تملؤه الثقوب،

كان قد سقط من قبعته • وأخذ ينادى كلبه المتمدد على الأرض بلا حراك، كأنه غارق فى نوم عميق ، داساً بوزه بين رجليه • نادى كلبه بصوت هرم يرتجف :

ـ آزور ، آزور

الا ان آزور لم يتحرك •

فكرر العجوز نداءه بلهجة خائفة :

ـ آزور ، آزور •

ثم هز الكلب بعصاه ، ولكن الكلب ظل على وضعه لم يتحرك ، وسقطت العصا من بين يدى العجوز فمال على الأرض ، وجثا على ركبتيه ، وأنهض بيديه رأس آزور • مسكين آزور ! لقد مات : لفظ أنفاسه الأخيرة بلا ضوضاء ولا جلبة بين قدمى سيده ، لفظها عن شيخوخة أو عن جوع ، من يدرى ؟ ونظر اليه العجوز لحظةً فى ذهول ، كأنه لم يفهم أن آزور قد مات • ثم انحنى فى رفق نحو هذا الذى كان خادمه وصديقه ، فوضع وجهه الشاحب على رأسه الساكن • وساد الصمت لحظة من الوقت • ورانت علينا جميعا عاطفة التأثر والحزن • وأخيرا ، نهض البائس ، وقد هرب الدم من جسمه ، مرتعشا كمن انتابته حمى •

فقال موللر الرءوف يريد أن يواسى العجوز :

ـ يمكن أن نحنطه • نعم يمكن أن نحنطه ، ان فيدور كارلوفيتش كروجر يجيد التحنيط •

ثم أضاف مؤكدا ، وهو يتناول العصا من الأرض ويمدها الى العجوز :

ـ ان فيدور كارلوفيتش كروجر فنان عظيم •

فقال السيد كروجر يؤيد هذا الكلام فى تواضع وهو يتقدم الى الأمام :

ـ نعم اننى أجيد التحنيط اجادة عظيمة ٠

والسيد كروجر هـــذا ، ألمانى فاضل ، نحيـل ، مترنح ، أحمر الشعر ، على أنفه المعقوف نظارتان ٠

وأضاف موللر يقول وقد أخذت نظرته تلتهب حماسة :

ـ ان فيدور كارلو فيتش كروجر موهوب فى تحنيط جميع أنواع الحيوانات تحنيطا ممتازاً ٠

فانبرى السيد كروجر يدعم قول صاحبه :

ـ نعم اننى موهوب فى تحنيط جميع أنواع الحيوانات ٠

ثم أضاف يقول فى وثبة من السخاء العظيم :

ـ وسأحنط لك كلبك مجانا ٠

فصرخ ايفانوفتش شولتس بلهجة كاسرة :

ـ لا ، سأدفع لك أنا أجر تحنيط الكلب ٠

قال ذلك وقـد تضاعفت حمـرة وجهه ، والتهب هـو الآخر كرما وسماحة ، وحسب نفسه سبب هذه الكوارث كلها ٠

كان واضحا ان العجوز يصغى الى هذا كله دون أن يفهم شـيئا ، وكان جسمه ما يزال يختلج ويضطرب ٠

وهتف موللر حين رأى الزائر العجيب يريد أن يذهب :

ـ انتظر ! اشرب قدحاً من الكونياك ٠

وقدم له قدح الكونياك فتناول العجوز القدح بلا شعور ، الا أن يديه كانتا تضطربان فما وصل القدح الى شفتيه الا وكان نصف الشراب قد سُفح ، حتى اذا وضع القدح على شفتيه ، عاد فرده الى الطبق دون أن يذوق قطرة واحدة ، ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة لا تتفق وهذا الجو ، وخرج من المقهى بخطى سريعة متقطعة تاركا آزور • ظل جميع الناس واقفين مشدوهين تنطلق من صدورهم صيحات الدهشة والأسف ، ويقول بعضهم لبعض ، بالألمانية ، محملقا :

ـ قصة عجيبة •

وهرعت فى اثر العجوز •

على خطوات من المقهى ، حين تلتفت الى اليمين ، تجد شارعا ضيقا مظلما يزدحم ببيوت ضخمة • ألهمنى قلبى أن العجوز قد دار سائرا فى هذا الشارع الضيق • وكان البيت الثانى من ناحية اليمين فى هذا الشارع بسبيل البناء ، تغطية السقالات ، وكان الحاجز الذى يحف بالبيت يجور على الرصيف ويبلغ وسط الشارع الضيق ، وقد ألصق به رصيف خشبى للمارة • فى ركن قاتم وراء هذا الحاجز وجدت العجوز • كان جالسا على حافة الرصيف وقد وضع رأسه فى كفيه وأسند ذراعيه الى ركبتيه ، فجلست الى جانبه •

قلت وأنا لا أكاد أدرى كيف أبدأ :

ـ لا تحزن على آزور • تعال ، سأوصلك الى بيتك • هدىء روعك• سأمضى على الفور أبحث عن عربة • أين تسكن ؟

ولم يجب العجوز ، ولم أدر ماذا أعمل •

لم يكن فى الشارع مارة • وفجأة أمسك العجوز بيدى ، وقال بصوت أجش ، لا يكاد يدرك :

ـ انني أختنق ، أختنق •

فهتفت وأنا أنهض ، وأنهضه في مشقة وعناء :

ـ ستمضي الآن الى بيتك ، تحتسي قليلا من الشا ىوتنام • سأذهب بك الى بيتك في عربة • هيا حالا • وسأستدعي لك طبيبا ، انني أعـرف طبيبا ••

ولا أتذكر الآن ما الذي قلته أيضا • وأراد أن ينهض ، فتحـامل على نفسه لحظة ، ولكنه ما لبث أن سقط ، وعاد يدمدم بصوت أجش له صفير • فانعطفت لأزداد اقترابا منه ، وأصغيت ، فاذا هو يحشرج :

ـ فاسيلي أوستروف ، الشارع السادس ••• الشارع السادس ••

وصمت •

ـ أتسكن في فاسيلي أوستروف ؟ ولكنك لم تكن ذاهبا الى هناك • والا كان يجب أن تمضي الى الشمال لا الى اليمين • سأذهب بك الى هناك حالا •

ولم يتحرك العجوز ، فتناولت يده ، ولكن اليد سقطت كأنها لا حياة فيها ، فنظرت الى وجهه ولمسته ، فعرفت انه مات • خيّل اليّ ان كل هذه الأمور قد وقعت لي في حلم •

وقد كلفتني هذه المغامرة كثيرا من المتاعب والمساعي • لقد اكتشفت منزل العجوز ، وظهر انه لا يقيم في فاسيلي أوستروف ، وانما يقطن على بعد خطوتين من المكان الذي مات فيه ، في الطابق الخامس تحت السقف من منزل كلوجي ، في مسكن مستقل يشتمل على مدخل صغير ، وحجرة واسعة ، منخفض سقفها ، ذات فجوات ثلاث بمثابة النوافذ • كان يعيش حياة بائسة • كان بيته لا يحتوي من الأثاث الا على منضدة ، وكرسيين ،

« وديوان » عتيق عتيق ، صلب كأنه من حجر ، مهترىء يخرج القش من جميع جوانبه • وحتى هذا « الديوان » كان ملك صاحب البيت • ان الداخل الى هذا البيت يدرك انه ما اشتعلت فيه نار منذ أمد طويل ، ويلاحظ كذلك ان ليس فيه شموع • وأنا الآن مقتنع بأن العجوز ماكان يذهب الى مقهى موللر الا نشدانا للضــوء والدفء • وقد وجـدنا على منضدته ابريقا من الآجر فارغا ، وقطعة من الخبز يابسة ، ولم نجـد في بيته قرشا واحدا ، بل لم نجد لدفنه ملابس غير التى كان يلبسها فاضطر أحدهم أن يتبرع لجثمانه بقميص • كان واضحا انه لا يعيش في وحدة تامة • وان ثمة شخصا كان يأتى اليه ، ولو من حين الى حين ، ووجدنا في درج المنضدة جواز سفر • فلقد كان المتوفى أجنبيا ، الا أنه من الرعايا الروس ، وكان اسمه جرمى سميث ، وكان ميكانيكيا ، وله من العمـر ثمان وسـبعون سنة • ووجـدنا على المنضـدة كتابين : الأول موجـز في الجغرافيا ، والثانى انجيل باللغة الروسية على هامشه اشارات كتبت بالقلم الرصاص • فاشتريت الكتابين • وسـألنا سكان البيت وصاحب البيت عن الرجل فتبين أنهم لا يعرفون من أمره شيئا • وكان البيت يضم عددا كبيرا من السـكان ، كلهم من أصـحاب المهن ومن النسـاء الألمـانيات اللواتى يستخدمن بعض الخدم ويؤجرن فى دورهن غرفاً • ولم يستطع مدير البيت ، وهو من طبقة النبلاء ، أن يقول كذلك الا القليل عن هذا المستأجر القديم • قال انه كان يتقاضى أجر سكنه ستة روبلات في الشهر ، وان المتوفى قد مكث أربعة أشهر ، الا انه فى الشهرين الأخيرين لم يدفـع قرشا واحدا ، فكان لا بد من اخراجه من المنزل • وسألناه هل كان يأتى لزيارته زائر ، فلم يستطع أن يجيب على هذا السؤال اجابة شافية • ذلك أن البيت كان كبيرا والناس يذهبون ويجيئون كثرة ، ولا يمكن أن يتذكر المرء جميع من يجيئون ويذهبون • وكان البواب فى اجازة ببلده • وهو

يقوم بالخدمة في هذا البيت منذ أربع سنين أو خمس ، ولعله كان يمكن أن يوضح لنا بعض الأمور ، الا أنه قد سافر الى بلده منذ خمسة عشر يوما ، وترك ابن أخيه ينوب عنه في عمله ، وهو شاب صغير لمّا يعرف بعدُ نصفَ المستأجرين معرفة شخصية • ولا أدرى على وجه الدقة كيف انتهى هذا التحقيق ، الا اننا أخيرا دفنا العجوز • وكان مما كلفت به نفسي من أعمال ومساع أن ذهبتُ أثناء تلك الأيام الى فاسيلى أوستروف ، الشارع السادس ، وما ضحكت من نفسي الا حين وصلت الى هناك ! ما عسى أن أرى في الشارع السادس غير صفوف من بيوت ؟ ولكنني تساءلت : تُرى لماذا ذكر العجوز ، وهو يموت ، الشارع السادس وفاسيلى أوستروف ؟ أتُراه كان يهذى ؟

وزرت مسكن سميث خاليا فأعجبني ، فحجزته ، ذلك أنه يتوفر فيه شيء هام ، هو ان الغرفة واسعة ، وان كانت واطئة جدا • كان يتراءى لى في الأيام الأولى ان رأسي سيصطدم بالسقف في كل لحظة • الا أنني سرعان ما تعودت • والحق انه ما كان لى أن أجد مسكنا أحسن من هذا المسكن بعشرة روبلات في الشهر • كان يسكرني طربا أن أشعر أنني في بيتي • ولم يبق الا أن أهتم بأمر الخدمة ، ذلك انه كان من المستحيل أن يعيش المرء في هذا المسكن دون أن يخدمه أحد قط ، ووعدني البواب أن يمر بي مرة كل يوم ، في المدة الأولى على الأقل • وقلت لنفسي : من يدري ! فلعل أحداً يأتي مستفسرا عن العجوز • وانقضى على موته مع ذلك خمسة أيام دون أن يأتي أحد •

الفصل الثاني

في ذلك الوقت ، أى منذ سنة تماما ، كنت أساهم فى تحرير بعض الصحف ، وأكتب مقالات قصيرة ، وأومن ايمانا قاطعا بأننى سأتوصل الى كتابة شيء عظيم جميل • وكنت قد شرعت في كتابة رواية كبيرة ••• المهم فى الأمر أن نتيجة ذلك كله هو اننى الآن في المستشفى واننى قد أموت عما قريب • واذا كنت سأموت عما قريب ، فلا معنى لكتابه يوميات •

ولكن هذه السنة الأخيرة الشاقة من حياتى تعود الى ذاكرتى رغم ارادتى بغير انقطاع • وأحب الآن أن أسجل كل شيء ، ولولا اننى خلقت لنفسى هذا الشاغل ، لمتّ ضجرا وسآمة فيما أعتقد • ان تلك المشاعر الماضية تقلقنى الى حد العذاب ، العذاب الكاوى • فاذا جرى بها قلمى على الورق ترتبت وتطامنت وأصبحت أقل شبهاً بالهذيان منها الآن • وان للكتابة نفسها قيمتها ، فهى تهدئنى وتقع برداً وسلاماً على قلبى ، وتوقظ عاداتى القديمة ، عادات الكاتب ، وتوجه ذكرياتى وأحلامى نحو العمل ، نحو الفعل ••• أجل ، انها لفكرة حسنة هذه الفكرة •• ثم اننى أستطيع أن أورث هذه الأوراق للخادم : انه على الأقل سيلصقها حول النوافذ حين يضع أطر الشتاء •

لقد بدأت قصتى من منتصفها ، لا أدرى لماذا ! واذا كنت أريد حقا

أن أكتب ، فينبغي أن أبدأ من البداية • فهيا بنا الى البداية • ان قصة حياتي التي سأرويها لن تكون طويلة على كل حال •

لم أولد هنا ، وانما ولدت في مقاطعة ن ••• البعيدة • يجب أن نفترض ان أهلي كانوا أناسا محترمين ، الا انهم تركوني يتيما منذ الطفولة، فنشأت في بيت نيقولا سرجتش اخمنيف ، وهو رجل من صغار الملاكين ، كفلني بدافع الشفقة ، ولم يكن له من الأولاد الا ابنة وحيدة ، هي ناتاشا، تصغرني بثلاث سنين • فنشأنا معا كما ينشأ اخوان • آه ياطفولتي العزيزة! ما أبله ان أتحسر عليك وأنا فيالخامسة والعشرين من العمر ، وألا أحتفظ منك قبيل موتي الا بذكرى تفيض حماسة وحرارة واحتراما ! كانت الشمس في تلك الأيام مشرقة متألقة ، تختلف عن شمس بطرسبرج ، وكانت قلوبنا الصغيرة تخفق بكثير من الحمية والنشوة والفرح ! وفي تلك الأيام كانت تحيط بنا ، من حولنا ، حقول وغابات ، لا كتل من أحجار ميتة كالتي تحيط بنا اليوم • ما أجمل حديقة فاسيلوفسكوئي التي كان نيقولا سرجتش مديرها • في تلك الحديقة كنا نتنزه ، أنا وناتاشا ؛ وكانت هناك ، بعد الحديقة ، غابة كبيرة رطبة ، تهنا فيها ذات يوم من أيام الطفولة ••• ما أجمل ذلك العهد ! ما أروعه ! كانت الحياة تكشف لنا عن نفسها لأول مرة، فتانة ساحرة ، وكانتروحنا تمتلىء نشوة بمعرفتها! لكأن وراء كل شجرة ، وكل دغل ، كائنا يحيا حياة مجهولة • كان هذا العالم الخيالي يختلط في ذهننا بالعالم الواقعي • حتى اذا تكاثف ضباب المساء في الوديان العميقة ، وعلق الأدغال خصلات بيضاء كالسبائخ ، والتصق بأغوار وادينا الكبير ، كنا ، أنا وناتاشا ، نلقي على الوهدة نظرات مستطلعة خائفة ، وقد أمسك كل منا بيد الآخر ، نتوقع أن ينبجس منه أحد على حين غرة ، ينادينا من قلب الضباب في قرارة الوادي ؛ وكانت حكايات خادمنا العجوز تصبح في نظرنا هي الحقيقة عينها • في ذات مرة ،

بعد مدة طويلة من ذلك ، تذكرت ناتاشا اننا وجدنا فى أحد الأيام كتاب « قراءة الطفل » ، فهربنا فورا الى الحديقة من ناحية الغدير ، وجلسنا على مقعدنا المفضل الذى كان يقع تحت شجرة كثيفة من أشجار الجميز ، وبدأنا هنالك نقرأ أسطورة « الفونس ودالند »* . حتى الآن لا أستطيع أن أتذكّر تلك الحكاية دون أن تقوم فى نفسى ثورة داخلية غريبة . وحين ذكّرتُ ناتاشا ، بعد ذلك بسنين ، بالسطرين الأولين من هذه الحكاية : « ولد الفونس ، بطل القصة ، فى البرتغال ، أما أبوه دون رامير ... » الخ ، كدت أنفجر باكيا . لا شك أن ذلك بدا مضحكا الى أبعد الحدود ، ولعل هذا هو الذى جعل ناتاشا تبتسم لحماستى تلك ابتسامة غريبة جدا . على أن ناتاشا ما لبثت أن آبت الى نفسها (أذكر ذلك) وأخذت هى ذاتها تذكرنى بالماضى رجاة أن تواسينى ، حتى انها شعرت بالتأثر هى الأخرى . كانت ليلة رائعة ! واليوم الذى أرسلت فيه الى مدرسة داخلية فى مركز المقاطعة (يا الهى ما أكثر مابكيت فى ذلك اليوم !) ثم فراقنا الأخير ، يوم ودعت فاسيليفسكوئى الوداع الأخير ! كنت قد أنهيت دراستى فى المدرسة الداخلية ، وكنت ذاهبا الى بطرسبرج لأدخل الجامعة . كنت يومئذ فى السابعة عشرة من عمرى ، وكانت هى فى الخامسة عشرة . تقول ناتاشا اننى كنت يومئذ من الخراقة بحيث لا يسع من يرانى الا أن يضحك . وفى لحظة الوداع ، مضيت بها الى ركن بعيد ، لأفضى اليها بأمر خطير الى أقصى حدود الخطورة . الا أن لسانى جمد على حين غرة وخرس ، واعترانى ارتباك . انها تتذكر أننى كنت فى اضطراب عظيم . واضح أن الحديث لم يبدأ . كنت لا أدرى ماذا أقول ، ولعلها ما كان لها أن تفهم ما أقول لو قلت شيئا . وأخذت أبكى بكاء مراً ، وذهبت دون أن أنبس بكلمة . ولم نلتق مرة أخرى الا بعد ذلك بمدة طويلة ، فى بطرسبرج . فمنذ سنتين جاء اخمينيف العجوز الى بطرسبرج لبعض أمره ، وكنت قد سرت فى طريق الأدب منذ قليل .

الفصل الثالث

كان نيقولا سرجتش اخمينف سليل عائلة نبيلة ، انهارت منذ زمن طويل ، ولكنه ورث عن أبويه أرضا واسعة ، ومائة وخمسين نفسا • وفي الحادية والعشرين من عمره انتمى الى سلاح الفرسان •

كانت حياته تسير على أحسن حال ، الى أن اتفق في ذات مساء شقي ، بعد ست سنين من الخدمة ، أن فقد في القمار كل ما يملك • فلم يجد سبيلا الى النوم في ليلته تلك كلها • وفي مساء غد ، ظهر مرة أخرى في قاعة اللعب ، وقامر على حصانه ، وهو آخر شيء بقي له ، فربح ، وما فتيء يراهن مرة بعد مرة حتى استرد ، بعد نصف ساعة ، احدى قراه ، وهي قرية صغيرة تدعى اخمنيفكا ، عدد سكانها خمسون نسمة في الاحصاء الأخير ؛ فلما ربح هذه القرية توقف عن اللعب ، حتى اذا جاء الغد ، طلب احالته على المعاش ، وهكذا فقد مائة نفس بلا رجعة • وبعد شهرين أحيل على المعاش برتبة ملازم أول ، فمضى الى قريته الصغيرة ، ولم يتحدث منذ ذلك اليوم خلال حياته كلها عن تلك الخسارة التي مني بها في اللعب ، وكان قادرا رغم ما عرف عنه من طيب القلب أن يتشاجر مع كل من تسول له نفسه التحدث عن تلك الخسارة • وفي قريته انصرف الى ادارة أملاكه في همة ونشاط ، حتى اذا بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، تزوج فتاة نبيلة فقيرة ، هي آنا آندريفنا خوميلوف التي لم تكن تملك أية بائنة ،

ولكنها تلقت تعليمها فى مدرسة نبيلة بمركز المقاطعة ، هى مدرسة مون روفيش ، وكانت تتباهى طوال حياتها بأنها تربّت فى تلك المدرسة، رغم انه ما كان لأحد أن يعرف ماذا كانت تلك التربية على وجه الدقة . وبرهن نيقولا سرجتش على انه مدير ممتاز، فكان المالكون من جيرانه يتعلمون منه كيف تدار الاملاك . وكانت قد انقضت على ذلك سنون عديدة ، حين وصل من بطرسبرج فجأة ، الى الأرض المجاورة لارضه ، الى قرية فاسيليفسكونى التى يبلغ عدد سكانها تسعمائة نسمة، صاحبُها الاميربطرس الكسندروفتش فاسيليفسكى، فأثار وصوله جلبة كبيرة فى جميع الاراضى المجاورة . كان الأمير ما يزال شابا وان لم يكن فى ريعان الشباب . وكان فى رتبة عالية ، وكان على صلات بالمقامات العليا ، وكان رجلا جميلا ، وغنيا ، وكان بعد هذا كله أرمل ، وهذا أمر يهم سيدات المنطقة وفتياتها كثيرا من غير شك . وتناقل الناس حديث الحفاوة البالغة التى استقبله بها حاكم المنطقة ، وهو يمت اليه ببعض القربى ، وقالوا « انه من لطفه ورقته قد التفت يحيى جميع سيدات القرية » الخ الخ. وصفوة القول ان الآمير كان من ألمع شخصيات المجتمع الراقى فى بطرسبرج ، هذه الشخصيات التى قلما تظهر فى الاقاليم ، والتى اذا جاءت الى الأقاليم ، أحدث مجيئها جلبة وكثيرا من الاهتمام. على ان الامير لم يكن فى الواقع لطيفا رقيق الحاشية ، ولا سيما مع أولئك الذين ليس فى حاجة اليهم، والذين يرى انهم دونه ولو بقليل ؛ حتى انه لم يتنازل أن يتعرف الى جيرانه من الملاكين، وسرعان ما نشأ عن ذلك أن أصبح له أعداء كثيرون. وما أشد ما دهش الناس حين عنّ له فجأة أن يزور نيقولا سرجتش. والواقع ان نيقولا سرجتش هو من أقرب جيرانه اليه. استُقبل الأمير فى منزل اخمنيف استقبالا حافلا ، وافتتن به الزوجان كلاهما ، وخاصة آنا آندريفنا التى تحمست لزيارته كثيرا . وما هى الا مدة يسيرة حتى أصبح الأمير من أصدقائهما الحميمين،

فكان يأتى لزيارتهما كلّ يوم ، ويدعوهما الى منزله ، ويروى لهما النوادر والملح ، ويعزف على البيانو السيء الذى يملكانه. ودهش الزوجان اشد الدهشه : كيف يمكن أن يقال عن رجل مثله رقيق الحاشية لطيف محبب انه صلف متعجـرف قاس أنانى ، كما كان يجمـــع على ادعاء ذلك كل الجيران ؟ يجب أن نعتقـــد على كل حال ان الامير قد استلطف نيقـولا سرجتش ، هذا الرجل الغر البسيط المستقيم النزيه النبيل . ثم ان كل شيء قد اتضح بعد ذلك . لقد جاء الأمير الى فاسيليفسكوئى لكى يطرد وكيله ، وهو رجل ألمانى مستهتر ، طماع ، صاحب نظريات فى الزراعة ، وشعر أبيض جليل محترم، ونظارتين، وانف أقنى، ولكنه رغم كل هذه المزايا كان يسرق بلا حياء ولا اعتدال، وكان فوق ذلك قد قتل بالجلد عدة فلاحين . وقد عرف ايفان كارلوفتش أخيرا على حقيقته ، فأخذ يتعاظم ويتحدث عن الأمانة الألمانية ، ومع ذلك لم يسع الأمير الا أن يطـرده ، بل لقد طرده شر طردة . وكان الامير فى حاجة الى وكيل ، فوقع اختياره على نيقولا سرجتش ، وهو مدير ممتاز ، وأشرف الناس طراً ، ما فى ذلك شك . ولعل الامير كان يتمنى كثيراً أن يتقدم نيقولا سرجتش من تلقاء نفسه ، يقترح أن يكون مديرا لأملاك الأمير . الا ان هذا لم يقع . وفى ذات صباح تقدم الامير بهذا العرض ، فى كثير من الاحترام والمودة . فرفض اخمنيف فى أول الامر ، الا أن ضخامة الراتب قد أغرت آنا آندريفنا ، كما ان الامير قد ضاعف لطفه ورقته وتودده ، فبدد ذلك تردد أخمنيف ، وبلغ الامير هدفه . يجب أن نعتقد ان الامير يعـــرف الناس خير معرفة . وقد أدرك حق الادراك ، خلال هذه الفترة القصـيرة التى انعقدت فيها الصلات بينه وبين أسرة اخمنيف ، انه ازاء رجل ممتاز ، وفهم أن عليه أن يستميل اخمنيف بمظاهر المودة والصداقة ، وأن يشده اليه من القلب ، والا فليس للمال من وزن لدى اخمنيف . ثم ان الامير فى

حاجة الى وكيل يستطيع أن يثق به ثقة عمياء وأن يطمئن اليه اطمئنانا مطلقا الى الأبد ، حتى لا يحتاج الى وضع قدميه مرة أخرى فى فاسيلفسكوئى ، فعلى هذا انعقدت نيته • وقد بلغ من افتتان اخمنيف به أن هذا الأخير قد آمن حقا بصداقته • ان نيقولا سرجتش واحد من أولئك الرجال الممتازين ، الحالمين ، السذج ، الذين تعج بهم بلادنا ، روسيا ، أولئك الرجال الطيبين الذين متى أحبوا أحداً (يعلم الله لماذا) محضوه الحب خالصا ونذروا أنفسهم له ، ومضوا فى تعلقهم به أحيانا الى حد يبعث على الضحك •

وانقضت على ذلك سنون • وازدهرت أملاك الأمير ازدهارا عظيما • وظلت علاقات المالك بوكيله صافية لم يعكرها أحد من الطرفين ، ولكنها كانت تقتصر على مراسلات عادية جافة تتعلق بالاعمال • وكان الامير لا يتدخل فى أمور الادارة التى تولاها نيقولا سرجتش ، غير أنه كان يسدي اليه أحيانا ببعض النصائح ، فكانت هذه النصائح تلقى من نيقولا سرجتش الدهشة والاعجاب ، لما تشتمل عليه من روح عملية واقعية • كان واضحا أن الامير لا يكره النفقات الكثيرة فحسب ، بل يعرف كذلك كيف يحصل المال ، ويعرف من أين تؤكل الكتف • وبعد خمس سنين أو ست من زيارته فاسيلفسكوئى أرسل الى نيقولا سرجتش وكالة تخوله شراء أرض ممتازة من هذه المنطقة نفسها ، يسكنها أربعمائة نفس • وطار لب نيقولا سرجتش فرحاً • لقد كان يتابع نجاح الامير وتقدمه كأنه أخوه• الا أن فرحته بلغت أقصاها حين بعث اليه الأمير ذات يوم ببرهان جديد رائع على ثقته به ، واليكم كيف تم ذلك ••• غير اننى أرى أنه لا مندوحة لى من ذكر بعض خصائص حياة هذا الامير فالكوفسكى ، الذى هو احدى الشخصيات الرئيسية فى قصتى هذه :

الفصل الرابع

سبق أن قلت انه أرمل . كان قد تزوج في ريعان شبابه ، وكان زواجه قائما على الطمع في المال . لم يكن قد ورث عن أبويه اللذين فقدا كل ثروتهما في موسكو ، أي شيء تقريبا وكانت فاسيلفسكوئى قد حجزت . وكان الامير مديناً بأموال طائلة . وفي الثانية والعشرين من عمره ، اضطر الى العمل في احدى الوزارات بموسكو ، وكان لا يملك شروى نقير ، فدخل الحياة أشبه « بشحاذ سليل أسرة عريقة » ، الا انه تزوج بابنة أحد تجار الخمور ، وهي ابنة متقدمة في السن ، فأنقذه زواجه هذا مما كان فيه من فقر وعوز . وقد خدعه حموه في أمر البائنة ، ومع ذلك استطاع بفضل مال امرأته أن يسترد أرض أسرته وأن يعيدها الى حالها . وكانت ابنة البائع هذه التي كتب عليه أن يتزوجها لا تكاد تعرف الكتابة ، ولا تجيد أن تضم كلمتين احديهما الى الأخرى ، وكانت دميمة ، وكانت لا تملك الا مزية هامة واحدة ، هي انها طيبة القلب مطواعة . وقد استغل الامير هذه المزية أحسن استغلال . وترك الامير زوجته بعد سنة من زواجهما ، وكانت قد أنجبت له ولداً ، تركها هي والولد لأبيه بموسكو ، وسافر هو يعمل في مقاطعة س ... حيث استطاع بالمكائد والمؤامرات ، وبفضل قريب له شهير ببطر سبرج ، أن يحصل على وظيفة مرموقه . كانت نفسه ظمأى الى المنزلة العالية والتقدم والحياة الراقية ، واذ أدرك أنه لا يستطيع أن يعيش

مع امرأته فى بطرسبرج أو فى موسكو ، قرر أن يبدأ فى الأقاليم ، بانتظار أن يحقق ما هو أحسن من ذلك . ويقال انه منذ السنة الأولى من حياته مع امرأته كاد يقتلها بغلاظته وفظاظته . وكانت هذه الشائعة تثير حنق نيقولا سرجتش دائما ، فكان يدافع عن الامير فى حرارة وحماسة ، مؤكدا ان الامير لا يمكن ان يقترف أمرا شائنا . وبعد سبع سنين أو ثمان ماتت الاميرة ، فما لبث زوجها الذى ظل ارمل ، ان مضى يقيم فى بطرسبرج . وحتى فى بطرسبرج كان ظهوره امرا يثير الانتباه . انه ما يزال شابا ، وهو وسيم الطلعة ، ثرى ، أوتى مزايا بارعة ، وذكاء لا ينكر ، وذوقا ، ومرحا لا ينضب معينه ، وكان يبدو انه لا ينشد السعادة ولا الحماية ، وانما يطلب الدعة والاستقلال . وتحدث عنه جميع الناس فقالوا ان فيه ما يفتن ويسحر ويسيطر . واعجبت به النساء ايما اعجاب ، وانعقدت بينه وبين احدى ربات الجمال فى المجتمع الراقى علاقة افتضح امرها ، فزاده ذلك نجاحا مع السيدات . وكان يبذل المال سخيا ، رغم احساسه القوى الفطرى بالاقتصاد الذى يبلغ احيانا حد البخل ، وكان يخسر أموالا طائلة على موائد القمار حين يجب ذلك ، دون ان يتحرك حاجباه بتقطيب يسير . الا انه لم يأت الى بطرسبرج نشدانا للهو ، وانما كان عليه ان يسير فى طريقه ، وان يعزز مركزه . وتوصل الامير الى اهدافه . ان الكونت نايتسكى ، قريبه الشهير ، الذى ما كان ليلتفت اليه لو قد جاء الى بطرسبرج رجلا عاديا ، قد اذهله ما احرز من نجاح فى المجتمع ، فرأى ان من الممكن ومن الضرورى ان يلتفت اليه التفاتا خاصا ، حتى لقد رضى ان يأخذ الى بيته ابنه الصغير الذى يبلغ من العمر سبع سنين ، ليتولى تربيته . وفى هذه الفترة انما تقع رحلة الامير الى فاسيلفسكوئى ، وصداقته مع اسرة اخمنيف . وحصل أخيرا بواسطة الكونت على وظيفة هامة فى احدى كبريات سفاراتنا ، فسافر الى الخارج.

وبعد ذلك اصبحت الشائعات التى سارت بين الناس بصدده غامضة بعض الغموض : قيل فيما قيل انه قد وقعت له فى الخـــارج مغامرة مزعجة ، ولكن لم يستطع احد ان يعرف شيئا عن حقيقة هذه المغامرة • ولم يعرف الناس الا انه استطاع ان يزيد املاكه اربعمائة نفس ، كما اشرت الى ذلك فيما سبق • ثم لم يعد من الخارج الا بعد عدة سنين ، وكانت رتبته قد علت ، وعين فورا لوظيفة هامة فى بطر سبرج • وقال الناس فى اخمنيفكا انه على وشك الزواج بفتاة من اسرة عريقة غنية شهيرة • وقال نيقولا سرجتش وهو يفرك يديه سرورا : « هذا سيد عظيم » • وكنت ايامئذ فى الجامعة ببطرسبرج ، وأذكر ان اخمنيف كتب الىَّ ذات يوم يطلب منى ان افهم هل لهذه الشائعة ما يبررها ، وكتب الى الامير يســأله ان يشملنى بحمايته ورعايته ، الا ان الامير لم يجبه على رسالته • ولم استطع الا أن اعلم ان ابن الامير الذى تربى اولا فى منزل الكونت ، ثم فى المدرســـة الثانوية ، قد اتى الى بطرسبرج يتم دراسته فى العلوم ، وهو فى الثامنة عشرة من عمره • فكتبت الى اخمنيف فى ذلك وذكرت له ان الامير يحب ابنه كثيرا ، ويحيطه بجميع ضروب العناية والتدليل ، ويفكر فى مستقبله منذ الآن • وكنت قد علمت ذلك كله من الطلاب رفاق الامير الشاب • وفى تلك البرهة انمــا تلقى نيقــولا سرجتش من الأمير ، ذات صباح ، رسالة صعقته من الدهشة •

ان الامير الذى اقتصر حتى ذلك الحين فى علاقاته بنيقولا سرجتش على مراسلات جافة تتعلق بالأعمال ، كما اشرت الى ذلك من قبل ، يصف له الآن فى رسالته تلك حياته العائلية تفصيلا ، بلهجة ودية لا تحفظ فيها ولا كلفة • انه يشتكى من ابنه ، ويقول ان سلوكه السىء يحز فى نفسه ، وانه وان كان لا ينبغى ان نسرف فى النظر الى طيش طفل مثله نظـــرة الجد والاسى (كان واضحا انه يحاول ان يبرئه) ، قد قرر ان يرسله الى

الريف يقضى فترة من الوقت تحت اشراف اخمنيف • وقال الأمير فى رسالته انه « يعتمد اعتمادا كاملا على صديقه الممتاز النبيل نيقولا سرجتش، وعلى آنا اندريفنا بوجه خاص » ، فهو يرجوهما ان يقبلا ولده الطائش فى بيتهما ، وان يرداه الى الصواب فى العزلة ، وأن يصلحا من طبعه العابث خاصة ، « وان يبثا فيه المبادىء السليمة القاسية ، هذه المبادىء التى لا غنى عنها فى الحياة » • وبديهى ان اخمنيف العجوز قد قبل هذه المهمة بفرح عظيم • وصل الامير الشاب ، فاستقبلته اسرة اخمنيف كأنه ابنها • وما هى الا برهة قصيرة حتى احبه نيقولا سرجتش حبا جامحا شديدا كما كان يحب ابنته ناتاشا • وحتى بعد القطيعة النهائية التى وقعت بين الامير واسرة اخمنيف ظل العجوز يتحدث احيانا فى صفاء ومرح عن أليوشا ، وهو الاسم الذى تعود ان ينادى به الامير الصغير الكسى بتروفتش • والحق ان الامير الصغير كان فتى رائعا : كان فتى جميلا ، ضعيفا ، عصبيا كامرأة ، ولكنه مرح بسيط ، اوتى نفسا كريمة قادرة على الاحساس بانبل المشاعر ، وقلبا محبا مستقيما يعرف الجميل • وقد اصبح معبود اسرة اخمنيف ، وكان لا يزال طفلا رغم أنه فى الثامنة عشرة من عمره • كان من الصعب على المرء ان يتصور الاسباب التى حملت اباه على ابعاده هذا الابعاد ، رغم انه يحبه كثيرا فيما يقولون • وقيل فيما قيل ان الفتى كان يعيش فى بطرسبرج حياة فراغ وطيش ، وانه كان لا يحب ان يعمل ، وانه كان لذلك يؤلم والده اشد الايلام• ولم يتجه نيقولا سرجتش الى اليوشا بسؤال ، لان الامير بطرس الكسندروفتش قد اخفى فى رسالته السبب الذى حمله على ابعاد ولده • وتحدث الناس كذلك عن حماقة لا تغتفر ارتكبها اليوشا ، عن علاقة له بسيدة ، وعن دعوة الى مبارزة ، وعن خسارة فادحة فى القمار • بل لقد المعوا الى اموال اؤتمن عليها فأنفقها • وسرت كذلك شائعة تقول ان الامير قرر ابعاد ابنه لا لخطيئة

ارتكبها الابن ، بل لأنانية فى نفس الاب • وكان نقيولا سرجتش يدفع هذه الشائعات فى قوة ، ويستاء منها أشد الاستياء ، لا سيما وانه لاحظ أن أليوشا يحب أباه حبا لا حدود له ، ويتحدث عنه فى كثير من الحماسة والحميا ، وكان واضحا أن الابن خاضع لتأثير ابيه خضوعا تاماً • وكان اليوشا يشير فى بعض الأحيان الى كونتيسة غازلها هو وأبوه فى آن واحد، والى انه غلب أباه ، فغضب أبوه غضبا شديدا : كان يروى هذه الحادثة دائما فى ضحكة مرحة ذات رنين • الا أن نيقولا سرجتش سرعان ماكان يوقفه عن الكلام • وكان ألكسى يؤيد كذلك الشائعة القائلة ان أباه يحب أن يتزوج مرة أخرى •

انقضى على الابن فى منفاه ما يقرب من سنة • وكان يبعث الى أبيه، فى مواعيد محددة ، برسائل متزنة رصينة ، وبلغ من تآلفه أخيرا مع فاسيلفسكوئى انه حين أتى أبوه الى الريف فى الصيف (وكان قد اخبر بذلك أسرة اخمنيف مقدما) طلب اليه هو نفسه ان يسمح له بالبقاء أطول مدة ممكنة فى فاسيلفسكوئى ، مؤكدا ان الحياة بالريف هى الحياة التى تناسبه • كانت قرارات اليوشا تصدر كلها عن فرط حساسيته العصبية ، وعن قلبه الحار العنيف ، وعن خفته التى تبلغ أحيانا حداً غريباً ، وعن استعداده النادر للتأثر بأى مؤثر ، وعن فقدان الارادة فقدانا تاما • ونظر الامير الى طلبه هذا نظرة ارتياب •• ومهما يكن من أمر ، فان نيقولا سرجتش قد أنكر «صديقه» القديم : لقد تغير الامير بطرس الكسندروفتش تغيرا هائلا • وأصبح يشاكس نيقولا سرجتش ويعانده معاندة شديدة على حين فجأة • ويوم راجع حساب الارض أظهر شراهة كريهة وبخلا شنيعا وريبة لا تفهم • وقد أحزن ذلك اخمنيف الممتاز الى أعماق نفسه ، وظل مدة طويلة يحاول ان لا يصدق عينيه • لقد جرى كل شىء فى هذه المرة على خلاف ما جرى فى المرة الاولى حين زار الامير فاسيلفسكوئى منذ

أربع عشرة سنة • وقد حرص الامير على ان يتعرف الى جميع الجيران ، من ذوى المكانة طبعا • ولكنه أصبح لا يذهب لزيارة نيقولا سرجتش ، وأصبح يعامله معاملة رئيس لمرءوس ، وفجأة وقع حادث لا يُفهم : وقعت قطيعة عنيفة بين الامير ونيقولا سرجتش ، ليس لها سبب ظاهر • وصار الناس يسمعون من كلا الطرفين شتائم فى حق الآخر • واستاء اخنيف استياء شديدا فترك فاسيلفسكوئى ، الا ان الامر لم يقف عند هذا الحد ، اذ انتشرت في جميع ضواحى المنطقة ، على حين غرة ، وشايات مشينة • قالوا فيما قالوا ان نيقولا سرجتش ، وقد عرف طبع الامير الصغير ، حاول ان يستغل جميع عيوبه لمصلحته ، وان ابنته ناتاشا (وكانت فى السابعة عشرة من عمرها) عرفت كيف توقع الفتى فى حبائل حبها ، وان الاب والام يرعيان هذا الحب ، وان تظاهرا بأنهما لا يلاحظان شيئا ، وان ناتاشا، هذه الفتاة الماكرة التى « لا خلاق لها » ، قد سحرت لب الفتى تماما ، وبلغت من تأثيرها فيه أنه ظل سنة كاملة لا يكاد يرى اية فتاة من الفتيات النبيلات ، صادقات النبالة ، اللواتى تعج بهن البيوت الشريفة فى الاراضى المجاورة • وقالوا ان العشيقين قد عزما أمرهما على الزواج ، فى قرية جريجوريفو الواقعة على بعد خمسة عشر فرسخا من فاسيليفسكوئى ، على غير علم من أبوى ناتاشا ، فى الظاهر ، وعلى علم منهما فى الواقع ، فهما يعرفان تفاصيل الامر ، وهما اللذان دربا ابنتهما وقادا خطواتها الى ذاك • وصفوة القول : ما من كتاب برمته يمكن أن يستوعب كل ما لفقه الثرثارون من الجنسين فى المنطقة بهذا الصدد • ولكن الاعجب من هذا كله ان الامير صدق هذا الكلام ، حتى لقد جاء الى فاسيلفسكوئى لهذا الغرض ، على اثر وشاية بعث بها صاحبها الى الامير فى رسالة لم يذيلها بتوقيعه • وبديهى أنه ما كان لا حد يعرف نيقولا سرجتش ولو قليلا ، ان يصدق كلمة واحدة من هذه الاتهامات التى الصقت به ، ومع ذلك

فان جميع الناس قد اضطربوا ، وثرثروا ، ونقدوا ، وهزوا الرءوس •• وأدانوه ادانة قاطعة • وكان اخمينف أصلف من ان يبرىء ابنته أمام المرجفين • منع امرأته منعا باتا من الدخول مع الجيران فى أية مناقشة أو توضيح • أما ناتاشا التى قالوا فى حقها هذه الأقاويل كلها فانها حتى بعد انقضاء سنة كاملة على ذلك لم تعرف من أمر هذه الاقاويل شيئا ، فقد كتموا عنها هذه القصة فى كثير من الحذر ، فكانت خلال ذلك كله مرحة بريئة ، كطفلة فى الثانية عشرة من العمر •

وفى اثناء ذلك كانت الخصومة تتفاقم • ولم يهدأ روع السعاة • حتى لقد ظهر واشون وشهود استطاعوا ان يقنعوا الامير بأن هذه الادارة الطويلة التى تولاها نيقولا سرجتش لم تكن مثال الامانة والنزاهة • بل زعموا أكثر من ذلك : قالوا ان نيقولا سرجتش قد أخفى عن الأمير ، منذ ثلاث سنين ، أثناء بيع غابة صغيرة ، اثنى عشر ألف روبل فضة ، وانهم يستطيعون ان يثبتوا ذلك اثباتا واضحا شرعيا أمام القاضى ، لا سيما وان بيع هذه الغابة قد تم بدون وكالة من الامير ، وان نيقولا قد تصرف فى هذا الامر على هواه ، وانه لم يقنع الامير بضرورة البيع الا بعد انقضاء مدة على البيع ، وانه دفع للامير ، ثمنا للغابة ، مبلغا يقل كثيرا عن المبلغ الذى تقاضاه فعلا • وواضح أن هذا كله كان محض افتراء ، وقد ثبت ذلك فيما بعد ، غير أن الامير قد صدق كل شيء ، ونعت نيقولا سرجتش على رءوس الأشهاد بأنه لص • ولم يحتمل اخمنيف هذه الشتيمة ، فرد عليها بمثلها • وتبع ذلك شجار فظيع • واقيمت الدعوى على الفور • وسرعان ما خسر نيقولا سرجتش الدعوى ، اذ اعوزته بعض الوثائق ، ولأنه ما من أحد يحميه ، وما من سابق خبرة له فيما ينبغى عمله فى مثل هذه الشئون • وحُجزت أملاكه • جن جنون العجوز • فترك كل شيء ،

وقرر ان يقيم فى بطرسبرج ليلاحق قضيته بنفسه تاركا فى الريف رجلا مجربا يثق به • ولعل الامير أدرك انه قد اساء الى الرجل فى غير حق • غير أن الاهانة التى وجهها كل من الطرفين الى الآخر كانت فادحه جدا ، حتى لم يبق محل لصلح • وقد بذل الامير الحانق قصاراه ليحول الدعوى فى الوجهة التى تتفق ومصلحته ، أى حاول جهده ان يغتصب من وكيله السابق آخر لقمة يسد بها رمقه •

الفصل الخامس

إذاً لقد أتت أسرة اخمنيف الى بطرسبرج تستقر فيها • ولن أصف لقائى مع ناتاشا بعد طول البعاد • حسبى أن أذكر انها خلال هذه السنين الاربع لم تبرح مخيلتى قط • صحيح اننى لا أتذكر على وجه الدقة العاطفة التى كانت تقوم فى نفسى حين كنت أفكر فيها ، غير اننى سرعان ما أدركت حين لقيتها ان القدر قد وعدنى بها ، وفى أول الأمر ، فى الأيام التى أعقبت وصولها ، تراءى لى أنها لم تكبر خلال هذه السنين ، لكأنها ما تغيرت أبدا ، لكأنها ما تزال تلك الطفلة الصغيرة التى عرفتها • الا اننى بعد ذلك كنت أكتشف لديها فى كل يوم صفة جديدة أجهلها ، صفة جديدة كأنها أخفيت عنى على قصد ، وما كان أسعدنى بهذا الاكتشاف! وكان العجوز فى المدة الاولى من اقامته ببطرسبرج عصبيا مضطربا عنيفا • كانت قضيته تسير سيرا سيئا : فكان يتألم ويحنق ويخرج عن طوره ولا ينى ينظر فى أوراقه وملفاته ، لا يتسع وقته للالتفات الينا • أما آنا آندريفنا فكانت كمن طاش صوابه ، وكانت فى أول الأمر لا همّ لها الا التفكير • وكانت بطرسبرج تخيفها • فكانت تتأوه وترتجف وتبكى حسرة على حياتها السابقة ، وعلى اخمنيفكا ، وعلى أن ناتاشا فى سن الزواج وليس هناك من يفكر فيها ، وكانت تسترسل فى الافضاء الىّ لعدم وجود سامع آخر أخلق منى بهذه المسارات الحميمة •

وفى تلك اللحظة على وجه الدقة ، اى بعد وصولهم بمدة قليلة ،

كنت قد فرغت من كتابة روايتي الاولى التي استهللت بها حياتي الادبية . وكنت في حيرة من أمري لا أدري كيف أصرّف الرواية • ولم أكن قد تحدثت عنها الى اسرة اخمنيف . وكانوا قد انبوني على انى اعيش بغير عمل ، لا التحق بخدمة ولا احاول ان اجد وظيفة • وكان العجوز يوجه اليّ نقدا مرا لاذعا ؛ يفعل ذلك طبعا بدافع ما يحمل لى فى نفسه من حب الاب لابنه . وكنت من جهتي استحى ان احدثهم عن العمل الذى اقوم به • ثم كيف أبلغهم وجها لوجه اننى\لا أنوى أن أجد وظيفة بل أحب ان اكتب روايات ؟ لهذا كذبت عليهم حتى ذلك الحين ، فزعمت اننى لم اجد عمـلا ، واننى بصـــدد البحث عن عمل . ولم يكن وقت نيقولا سرجتش بمتسع للتحقيق فى صدق هذه المزاعم . واذكر ان ناتاشا التى كانت تستمع الى احاديثنا جرتنى ذات يوم الى ركن منعزل ، وقد لاح فى وجهها معنى غريب • وتضرعت اليّ باكية أن أفكر فى مستقبلى ، ثم طرحت عليّ بعض الأسئلة ، محاولة أن تعرف ماذا أعمل علىوجه الدقة، ولكننى لم افض اليها بشيء ، فحملتنى على ان اعاهدها ان لا اضيع نفسى فى حياة الفراغ والكسل . صحيح انه ما كان لى ان اعترف لها بمشاغلى • ولكننى اذكر اننى كنت أوثر على جميع ما قاله النقـــاد فى روايتى من تقريظ عظيم ، وعلى جميع المديح الذى سمعته بعد ذلك ، كنت اوثر على هذا كله كلمة واحدة من التشجيع تخرج من بين شفتى ناتاشا • وظهرت روايتى اخيرا . وكانت قد احدثت ضجة فى عالم الادب قبل ان تظهر بمدة طويلة . ما كان اشد فرحة ب ••• حين قرأها مخطوطة •• لقد فرح كطفل • اما انا فان سعادتى لم تشرق فى تلك الدقائق الاولى المسكرة التى ترافق النجاح ، بل حين لم اكن قد قرأت الرواية لأحد ولا عرضتها على احد : فى تلك الليالى الطويلة التى ملأتها حميا الامل ، وطيوف الاحلام ، والانكفاء الجامح على العمل ، فى تلك الساعات التى

عشت فيها مع خيالي ، مع الشخوص التي خلقتها كائنات حقيقية لا وهمية كأنها من اقربائي . كنت احب هذه الشخوص ، افرح معها واحزن معها ، وكثيرا ما أذرف الدموع صادقة سخية من الحزن على بطلي الشاحب . لا استطيع ان اصف الفرح الذي شاع في وجه العجوزين لما احرزت من نجاح . لقد دهشا في أول الأمر دهشة عظيمة ، وبدا لهما ذلك غريبا الى أبعد حدود الغرابة . أما آنا آندريفنا فانها لم تستطع أن تصدق ان الكاتب الجديد الذي يحتفل به الجميع ويقرظه الجميع ، هو فانيا عينه ، فانيا الذي .. الخ الخ . فكانت تهز رأسها استغرابا .

على ان العجوز ظل مدة طويلة في غير اطمئنان ، بل لقد اصبح في رعب ، واخذ يأسف على تضييعي حياة الوظيفة ، ويتحدث عن الحياة المضطربة المستهترة التي يحياها الكتاب بوجه عام . الا ان استمرار حديث الناس عنها ، وما كانت تنشره الصحف من ملاحظات ، وكلمات الاطراء التي سمعها من شخصيات يؤمن بصدقها واخلاصها ، كل ذلك حمله على تغيير رأيه . حتى اذا رأى اى مبلغ من المال يمكن ان يربحه المرء من عمل ادبي ، زال تردده نهائيا ، وانتقل من الشك الى ايمان مطلق حار ، وسر لسعادتي كما يسر طفل ، وسرعان ما استسلم لآمال عريضة مجنونة ، وأحلام ساطعة باهرة فيما يتعلق بمستقبلي ، فكان يتصور لي مشاريع جديدة في كل يوم ، وما كان أكثر مشاريعه ! وأصبح ينظر الى بشيء من الاعتبار لم اعهده فيه من قبل . على انني اذكر ان شكوكه كانت تعاوده من حين الى حين ، وتصيب القلب من احلامه وآماله ، وتشيع فيه القلق من جديد .

«كاتب ، شاعر ... هذا شيء مضحك .. متى استطاع شاعر أن يشق طريقه ، وأن يحتل منزلة عالية ؟ كل هؤلاء الناس غاوون مغرورون لا يصلحون لشيء » . وقد لاحظت ان هذه الشكوك والاسئلة الشائكة

كانت تتوارد الى ذهنه في الغالب الاعم حين هبوط الغسق • كان صاحبنا العجوز يصبح عند المساء اكثر عصبية واهتياجا وارتيابا • وكنا ، انا وناتاشا ، نعرف ذلك ، وننتظره ضاحكين منه • وأذكر أنني كنت أرفه عن العجوز بأن أقص عليه نوادر عن سوماروكوف الذي عين جنرالا ، وعن درجافين الذي أهديت اليه علبة ملأى بالذهب ، وعن الزيارة التي قامت بهـا الامبراطورة للومونوسوف* •• وكنت أحدثه عن بوشكين وجوجول •

فكان ، ولعله يسمع هذه الاقاصيص لأول مرة ، يرد عليّ بقوله :

ـ أعرف هذا أيها الاخ ، أعرف كل هذا • اسمع يا فانيا ! يسرني على كل حال ان طعامك ليس من شعر • الاشعار، ياعزيزي، خزعبلات • لا تناقشني ، ولا تعاندني ، صدق هذا العجوز الذي يتحدث اليك • أنا لا اريد لك الا الخير • الشعر خزعبلات وترهات باطلة وعمل لا يجدي ! حسن أن ينظم الشعرَ طلابُ المدارس الثانوية ، أما أنتم الشباب فالشعر يقودكم الى مستشفى المجانين • لنسلم بأن بوشكين كان رجلا عظيما ، ثم ماذا ؟ اشعار ، لا اكثر !•• اشياء زائلة •• على انني لم أقرأ له الا قليلا •• أما النثر فشيء آخر ! في النثر يستطيع الكاتب أن يثقف الناس• أن يتحدث عن حب الوطن ، أو عن النضال بوجه عام •• نعم ! أنا لا أحسن التعبير عن أفكاري ياعزيزي ، ولكنك تفهم ما أريد أن أقوله••• وما كنت لأقوله لولا أنني أحبك •

وفيما هو يقول هذا الكلام أتيت بكتابي وجلسنا جميعا نتناول الشاي حول المائدة المستديرة • فأردف العجوز يقول بلهجة من يشعر أنه يرعاني ويحميني :

ـ نعم ، نعم ، اقرأ لنا هذا ، اقرأ لنا ماكتبت هاهنا • ان الناس يتحدثون عنك كثيرا • سنرى ، سنرى •

فتحت الكتاب وتهيأت للقــراءة • وكانت روايتي قد خرجت من المطبعة في ذلك المساء نفسه ، فما ان حصلت على نسخة منها حتى هرعت الى منزل أسرة اخمنيف لاقرأها •

كان يؤسفني جدا أنني لم أستطع أن أقرأها لهم قبــل ذلك في المخطوطة التي كانت بين يدى الناشر ! لقد بكت ناتاشا ألمــاً ، وأنبتني وقرعتني على ان غيرها يطلع على آثاري قبل أن تطلع عليها هي • ولكن هانحن اؤلاء جالسون حول المنضدة المستديرة • واصطنع العجوز هيئة جادة ناقدة • كان يريد أن يصدر حكمه في قسوة ، وان « يكوّن رأيه بنفسه » • والعجوزة كذلك اصطنعت هيئة وقورة جليلة ، حتى لتوشــك أن ترتدى قبعتها الجديدة احتفالاً بهذا الاجتماع الذي تحلقنا فيه للقراءة • كانت قد لاحظت منذ زمن طويل أنني أنظر الى ابنتها الفاتنة ناتاشا نظرة حب عميق، وان فكرى يتقد حين أراها، وان نظرى يضطرب حين أتوجه اليها بكلام ، وان ناتاشا ، هي الأخرى ، أصبحت تلقى على نظرات أحدّ من نظراتها السابقة • نعم ! جاءت أخيراً هذه اللحظة ، جاءت في برهة نجاح وآمال واسعة ، وفي قلب السعادة المطلقة • جاء كل شيء في آن واحدة دفعةً واحدة • وكانت العجوز قد لاحظت أيضا أن زوجها أخذ يطريني ويثني عليّ كثيراً ، وينظر الينا أنا وناتاشا نظرة خاصة • وفجأة يخامر العجوزَ خوف : رغم كل شيء لستُ كونتاً ولا أميراً ، حتى ولا موظفا كبيراً في كلية الحقوق؛ لست الا شاباً ذكياً جميلاً ! ان آنا اندريفنا لا ترغب نصف رغبة • كانت تقول لنفسها عني : « ان الناس يغبطــونه ، لا أدرى لماذا ! كاتب ، شاعر •• وماذا أن يكون امرؤ كاتبا ؟ » •

الفصل السادس

قرأت لهم روايتى فى جلسة واحدة • بدأنا بعد احتساء الشاى وسهرنا حتى الساعة الثانية من الصباح • فى أول الأمر كان العجوز يقطب ما بين حاجبيه • كان ينتظر أن يسمع شيئا قد لايفهمه ولكنه رفيع، فاذا هو ، بدلا من ذلك ، لا يسمع الا وقائع يوميـة مبتذلة معـروفة هى ما يقع حولنا فى كل يوم • كان ينبغى أن يكون البطل شخصاً عظيماً ، أو شخصاً طريفاً ، أو رجلاً من رجال التاريخ ، على طراز روسلافيلف أو يورى ميلوسلافسكى* • وها هو ذا يرى أن البطل فى قصتى موظف صغير هين الشأن بل غبى بعض الغباء ، لم يبق على سترته أزرار • وأنا أروى قصته بأسلوب بسيط ، بسيط جداً ، لا يزيد ولا ينقص عن اللغة التى يتخاطب بها الناس كل يوم •• شىء غريب ! •• وكانت العجوز تلقى على نيقولا سرجتش نظرات حائرة مستفهمة ، بل كانت تصعّر خدها كأن شيئاً قد أزعجها • كنت أقرأ فى وجهها : « هل يستحق هذا الكلام أن يطبع فى كتاب ، وهل تستحق هذه السخافات أن تسمع وأن يدفع ثمنها مال ؟ » أما ناتاشا فكانت تصغى اصغاء شديداً ، وتتلقف الـكلام فى شراهة واضحة ، ولا تحول بصرها عنى أبداً ، وتنظر الى شفتى كيف تلفظان كل كلمة من الكلمات بل كانت شفتاها الجميلتان تتحركان مع شفتى • والآن هل تصـدقون ؟ اننى قبل أن أنهى قراءة نصف الكتاب

كانت الدموع تنهمر من أعين جميع مستمعي • كانت آنا اندريفنـا تبكي بكاء صادقاً ، وتشارك بطلي الامة ، وتتمنى مخلصة لو تستطيع أن تعينـه في شقائه (فهمت ذلك من تأوهاتها وحركاتها) • آما العجوز فقد ترك جميع أحلام العظمة والرفعة وقال : « يرى المـرء في البداية ان القصـة ليست ذات بال •• الا انها تأسر اللب • انها تُفهم المرء ما يدور حوله ، وتذكره به ، فيشعر أن كل انســان ، مهما يكن خامل الذكر ، فهـو انسان ، وهو أخ • » وكانت ناتاشا تصغي الى القصة ، فتنهمر الدموع من عينيها ، وتشد على يدي من تحت المنضدة خلسة ، بقوة ؛ حتى اذا انتهت القصـــة ، ونهضت من مكانها ، كانت خـــداها ملتهبتين كالجمـر احمراراً ، وكانت تترقرق في مآقيها دموع صغيرة • وفجأة ، أمسكت بيدي فقبلتها ، وتركت الغرفة راكضة • فتبادل أبوها وأمها نظرة صامتة • قال العجوز وقد شدهته حركة ابنته :

ـ هم •• انها شديدة الحماسة ! لا بأس مع ذلك ، لا بأس ، هذه حماسة كريمة نبيلة •

ثم دمدم وهو يسحب نظرته نحو امرأته :

ـ انها ابنة طيبة ••

كان يريد أن يبرىء ابنته ، ويريد في الوقت نفسه أن يبرئني •

وما لبثت ناتاشا ان عادت مرحة سعيدة ، فلما مرت بجانبي ، قرصتني دون أن تقول كلمة واحـدة • كان العجوز يهم ان يبدأ اعـلان رأيه « الجدي » في قصتي ، الا انه لفرحه لم يستطع أن يكبح جماح نفسه ، فاسترسل في حماسة يقول :

ـ قصتك جميلة ياعزيزي فانيا ، قصتك جميلة ياصديقي • لقد سررت بها ، سررت بها جـداً •• لم أكن أتوقع هذا • صحيح انهـا

لا تتناول موضوعا عظيماً ، لا تتناول موضوعاً رفيعاً •• هذا واضح • ففي غيرها من القصص يتحدثون عن « تحرير موسكو* » ، ويصفون موسكو نفسها ، فمتى قرأ المرء السطر الاول من تلك القصص شعر انه يحلق في الفضاوات العلى ، كالنسر ان صح التعبير • ولكن الامر فى قصتك ، ياعزيزى ، أبسط من ذلك ، وأقرب الى الافهام • ولهذا السبب نفسه انما تعجبنى قصتك • ان المرء يفهمها في يسر ! انها أقرب الى النفس ان صح التعبير •• كأن كل ماتتحدث عنه قد وقع لى أنا نفسى ! ماقيمة تلك الموضوعات النبيلة التى لانفهم منها شيئاً ؟ غير اننى لو كنت فى مكانك ، لعنيت بالاسلوب أكثر من ذلك •• انت ترى اننى أطرى قصتك ، ولكن مهما يكن من أمر فان قصتك تعوزها الرفعة ••• على كل حال ، لابأس ، الآن فات الاوان ••• فقد طُبع الكتاب وانتهى الامر •• ولكن ربما فى الطبعة الثانية ؟ سيطبع الكتاب طبعة ثانية ، فيما أظن ؟ وسيدر عليك مالا جديداً ، هم ؟

قالت آنا اندريفنا :

ـ هل يُعقل ان تكون قد ربحتَ كل هذا المال ؟ ان المرء لينظر اليك فما يكاد يصدق ! آه يا الهى ، فى أى وجه ننفق نحن مالنا الآن ! ••

وتابع العجوز كلامه ، وقد ازداد حماسة :

ـ صحيح ، يا فانيا ، أن عملك هذا ليس وظيفة ، الا انه مهنة على كل حال • سيقرأ قصتك كثير من كبار الشخصيات • ثم لقد ذكرت لى ان جوجول كان يتقاضى راتبا من الحكومة فى كل سنة ، وانهم أوفدوه الى الخارج • ليتهم يفعلون هذا لك أيضا ؟ هذا ممكن ، أليس كذلك ؟ ولكن لعل الاوان لم يحن بعد ! يجب أن تكتب أشياء أخرى أيضاً ،

أليس كذلك ؟ اذن أكتب ياعزيزى ، أكتب بلا ابطـاء ! لا تتهاون فى الكتابة ! يجب ألا ينام المرء عن العمل !

قال ذلك قولة من لا يخامره ريب ، فى نبل لم يسعنى معه ان أوقفه عن الاسترسال فى الاحلام ، وان أبرد خياله . واستأنف يقول :

ـ ثم ان من الممكن مثلا أن يهدوا اليك علبة ملأى بالذهب .. لم لا ؟ ليس للهبات حدود ولا قواعد . قد يحبون أن يشجعوك فى عملك .

ثم أضاف بصوت منخفض ولهجة رصينة وهو يغمز بعينه اليسرى :

ـ ومن يدرى ، فقد تُستقبل فى البلاط ! أم لا ؟ لعل الوقت لم يحن بعد ؟

وقالت آنا اندريفنا فيما يشبه التحسر :

ـ فى البلاط !

فأجبت وأنا أضحك ملء قلبى :

ـ لم يبق الا أن تجعلونى جنرالا .

وأخذ العجوز نفسه يضحك . لقد كان راضيا كل الرضى ، مرتاحاً كل الارتياح !

وكانت ناتاشا تهيىء لنا العشاء أثناء ذلك ، فهتفت تقول :

ـ هلا تفضل صاحب المعالى بالنهوض الى المائدة !

وانفجرت ضاحكة ، وركضت نحو أبيها ، فعانقته بذراعيها الملتهبتين عناقا قويا ، وهى تقول :

ـ أبت ، أبت العزيز .

وتأثر العجوز ، فربت على خد ناتاشا الذى أصبح بلون الارجوان ، كأنه كان ينتظر أن يفعل ذلك لدى أول فرصة تسنح ، وقال :

ـ هيا ، هيا . أنت تعلم انني أقول هذا بلا تفكير . سيان أن تكون جنرالا وأن لا تكون ! هيا بنا الآن الى العشاء . اسمع يا فانيا : انني قلت ذلك لأنني أحبك . ولئن لم تكن جنرالا (وهيهات !) لأنت على كل حال شخصية شهيرة ، أنت مؤلف !

فاعترضت ناتاشا تقول :

ـ يقولون الآن « كاتب » ، يا أبى .

ـ ولا يقـولون « مؤلف » ؟ لم أكن أعرف ذلك . اذن فلنقل « كاتب » . هذا ما أردت أن أقوله على كل حال . طبعا لن يسموك رئيس البلاط لأنك كتبت قصة ، وما ينبغي أن نفكر فى هذا ، ولكن فى وسعك أن تشق طريقك : أن تصبح « ملحقا » فى احدى السفارات مثلا . يمكن أن ترسل الى الخارج ، الى ايطاليا ، لتسترد صحتك ، أو الى مكان آخر ، لتنهى دراستك . هذا ممكن ، من يدرى ! وقد يقدمون لك مساعدات مالية . طبعا ينبغى لك ، من جهتك ، ان تسلك سلوكا نبيلاً ، أن يكون ذلك مكافأة لك على عملك ، يجب أن تنال المال والالقاب جزاء عمل حقيقى تقوم به ، لا كيفما اتفق على سبيل الحماية والرعاية !

فأضافت آنا اندريفنا وهى تضحك :

ـ ولكن عليك ألا تكون عندئذ صلفاً متكبراً !

وقالت ناتاشا :

ـ ويجب ، خاصة ، يا أبت ، أن يُمنح وساماً ، والا فما قيمة هذا كله ؟

قالت ذلك وقرصتني في ذراعي مرة أخرى .

ونظر العجوز الى ناتاشا مزهواً ، وكان خداها ملتهبين ، وكانت عيناها الصغيرتان تلمعان في مرح كنجمتين ، وقال :

ـ انها تسخر مني دائماً .. ربما أكون قد أسرفت في الخيال كثيراً يا أولادي . ولكن هذا شأني دائماً . كذلك كنت في حياتي كلها ... ولكن ، يا فانيا ، حين أنظر اليك أرى انك بسيط جداً ..

ـ أوه ، أبت ، كيف تريد له أن يكون !

ـ لا . ليس هذا ما أردت أن أقوله . مع ذلك ، يا فانيا .. ان وجهك ليس وجه شاعر . يقولون عن الشعراء ان وجوههم شاحبة ، وان شعرهم طويل ، وان في عيونهم شيئاً .. مثال ذلك جوته وغيره . لقد قرأت هذا في كتاب « آبادونا »* .. ماذا ؟ هل قلت سخافة جديدة ؟ ماهذه البنت التي تقهقه ضاحكة عليَّ ؟ انا ، يا أصدقائي ، لست مثقفاً ، ولكنني أستطيع أن أحس وأن أشعر . على كل حال دعونا من الوجه ، ليس هذا بالمصيبة الكبرى . أنا أرى وجهك جميلاً ، انه يعجبني كثيراً . ليس هذا ما أردت أن أقوله .. ولكن يجب أن تكون شريفاً ، يافانيا ، يجب أن تكون رجلاً شريفاً . هذا هو الشيء الاساسي . يجب أن تعيش حياة شريفة ، وألا تسرف في حسن الظن بنفسك . ان الطريق واسعة أمامك . قم بعملك في اخلاص . ذلك ما أردت أن أقوله ، ذلك على وجه الدقة ما أردت أن أقوله .

ياله من عهد جميل ! كنت أقضي في منزلهم جميع ساعات فراغي ، جميع سهراتي . وكنت أحمل الى العجوز أنباء العالم الادبي ، وأنباء الادباء الذين أخذ على حين غرة ـ يعلم الله لماذا ـ يعنى بأمرهم في شغف قوي ، حتى لقد أخذ يقرأ مقالات النقد التي يكتبها ب* .. كنت قد حدثته

عنه كثيراً ، وكان هو لايكاد يفهمه ، الا انه كان يطريه في حماسة ويشكو شكوى مرة من خصومه الذين يكتبون في « جريدة الشمال » •

وكانت العجوز تراقبنا ، أنا وناتاشا ، في يقظة تامة • الا انها لم تفاجئنا يوماً ! كنا قد تبادلنا أنا وناتاشا كلمة : ألقيت عليها سؤالاً ، فخفضت رأسها ودمدمت بصوت خافت تقول : نعم • ولكن العجوزين قد عرفا الامر كذلك • لقد حزرا ، وفكرا ، وظلت آنا اندريفنا مدة طويلة تهز رأسها • كان ذلك يبدو لها غريباً • لم تكن تثق بي • فكانت تقول :

ـ لقد وفقتَ الى الآن يا ايفان بتروفتش ، وطار صيتك بين الناس، ولكن هبْكَ لم توفق في المستقبل ، فما عسى أن يقع حينذاك ؟ أليس من الافضل أن تجد لك وظيفة ؟

وعزم العجوز أمره ، بعد أن فكر مدة طويلة ، فقال ذات يوم :

ـ اسمع ما سأقوله لك يا فانيا : لقد رأيت ، ولاحظت •• واعترف لك انه يسرني أن تكونا انت وناتاشا ••• فلا بأس في هذا الامر أبداً • ولكنكما يا فانيا ما زلتما كلاكما صغيرين ، وأرى ان آنا اندريفنا على حق • يحسن أن نتريث • انك تنعم بموهبة ممتازة •• ولكن الموهبة شيء والعبقرية شيء آخر •• انك لاتنعم بعبقرية كما زعموا ذلك من قبل ، وانما تنعم بموهبة لا أكثر (بالامس كنت أقرأ النقد الذي كتبوه عنك في « جريدة الشمال » ، ولقد نعتوك نعوتاً سيئة ، ولكن لا قيمة لهذه الجريدة) • نعم ، ان الامر على ماترى : الموهبة ليست بالثروة الطائلة • وأنتما فقيران كلاكما • لننتظر سنة ونصف سنة ، أو لننتظر سنة على أقل تقدير ، فاذا سارت الاحوال على مايرام ، ورسخت قدماك في هذا الطريق ، كانت ناتاشا لك • أما اذا لم توفق ، فانني أترك البت في الامر لك • انت رجل شريف ، فكر في الامر •

ووقفت المسألة عند هذا الحد • واليكم ماحدث بعد سنة :

نعم ، كان ذلك بعد سنة على وجه الدقة تقريباً • في يوم صاح من أيام سبتمبر (أيلول) ، دخلت على العجوزين في المساء ، مريضاً ، مرهق الروح ، وتهالكت على كرسى كمن أغمى عليه ، حتى راودهما خـوف حين رأياني على هذه الحال • ولكن لئن أخذ رأسي يدور حينذاك ، ولئن كان قلبي من شدة الحزن بحيث اقتربت من باب البيت عشر مرات ، وعشر مرات ارتددت عنه دون أن أدخل ، فما ذلك لانني لم أوفق في مهنتي ؛ ولا لانني لم أحصل بعد على المجد ولا علي المال ؛ ولا لانني لم أعين بعد ملحقا ولا أرسلت الى ايطاليا لاسترد صحتي ، بل لان الانسان يمكن أن يعيش عشر سنين في سنة ، ولان ناتاشا قد عاشت خلال هذه السنة ، عشر سنين ، هي الاخرى • كان ثمة « لا نهاية » تفصل بيننا الآن •

هأنذا جالس أمام العجوز ، صامتاً ، أعجن حوافي قبعتي المشوهة ، بيد ذاهلة • كنت جالساً أنتظر أن تدخل ناتاشا ، لا أدري لماذا ؟ كانت ملابسي فقيرة خلقة ، وكنت أشعر بأنني مريض • كنت قد نحلت وهزلت وجهاً وجسماً • كنت قد أصبحت شاحباً ، ولكن هيهات أن يشبه وجهي في شحوبه وجه شاعر ، وفي عيني ماكانت تلتمع تلك الروعة وتلك العظمة التي طالما فكر فيهما الطيب نيقولا سرجتش • وكانت العجوز تنظر الى في شفقة غير متكلفة ، كأنها تفكر بينها وبين نفسها قائلة : « أهذا هو الذي أوشك أن يكون خطيب ناتاشا •• اللهم مغفرتك وعونك ! » • سألتني في صوت متأوه ما زال يرن في أذني الى الآن :

ـ هل لك بقليل من الشاى يا ايفان بتروفتش ؟ (وكان السماور يغلى فوق المائدة) • كيف حالك ياعزيزى ؟ انك تبدو مريضاً •

مازلت أراها كأنها أمامى • انها تكلمنى وفى عينيها يلوح هم آخر،

هو ذلك الهم نفسه الذي جعل نظرة زوجها في هذه اللحظة مظلمة قاتمة وهو جالس أمام فنجان الشاي غارق في أفكاره وتأملاته • كنت أعلم ان قضيتهم مع الامير لم تسر وفق مصلحتهم ، وانهم في هذه اللحظة مهتمون بها كثيرا ، وان ثمة مزعجات أخرى قد وقعت لهم • فالامير الصغير الذى هو أصل هذه الدعوى كلها ، قد انتهز الفرصة منذ خمسة أشهر أو ستة ، فزار أسرة اخمنيف فاستقبله العجوز ، الذى كان يحب « عزيزه » أليوشا كأنه ولده ، ويأتي على ذكره كل يوم تقريباً ، استقبله في فرح ، أما آنا اندريفنا فتذكرت عندئذ فاسيلفسكوئي فامتلأت عيناها بالدموع • وأخذ اليوشا يتردد اليهم ، وزادت زياراته لهم ، على غير علم من أبيه ، ورفض نيقولا سرجتش ، في استياء ، أن يحتاط للأمر ، لانه رجل شريف صريح مستقيم • انه ، لابائه ونبله ، لم يشأ حتى أن يفكر فيما عسى أن يقوله الامير لو عرف ان ابنه عاد يُستقبل في بيت اخمنيف ؟ وكان في دخيلة نفسه يحتقر كل هذه الشكوك • ولكن العجوز لم يكن يعلم هل يملك من القوة مايمكنه من احتمال اهانات جديدة • وأصبح الأمير الصغير يزورهم كلّ يوم تقريباً ، وكان العجوزان يقضيان معه أوقاتاً طويلة ممتعة ، وكان يبقى في المنزل سهرات بكاملها ، الى مابعد منتصف الليل في كثير من الاحيان • وطبيعي أن يحيط الاب علماً بكل شيء في آخر الامر • وقد فسح ذلك مجالا لاشنع الاقاويل والتخرصات • فأرسل الامير الى نيقولا سرجتش رسالة مهينة فظيعة تحمل ذلك الاتهام القديم نفسه • وحظر على ابنه حظراً قاطعاً أن يزور أسرة اخمينف • وقع هذا قبل زيارتي بخمسة عشر يوماً • كان العجوز قد انحدر الى حزن عميق • كيف ؟ أتُقحم ابنته الحبيبة ناتاشا ، مرة أخرى ، في افتراءات حقيرة سافلة كهذه ؟ وهل يترك هو هذا كله دون أن يطلب تسوية كريمة ! وأصابه المرض من شدة الالام حتى لزم فراشه في الايام الاولى من ذلك•

كنت أعلم هذا كله • فقد وصلتني القصة جملة وتفصيلا ، رغم انني في المدة الاخيرة ، منذ مايقرب من ثلاثة أسابيع ، كنت مريضا مرهقا ، فلزمت سريري في بيتي ولم أجيء الى زيارتهم قط • ولكنني كنت أعلم أيضا •• كلا ، بل كنت أقدّر ، أو أعلم على غير يقين ان هنالك شيئاً آخر ، غير هذه القصة ، يقلقهم أكثر من أي شيء آخر في العالم • كنت ألاحظهم في قلق معذب وخوف رهيب • نعم ، كنت خائفاً معذبا • كنت خائفاً ان أحزر الحقيقة ، كنت خائفاً من تصديق الامر الواقع ، كنت أتمنى بكل قواي أن أبعد الدقيقة الحاسمة • ومع ذلك ماجئت اليهم الا لهذا الغرض • كنت في ذلك مدفوعا اليهم دفعا لا حيلة لي في رده •

سألني العجوز فجأة ، كأنه يسترد صوابه :

ـ نعم يا فانيا ، ألم تكن مريضا ؟ لماذا لم تأت الينا خلال هذه المدة كلها ؟ انني مقصِّر في حقك : وقد هممت غير مرة أن أذهب اليك أزورك ، فكان يحول بيني وبين ذلك طاريء •

وعاد العجوز يفكر •• أجبته :

ـ كنت مريضا •

فأجاب بعد خمس دقائق :

ـ ها ! لا أستغرب هذا ! لقد نصحتك في ذلك اليوم ، وحذرتك فلم تصغ الى كلامي • هم ! لا ياعزيزي فانيا ، لقد عاشت الهة الفن دائماً جائعة ، في كوخ متداع ، وستظل كذلك •• نعم •

لا ! ما كان العجوز خلي البال مشرق المزاج ، ولو لم يكن مجروح القلب لما حدثني عن الهة الفن الجائعة • ونظرت الى وجهه ، فاذا هو شاحب شديد الشحوب ، وفي عينيه قلق وحيرة وفكرة اتخذت صورة سؤال لا قبل له بحله • كان عنيفا قارصا ، على خلاف عادته • وكانت امرأته تنظر اليه في قلق ، وتهز رأسها من حين الى حين ، حتى اذا حول

نظره عنا لحظة من اللحظات نظرت الىّ مشيرة اليه خلسة بحركة من رأسها •

سألتُ آنا اندريفنا التى بدا الهم جاثما على صدرها خانقاً :

ـ كيف حال ناتاليا نيقولايفنا ؟ أهى فى البيت ؟

فأجابت تقول ، وكأن سؤالى هذا قد أربكها :

ـ نعم •• نعم •• ياعزيزى •• ستأتى على الفور •• أثلاثة أسابيع لا نراك ؟ لا ، هذا كثير • مسكينة هذه البنت ، لقد أصبح غريبا أمرها • لا يستطيع المرء أن يعرف أهى مريضة أم غير مريضة • الله يحميها !

ونظرت الى زوجهـا وجلة ؟ فأجاب نيقولا سرجتش متكلفاً وهو يغص بكلامه :

ـ ماذا تقولين ؟ ليس بها شىء • ان البنت تكبر ، ولم تعد طفلة صغيرة • هـذا كل مافى الامر • منذا الذى يستطيع أن يفهم أحزان الفتيات ونزواتهن ؟

فقالت انا اندريفنا فى لهجة مرة :

ـ نعم •• نزوات !

وسكت العجوز ، وأخذ ينقر بأصابعه على المنضدة •

سألت نفسى وأنا أوجس شراً مستطيراً : « رباه ! أيكون قد وقع بينهما شىء ؟ » •

واستأنف العجوز يسألنى :

ـ وكيف الحال عندكم هناك ؟ ألا يزال ب ••• يكتب نقداً ؟

قلت :

ـ نعم •

قال فى غير مبالاة :

ـ نقد ! هه ! ماقيمة هذه الاشياء كلها ؟! ••

الفصل السابع

كانت تحمل قبعتها بيـــدها ، فلما دخلت وضعتها عـلى البيانو ، ثم اقتربت ومدت الىّ يدها صامتة • كانت شفتاها تختلجان اختلاجا خفيفا ، كأنما هي تريد أن تقول بضع كلمات على سبيل الترحيب ، غـير انها لم تقل شيئا •

لم أكن رأيتها منذ ثلاثة أسابيع • وأخذت أنظر اليها الآن في حيرة ورعب • ما أشد ماتغيرت خلال هذه الاسابيع الثلاثة ! وانهد قلبي ألمًا حين رأيت خديها شاحبين ، وشفتيها يابستين كأن قد جفتهما حمى ، وحـين رأيت عينيها تتقدان تحت أهدابهما الطويلة بنار متأججة وعزيمة كاسرة •

ولكن ، يا الهي ، ما كان أروع جمالها في تلك اللحظة ! مارأيتها في حياتي ، لا قبل ذلك اليوم المشئوم ، ولا بعده ، في مثل هذا الجمال الفاتن ! أهذه هي ناتاشا ، أهذه هي بعينها تلك البنت الصغيرة التي كانت منذ سنة ، تصغي الىّ وأنا أقرأ قصتي ، لا تحوّل عني بصرها ، وتحـرك شفتيها كأنها تقرأ معي ، وتضحك ذلك الضحك المرح كضحك الاطفال ، وتمزح في ذلك المساء مع أبيها ومعي أثناء تناول طعام العشاء ؟ أهذه هي بعينها ناتاشا التي قالت يومئذ في هذه الغرفة ، وقد انخفض رأسها واصطبغ وجهها بحمرة قانية : نعم ؟

ودوى صوت ناقوس أصم يدعو الى صلاة المساء ، فارتجفت ناتاشا، ورسمت العجوز اشارة الصليب •

ـ كنت تنوين الذهاب الى صلاة المساء يا ناتاشا ، وهاهو ذا الناقوس يدق . هيا اذهبى يا صغيرتى ، هيا اذهبى يا صغيرتى ، هيـا اذهبى الى الصلاة ، الحمد لله على ان الكنيسة غير بعيدة ! وبذهابك الى الصلاة تقومين بنزهة صغيرة ! لماذا تحبسين نفسك فى البيت ؟ أنظرى كم أنت شاحبة ! لكأنك يابنيتى قد أصابتك عين .

قالت ناتاشا ببطء وبما يشبه الهمس :

ـ قد .. لا .. أذهب .. اليوم .

ثم أضافت وقد ازداد شحوب وجهها :

ـ أشعر بأننى مريضة .

ـ بل الأحسن أن تذهبى يا ناتاشا .. كنت تريدين الخروج منذ هنيهة ، حتى لقد جئت بقبعتك . اذهبى الى الصلاة يا بنيتى ، اذهبى الى الصلاة ، عسى ربك أن يرد اليك عافيتك .

قالت آنا اندريفنا ذلك تشجع ابنتها ، وهى تنظر اليها وجلة كأنما هى تخشاها .

ـ نعم نعم .. اذهبى الى الصلاة يا ناتاشا ، وسيكون لك من ذلك نزهة قصيرة . ان أمك على حق فيما تقول .. وسيصحبك فانيا .

تراءت لى بسمة مرة تطوف فى شفتى ناتاشا . واقتربت ناتاشا من البيانو ، فتناولت قبعتها ، ووضعتها على رأسها ، ويداها ترتجفان ..

كانت كأنها تتحرك بلا شعور ، كأنها لاتفهم شيئا مما تعمل . وكان أبواها يتابعان حركاتها فى انتباه شديد .

قالت بصوت خافت لا يكاد يُسمع :

ـ وداعاً .

ـ علام الوداع يا ملاكي ! انك غير ذاهبة الى بعيد ! على ان هـذه النزهة القصيرة ستفيدك كثيراً ، ستتنشقين الهواء النقى • أنظرى كم أنت شاحبة • ها ! نسيت (انني أنسى كل شيء) ، لقد فرغت من صنع التميمة، خطتها منذ لحظة على دعاء مستجاب يا ملاكي ، احمليها يا ناتاشا • اسأل الله أن يمن عليك بالصحة •• ليس لنا غيرك يا بنيتى •

قالت العجوز ذلك وأخرجت من منضدة شغلها الصليبَ الصغير

صليبَ تعميد ناتاشا ، وقد علّقت في سلكه تميمة منذ قليل •

ـ احمليه يا بنيتى ، ففيه البركة والعافية • في الماضي ، كنت أرسم لك اشارة الصليب هكذا كل مساء ، قبل أن تنامى ، وكنت أدعو لك ، وكنت ترددين معى الدعاء • أما الآن فقد تغيرت يا ناتاشا ! أصبحت صلوات أمك نفسها لا تخفف عنك !

وغرقت العجوز في دموعها •

قبلت ناتاشا يدها دون أن تقـول كلمة ، واتجهت نحو الباب • ولكنها تراجعت فجأة ، واقتربت من أبيها • كان صدرها يرتجف من شدة الانفعال • وقالت بصوت مختنق وهى تتهالك على ركبتيها أمامه :

ـ صلّب أنت أيضاً يا أبت •

وظللنا جميعا واقفين ، مضطربين لهـذه الحركة المفاجئة • وظل أبوها ينظر اليها لحظات ، حائراً لا يفهـم ، ثم صاح والدموع تنفجر من عينيه :

ـ حبيبتى ناتاشا ، بنيتى الصغيرة ، عزيزتى ، ماذا بك ؟ ما الذى يعذبك ؟ لماذا تبكين ليل نهار ؟ انني أرى كل شيء يا بنيتى ، وانهض من

فراشي كل ليلة ، فأمضي الى باب مخدعك أستمع الى بكائك • انني لاأنام الليل • قولي لأبيك كل شيء يا ناتاشا • اسري الى أبيك بكل شيء ياناتاشا، ونحن ••

ولم يتم كلامه ، بل أنهضها ، وضمها الى صدره ، فشدت جسمها اليه شداً قوياً ، وأخفت رأسها في كتفه ، وأجابت وهي تغص بدموع خفية مخنوقة :

ـ لا شيء •• لا شيء •• كل ما هنالك انني أشعر باعياء •

قال الاب :

ـ اسأل الله لك الرضى يا بنيتي الغالية • أسأله لك طمأنينة الروح، وأن يحميك من كل سوء • ادعي الله يا حبيبتي ، وعسى أن ترقى اليه دعوات هذا الخاطي ، انا •

وأضافت العجوز :

ـ وأنا كذلك أسأل الله لك الرضى •

ودمدمت ناتاشا تقول :

ـ وداعاً •

وتوقفت قرب البـــاب لحظة ، وألقت على أبويها نظرة أخيرة ، وأرادت أن تقول شيئاً ، ولكنها لم تستطع ، فخرجت من الغرفة مسرعة ، وهرعت أنا في اثرها أوجس شراً •

الفصل الثامن

كانت تسير صامتة ، خافضـــة الرأس ، لا تنظر الى • ولكنها حين وصلت الى آخر الشـــارع ودخلت الرصيف ، توقفت فجأة وأمسكت بيدى •• قالت بصوت منخفض :

ـ اننى أختنق ! ان كابوسا يجثم على صدرى ، اننى أختنق •

فصرخت جزعاً أقول :

ـ عودى يا تاتاشا •

فقالت وهى تنظر الى فى حزن لا يمكن وصفه :

ـ ألست ترى يا فانيا أننى مضيت الى الأبد ، واننى تركتهم الى غير رجعة ؟

شعرت كأن قلبى قد تحطم • كنت أوجس هذا كله حين مضيت الى زيارتهم • كأن كل هذا قد عرض لخيالى فى مثل الضباب ، بل لعـله عرض لخيالى قبـــل ذلك اليوم بزمن طويل ، الا أن كلامها ، فى هـــذه اللحظة ، وقع فى نفسى موقع الصاعقة •

وسرنا على الرصيف فى حـزن • كنت لا أستطيع الكلام ، كنت أتخيل وأتأمل •• كنت طائش اللب تماماً•• وأخذنى دوار •• كان هذا يبدو لى أمراً جنونياً ، أمراً مستحيلا !

قالت أخيراً :

ـ لا شك أنك تعدنى مجرمة يا فانيا !

فأجبت دون أن أعى ما أقول :

ـ لا .. ولكن .. ولكنى لا أصدق .. هذا غير ممكن !

ـ بل هو ممكن يا فانيا ، هذا ما وقع فعلاً ! لقد تركتهم ، ولا أدرى ماذا ينتظرهم من مصير ، بل لا أدرى ماذا ينتظرنى أنا من مصير .

ـ أأنت ذاهبة اليه يا ناتاشا ؟ نعم ؟

ـ نعم .

فصرخت فى حماسة :

ـ ولكن هذا مستحيل يا عزيزتى المسكينة ناتاشا ! هذا جنون ! ستقتلينهم قتلا .. ستقتلين نفسك .. هل تعلمين هذا يا ناتاشا ؟

ـ أعلمه .. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل ؟ أصبحت لا أملك من أمرى شيئاً .

قالت ذلك وفى كلامها يأس هائل كأنها ذاهبة الى العذاب .

فقلت متوسلاً :

ـ عودى يا ناتاشا ، عودى قبل أن يفوت الاوان .

وكنت كلما ازددت حماسة والحاحا فى التوسل اليها ، ازددت شعوراً بأن توسلاتى فى هذه اللحظة ذاهبة أدراج الرياح ، وأنها عبث لا طائل تحته .

ـ أفاهمة أنت يا ناتاشا ماذا تصنعين بأبيك ؟ هل فكرت فى هذا ؟ أنت تعلمين ان أباه عدو أبيك ! أنت تعلمين ان الامير قد أهان أباك ، وانه

اتهمه بالاختلاس ، وأسماه لصاً •• وانت تعلمين ان بينهما الآن دعوى •• ثم ، يا ناتاشا ، هـذا كله بسيط اذا قيس بغيره • هل تعلمين يا ناتاشا (رباه ! انك تعلمين هذا كله) ان الامير قد اتهم أبويك بأنهما هما اللذان حاولا ، عمداً ، أن يربطا بينك وبين اليوشا ، حين كان يعيش أليوشا عندكم في الريف ؟ فكري في الامر يا ناتاشا ، وحسبك أن تتصوري مدى الآلام التي عاناها أبوك حين طرقت سمعه هـذه الفرية • لقد غدا شعره كله أبيض في هاتين السنتين الاخيرتين • أنظرى اليه • لاسيما •• ولكنك تعلمين هذا كله ياناتاشا ! آه ، ياالهى ، يارب السموات • لست أتكلم عن الكارثة التي تحل بهما اذا هما فقداك الى الابد • انت ثروتهما، انت كل ما بقي لهما في شيخوختهما ! لست أتكلم عن هذا ، ولا أريد أن أتكلم عنـه ، فينبغي أن تعرفيـه بنفسك • ولـكن تذكري ان أباك يرى ان هؤلاء الناس المتعجرفين قد افتروا عليك ظلماً وعدواناً ، وانهم أهانوك ، وان عليه أن ينتقم لك • والآن ، الآن خاصة ، يستيقظ هـذا كله ، وتنبعث هـذه العداوة كلها ، لانكم استقبلتم أليوشا • وقد أهان الامير أباك مرة أخـرى ، ومازال العجوز يغلي حنقاً من هـذه الاهانة الجديدة ، فاذا بكل هذه الاتهامات تبدو فجـأة صادقة ! ان جميع الذين يعرفون القضية سيقولون ان الامير كان على حق ، وسيتهمونك وأباك ! وما عسى أن يصبح أبوك من هذا كله ؟ سيقتله العار والشنار ! وممن تأتيه هذه الصدمة الفظيعة ؟ منك انت ، انت ابنته الوحيدة ، طفلته الغالية ! وأمك ؟ لن تعيش بعد زوجها العجوز لحظة واحدة •• ناتاشا ، ناتاشا ، ماذا تفعلين ؟ عودي يا ناتاشا ، كوني عاقلة !

كانت صامتة • وأخيراً ألقت عليّ نظرة كأنها تحمل معنى اللوم • وكان في هذه النظرة من الالم الحاد ، والعذاب الشديد ، ما أفهمني أن قلبها في هذه اللحظة ينزف • فهمت مدى ما كلفها قرارها هذا من ألم ،

وفهمت اننى بما أقول من كلام أعذبها وأمزقها دون طائل ، فهمت هــذا كله ، ومع ذلك لم أستطع أن الجم نفسى عن الكلام ؟ وتابعت أقول :

ــ ثم لقد قلت ، منذ لحظة ، لآنا اندريفنا انك قد لا تخرجين الى الصلاة . معنى هذا انك كنت تريدين البقــاء .. وانك لم تعزمى أمرك عزماً قاطعاً ، فما الذى جدّ اذن ؟

لم تجب ناتاشا على هذا كله الا ببسمة مرة . ولماذا سألتها عن هذا كله ؟ كان فى وسعى أن أفهم انها قد عزمت أمرها ، وانها لن تعدل عن قرارها . ولكننى كنت أنا نفسى خارجاً عن طورى .

ــ هل يُعقل أن تحبيه الى هذا الحد ؟

قلت ذلك وأنا أنظر اليها منقبض الصدر ، ولا أكاد أفهم ما أقول . فأجابت وعلى شفتيها تلك البسمة المرة نفسها :

ــ بم تريد أن أجيبك يا فانيا ؟ انك ترى : لقد أمرنى ان آتى ، وهاءنا ذا أنتظر .

فعدت أتوسل اليها ، كالغريق الذى يتعلق بقشة !

ــ ولكن اسمعينى يا ناتاشا ، اسمعينى . مازلنا نستطيع أن نتدبر الامر ، وان نخرج منه على نحو آخر ، ولن يكون عليك الا أن تلزمى بيتك لاتبارحينه . وسأقول لك كل ما يجب عليك أن تفعليه يا صغيرتى العزيزة ، ياناتاشا . سأتولى تدبير الأمور : المواعيد .. وكل شىء . كل ما أطلبه اليك هو ألا تخرجى من البيت بعد الآن ؟ سآتى اليك برسائله ، لم لا ؟ هذا أفضل مما يقع الآن . سأعرف كيف أفعل ذلك . سأخدمكما كليكما . سترين .. ولن تضيعى نفسك كما تفعلين الآن ، يا عزيزتى الصــغيرة ناتاشا .. انك تضيعين نفسك تماماً يا ناتاشا ، تماماً تماماً ..

اقبلي رجائي : سيسير كل شيء على ماتريدين ، ستحبينه وسيحبك ما شاء لكما الحب .. ومتى انتهى أبواكما من التخاصم (وسينتهيان من التخاصم حتما) ، فعندئذ ..

قالت وهي تضغط يدي بقوة ، وتبتسم من خلال الدموع :

ـ حسبك يا فانيا ، أسكت يا فانيا ، يا فانيا الطيب النبيل . انك رجل شهم شريف . أما من كلمة سيئة تقولها لي ؟ لقد بدأت أنا بهجرك، وهاءنت ذا تغفر لي كل شيء ، ولا تفكر الا في سعادتي ! تريد أن تنقل رسائلنا !

وانفجرت باكية .

ـ أعرف كم أحببتني ، يا فانيا ، وكم تحبني الآن . ومع ذلك لم توجه الي كلمة لائمة أو كلمة مرة خلال هذه المدة كلها ! وأنا ، أنا ، كم أنا مجرمة في حقك يا فانيا ! أتذكر الوقت الذي قضيناه معاً ؟ أواه ! كان الافضل ألا أعرفه ، ألا ألقاه أبداً ! كان ينبغي أن أعيش معك ، يا فانيا ، يا صديقي العزيز ! لا ، انني لا أستحقك ! انك ترى كيف أنا : في لحظة كهذه أحدثك عن سعادتنا الماضية ، مع انك تتألم بدون أن أحدثك عن ذلك ! ها قد انقضت أسابيع ثلاثة لم تزرنا خلالها : أقسم لك ، يا فانيا ، انه لم يخطر على بالي مرة واحدة انك حقدت علي أو كرهتني . أنا أعلم لماذا ذهبت : لقد أردت أن لا تزعجنا ، ألا تكون بيننا بمثابة لوم حي . ما كان أشق عليك أن ترانا ! لطالما انتظرتك يا فانيا ، لطالما انتظرتك ! اسمع يا فانيا ، لئن كنت أحب أليوشا كمن جنت ، كمن فقدت صوابها ، فلعلني أحبك أنت أكثر مما أحبه هو . بل انني لأشعر وأعرف انني لا أستطيع أن أعيش بدونك . لا غنى لي عنك . أنا في حاجة الى روحك ، الى قلبك الذهبي .. أسفاً يا فانيا ، ما أمر وما أقسى هذا الوقت الذي نعيشه !

أغرقتها الدموع . نعم ، انها شقية ! وتابعت كلامها ، بعد أن خنقت عبراتها :

ـ آه يا فانيا ، ما كان أشد شوقى الى رؤيتك ! لقد نحلت كثيرا يا فانيا ، وفى وجهك تبدو علامات المرض ، انك شاحب جداً . هل كنت مريضاً حقاً يا فانيا ؟ آه ما أسوأنى ، لم أفطن الى هذا ولا خطر لى على بال . وهاءنا ذا أتكلم عن نفسى طوال الوقت . ماذا يكتب الصحفيون الآن ؟ وروايتك الجديدة ، هل قطعت فى كتابتها أشواطاً جديدة ؟

ـ مالنا وللروايات ؟ مالنا ولأمورى الخاصة الآن يا ناتاشا ؟ دعينا منها الآن ، ولتذهب الى الشيطان ! قولى لى يا ناتاشا : أهو الذى أصر على أن تأتى اليه ؟

ـ لا .. لم يطلب ذلك وحده ، والأصح اننى أنا الذى طلبت ذلك . صحيح انه قاله ، ولكننى أنا أيضاً .. اسمع يا صديقى ، سأقص عليك كل شىء . لقد وجدوا له فتاة غنية ، ذات مكانة مرموقة ، ومن أسرة عظيمة . ويصر أبوه اصراراً قاطعاً على أن يزوجه اياها ، وانت تعلم ان أباه رجل ماكر ، خراج ولاج ! لقد دبر الامر تدبيراً محكماً ، وفى رأيه ان مثل هذه الفرصة لن تعرض خلال عشر سنين : علاقات ، مال ، الخ . ثم ان الفتاة جميلة جدا على ما يقال ، وهى مثقفة ورقيقة . انها حسنة من جميع الوجوه . حتى ان اليوشا نفسه مفتون بها . وأكثر من هذا ان أباه يريد أن يتخلص منه بأقصى سرعة ، ليستطيع أن يتزوج هو أيضاً ، لذلك أخذ على نفسه أن يقطع صلاتنا على أى وجه ! انه يخاف منى ، ومن تأثيرى فى اليوشا ..

فقاطعتها دهشا :

ـ ولكن هل يعرف الامير حبكما ؟ أظن انه كان يشتبه اشتباهاً ، بل لست واثقاً من انه كان يشتبه !

ـ بل هو يعرف كل شيء ، كل شيء .

ـ من أنبأه ؟

ـ اليوشا هو الذى قص عليه كل شيء فى المدة الاخيرة . قال لى هو نفسه انه قص على أبيه كل شيء .

ـ يا الهى ! ولكن ما هذه الحكاية ! يروى لأبيه كل شيء ، فى مثل هذه اللحظة !

فقاطعتنى ناتاشا تقول :

ـ لا تؤاخذه ، يا فانيا ، ولا تسخر منه ! يجب ألا تحكم عليه حكمك على غيره من الناس . كن عادلا . انه ليس مثلك ولامثلى، انه طفل ، لم يربوه كما يجب أن يربى ، انه لايفهم مايفعل . فى وسع أول تأثر جديد أن ينتزعه من كل ماعاهد عليه نفسه منذ لحظة . ليس له ارادة، قديقطع لك عهداً ، ثم اذا هو فى اليوم نفسه يقطع عهداً آخـر ، وهو فى كلا العهدين صادق . انه قادر على اقتراف أى عمل سيىء ، ولكن ماينبغى أن تؤاخذه على انه اقترف عملا سيئاً ، وانما ينبغى أن ترثى لحاله ! وهو قادر كذلك على التضحية ، أية تضحية ! ولكن فى لحظة أولى ، ثم ينسى كل شيء فى لحظة أخرى ! انه قادر على أن ينسانى أنا ، اذا لم أكن الى جانبه دائماً . هذا هو أليوشا .

ـ ولكن يا ناتاشا ، لعل هذا كله أقاويل واشاعات . هل يستطيع أليوشا أن يتزوج ؟ انه طفل !

ـقلت ان لابيه خطة واضحة !

ـ وكيف عرفت ان خطيبته جميلة ، وانه مفتون بها !

ـ قال لى ذلك هو نفسه .

ـ كيف ؟ يقول لك هو نفسه انه قادر على أن يحب امرأة غيرك ، ثم يطلب اليك مثل هذه التضحية ؟

ـ لا ، يا فانيا ، لا ٠ انك لا تعـرفه ٠ انك لم تره الا قليلا ٠ ولا بد أن تعرفه معرفة أوثق حتى تستطيع أن تقطع فيه برأى ٠ ليس فى الدنيا قلب أنبل ولا أنقى من قلبه ! وهل كان الافضل أن يكذب على ؟ اما عن انسياقه واستسلامه فيكفى أن ابتعد عنه أسبوعاً واحداً حتى ينسانى ويحب امرأة غيرى ٠ ولكنه متى عاد فلقينى ارتمى على قدمى مرة أخرى ٠ ومن حسن الحظ أننى أعـرف انه لم يكتم عنىٰ شيئاً ، ولولا هـــذا لقتلتنى الشكوك ٠ نعم يا فانيا ، لقد عزمت أمرى : اذا لم أكن الى جانبه دائماً ، فى كل لحظة ، انتهى حبه ، فنسينى ، وهجرنى ٠ هكذا خلق ٠ تستطيع أية امــرأة أخرى أن تجذبه وأن تقوده ٠ وما عســانى فاعلة يومئذ ؟ سأموت من غير شك ٠٠ وما الموت ؟ ليتنى أموت الآن ٠٠ اما أن أعيش بدونه فهذا ما لا أطيقه : ان ذلك لاسوأ من الموت ، وأقسى من كل أنواع العذاب ! آه يا فانيا ، يا فانيا ، هين علىَّ انى هجرت أبى وأمى فى سبيله! دعك من المواعظ والاخلاق ! لقد قررت كل شيء ٠ يجب أن أكون الى جانبه فى كل ساعة ، فى كل لحظــة ٠ ليس فى وسعى أن أتراجع ٠ أعرف اننى أضيع نفسى ، واننى أضيع معى آخرين ٠٠

قالت ذلك ثم صرخت فجأة وهى ترتعد من أخمص قدميها الى قمة رأسها :

ـ آه يا فانيا ٠٠ ماذا يكون من أمرى اذا صح انه لا يحبنى ، اذا صدق ماقلته لى منذ لحظة (الواقع اننى لم أقل ذلك) ، اذا كان يغشنى ، اذا كان ظاهره الاستقامة والصدق ، وباطنه الخبث والغرور ! اننى أدافع عنه الآن أمامك ، وربما كان هو فى هــذه اللحظة يضحك من أعماق

نفسه مع امرأة أخرى ؟ وأنا ، أنا المخلوقة المرذولة ، أترك كل شيء ، وأسعى في الشوارع أبحث عنه ! آه ، فانيا .

وانطلقت من صدرها آهة أليمة انفرط لها قلبي هلعاً . وفهمت ان ناتاشا قد فقدت آخر رمق من سيطرتها على نفسها . وانه ما كان لغير غيرة جنونية بالغة أوجها أن تسوقها الى قرار أحمق هـذا الحمق . وتأججت في نفسي كذلك غيرة طافحة ، ولم أستطع أن أصمد أكثر مما صمدت ، وطغى عليّ شعور سيء ، فقلت :

ـ ناتاشا ، شيء واحد لا أفهمه : كيف تستطيعين أن تحبيه بعد الذي قلته عنه ؟ انك لا تحترمينه ، بل انك لا تثقين بحبه ، ومع ذلك تمضين اليه بلا رجعة ، وتفقديننا جميعاً من أجله ! ما معنى هـذا ؟ سيعذبك طوال حياتك ، وستعذبينه أيضاً . انك تحبينه أكثر مما يستحق يا ناتاشا ، نعم تحبينه أكثر مما يجدر بك أن تحبيه . انني لا أفهم مثل هذا الحب .

فأجابت وقد امتقع لونها كأنما بتأثير ألم جسمي :

ـ نعم ، أحبه كمجنونة . ولم أحبك يوماً مثل هذا الحب ، يافانيا . أنا أعرف انني فقدت صوابي ، وانني لا أحبه كما ينبغي أن يكون الحب . اسمع يا فانيا : هل تعلم انني ، حتى قبل هذا الوقت ، وفي أسعد لحظاتنا ، كنت أشعر انه لن يأتيني بغير العذاب ؟ نعم كنت أشعر بذلك ، ولكن ماعساني أفعل ، والعذاب الذي يسببه لي هو عينه سعادة ! هل تراني أبحث عن الفرح اذ أمضي اليه ؟ ألست أعلم منـذ الآن ماينتظرني معـه ، وما سأحتمله منه ؟ اسمع ، لقد أقسم انه يحبني ، وقطع لي جميع أنواع العهود ، وأنا لا أصدق من وعوده شـيئاً ، ولا أقيم لها وزنا قط ، ومع ذلك كنت أعلم انه لا يكذبني ، وانه لا يستطيع أن يكذبني . وقد قلت

له ، أنا نفسي ، انني لا أريد أن أربطه بشيء ، وهذا أفضل ، فما من أحد يحب أن يُربط ، وأنا في طليعة من لايحبون ذلك ، على أنني سعيدة بأن أحتمل كل شيء ، كل شيء . ولست أطمع الا في أن يكون معي ، في أن أنظر اليه ! في وسعه أن يحب غيري ، واني لاقبل ذلك ، شريطة أن أكون أنا أيضاً الى جانبه .. أهذه حقارة يا فانيا ؟

سألتني هذا السؤال فجأة وهي ترفع الي نظرة ملتهبة . وأيقنت ، لحظة ، انها تهذي . وأردفت تقول :

ـ انها حقارة أن أتمنى هذه الامور ، أليس كذلك ؟ نعم ! انني أعترف أنا نفسي بأن هذه حقارة ! واذا هجرني فسأجري وراءه الى آخر الدنيا ، ولو صدّني ، ولو طردني شرّ طردة . اسمع ! انك تنصحني الآن بالعودة الى المنزل ، ولكن ماعسى أن تكون نتيجة ذلك ؟ ان عدت الى المنزل ، فسأخرج منه في الغد . يكفي أن يصدر اليّ أمره بالخروج حتى أخرج . يكفي أن يناديني بصفرة ، يكفي أن يناديني كما ينادي كلب صغير حتى أجري وراءه .. لا تحدثني عن العذاب . انني لا أخشى عذابا هو مصدره . سأعرف ان عذابي هو مصدره . وحسبي ذلك حتى أكون سعيدة .. ولكن يا فانيا ، لاتحدث أحداً بهذا .

سألت نفسي : « وأبوها ؟ وأمها ؟ » وبدا لي انهـا نسيتهما نسياناً تاماً !

قلت :

ـ وعلى هذا لن يتزوجك يا ناتاشا !

ـ بلى ، لقد وعدني بذلك ، وعدني بكل شيء . ومن أجل هذا يستدعيني الآن ، من أجل أن نتزوج خفية في الريف . ولكنه لا يدري ماذا يفعل ، ولعله لا يعرف كيف يتم الزواج . أهذا زوج ؟ حقاً ان

الأمر لمضحك واذا تزوج فسيكون شقياً ، وسيأخذ يصب عليّ ضروب اللوم ، وأنا لا أريد أن يلومني يوماً .. سأترك له اذن حرية التصرف ، ولن أطالبه بشيء . واذا شقي بعد الزواج ؟ لماذا أجعله شقياً ؟

ـ ناتاشا ! أتحلمين ؟ أنت اذن ماضية اليه الآن رأساً ؟

ـ لا ، لقد وعدني بأن يجيء الى هنا ليأخذني ، اتفقنا ..

ونظرتْ الى بعيد في لهفة ، ولكنها لم تر أحداً . هتفتُ في استياء :

ـ ولكنه لم يجيء بعد ، أتصلين أنت قبله ؟

وكأن ناتاشا ترنحت من هول الضربة وتصعر وجهها ألما .. قالت في ضحكة صغيرة مرة :

ـ وقد لا يأتي أبداً . أول أمس كتب اليّ يقول : ان لم أعده بالمجيء ، فسيكون مضطراً الى ارجاء عزمه على السفر معي والزواج بي ، وسيمضي به أبوه الى خطيبته . كتب الى ذلك ببساطة كأن ليس في هذا شيء ذو بال .. وماذا اذا ذهب اليها يا فانيا ؟

لم أجب . وضغطتْ يدي بقوة ، وأخذت عيناها تلتمعان .. قالت بصوت لا يكاد يسمع :

ـ انه عندها .. كان يأمل ألا آتي ، حتى يذهب اليها ، وحتى يقول بعد ذلك انه كان على حق ، وانه أنذرني فلم آت ، وقد أعذر من أنذر . انه يملني ويهجرني ، آه ، يا الهي ، انني مجنونة . ألم يقل لي في المرة الماضية انني أضجره ؟ ماذا أنتظر اذن ؟

ـ هذا هو !

ذلك ما هتفت به ، اذ لمحته على الرصيف من بعيد • وارتجفت ناتاشا ، وأطلقت من صدرها صرخة ، وثبتت نظرتها على اليوشا الذى كان يقترب ، وفجأة تركت يدى ، وهرعت نحوه • وحث خطاه هو أيضاً ، وما هى الا دقيقة واحدة حتى كانت فى ذراعيه •

لم يكن فى الشارع أحد سوانا • تعانق الحبيبان وأخذا يتباوسان ويضحكان • كانت ناتاشا تضحك وتبكى فى آن واحد ، كأنهما التقيا بعد فراق طويل • كان الدم قد صعد الى خديها الشاحبتين • كأنها أصبحت فى طورٍ آخر •

•• ولمحنى أليوشا ، فما لبث أن اتجه نحوى •

الفصل التاسع

نظرت اليه نظرة فاحصة ، رغم اننى رأيته كثيرا قبل هذه اللحظة وحدقت فى عينيه، كأن نظرته تستطيع أن تحل جميع شكوكى ، وأن تفهمنى كيف استطاع هذا الطفل أن يسحر ناتاشا ، وأن يبعث فى قلبها حبا كهذا الحب المجنون ، الذى ينسيها حتى واجبها الاول ، ويحملها على التضحية الهوجاء بما كان الى الآن أقدس شىء عندها. وتناول الأمير يدى كلتيهما ، وضغطهما بقوة ، واخترقت نظرته الرقيقة الصافية قلبى .

شعرت أننى قد أكون مخطئا فى حكمى عليه ، لأنه غريمى . والحق اننى لم أكن أحبه ، ولعلنى الشخص الوحيد الذى ما أحبه يوما ، من بين جميع الذين عرفوه . كثير من الامور كانت تنفرنى منه حتماً ، حتى ملبسه الأنيق ، ولعل ملبسه كان ينفرنى لأنه أنيق مسرف فى الأناقة . وقد أدركت ، فيما بعد ، أننى كنت حتى فى هذه الناحية متحيزاً غير منصف فى الحكم عليه . كان فارع القامة ، حسن البنية ، رقيقاً ناعماً . وكان وجهه البيضاوى دائم الشحوب . وكان شعره أشقر ذهبياً ، وعيناه زرقاوين واسعتين ، رقيقتين ساجتين ، يلتمع فيهما على حين غرة ، فى بعض الاحيان ، مرح كمرح الطفولة برىء ، وكانت شفتاه رقيقتين بلون الياقوت ، رُسمتا أروع رسم ، وأطبقتا على معنى الجد فى دائم الاحوال تقريباً ، وذلك يجعل ابتسامته البريئة الساذجة ، حين يبتسم فجأة ، أمراً

غير متوقع ، ويزيد في سحرها ، فاذا أنت حين تراها لا تلبث مهما تكن حالتك النفسية ، أن تشعر فوراً بالحاجة الى أن ترد عليها بابتسامة مثلها تماماً • كان ملبسه أنيقاً ، ولكن على غير تكلف • كان واضحا أن هـذه الاناقة في أدق التفاصيل لا تكلفه أي جهد ، كأنه قد فطر عليها • صحيح ان له بعض العـادات السيئة التي يؤسف لهـا ، كالخفة ، والغرور ، والاستهانة • الا انه ساذج مسرف في السذاجة ، بريء الى أقصى حدود البراءة ، فاذا ارتكب بعض الاخطاء كان أول من يعترف بها وهو يضحك• أعتقد ان هذا الطفل ما كان له أن يكذب يوماً على سبيل المزاح ، وانه اذا كذب ، كذب دون أن يـرى في كذبه أي شيء سيىء • حتى أنانيته جذابة ، لا لشيء الا لأنها صريحة لا تستتر ولا تتخفى • كان ضعيفا ، خجـولاً ، يثق بالنـاس ، وليس له من ارادة البتة • ان الاساءة اليه ومخادعته لا تقلان سوءاً عن الاساءة الى طفل ومخادعته • انه بريء أكثر مما ينبغي لمثل سنه من براءة ، وهو لا يكاد يفهم من الحياة الواقعية شيئاً ، وسيظل كذلك حتى حين يبلغ من عمره الاربعين عاماً : كأن مثل هؤلاء الاشخاص قد قضي عليهم أن يظلوا قصراً الى الابد • أعتقد أنه ما من أحد كان يستطيع أن لا يحبه • انه يداعبك كالطفل • صدقت ناتاشا : قد يرتكب عملاً سيئاً ، اذا سيق الى ارتكابه سوقاً ، ولكنني أعتقد أنه متى أدرك النتائج المترتبة على هذا العمل ، مات ندامة • ولقد كانت ناتاشا تدرك انها ستهيمن عليه ، وانه سيكون ضحيتها ، وكانت تتذوق منذ الآن لذة الحب الجنوني ولذة تعذيب المحبوب ، ولعلها من أجل هـــذا انما سارعت فسبقته الى التضحية بنفسها في سبيله • ولكنه كان يحبها هو أيضاً حباً عنيفاً ، كان هذا ظاهراً في نظراته الملتهبة • لقد كان يتأملها في وجد ونشوة عظيمة • وألقت عليّ ناتاشا نظرة انتصار • كانت في هذه اللحظة قد نسيت كل شيء : أهلها ، والوداع ، والوسـاوس •• كانت سعيدة •

وهتفت تقول :

ـ فانيا ، لقد أذنبت فى حقه ، ولست جديرة به • اعتقدت يا أليوشا أنك لن تأتى • انس هواجسى السيئة هذه يا فانيا • سأمحو هذه الهواجس السيئة •

قالت ذلك وهى تنظر اليه فى حب لا نهاية له • وابتسم أليوشا ، وقبّل يدها ، وقال ملتفتاً الىّ دون أن يدع تلك اليد :

ـ وانت ، لا تتهمنى كذلك • لطالما وددت ان أقبلك كأخ • لقد حدثتنى عنك كثيراً • حتى الآن لم نكد نتعارف ، وكنا على غير تفاهم تام •

ثم أضاف بصوت منخفض ، وقد احمر وجهه قليلا ، وطافت فى شفتيه ابتسامة جميلة لم يسعنى الا أن أستجيب لها بابتسامة مثلها ، قال :

ـ سنكون صديقين ، و •• سامحنى •

وأيدته ناتاشا بقولها :

ـ نعم نعم يا أليوشا ، انه منا ، انه أخونا ، ولقد سامحنا ، وبدونه لن نكون سعيدين • سبق أن قلت لك ذلك • آه يا أليوشا ، اننا طفلان قاسيان ! ولكننا سنعيش نحن الثلاثة معاً ••

وتابعت كلامها متجهة الى ، وقد أخذت شفتاها ترتجفان :

ـ ستعود الآن اليهم ، الى البيت • انك انسان نبيل ، واذا لم يغفرا لى ، فلعلهم يلينون بعض اللين ، حين يرون انك قد سامحتنى • حدثهم عن كل شيء بالكلمات التى تخرج من قلبك • ستجد الكلمات المناسبة •• دافع عنى ، انقذنى • اشرح لهم جميع الدواعى ، أفهمهم كل مافهمته انت • هل تعلم يا فانيا أننى ربما ماكنت لأعزم أمرى على هذا لولا انك

كنت اليوم معى . لقد كان مجيئك مجيء السلام الى قلبى ، فما ان رأيتك حتى أمّلت أن تعرف كيف تنقل اليهما النبأ ، أو على الأقل أن تلطف وقع الصدمة على قلبيهما فى أول الامر . آه يارب ، يارب . قل لهما يا فانيا ، على لسانى ، اننى أعرف انه يستحيل أن يغفرا لى الآن ، وان غفرا لى ، فلن يغفر الله لى . ولكن قل لهما أيضاً اننى سأظل أباركهما وأدعو لهما الله طوال حياتى ، ولو لعنانى . ان قلبى كله معهما ! آه ، يارب ! لماذا لا نكون جميعاً سعداء ! لماذا ، لماذا ؟

ثم هتفت فجأة ، كأنها تعود الى نفسها ، وهى ترتجف من الخوف ، وتغطى وجهها بيديها :

ـ يا الهى ، ماذا فعلت ؟

وأمسك اليوشا بذراعيها ، وشدها اليه دون أن يقول شيئاً . وانقضت بضع دقائق فى صمت .

قلت وأنا أنظر اليه نظرة عتب :

ـ كيف أمكنك أن تطلب اليها مثل هذه التضحية !

ـ لا تتهمنى . ثق ان هذه الآلام جميعها ، على قسوتها ، لن تدوم طويلا . انى لعلى قناعة بهذا مطلقة . وانما نحن فى حاجة الى القدرة على احتمال هذه الدقيقة . وقد قالت لى هى هذا الشيء نفسه . انت تعلم ان سبب كل شيء هو هذا الصلف العائلى ، هذه الخصومات السخيفة ، ولا سيما هذه الدعاوى ! ولكن (كن واثقاً اننى فكرت فى هذا طويلا) لابد لهذه الامور كلها أن تنتهى ذات يوم . سيلتئم شملنا من جديد ، وسنكون عندئذ سعداء كل السعادة . سيتصالح أهلنا متى رأوا سعادتنا . ومن يدرى فلعل زواجنا أن يكون هو أساس الصلح . أعتقد أن الامر لا يمكن أن يكون على غير هذا النحو ، ما رأيك انت ؟

فسألته وأنا ألقي نظرة على ناتاشا :

ـ انك تتحدث عن الزواج ، فمتى تتزوجان ؟

ـ غداً أو بعد غد • بعد غد على أبعد تقدير ، هذا مؤكد • الحق انني لا أدري بعد ، واذا شئت الصدق قلت انني لمَّا أتخـذ أي قرار • كنت أظن ان ناتاشا لن تأتي • وكان أبي يريد جازماً أن يذهب بي الى خطيبتي (لعلك تعلم انه يريد أن يزوجني باحدى الفتيات ، لقد حدثتك ناتاشا عن هذا ، أليس كذلك؟ ولكنني أنا لاأريد) لهذا لم أستطع أن أعزم أمري على قرار حاسم بعد • ولكننا سنتزوج بعد غد حتما ، رغم كل شيء • أو هذا على الاقل مايتراءى لي الآن ، لأن الأمر لا يمكن أن يكون على غير هذا النحو • سنسافر ، منذ الغد ، الى بسكوف • لي هنالك صديق من رفاق المدرسة ، شاب شهم ، يسكن بسكوف ، غير بعيد من هنا ، في الريف • قد أقدمه اليك فتعرفه • وفي القرية كاهن ، بل لا أدري هل في هذه القرية كاهن أو لا • كان ينبغي أن نستعلم عن هذا قبل الآن ، ولكن الوقت لم يتسع • على كل حال • هـذه الأمور كلها سفاسف في الواقع ، مادام الشيء الاساسي مقرراً • نستطيع أن ندعو كاهنا من قرية مجاورة ، ما رأيك ؟ هناك قرى كثيرة حول هذه القرية ! والشيء الوحيد الذي يؤسف له ان وقتي لم يتسع لكتابة كلمة الى صديقي ، كان ينبغي أن أنبئه بقدومي ، فقد لا يكون في قريته الآن •• على كل حال ليس هذا أهم شيء • فمتى عزم المرء ، تهيأت الامور من تلقاء نفسها ، أليس كذلك ؟ والى أن تتهيأ الامور ، أي الى غد أو الى بعد غد اذا اقتضى الامر ، ستبقى ناتاشا هنا في بيتي • لقد استأجرت بيتاً مستقلا نستطيع ان نقيم فيه متى عدنا • لا أستطيع بعد الآن ان اعيش في منزل ابي ، أليس كذلك ؟ وستأتي أنت لزيارتنا ، والبيت جميل لطيف • وسيأتي أصدقائي، اصدقاء المدرسة ، لزيارتي • وسنقيم حفلات ساهرة ••

نظرت اليه في غم مضطرب • وكانت ناتاشا تنظر الىّ نظرة من يتوسل ان لا اقسو في الحكم عليه وان اكون متسامحاً • كانت تصغي الى كلامه ، وعلى شفتيها ابتسامة حزينة ، كأنها في الوقت نفسه تعجب به ، تماماً كما يعجب المرء بطفل لطيف مرح ، حين يسمع ثرثرته فارغة ولكن لطيفة • فألقيت عليها نظرة عتب ، وأخذت أشعر بانزعاج لا يحتمل •

سألته :

ـ وأبوك ؟ أأنت واثق انه سيغفر لك ؟

ـ حتماً • وماذا يستطيع أن يفعل ؟ طبعا سيستاء في أول الامر ، وسيلعنني ، هذا لا أشك فيه • هكذا طبعه ، انه قاس جداً معي ، وقد يشكوني أيضاً الى آخر • سيستعمل سلطته الابوية على وجه الاجمال • ولكن ليس لهذا كله كبير شأن ، انه يحبني حباً جامحاً • سيغضب ، ولكنه سيغفر لي آخر الامر • ويومئذ يتصالح الجميع ونصبح كلنا سعداء ، وأبوها كذلك •

ـ واذا لم يغفر لك ؟ هل فكرت في هذا ؟

ـ سيغفر لي حتماً ، ولكن قد لا يغفر لي بسرعة • على كل حال ، سأبرهن على انني ذو ارادة قوية • انه يشاجرني دائماً لانني ضعيف الارادة ، خفيف • سيرى الآن هل أنا خفيف حقاً •• سأتحمل بعد اليوم تبعة أسرة ، وليس هذا بالامر الهين ، لن أكون بعد الآن طفلا ، سأكون كغيري من الناس ، كأولئك الذين ينهضون باعباء اسرة • سأعيش من عملي • وناتاشا تقول ان هذا خير ألف مرة من أن يعيش المرء عالة على غيره ، كما نفعل جميعاً الآن ، ليتك تعرف كل ما قالته من كلام جميل رائع ، ماكان لي أن أتخيله أنا نفسي • لم أترعرع بين مثل هذه الافكار ، لم يربوني هذا النوع من التربية ! أنا نفسي أعرف أنني خفيف ، وانني

لا أكاد أصلح لشيء ، ولكن هل تعلم ؟ لقد راودتني أول أمس فكرة مدهشة . سأقولها لك ، وان لم يكن هذا أوانها ، اذ يجب أن تعرفها ناتاشا ، وأن تسدى الينا أنت بنصيحتك .

اليك الفكرة : سأكتب أقاصيص أبيعها للجرائد ، مثلك . ستساعدني لدى الصحفيين ، أليس كذلك ؟ انى أعتمد عليك ، وقد قضيت الليلة البارحة كلها أتخيل رواية ، هكذا ، على سبيل التجربة ، ومن الممكن أن يخرج من ذلك شيء جميل جداً ، هل تعلم ؟ لقد اقتبست الموضوع من ملهاة سكريب* .. ولكن دعنا من هذا الآن ، سأقص عليك ذلك فيما بعد . المهم هو أن يدفعوا ثمن الرواية مالاً وافرا . هل يدفعون لك مبالغ كبيرة ؟

لم أستطع أن أحبس ضحكة صغيرة ارتسمت على شفتي .

فقال مبتسماً هو الآخر :

ـ انك تضحك .

ثم أضاف في سذاجة لايمكن تصورها :

ـ لا .. اسمع .. لاتحكم عليّ بالظواهر .. انني أملك كثيرا من روح الملاحظة حقاً . سترى ذلك انت نفسك . لماذا لا أحاول ؟ قد يخرج من ذلك شيء .. على انك قد تكون على حق .. انني لا أعرف شيئاً من الحياة الواقعية .. وهذا ماتقوله لي ناتاشا أيضاً ، بل هذا مايقوله لي جميع الناس . فأيّ كاتب يمكن أن أكون ؟ اضحك ، اضحك ، صحح آرائي . انك من أجلها انما تفعل ذلك ، لانك تحبها . سأقول لك الحقيقة . انني لا أستحقها . أنا أشعر بذلك . وهذا قاس عليّ جداً ، ولست أدري كيف تستطيع ناتاشا أن تحبني كل هذا الحب . واعتقد انني قادر على التضحية بحياتي في سبيلها ! الحق انني لم أكن أخشى

شيئاً حتى هذه اللحظة ، ولكننى الآن خائف • لست أدرى فى أى طريق نقذف بأنفسنا ! رباه ، كيف يصح لانسان مخلص لواجبه أن تعوزه القدرة والقوة على تحقيق هذا الواجب ؟ ساعدنا انت على الاقل ياصديقنا! انت الصديق الوحيد الذى بقى لنا ! لا تؤاخذنى اذا أنا اعتمدت عليك هذا الاعتماد كله • اننى أعتبرك رجلاً نبيلاً الى أقصى حدود النبل ، أفضل منى ألف مرة • ولكننى سأصلح من أمرى ، كن على ثقة من هذا ، وسأكون جديراً بكما •

وضغط يدى مرة أخرى ، وفى عينيه أشرقت عاطفة طيبة كريمة • كان يمد الىّ يده فى كثير من الثقة ، ويعتقد اعتقاداً راسخاً بأننى صديقه !

وتابع كلامه يقول :

ـ وستساعدنى هى على اصلاح أمرى • ثم انه لاينبغى أن يكون رأيك فينا سيئاً جداً ، ولا تسرف فى الحزن علينا • فان أملى كبير رغم كل شىء ، وسنتحرر من كل الهموم المادية • مثلاً ، اذا لم تنجح روايتى (ولا أكتمك أنه خطر على بالى أن هذه الرواية سخيفة ، وانما حدثتك عنها الآن لأعرف رأيك لا أكثر) أقول اذا لم تنجح روايتى فاننى أستطيع ، اذا اقتضى الأمر ، أن أعطى دروساً فى الموسيقى • أنت لاتعلم اننى قدير فى الموسيقى ، فاعلم الآن ذلك • ولن أستحى أن أعيش من هذا العمل ، ان آرائى بهذا الصدد « عصرية » جداً • أضف الى هذا أننى أملك كثيرا من التحف الثمينة وأدوات الزينة وهى لا تفيدنى فى شىء فسأبيعها ، وسنستطيع أن نعيش بثمنها مدة طويلة • ثم اننى فى أسوأ الاحتمالات ، أستطيع أن أعين لوظيفة فى الدولة ، وسيُسر أبى لهذا سروراً عظيماً ، فهو يحضنى دائماً على الانتماء الى وظيفة من الوظائف ، وأنا أرفض بدعوى ان حالتى الصحية لا تساعدنى على ذلك (وقد تقدمت

فعلاً بطلب) • فاذا رأى ان الزواج قد أفادنى ، وجعلنى عاقلاً رصيناً ، وادخلنى الوظيفة ، سره ذلك ، فغفر لى •

ـ ولكن ، يا ألكسى بتروفتش ، هل فكرت فى القضية القائمة الآن بين أبيك وأبيها ؟ ثم هل فكرت فيما سيجرى هذا المساء فى بيت أهلها ؟

قلت ذلك وأنا أومىء الى ناتاشا التى امتقع لونها عند سماع هـذا الكلام حتى لكأنها ميتة • كنت بلا شفقة ولا رحمة •

ـ نعم نعم ، انك على حق • الامر فظيع • لقد فكرت فى هذا قبل الآن ، وتألمت كثيراً ، وعذبنى ضميرى • ولكن ماالعمل ؟ انك على حق ، ليت أبويها ، على الاقل ، يغفران لنا ! آه لو تعلم كم أحبهما ! انهما لى بمثـابة الأهـل ، وانظـر كيف أكافئهمـا ! آه من هـذه الدعاوى وهـذه القضـايا ! لا تسـتطيع أن تتصور قسـوة هـذه الأمور علينا الآن ! ولماذا يتخاصمون ! اننا متحابون جميعاً ، ومع ذلك نتخاصم ! ينبغى أن نتصالح ، وألا نعود الى ذكر هذا الموضوع أبداً ! هذا ماكنت أفعله لو كنت فى مكانهم • ان ماتقوله يخيفنى • ناتاشا ، انها فظيعة هذه المؤامرة التى ندبرها ، وقد قلت لك ذلك من قبل ، وانت التى تلحين وتصرّين : ولكن اسمع يا ايفان بتروفتش ، لعل هذه الامور جميعها أن تنحل على خير مانحب • ما رأيك ؟ سوف يتصالحون أخيراً ! ونحن الذين سنعمل لذلك • هذا ماسيحدث حتماً ! لن يقاوموا طويلاً ازاء حبنا •• قد يلعنوننا الآن ، ولكننا ، نحن ، سنظل نحبهم ، ولن تطول مقاومتهم بعد ذلك • ان أبى ذو قلب طيب فى بعض الاحيان ، لا تستطيع أن تتصور الى أى حد ! وهو فى بعض الظروف يقدر الامور قدرها ، رغم مظهره القاسى • ليتك رأيته اليوم وهو يخاطبنى ويسدى الىّ بنصائحه ، اذن لعرفت مدى رقته ونعومته • وهاءنا ذا فى هذا اليوم نفسه أعصى ارادته ! لشد مايؤلمنى هذا ! وما السبب فى هذا كله ؟ أفكار خاطئة استقرت فى ذهنه • جنون•

لو قد نظر الى ناتاشا مرة واحدة ، وجالسها نصف ساعة ، اذن لوافق على زواجنا موافقة تامة •

قال أليوشا ذلك وهو يلقى على ناتاشا نظرة حب رقيق ملتهب •

وتابع يقول :

ـ طالما تخيلت ، فى لذة ونشوة ، انه متى رآها أحبها ، وانها ستفتنهم جميعاً بلا استثناء • ما من أحد منهم رأى فتاة مثلها فى حياته • ان أبى يظن أنها بنت ماكرة متلاعبة •• علىّ أنا ان أرد اليها اعتبارها ، وسأفعل ذلك ! آه يا ناتاشا ، ان كل الناس يحبونك ، كل الناس ، وليس هناك أحد يستطيع أن لا يحبك •• أحبينى أنت يا ناتاشا ، رغم اننى لا أستحقك ، انت تعرفين من أنا على كل حال • ناتاشا ، ليس بيننا وبين السعادة الا قليل • لا ، لا ، اعتقد ان هذا المساء سيجلب ، لنا جميعاً ، السعادة والسلام والوئام ! بورك هذا المساء ! أليس كذلك يا ناتاشا ؟ ولكن ماذا دهاك يا ناتاشا ؟ رباه ، ما بك يا ناتاشا ؟

كانت شاحبة شحوب الاموات • كانت تحدق فى أليوشا طوال الوقت ، وهو يتحدث ويطنب فى الحديث • كانت نظرتها تزداد قلقاً وسكونا ، وكان وجهها يزداد شحوبا واصفراراً • حتى لقد تراءى لىانها أصبحت فى آخر الامر لا تصغى الى الحديث ، كأنها فى غيبوبة • فلما صاح بها أليوشا كانت كمن يصحو من غيبوبة على حين فجأة ، فاذا هى تعود الى نفسها ، وتنظر حولها ، ثم تهرع نحوى بغتة ، وتخرج من جيبها رسالة تمدها الى ، كأنها تحاول أن تخفى ذلك عن أليوشا • كانت الرسالة بعنوان أهلها ، مؤرخة بتاريخ الامس ، وقد نظرت الى ، وهى تناولنى الرسالة ، نظرة ملحاحاً ، كأنها تحاول بهذه النظرة أن تتعلق بى : كان فى وجهها يأس هائل ، لن أنسى فى حياتى هذه النظرة

الفظيعة • واستبد بى الخوف أنا أيضاً ، ورأيت انها فى هذه اللحظة انما تشعر بهول ما أقدمت عليه • وحاولت أن تقول لى شيئاً ، بل لقد بدأت بالكلام ، ولكنها أغمى عليها فجأة ، واستطعت أن أمسك بها قبل أن تقع ، وامتقع لون أليوشا رعبا ، وأخذ يحك صدغيها ، ويقبل يديها وشفتيها • وبعد دقيقتين او ثلاث دقائق عادت الى شعورها • كانت العربة التى جاء بها أليوشا تقف غير بعيد منا ، فناداها أليوشا ، فلما استقرت ناتاشا فى العربة ، تناولت يدى كالمجنونة وسقطت على أصابعى من عينيها دمعة محرقة • وتحركت العربة • ظللت فى مكانى مدة طويلة أتابع العربة حتى غابت عن نظرى • فى هذه اللحظة ماتت سعادتى كلها ، وتحطمت حياتى • شعرت بذلك فى ألم حاد •• وعدت ادراجى ببطء ، الى العجوزين • كنت لا أعلم ماذا سأقول لهما ، ولا كيف أدخل عليهما • كان فكرى مخدراً ، وكانت ساقاى تترنحان تحتى •

تلكم هى قصة سعادتى كلها • هكذا انتهى حبى • وسأعود الآن اكمل قصتى التى قطعتها •

الفصل العاشر

بعد موت سميث بأربعة أيام أو خمســـة ، ذهبت الى غرفته أسكنها . كنت قد شعرت خـــلال ذلك النهار كله بحزن لايطاق . كان الجو قاتماً بارداً . وكان يهطل ثلج رطب يمازجه مطر . وفي المساء فحسب ، ظهرت الشمس في طرفة عين ، وانسل أحد أشعتها الى غـرفتي انسلالا يحـدوه حب الاسـتطلاع من غير شـك . وبدأت أندم على انني هجرت منزلي . كانت الغرفة مع ذلك واسعة ، ولكنها واطئة ، مدخنة ، تفوح فيها رائحة الهواء الفاسد ، وكانت فارغة فراغا مزعجا ، رغم وجود بعض الأثاث . منذ تلك اللحظة شعرت انني سأفقد في هذا المنزل ما بقي لي من عافية . وقد تحقق ذلك .

قضيت الصباح كله في عراك مع أوراقي أصنفها وأرتبها. وكنت قد نقلتها في كيس الوسادة لأنني لا أملك حقيبة ، فتكومت واختلطت . حتى اذا انتهيت من ترتيبها جلست للكتابة . كنت في ذلك الوقت ما أزال بسبيل كتابة روايتي الكبيرة . الا انني لم أجد في نفسي ميلاً الى العمل . كان ثمة هموم أخرى تتزاحم في فكري ...

رميت القلم ، وجلست قريبــاً من النافذة . كان المســاء يهبط ، وازداد شعوري بالحزن . وهاجمتني أفكار سود شتى . لقد تراءى لي دائماً أنني سأنتهي في بطرسبرج الى الفناء ، وكان الربيع يقترب ، فبدا لي أنني سأنتعش وأحيا من جديد متى خرجت من هذه القوقعة الى الهواء

الطلق ، متى تنشقت الرائحة الطرية ، رائحة الحقول والغابات . اننى لم أر الحقول والغابات منذ مدة طويلة ! وخطر على بالى ، فيما خطر ، أن من الافضل أن أنسى نسياناً تاماً كل ما كان ، وكل ما عشته في هذه السنين الاخيرة .. أن أنسى كل شيء ، أن أجدد روحي ، وأستأنف حياتي بقوى جديدة . كنت أحلم بهذا ، وأنتظر أن أبعث بعثاً جديداً . قلت فى نفسى « أذهب الى مستشفى من مستشفيات المجانين عند الاقتضاء ، حتى يتحرك كل شيء فى الدماغ ويعود الى مكانه ، ثم أشفي . » كان بي ظمأ الى الحياة ، وكنت أؤمن بالحياة . ولكننى أتذكر الآن أننى ماكدت أفكر فى هذا حتى أخذت أضحك ، وسألت نفسى : وبعد خروجي من مستشفى المجانين ، ماعسانى فاعلاً ؟ أليس كتابة روايات ، دائماً .

هكذا كنت أحلم وأتألم ، وكان الوقت أثناء ذلك ينقضي . وكان الليل يهبط . ولقد كنت فى ذلك المساء على موعد مع ناتاشا . لقد أرسلت الى الليلة البارحة بطاقة تدعونى فيها الى المجيء اليها. فلما تذكرت ذلك قفزت من مكانى ، وأخذت أهيىء نفسى . كان بى على كل حال رغبة ملحة فى أن أنتزع نفسى من هذا المنزل بأقصى سرعة ممكنة ، ولو الى أى مكان ، تحت المطر ، فى الثلج الموحل .

وكنت كلما تكاثفت الظلمة أشعر أن غرفتى تزداد اتساعاً. وتخيلت اننى ، فى كل ليلة ، فى هذا الركن ، سأرى سميث : أنه سيكون جالساً يحدق فيّ كما كان يحدق فى آدم ايفانوفتش ، بالمقهى ، وآزور بين قدميه . وفى هذه اللحظة تماماً ، وقع حادث هزنى هزاً قوياً .

ينبغى أن أكون صريحا على كل حال : لعل هذا أن يكون راجعاً الى اهتياج أعصابى ، الى هذه الاحساسات الجديدة فى المسكن الجديد ، الى هذه الكآبة الاخيرة ؟ المهم على كل حال اننى قد أخذت أعانى متى

اقترب المساء هذه الحالة النفسية التي تغشاني كثيراً في الليل ، في أيام مرضي هذه ، هذه الحالة التي أسميها « ذعراً غيبياً » . انها أضنى أنواع الخوف وأكثرها تعذيبا للنفس . هي خوف من خطر لاأستطيع أنأحدده أنا نفسي ، من هلاك لايمكن تصوره ، ولا وجود له في طبيعة الاشياء ، لكنه قد ينتصب أمامي الآن ، في هذه اللحظة نفسها ، مستهتراً بجميع حجج العقل ، كواقع لا يمكن دفعه ، مخيف جهنمي فظيع . هذا الخوف يشتد ويقوى في العادة شيئاً بعد شيء رغم جميع مايخلص اليه العقل من نتائج ، حتى ان الفكر ينتهي اخيراً ، مع انه في مثل هذه اللحظات قد يكتسب مزيداً من الصفاء والوضوح ، الى ان يفقد كل قدرة على معارضة الاحساسات ومقاومتها ، فاذا المرء لا يصغي اليه واذا الفكر عاجز . وهذا الازدواج يزيد ما يشعر به المرء من قلق مذعور يتوقع شيئاً رهيباً . اغلب ظني ان هذه الاحوال هي بعض ما يشعر به اولئك الذين يخشون عودة الموتى . الا ان غموض الخطر كان يقوّي عذابي وانا فيما انا فيه من قلق .

اذكر انني كنت ملتفتاً الى الحائط اتناول قبعتي من على المنضدة ، حين خطر على بالي ، فجأة ، في تلك اللحظة تماماً ، انني متى التفت الى الوراء فسأرى سميث حتماً ؛ انه سيفتح الباب اولا في رفق ، وسيظل في العتبة يجيل النظر في الغرفة ، وانه سيدخل بعد ذلك صامتاً في هدوء ، خافض الرأس ، وسيقف امامي يتفرسني بعينيه القلقتين ، ثم يأخذ يضحك مني ، على حين بغتة ، ضحكة صامتة طويلة ، مكشراً عن لثة ليس فيها اسنان ، وان جسمه سيهتز من هذه الضحكة اهتزازاً يستمر مدة طويلة .

وارتسم هذا المشهد في خيالي ، على حين فجأة ، صورةً واضحة دقيقة الى اقصى حدود الوضوح والدقة ؛ وفي الوقت نفسه رسخ في نفسي

اعتقاد لا يتزعزع ، اعتقـاد جازم مطلق بأن هـذا كله سيتحقق حتماً ، وانه واقع لا محـالة ، بل انه قد حصـل فعلاً ، ولكنني لا اراه لانني ملتفت الى الحائط ، وربما كان الباب يُفتح الآن • والتفت بسرعة : فاذا الباب يفتح فعلاً ، في رفق ، وهـدوء ، تماماً كما تصورت قبل لحظة • صرخت • ومضت مدة طويلة دون ان يظهر احد ، كأن الباب قد فتح من تلقاء نفسه • وفجأة ظهر في العتبة مخلوق غريب : بدا لي في هذه العتمة ان عينيه تحدقان فيّ بالحاح ولجاجة ، فسرت في جسـمي كله قشعريرة باردة • وفيما انا في هذا الذعر الهائل رأيت ان الزائر طفلة ، طفلة صغيرة ، ولو كان الزائر سميث نفسه فلعلني ما كنت لاذعر كل هذا الذعر الذي انتابني لدى ظهـور هذه الطفلة هذا الظهور الغـريب في غرفتي ، في هذه الساعة ، في مثل هذه اللحظة •

قلت انها فتحت الباب بهدوء كبير ، وبطء كبير ، كأنها تخاف ان تدخل • وبعد ان دخلت وقفت في العتبة ، وتفرستني طويلا كأنها مصعوقة من فرط الدهشة ، واخيرا خطت نحوي خطوتين ، ووقفت امامي ، دون ان تنبس بكلمة • وتأملتها من كثب • انها طفلة في الثانية عشرة او الثالثة عشرة من عمرها قصيرة القامة ، نحيلة شاحبة كأنها ناهضـة من مرض خطير ، وعيناها تلتمعان ببريق قوي • كانت تشـد الى صدرها ، بيدها اليسرى ، « شالاً » مهترئا مثقبـا يغطي صـدرها ، وهي ترتعـد من برد المساء • كانت ملابسـها مما يمكن أن يوصف حقـاً بأنه أسمال خلقـة • وكان شعرها الاسود الكثيف المنفوش يتهدل على كتفيها خصلا • وبقينا هكذا متسمرين ، دقيقتين أو ثلاث دقائق ، يتفرس كل منا الآخر •

سألتني بصوت اجش لايكاد يُسمع ، كأن صدرها او حلقها يؤلمها:

ــ اين جدي ؟

فتبدد ، لدى هذا السؤال ، كل الذعر الغيبي الذى كنت اشعر به. انها تسأل عن سميث . ها هى اذن آثاره تظهر .

ـ جدك ؟ مات منذ مدة !

قلت ذلك دون تبصر ، وسرعان ما ندمت على هذا الجواب . ظلت واقفة على وضعها نفسه مدة دقيقة تقريبا ، ثم اذا هى ، فجأة ، تأخذ ترتعد من قمة رأسها الى اخمص قدميها ارتعاداً قويا عنيفا كأنها على ابواب نوبة. فأمسكتها لأمنعها من السقوط . وبعد بضع دقائق تحسنت حالها ، ورأيت انها تبذل جهداً فوق طاقة البشر لتخفى عنى اضطرابها . قلت :

ـ سامحينى ، سامحينى ، يا بنيتى . لقد ابلغتك الخبر بقسوة .. وقد لايكون هـذا الخبر صحيحا يا بنيتى المسـكينة !.. عمن تبحثين ؟ عن العجوز الذى كان يسكن فى هذا المنزل ؟

فدمدمت تقول فى جهد ، وهى تنظر الىّ قلقة :

ـ ن...عم .

ـ اذن هو .. هو الذى مات .. ولكن لاتحزنى يا صغيرتى . لماذا لم تجيئى قبل هذا الوقت ؟ ومن اين تجيئين الآن ؟ لقد دفنوه امس ... لقد مات فجأة ، بغتة .. انت اذن حفيدته ؟

لم تجب البنت على اسئلتى هذه المضطربة السريعة ، بل دارت دون ان تنبس بكلمة ، وخرجت من الغرفة بهدوء . كنت من فرط الاضطراب بحيث لم أمنعها من الخروج ، ولم أطرح عليها أسئلة أخرى . وتوقفت مرة اخيرة فى العتبة ، والتفتت نحوى نصف التفاتة لتقول :

ـ وآزور ايضاً مات ؟

ـ نعم ، آزور ايضاً مات .

وبدا لى سؤالها عجيباً ، لكأنها مقتنعة بأن آزور لا بد ان يموت هو والعجوز فى وقت واحد • وبعد ان سمعت جوابى ، خرجت من الغرفة دون ضجة ، واغلقت وراءها الباب فى كثير من الهدوء •

وبعد دقيقة ، هرعت وراءها ، وأنا ألوم نفسى على انني تركتها تمضي، كانت قد خرجت فى سكون تام ، حتى انني لم اسمع فتح الباب الثانى المطل على السـلم ، فقدرت انها لم تخـرج بعد ، فوقفت عند المدخل اصيخ بسمعي • ولكن كل شيء كان هادئاً ، وما من صوت يسمع ، الا صرير باب يغلق فى الطابق الأسفل ، ثم يعود كل شيء الى الصمت •

وهبطت على السلم بسرعة • كان السلم بين الدور الخامس والدور الرابع يدور حلزونياً ، ثم يمضي بعد ذلك مستقيما • وكان مظلماً قذراً ، أسود ، كسائر السلالم التى نراها فى هذه العمارات من العاصمة ، هذه العمارات المقسمة الى منازل صغيرة • وكان فى هذه اللحظة مظلماً ظلمة تامة ، فلما وصلت الى الدور الرابع وانا اتلمس طريقى تلمساً ، توقفت كأنما اعتقدت فجأة ان هاهنا ، عند المدخل ، شخصاً يختبيء عني ، فأخذت أتقراه بيدى • كانت البنت هنالك فعلاً ، فى الركن تماماً ، مسندة وجهها الى الحائط ، تبكى فى صمت •

ـ اسمعى ، ماالذى يخيفك؟ هل أخفتك الى هذا الحد ؟ انها غلطتي• لقد تكلم عنك جدك وهو يموت •• كانت آخر كلماته عنك •• ثم لقد بقيت كتبه عندى • انها لك طبعا • ما اسمك يا بنيتى ؟ أين تسـكنين ؟ الشارع السادس ••

ولكنى لم أتم كلامى ، فقد انطلقت من صدرها صرخة مذعورة ،

كأنهـا خافت ان اعرف أين تسـكن ، ودفعتنى بيدها الصـغيرة النحيلة المعروقة ، وأسرعت تهبط السلم . وتبعتها . كنت لا أزال أسمـع وقع أقدامها تحت .. وفجأة لم أعـد أسـمع وقع أقدام . وحين قفزت الى الشـارع ، لم تكن هنـالك . وبعد ان ركضت بسرعة حتى « شـارع الصعود » أدركت أن البحث عنها عبث : لقد اختفت . قلت فى نفسى لعلها اختبأت فى مكان ما وهى تهبط السلم .

الفصل الحادي عشر

ولكن ما ان وضعت قدمى على رصيف الشارع القذر ، حتى اصطدمت فجـأة برجل مستغرق فى حلم عميق ، يسير مطرق الرأس بخطى سريعة • فما كان أشد دهشتى حين نظرت اليه فاذا هو العجوز اخمنيف • كان هذا المساء مساء المصادفات العجيبة • كنت أعرف أن العجوز كان قبل ذلك بثلاثة أيام يعانى مرضاً ، وهأنذا ألقاه فجأة فى الشارع ، فى مثل هـذا الجو الرطب ! ثم انه لا يكاد يخـرج أبداً فى المساء ؛ ومنذ ذهبت ناتاشا ، أى منـذ ستة أشهر تقريبا ، أصبح حبيس البيت لا يبرحه أبداً ، وسرَّ بلقائى أكثر مما عهدت فيه من سرور حين يلقانى ، سرَّ سرورَ من يعثر أخيراً على صديق يستطيع أن يشاركه أفكاره • تناول يدى ، وضغطها بقـوة ، وجرنى فى اتجاهه دون أن يسألنى الى أين أنا ذاهب • كان ثمة شىء يشغل باله ، وكان مستعجلا قلقاً • قلت لنفسى : ترى أين يذهب ؟ وكان من الخطل أن أطرح عليه هذا السؤال • فلقد أصبح شكاكا الى أبعد حدود الشك ، حتى لقد يرى فى أبسط سؤال أو ملاحظة غمزا مهيناً أو اساءة خطيرة •

ونظرت اليه بطرف العين : كان وجهه وجه مريض • لقد نحل فى المدة الاخيرة نحولا شديداً • ولاحظت انه لم يحلق ذقنه منذ مايقرب من اسبوع • كان شعره الذى ابيض تماماً ، يخرج من تحت قبعته

المشوهة فوضى ، ويتدلى خصلا طويلة على ياقة معطفه العتيق البالى • وكنت قد لاحظت ان له لحظات غيبوبة : من ذلك أن ينسى فى بعض الاحيان انه ليس وحده فى الغرفة ، فيأخذ يكلم نفسه ، ويحرك يديه ببعض الاشارات • كان منظره اذ ذاك مؤلماً •

ـ قل لى يا فانيا • ماذا وراءك ؟ الى اين كنت ذاهباً ؟ اما انا فقد خرجت لبعض الاعمال • كيف حالك ؟

ـ وأنت كيف حالك ؟ كيف تخرج وقد كنت مريضاً منذ زمن قصير ؟

لم يجب العجوز على سؤالى ، وبدا لى انه لم يسمعنى •

ـ كيف حال آنا آندريفنا ؟

ـ بخير ، بخير •• ثم انها مريضة هى ايضاً •• لا ادرى ماذا بها •• لقد اصبحت حزينة •• وهى تذكرك وتتحدث عنك كثيراً • لماذا لا تأتى الينا يا فانيا ؟ لعلك كنت آتياً الينا الآن ؟

ولكنه سألنى فجأة وهو يلقى علىّ نظرة شك وحذر :

ـ ربما كان وجودى يزعجك ؟

كان العجوز قد بلغ من فرط الحساسية وسرعة التهيج انه لو جاءه جوابى بأننى غير ذاهب اليهم الآن ، لعد الجواب اهانة فتركنى على جفاء حتما • فأسرعت أقول اننى ذاهب اليهم حقاً ، لأزور آنا أندريفنا (كنت اعلم مع ذلك اننى متأخر ، وان وقتى قد لا يتسع للذهاب الى ناتاشا) •

ـ هذا حسن •• حسن جدا •

قال العجوز ذلك مطمئناً • وفجأة سكت وأخذ يفكر ، كأنه لم يتمّ ما اراد قوله •

وبعد ذلك بأربع أو خمس دقائق كرر يقول :

ـ نعم هذا حسن .

قال ذلك على نحو آلى ، كمن يستيقظ من حلم عميق .

ثم اردف :

ـ هل تعلم يا فانيا ؟ لقد كنت لنا دائماً بمثابة ابن . لم يرزقنا الله ابناً ، انا وآنا آندريفنا ، فأرسلك الينا لتكون لنا بمنزلة الابن. هذا ماخطر على بالى دائماً .. نعم . ولقد كان سلوكك معنا دائماً سلوك الابن البار الذى يحترم ابويه ويحبهما . رضى الله عنك يا فانيا كما نرضى عنك كلانا ، وكما نحبك .. نعم !

واخذ صوته يرتجف ، وانتظر ما يقرب من دقيقة .

ـ نعم ... هل كنت مريضاً يا فانيا ؟ لماذا لم تأت الينا طوال هذه المدة ؟

فقصصت عليه قصة سميث ، وقلت ، على سبيل الاعتذار ، ان هذه المسألة هى التى شغلتنى ، واننى عدا ذلك كنت على وشك ان أمرض ،وان هذه المتاعب كلها هى التى حالت بينى وبين قطع هذه المسافة البعيدة الى فاسيلى اوستروف لزيارتهم (فى فاسيلى اوستروف انما كانوا يسكنون فى ذلك الوقت) . وكاد يفلت من لسانى أننى قد اتيح لى مع ذلك ان أزور ناتاشا ، لكننى فطنت فتوقفت .

وقد اهتم العجوز كثيراً بقصة سميث ، واصغى اليها باهتمام شديد. ولما علم ان مسكنى الجديد أرطب من مسكنى القديم وربما كان أسوأ منه أيضاً ، وان أجرته ستة روبلات ، غضب غضباً شديداً . لقد أصبح سريع الغضب نافد الصبر . وكانت آنا آندريفنا هى الوحيدة التى تستطيع أن تهدىء من روعه ، فى بعض الأحيان لا فى جميع الأحيان .

صرخ فيما يشبه الكره :

ـهم ٠٠ هل هذا من الأدب يا فانيا ٠ لقد أوصلك أدبك الى هذا المسكن الحقير ، وسيوصلك يوماً الى المقبرة ٠٠ قلت لك هذا منذ زمان ، تنبأت به منذ مدة طويلة ! وماذا جرى لصاحبك ب ٠٠ أما يزال يكتب نقداً ؟

ـ لقد مات مصدوراً ٠ تعرف ذلك ٠ اظن انني ذكرت لك هذا الامر ٠

ـ مات ٠٠ هم ٠٠ مات ٠٠ هذا طبيعي ٠ هل ترك شيئاً لامرأته وأولاده ؟ لقد ذكرت لي انه كان متزوجاً ٠٠ لماذا يتزوج مثل هؤلاء الناس ؟

ـ كلا ، لم يترك شيئا

فهتف في حنق كأن الامر يتصل به اتصالا وثيقاً ، كأن المتوفى ب ٠٠ اخوه :

ـ طبيعي ٠٠ لم يترك شيئاً ، لم يترك شيئاً أبداً ٠ هل تعلم يا فانيا أنني أدركت منذ زمان ، منذ الوقت الذي كنتَ لا تكلُّ فيه عن كيل الثناء له ، انه سينتهي الى هذا المصير ؟ هل تتذكر ؟ لم يترك شيئاً البتة ! الكلام سهل ! هِمْ ٠٠ لقد نال المجد ، بل لعله نال مجداً خالداً ، ولكن المجد لا يطعم خبزاً يا بني ٠ منذ ذلك الوقت تنبأت بكل هذا لك انت ايضاً يا عزيزي ٠ كنت اهنئك على نجاحك في الادب ، ولكنني كنت بيني وبين نفسي اوجس شراً ٠ اذن لقد مات ب ٠٠؟ وكيف لا يموت ؟ ان الحياة جميلة ، وهذا المكان جميل ٠٠ انظر !

قال ذلك واشار بحركة من يده سريعة غير مقصودة ، الى فضاء الشارع يملؤه الضباب وتنيره اشعة القناديل ضعيفةً مهتزة ، والى البيوت القذرة ، والى بلاط الارصفة يلتمع من الرطوبة ، والى المارة النائئة

عظامهم من فرط النحول المتقلصة وجوههم من شدة الهم ، الى كل هذه اللوحة التي تلفها سماء بطرسبرج قبة قاتمة ملطخة بحبر اسود . وشارفنا الميدان . فأمامنا في الظلام ينتصب تمثال نيقولا الاول ، تضيئه من الاسفل مصابيح الغاز ، وتقوم وراءه كاتدرائية القديس اسحاق كتلة كبيرة قاتمة تخترق السماء المظلمة .

ـ قلت لي يا فانيا ان هذا الرجل كان رجلاً طيباً ، نظيفاً ، شريفاً ، ذا قلب نبيل . هم .. انهم جميعاً هكذا ، هؤلاء الناس ذوو القلوب النبيلة ، لا يجيدون الا أن يزيدوا عدد اليتامى ! ويخيل الي انه كان فرحاً بالموت . هه هه .. فرحاً بالذهاب الى أي مكان بعيد ، ولو الى سيبريا . ماذا تريدين أيتها الصغيرة ؟

قال هذه العبارة الاخيرة فجأة اذ بصر على الرصيف بطفلة تطلب صدقة .

هي طفلة صغيرة نحيلة ، في السابعة من عمرها ، او في الثامنة على اكثر تقدير ترتدي اسمالا قذرة . كانت قدماها عاريتين في حذاء مثقب، وكانت تحاول ان تغطي جسمها الصغير المرتعش من شدة البرد بما يشبه معطفاً صغيراً مهترئاً اصبح منذ مدة طويلة قصيراً عليها . وكان وجهها النحيل ، المريض الشاحب ، ملتفتاً نحونا . كانت تنظر الينا خجلى لاتقول شيئاً ، وتمد يدها المرتعشة بنوع من الخوف والتردد . وحين رآها العجوز اخذ يرتعش من قمة رأسه الى اخمص قدميه ، واستدار نحوها مسرعاً ، حتى انها من فرط سرعته خافت ، فارتعدت ، وابتعدت .

ـ ماذا تريدين ياصغيرتي ؟ ماذا تريدين ؟ تريدين احساناً ! خذي! خذي هذا لك .

قال ذلك وأخذ يبحث في جيبه مرتجفا من شدة الانفعال ، فأخرج

منها قطعتين من النقود أو ثلاثا ، الا انه رأى ذلك قليلا ، فأخرج محفظته وسحب منها ورقة روبل (هي كل ما وجده) ووضع الورقة والنقـود جميعاً في يد السائلة الصغيرة •

ـ المسيح يحميك يا صغيرتي ، يا بنيتي !

ورسم اشارة الصليب عدة مرات على الطفلة البائسة ، بيد مرتعشة• ولكنه انتبه الى وجودي فجأة ، ولاحظ انني انظر اليه ، فقطب حاجبيه ، وسار بخطى سريعة •

واستأنف يقول بعد فترة طويلة من صمت غاضب :

ـ انني لا استطيع يا فانيا ان احتمل منظر هذه المخلوقات الصغيرة البريئة ترتجف من البرد في الشارع بسبب آبائها الملعونين • ولكن أية أم ترضى لطفلتها مثل هذه الكريهة ان لم تكن هي نفسها بائسة ! لا شك ان هنالك ، في الركن ، يتامى أخر ، ولعل هذه الطفلة كبراهم ، ولعل الأم مريضة هي نفسها •• هم ••

ليس هؤلاء الاطفال ابناء امير •• في الارض يا فانيا أطفال كثيرون ليسوا ابناء امراء ! هِمْ !

وصمت دقيقة ، كأنما اوقفه عن الكلام امر ما • ثم استأنف يقول مرتبكا بعض الارتباك :

ـ اسمع يا فانيا ، لقد وعدت آنا آندريفنـا •• اعني اتفقنا على أن نتبنى يتيمة •• اى يتيمة ، ولكن يجب ان تكون فقيرة طبعاً ، وان تكون صغيرة ايضاً ، نتبناها فتكون لنا •• فهمت ؟ والا قتلنا الضجر •• عجوزان يعيشان وحيدين •• همْ •• ولكن اسمع : لقد عارضت آنا آندريفنا قليلا

في هذا • كلَّمها أنتَ اذن في الموضوع ، لا على لساني طبعاً ، بل كأن الاقتراح يأتي منك على غير سابق علم لك بالامر •• برهن لها على ضرورة هذا • هل تفهم ؟ كنت اريد ان ارجوك في هذا الامر منذ مدة طويلة ، عسى أن تقنعها ، اذ يؤلمني ان اطلب اليها ذلك بنفسي • ولكن حسبي سخافات ! مالي ولهذا كله ؟ ما شأني وشأن ابنة صغيرة ! ما أنا في حاجة الى هذا ولكنني قصدت من ذلك الى التسلي ، الى ان اسمع صوت طفل • ثم انني ، والحق يقال ، انما اريد ذلك من اجل عجوزتي • فلأن يكون معنا طفلة صغيرة فذلك ادعى الى مرحها من ان تعيش معي وحدي• وتلك كلها تفاهات على كل حال • اسمع يا فانيا ، لن نصل أبدا اذا نحن سرنا سيرنا هذا • فلنركب عربة • يجب ان لا نبتعد • ان آنا آندريفنا تنتظرنا •

وحين وصلنا الى آنا آندريفنا كانت الساعة قد بلغت السابعة والنصف •

الفصل الثاني عشر

كان الزوجان العجوزان يحب كل منهما الآخر حباً عظيماً . لقد ربط الحب وربطت الألفة الطويلة بينهما برباط لاينفصم . على أن نيقولا سرجتش، في هذه المدة الأخيرة ، بل قبل ذلك في أسعد أيامه ، كان لا يظهر لآنا آندريفنا عاطفته كثيرا ، حتى لقد كان يعاملها أحياناً في خشونة ، ولا سيما أمام الآخرين . ان في أصحاب النفوس الحساسة ، المرهفة ، الرقيقة ، نوعاً من العناد في بعض الأحيان ، فترى أحدهم يأبى أن يعبر للشخص الذي يحبه عن حبه ، لابين الناس فحسب، بل وفي الخلوة أكثر مما بين الناس ، ويندر أن تفلت منه ملاطفة ، ولكنها ان افلتت كانت عنيفة قوية عارمة ، على قدر انحباسها مدة طويلة من الزمان . هكذا كان سلوك العجوز اخمينف مع عزيزته آنا آندريفنا منذ أيام الصبا . كان يحترمها ويحبها الى غير حد ، وكانت هي امرأة نبيلة القب تفيض شهامة ولا تعرف شيئاً غير أن تحب ، وكان يغضبه منها في بعض الأحيان أنها تسرف في التعبير له عن حبها . ولكن بعد ذهاب ناتاشا أصبح العجوزان كلاهما أرق مما كانا من قبل . أصبحا يشعران ، والالم يحز في نفسيهما انهما الآن وحيدان في هذا العالم . ومع ان نيقولا سرجتش أصبح في بعض الأحيان مظلم النفس الى أبعد حد ، فانهما لا يستطيعان الآن أن يفترقا ، ولو ساعتين ، دون أن يشعرا بقلق وألم .

وقد اتفقا ضمناً على أن لا يتحدثا عن ناتاشا أبداً ، كأنها لم تكن ، حتى لقد كانت آنا آندريفنا لا تجرؤ أن تذكر ناتاشا أمام زوجها بكلمة ، رغم ان ذلك كان يؤلمها • انها في أعماق قلبها قد غفرت لناتاشا منذ مدة طويلة• وقام بيني وبينها نوع من الاتفاق : أن أنقل اليها أخبار ابنتها الغالية كلما زرتها •

كانت العجوز تمرض حين تنقطع عنها اخبار ناتاشا مدة طويلة ، حتى اذا جئتها ببعض الأنباء ، اهتمت بادق التفاصيل ، واخذت تمطرني بوابل من الاسئلة ، فكانت صحتها تنتعش حينئذ وتتحسن ؟ وفي ذات مرة كادت تموت رعباً حين علمت ان ناتاشا مريضة ، وأوشكت ان تذهب اليها لتعودها • الا ان ذلك صعب جداً • كانت في اول الامر ، حتى امامي ، تأبى ان تعبر عن رغبتها في رؤية ابنتها ، وكانت دائماً ، بعد احاديثنا عن ناتاشا ، وبعد ان تحصل مني على جميع الانباء التي تريد معرفتها ، لا تنسى ان تحاول ضبط عواطفها ، فتزعم انها على اهتمامها بمصير ابنتها ، تعتبر جريمتها جريمة نكراء لا يمكن ان تغتفر • ولكن هذا كله كان تصنعا • وكانت تبلغ من شدة القلق في بعض الأحيان أنها تأخذ تبكي ، مغدقة على ناتاشا أمامي أحرّ العواطف ، مطلقة عليها أعذب الاسماء ، شاكيةً نيقولا سرجتش مرّ الشكوى ، حتى لقد اخذت على مسمع منه تغمز ، في رفق وأناة ، من كبرياء الناس شاكيةً قسوة قلوبهم، قائلة اننا لا نغفر الاساءات ، وان الله لا يغفر لمن لا يغفرون • الا انها لم تكن تذهب الى ابعد من هذا امامه • وفي تلك اللحظات ما يلبث العجوز ان يقسو ويظلم وجهه ، ويصمت مقطبا حاجبيه ، او يأخذ على حين فجأة يتحدث بصوت عال جداً وفي غير لباقة عن اشياء اخرى ، او يتركنا وحدنا ويذهب الى غرفته ، ويدع بذلك لآنا آندريفنا ان تسكب همها كله في صدري دموعاً وتفجعاً • وكان يذهب الى غرفته أيضاً عند كل زيارة من

زياراتى ، منذ يحيينى ، ليتيح لى أن انقل الى آنا آندريفنا كل ماالحمل من أنباء جديدة عن ناتاشا • وهذا ما فعله فى ذلك اليوم ، فما ان دخلنا على آنا آندريفنا حتى قال :

ـ انا ذاهب الى غرفتى يا فانيا ، لاننى مبلل اريد ان اغير ملابسى • ابق انت هنا يا فانيا • لقد وقع له حادث فى منزله ؟ قُصَّ عليها هـــذا الحادث • سأعود بعد قليل ••

وخرج مسرعاً ، يحاول ألا ينظر الينا ، كأنما يؤنبه ضمـيره على انه جمعنا • وفى مثل هذه الحالات ، لا سيما حين يعود الينا ، كان يبدو خشناً معى ومع آنا آندريفنا ، بل فظاً مزعجاً ، كأنه يلوم نفسه ويقرعها على ضعفها وتهاونها •

وقد اصبحت آنا آندريفنـا فى المـدة الاخيرة لا تخفى عنى شـــيئا ولا تتصنع ولا تتكلف ، فلما خرج زوجها قالت :

ـ أرأيت ؟ انه دائما هكذا معى • وهو يعلم مع ذلك اننا ندرك كل حيله • لماذا يتكلف امامى ؟ أأنا غريبة عنه ؟ ولقد كان كذلك مع ابنته • ان فى وسعه ان يغفر لها ، ومن يدرى ! فلعله يريد ان يغفر لها • انه يبكى فى الليل • لقد سمعته باذنى • لكنهُ يحافظ على مظهر الصـــلابة والقسوة • ولقد افقده الضعف صوابه •• قل لى يا عزيزى ، يا ايفان بتروفتش ، قل لى حالا : الى أين ذهب ؟

ـ من ؟ نيقولا سرجتش ؟ لا أدرى : هذا ما كنت أريد أن أسألك عنه •

ـ لقد ذعرت حين رأيته يخرج وهو مريض ، فى هذا الجو السيىء ليلا •• قلت لنفسى لا بد انه خارج لأمر خطير • وهل ثمة ما هو أخطر من القضية التى تعرفها ؟ قلت ذلك لنفسى ولكنى لم اجرؤ ان اسأله •

لقد اصبحت لا اجرؤ ان اسـألـه عن شيء • يا الهي ، اصبحت بسببه ، وبسببها ، طائشة اللب • قلت لنفسي : لعله ذاهب اليها ، لعله قـرر أن يصفح عنها • ذلك انه يعرف كل شيء ؛ انه على علم بكل ما يتعلق بها ، على علم حتى بآخر أنبائها • أنا مقتنعة بأنه يعرف جميع أخبارها ، رغم انني لا افهم من اين يأتي بهذه الأخبار • كان في مساء امس قلقاً جداً ، وما يزال كذلك الى اليوم • ولكن لماذا لا تقول شيئا ؟ تكلم يا عزيزي • ماذا حدث ؟ لقد انتظرتك انتظار المهدي ، وترقبت حضورك من لحظة الى اخرى • اذن لقد هجر هذا الحقير ناتاشا ؟

قصصت على آنا آندريفنا كل ما اعـرفه • لقد كنت صريحاً معها دائما • أبلغتها ان ناتاشا وأليوشا سائران الى الانفصال حقا ، وان الامر في هذه المرة أخطر من جميع الخلافات التي وقعت بينهما قبل ذلك • وذكرت لها ان ناتاشا أرسلت الي أمس رسالة تسـألني فيها ان آتي اليها هــذا المساء ، في الساعة التاسعة ، وانني لهذا السبب لم أفكر في المجيء اليهم اليوم ، وان نيقـولا سرجتش هو الذي قادني على غــير ارادة مني ، وشرحت لها ، بتفصيل ، ان الموقف الآن حرج ، وان ابا اليوشا ، وقد عاد منذ خمسة عشر يوما تقريبا ، لا يريد أن يســمع شيئاً ، وانه قرع اليوشا تقريعا عنيفا قاسيا ، وان الاخطر من هـذا كله ان اليوشا لا يأخذ على خطيئته شيئاً ، بل انه ، فيما يقال ، مغرم بها • واضفت ان ناتاشا ، فيما أقدر ، قد كتبت رسالتها الي وهي في حالة اضطراب شديد ؛ فهي تقول في رسالتها ان كل شيء سيتقرر هذا المساء ، والغريب ان تكتب الي امس ترجوني ان احضر اليوم ، في ساعة معينة هي التاسعة • لذلك لابد لي ، حقا ، من الذهاب بأقصى سرعة •

اخذت العجوز تقول مضطربة :

ـ اذهب اليها يا عزيزي ، اذهب اليها • ستتناول قليلا من الشاي

متى عاد . آه اين السماور ؟ نعم سوف تتناول قليلا من الشاى ، ثم تنتحل عذراً مقبولا لتذهب . وغدا تعود حتما لتقص علىّ كل شيء . وارجوك أن تبكر . ياالهى ! أتكون هنالك مصيبة جديدة أسوأ من المصائب السابقة ! قلبى يحدثنى بأن نيقولا سرجتش على علم بكل شيء . أنا شخصيا اطلع على أشياء كثيرة بواسطة ماتريونا ، وماتريونا تطلع على هذه الاشياء بواسطة آجاتى ، وآجاتى قريبة مارى فاسلفنا التى تسكن فى بيت الامير .. ولكنك تعرف كل هذا . لقد كان نيقولا فى حالة غضب هائل ، حتى كاد ينفجر صارخا فى وجهى ، الا انه ندم على فعلته ، فأبلغنى انه فى ضيق مالى .. كأنما ليزعم انه انما يصرخ لانه فى ضيق مالى . ولكنك تعلم حالتنا المالية . وبعد الغداء ذهب لينام فالقيت نظرة من خلال الشق (ان فى باب غرفته شقا لا يعرفه) ، فرأيته راكعا ، يا صديقى ، أمام صور القديسين يصلى . فحين رأيت ذلك خارت قواى واصطكت ركبتاى . لم يشرب قدح الشاى الذى اعتاد أن يشربه ، ولا نام بعد الظهيرة على عادته ، بل تناول قبعته وخرج . وفى الساعة الخامسة لم اجرؤ ان اطرح عليه اى سؤال ؛ ولو قد سألته عن شيء لصرخ فى وجهى . لقد اعتاد أن يصرخ فى وجه ماتريونا غالبا ، وفى وجهى أنا أحيانا . ومتى بدأ يصرخ تتعطل ساقاى وأشعر كأن شيئا من قلبى ينتزع . شيء فظيع . وحين خرج ظللت أصلى ، وأدعو الله ، ساعة كاملة ، أن يلهمه الرشد وأن يرده الى الصواب . ولكن اين رسالة ناتاشا ، ارنيها !

اريتها الرسالة . وكنت اعلم ان املها الخفى المفضل هو ان يرضى اليوشا ، الذى تنعته تارة بالحقارة ، وتارة بأنه صبى ارعن غير ذى شعور ، أن يتزوج ناتاشا ، وان يوافق أبوه ، الأمير بطرس الكسندروفتش ، على هذا الزواج . وقد زلّ لسانها مرة امامى ، فأفصحت عن املها هذا ، وان عادت عن كلامها بعد ذلك ، نادمةً على انها قالته . ولكن ما كان لها ان

تجرؤ يوما على اعلان أملها هذا أمام نيقولا سرجتش ، رغم انها تعلم ان العجوز يشتبه في ذلك ، حتى لقد لامها عليـه ، في ذات مرة ، لوماً غير مباشر . اعتقد انه لو أيقن بأن هـذا الزواج ممكن .. للعن ناتاشـا الى الأبد ، ولانتزعها من قلبه الى غير رجعة .

هذا ما كنا نعتقد به جميعا : لقد كان ينتظر ان تعـود اليه ابنتـه ، ويتمنى ذلك من أعماق قلبه ، ولكنه ينتظر ان تعود وحدها ، نادمةً على فعلتها ، نازعة من قلبها ذكرى اليوشا . كان ذلك هو الشرط الوحيد الذي يشترطه للصفح عنها ، وهو شرط لم يعلن عنه ، ولكنه في نظره شرط معقول ، ولا بد منه .

ـ انه ضعيف الارادة ، هـذا الصبي ، ضعيف الارادة ، وضعيف الشعور . لقد قلت دائما انهم لم يحسنوا تربيته ، ولد طائش . أيهجرها من اجل هذا الحب ؟ يا الهي ! ما عسى ان يكون مصير هذه المسـكينة ! وماذا أحبَّ في الأخرى ؟ انني لا أفهم ؟

ـ سمعت من يقول انها فتـاة فاتنة . ثم ان ناتاليا نيقولايفنا تقـول هذا نفسه .

ـ لا تصدق ، انكم أيها الرجال الطائشون تفتتنون بكل فتاة ، ولئن أطرت ناتاشا جمالها فما ذلك الا كرم منها وسماحة ، انها لا تعرف كيف تحتفظ باليوشا فتغفر له كل شيء ، ولكنها تتألم ! كم مرة خانهـا ، هذا اللص ، هذا المجرم ! آه يا ايفان بتروفتش ، لقد أطاش الصلف صوابهم جميعاً ! ليت عجوزي على الاقل يهدىء من روعه ، ويصفح عن صغيرتي الحبيبة ويردها الى هنا ، فأستطيع أن أقبلها ، أن أنظر في وجهها . هل نحلت ؟

ـ نعم ، يا آنا آندريفنا .

ـ آه يا صديقى ! وقد نزلت بى نازلة يا ايفان بتروفتش ، بكيت طوال الليل وطوال النهار •• ولكننى سأقص عليك ذلك فيما بعد ! كم مرة أوشكت ان اسأله ان يغفر لها ! ولكننى لا اجرؤ على مكاشفته بذلك صراحة ، فألمعت الماعا خفيا بعيداً • لقد خانتنى الجرأة ، مخافة أن يغضب فيلعنها الى الابد •• وانه لم يلعنها الى الآن ، واذا كنت أخشى شيئا فهو أن يفعل ذلك • ويا ويلى اذا لعنها ! اذا لعن الاب ، فان الله يجازى • وهكذا أعيش كل يوم فى رعب دائم • وانت يا ايفان بتروفتش ، ألا تستحى ؟ نشأت فى بيتنا ، ودللنا تدليل الأبوين ولدهما ، ثم تتوهم انها فتاة فتانة ! ماذا أصاب عقلك ؟ فاتنة ! وهذه ماريا فاسيلفنا تشتط أكثر من ذلك •• لقد أخطأت فدعوتها مرة الى تناول القهوة أثناء غياب زوجى لأعماله طوال الصباح ، فقصت علىّ جميع خفايا المسألة • ان الامير ، ابا اليوشا ، على علاقة أثيمة بكونتيسة • ويقال ان الكونتيسة تلومه منذ مدة طويلة على انه لم يتزوجها ، اما هو فيؤجل دائما • وهذه الكونتيسة معروفة بسوء سلوكها ، منذ كان زوجها على قيد الحياة ، وحين مات زوجها سافرت الى الخارج وعاشرت ايطاليين وفرنسيين ! ووجدت بعض البارونات ؟ وهنالك انما اصطادت أيضاً الامير بطرس الكسندروفتش ، وفى اثناء ذلك كانت تكبر ابنة زوجها ، زوجها الاول ، أحد تجار الخمور • وكانت الكونتيسة تبذر أموالها يمنة ويسرة ، وكانت كاترين فيدوروفنا يشتد ساعدها أثناء ذلك ، والمليونان اللذان خلفهما لها أبوها كانا يزيدان ، ويقال انها تملك الآن ثلاثة ملايين • قال الامير لنفسه على الفور : « هذه فرصة لتزويج أليوشا » (انه ثاقب البصر ، ولا يدع الفرصة تفلت منه) • اما قريبها الكونت ، وهو رجل رفيع المنزلة يستقبل فى البلاط ، فهو كذلك موافق • ثلاثة ملايين ، ليست مزحة • بقى أن توافق الكونتيسة • ومضى الأمير الى الكونتيسة يبلغها رغبته • وتدللت الكونتيسة وتمنعت•

هذه امرأة لا مبادىء لها ، فيما يقولون ، وهي وقحة • وقد سمعت ان الناس هنا لا يقبلون زيارتها في بيوتهم • هنا شيء ، وفي البلاد الاجنبية شيء آخر • قالت : « كلا ، يا أمير ، أنت تتزوجني ، اما ابنة زوجي فلن تكون امرأة أليوشا » • ويقال ان الفتاة تحب امرأة أبيها حبا عظيما ؛ انها تعبدها عبادة ، وتطيعها في كل أمر • يظهر أنها لطيفة ، انها ملاك ! ويعرف الامير كيف يخاطب الكونتيسة وكيف يؤثر فيها • قال لها : « اسمعي يا كونتيسة ، لقد أنفقت انت جميع اموالك ، وغرقت في الديون، فاذا تزوجت ابنة زوجك بأليوشا ، وكلاهما غر ساذج ، استطعنا أن نسيطر عليهما وان نجعلهما تحت وصايتنا ، فتحصلين على المال انت ايضاً • مالك وللزواج بي ! » • انه امرؤ ماكر محتال !•• ماسوني ! جرى هذا منذ ستة اشهر ، ولم تعزم الكونتيسة أمرها ، ولكن يقال الآن انهما سافرا الى فارصوفيا ، وانهما اتفقا هنالك • ذلك ما قيل لي • ان ماريا فاسيلفنا هي التي قصت عليّ ذلك كله ، من البداية الى النهاية • وقد سمعتْه هي من مصدر موثوق • هذه هي المسألة اذن : مسألة مال ، مسألة ملايين ، أما ان تقول ان الفتاة فاتنة ••• فهذا ما لا أريد ان اسمعه !

أدهشني ما روته آنا آندريفنا • انه عينُ ما سمعته من اليوشا نفسه منذ مدة قصيرة • وقد حلف وهو يقص على هذا انه لن يرضى لنفسه ، ما عاش ، ان يتزوج في سبيل مال • لكنه قال ان كاترين فيدوروفنا قد أثرت فيه تأثيراً كبيراً • وقال ربما تزوج ابوه ايضاً » ، رغم تكذيبه الاشاعات ، خشية اغضاب الكونتيسة • وقد سبق أن قلت ان اليوشا يحب أباه كثيرا : كان يعجب به أشد الاعجاب ، وكان يعتز به أكبر الاعتزاز ، ويرى فيه عرّافة بل نبياً •

وتابعت آنا آندريفنا تقول وقد ازداد استياؤها مما قلت في حق خطيبة الامير الشاب المقبلة من ثناء :

ـ وليست هى من اسرة نبيلة ! ان ناتاشا أليق به منها • هى ابنة تاجر خمور ، وناتاشا من سلالة عريقة فى حلبة النبل • ان عجوزى قد فتح بالامس (نسيت ان اقول لك ذلك) صندوقه الصغير وظل طوال السهرة جالساً امامى يقلب الاوراق القديمة التى تضم تاريخ اسرتنا العريقة •• كأن فى وجهه اهتمام وجد • وكنت مشغولة بحياكة الجرابات، لا اجرؤ على النظر اليه ؟ ولاحظ اننى صامتة فغضب ، ثم دعانى اليه وظل طوال الليل يشرح لى نسب الاسرة ، فاتضح اننا ، نحن اسرة الخمنيف ، كنا من النبلاء منذ عهد ايفان الرهيب*، وان أهلى انا ، اسرة شوميلوف ، كانوا معروفين منذ أيام الكسى ميخائيلوفتش • والوثائق متوفرة لدينا ، ويشير الى ذلك تاريخ كرامازين • ترى من هذا ، يا عزيزى ، اننا لا نقل عن غيرنا من هذه الناحية • وحين اخذ العجوز يشرح لى ، فهمت على الفور ما يدور فى رأسه • هو ايضا يجرحه ان يحتقروا ناتاشا • ليس لهم من فضل علينا الا الغنى • ليستهتر هذا اللص ، بطرس الكسندروفتش ، فى سبيل الثروة ما شاء له الاستهتار : ان جميع الناس يعرفون انه امرؤ قاس بشع كريه • ويقال انه دخل اليسوعية سرا بفارصوفيا ، هل هذا صحيح ؟

ـ سخافات !

قلت ذلك وقد شاقتنى هذه الاشاعة بالرغم منى ، وشاقنى اكثر من ذلك ان اعلم أن نيقولا سرجتش قد قلب أوراق أسرته ، مع انه ما كان يتباهى بمحتده قبل ذلك ابدا •

وتابعت آنا اندريفنا تقول :

ـ انهم جميعاً حقراء ، ليس لهم قلوب • ولكن قل لى ياعزيزى ، كيف حالها هى ، حمامتى ؟ أهى حزينة ؟ هل تبكى ؟ لقد حان موعد ذهابك

اليها ، ماتريونا ، ماتريونا ، يا بنت ال •• ! قل لى يا عزيزى : هل أهانوها؟ قل يا فانيا ، تكلم •

هل كان في وسعي أن أقول شيئاً ؟ لقد انفجرت العجوز باكية منتحبة • سألتها ما هى المصيبة الجديدة التى كانت تريد أن تقصها على منذ قليل •

ـ آه يا عزيزى ، ما كفانا الذى نحن فيه من مصائب ، كأننا لم نشرب الكأس حتى الثمالة ! لعلك تذكر ، يا صديقى ، او لعلك لا تذكر أنه كان عندى نيشان ذهبى وضعت فيه صورة صغيرة لعزيزتى ناتاشا يوم كانت هذه الملاك في الثانية من عمرها • وقد عهدنا برسم هذه الصورة ، أنا ونيقولا سرجتش ، الى رسام مرّ بالبلدة عرضاً •• أرى انك قد نسيت ! وكان الرسام بارعا ، عنى برسم الصورة ، ووضع فيها كل حبه وقلبه • كان لناتاشا يومئذ شعر ذهبى كأنه الزبد نعومة • وقد رسمها مرتدية غلالة شفافة يرى من ورائها جسمها الصغير : كانت جميلة جمالا لا يكل المرء من النظر اليه • وقد طلبت الى الرسام يومئذ أن يضيف اليها جناحين ، ولكنه أبى • هذا النيشان ، أخرجته من صندوقى ، بعد هذه المشاكل الفظيعة التى مرت بنا ، وعلقته الى عنقى بحبل ، وصرت أحمله مع صليبى ، وأخاف ان يبصره زوجى ، لانه كان قد أمر بأن ترمى او تحرق جميع الاشياء التى يمكن ان تذكر بناتاشا • ولكن كان لابد لى ، أنا ، من ان استطيع رؤية صورتها ، فكنت انظر اليها من حين الى حين ، فأبكى ، وكان هذا البكاء يسرى عنى ، وكنت فى بعض الأحيان، حين اخلو الى نفسى ، التهم الصورة بالقبل التهاماً ، كأنما انا اقبل ناتاشا نفسها ، وكنت اناديها بأرق الاسماء ، وارسم عليها اشارة الصليب فى كل ليلة • كنت أتحدث اليها بصوت عال ، حين أكون وحدى ، وأطرح عليها سؤالا فأتخيل أنها تجيبنى ، فأطرح عليها سؤالا اخر • آه يا فانيا ، لشد

ما يؤسفني ان اقص عليك باقي الحكاية • كان يسعدني انه لا يعرف من أمر النيشان شيئاً ولا لاحظ شيئا • ولكنني تفقدت النيشان صباح الامس فلم أجده ! لم يبق الا الحبل معلقاً في عنقي • كان النيشان قد انفصل عن الحبل ، ولا شك انه سقط • حزنت لهذا أشـد الحزن ، وأخذت أبحث وأبحث ، ولكن دون جدوى • غاب النيشان ولم أعثر له على أثر • تساءلت أين عساه اندس ؟ وقلت لنفسي : لا شك انه سقط في سريري ، فغاب بين ثناياه • ونبشت السرير وقلبته رأساً على عقب ، فلم أجد شيئاً ، وقلت : اذا كان قد سقط في مكان ما ، فلا بد أن يعثر به أحد • ومن عسى يعثر به غيره هو ، وغير ماتريونا ؟ أما ماتريونا ، فلا ، لأنها مخلصـة لي كل الاخلاص •• ماتريونا ، هلاّ أتيت بالسماور ؟ قلت : واذا كان هـو قد وجده ، فما عسى أن يقع ؟ وظللت لا أعمل شيئاً غير الانتحاب والبكاء ، ولا أستطيع أن أحبس دموعي • وأصبح نيقولا سرجتش أكثر رقة ولطفا في معاملتي ، وأصبح الحزن يفيض في وجهه حين ينظر اليّ ، كأنه يعرف لماذا أبكي ، فيرثي لحالي • عندئذ قلت لنفسي : كيف يمكنه أن يعلم ذلك ؟ لعله اذن قد عثر على النيشان فعلا فرماه من النافذة ؟ انه لايتورع عن هذا • لا شك انه رماه ، وانه الآن حزين ندماً على انه رماه • عندئذ ذهبت الى فناء البيت أبحث عن النيشان مع ماتريونا ، ولكننا لم نجد شيئاً • لقد غاب النيشان تماماً • وقضيت الليلة كلها أبكي وأنتحب • كانت تلك هي الليلة الاولى التي لا أرسم فيها على ابنتي اشارة الصليب • آه يا عزيزي ! ان هذا نذير شؤم • وقد قضيت النهار كله أبكي بلا انقطاع • وكنت أنتظر وصولك كأنك رسول من السماء ، لعلك تواسيني على الاقل •

واخذت العجوز تبكي بكاء مراً •

ثم استأنفت فجأة تقول ، وقد أشرقت في وجهها سعادة :

ــ ها •• نسيت أن أقول لك : هل حدثتك عن اليتيمة ؟

ـ نعم ، يا آنا آندريفنا . قال لى انكما فكرتما فى الأمر طويلا ، وانك وافقت على تبنى طفلة يتيمة ليس لها ابوان . هل هذا صحيح ؟

ـ انا لم افكر في هذا ابداً يا صديقى ، وانا لا اريد اية يتيمة .. لانها ستذكرنا بحظنا التعيس ، بشقائنا . لا اريد احداً غير ناتاشا . ليس لى الا ابنة واحدة ، ولن يكون لى غير ابنة واحدة . ولكن قل لى يا فانيا : ترى ما معنى تفكيره في تبنى طفلة يتيمة ؟ أتراه فكر فى ذلك ، مواساةً لى ، لانه يرى دموعى ، أم ليطرد ذكرى ابنته من خياله طرداً تاما ويتعلق بطفلة اخرى ؟ ماذا قال لك عني ؟ كيف بدا لك ؟ قاتمَ الوجه غاضباً ؟ هُسْ . ها هو ذا يعود .. ستقول لى فيما بعد . لا تنس ان تعود غداً .

الفصل الثالث عشر

دخل العجوز ، فلفنا بنظرة مستطلعة ، كأنه كان خجلا من أمر من الأمور ، فقطب حاجبيه واقترب من المائدة :

ـ أين السماور ؟ ألم يُؤت بالسماور ؟

ـ بل ها هو ذا ، ها هو ذا •

لقد جاءت ماتريونا بالسماور منذ رأت نيقولا سرجتش يدخل علينا، كأنها كانت تنتظر دخول سيدها حتى تضع السماور على المائدة • انها خادمة عجوز مخلصة ، لكنها أكثر خادمات الأرض نزوات وانتقادات وعناداً • كانت تخشى نيقولا سرجتش فتحبس لسانها امامه ، لكنها لا تتحرج مع آنا آندريفنا ، بل تعاملها معاملة خشنة ، ولا تتورع من اظهار طمعها فى السيطرة على سيدتها ، مع كونها تحمل لها ولناتاشا حبا عميقا صادقا • وكنت قد تعرفت الى ماتريونا هذه فى اخمينفكا •

دمدم العجوز يقول بصوت خافت :

ـ كأنما ليس يكفى أن تكون ثياب المرء مبللة ، فيضنون عليه بالشاى •

وما لبثت آنا آندريفنا ان غمزتنى بعينها • كان العجوز لا يحتمل غمزات الأعين هذه المختلسة ؛ ومع انه فى هذه اللحظة حاول ان لا ينظر الينا ، فقد كان واضحاً فى وجهه انه ادرك ان آنا آندريفنا قد غمزتنى فى هذه اللحظة •

وبدأ فجأة يقول :

ـ لقد خرجت لبعض الشئون •• خرجت لمشكلة من هذه المشاكل السخيفة القذرة •• هل قلت لك انهم حكموا عليّ ؟ ليس لدى ادلة ، فالأوراق اللازمة تعوزني ، وقد جرى التحقيق بغير عدل •••

انه يتحدث عن القضية التى بينه وبين الامير • لقد كانت هذه القضية تسير ببطء ، وكانت تتطور الى غير مصلحة نيقولا سرجتش • وسكت لا أدرى بم أجيب ، فنظر العجوز اليّ نظرة ارتياب • واستأنف يقول كأنما أغضبه سكوتنا :

ـ ثم ماذا ؟ الافضل ان تنتهي هذه القضية بسرعة • لن يجعلوني حقيراً ولو حكموا على بالمصاريف • ان ضميرى مرتاح ، وليقضوا بعد ذلك بما يشاءون ! على الأقل سأكون قد نفضت يدى من هذه القضية• قد يدمرونني ولكنهم سيتركونني بعد ذلك وشأني •• سأدع كل شيء ، واسافر الى سيبريا •

لم تستطع آنا آندريفنا ان تحبس لسانها فاسرعت تقول :

ـ ولكن لماذا كل هذا البعد ؟

فأجاب العجوز في غلظة كأنما ساءه جوابها :

ـ ومم نحن هنا قريبون ؟

فقالت آنا آندريفنا وهي تلقى عليّ نظرة قلقة :

ـ على كل حال •• من الناس ••

فصرخ وهو يلقى عليّ وعلى زوجه نظرته الغضبى :

ـ أى ناس ؟ اللصوص ؟ المتخرصين ؟ الخونة ؟ هؤلاء يوجد منهم

في كل مكان • لا تخافي • سنجد منهم في سيبريا أيضاً • واذا شئت ألا تأتي معي ، ففي وسعك أن تبقي هنا • لن أجبرك على شيء •

فهتفت المسكينة آنا آندريفنا :

ـ نيقولا سرجتش ، عزيزي ، أبقى هنا بدونك ؟ انت تعلم ان ليس غيرك في هذا العالم أحد •••

وارتبكت ، فصمتت ، وأدارت نحوي نظرة مذعورة ، كأنها تتوسل الي ان اتدخل ، ان اسعفها ؛ وكان العجوز مهتاجا يختلج كل عضو من اعضائه •

كان يستحيل ان يعارَض • قلت :

ـ هذه فكرة حسنة يا آنا آندريفنا • ان الحياة في سيبريا ليست سيئة الى الحد الذي يتصوره الناس • اذا نزلت المصيبة ، وكان لا بد لكم من بيع اخمنيفكا ، فان مشروع نيقولا سرجتش يكون مشروعاً رائعاً ، انه يستطيع ان يجد في سيبريا عملا ممتازاً ، وعندئذ •••

ـ انت على الأقل يا ايفان تقول قولاً رصينا • لقد فكرت في الامر طويلا • سأترك كل شيء واسافر •

هنا صرخت آنا آندريفنا وهي تضرب كفاً بكف :

ـ هذا ما لم أكن اتوقعه • أأنت تقول مثله ايضاً يافانيا ؟ هذا ما لم أكن اتوقعه منك انت ايضاً يا ايفان بتروفتش ••• لم تلق منا الا المحبة ، والآن •••

ـ ها ها ها ! وماذا كنت تظنين اذن ؟ مم كنت تحسبين أن نعيش ؟ فكري قليلاً ! لقد تبدد ما لنا ، وأوشك ان ينفد آخر كوبك نملكه ! ام تُراك ستطلبين الي ان اذهب الى الامير بطرس الكسندروفتش اسأله العفو والصفح ؟

فما ان سمعت العجوز اسم الامير حتى اخذت ترتجف ذعراً ، واذا بملعقتها التي كانت بيدها تسقط على صحنها فتحدث رنيناً .

وشعر اخنيف بحماسة ، وبفرح شرير عنيد ، فأخذ يقول :

ـ حقا هذا مايجب أن أفعله ! أليس كذلك يا فانيا ؟ ألا يجب عليّ ان اذهب الى الامير ؟ لماذا السفر الى سيبريا ؟ أليس من الأفضل ، منذ الغد ، ان أرتدي أحسن ماعندي من ثياب ، وأن أصفف شعري ، وأن أظهر في أجمل حلة : تهييء لي آنا آندريفنا قميصاً جديداً (لا بد من هذا حين يذهب المرء الى شخص عظيم كالأمير !) واشترى قفازات حتى أكون في أبهى زي ، وأمضي الى صاحب السمو أقول له : « سيدي الامير ، يامن أحسنت اليّ وكنت لي خير سند وعضد ، يا أبت الرءوف ، اغفر لي ، واشفق علي ، وهب لي من لدنك كسرة خبز ، لأن لي امرأة وأطفالاً صغاراً ! » أليس كذلك يا آنا آندريفنا ؟ أهذا ما تريدينه ؟

فقالت وقد ازداد ارتجافها :

ـ انا لا أريد شيئا يا عزيزي . . وقد قلت ما قلت حماقةً وطيشاً . عفوك اذا كنت قد أزعجتك .. ولكن لا تصرخ ..

يقيني أنه كان حين يرى دموع زوجه المسكينة وذعرها يحزن حزناً شديداً ويتأثر أعظم التأثر ، ويقيني أنه كان أكثر تألما منها ، الا أنه ماكان يستطيع ان يملك زمام نفسه . وهذا ما يتفق في بعض الاحيان لاشخاص اوتوا نبل القلب وكرم النفس ، الا انهم عصبيون ، فهم رغم كل ما في قلوبهم من نبل وكرم ينساقون مع حزنهم وغضبهم الى حد التلذذ بالحزن والغضب ، محاولين ان ينفضوا ما في نفوسهم مهما كلف الامر ، ولو بالاساءة الى شخص بريء ، بل انهم ليفضلون ان يكون هذا الشخص أقرب الناس اليهم . فالمرأة مثلا تحتاج أحياناً الى الشعور بأنها شقية مذلة،

ولو لم يكن هنالك شقاء ولا اذلال • وهنالك كثير من الرجال يشبهون النساء في هذا ، ولو لم يكونوا من ضعاف الرجال ، ولا ممن يشبهون المرأة شبها كبيرا • ولقد كان العجوز يشعر بالحاجة الى التشاجر ، وان كان هذا يؤلمه أول َمن يؤلم •

اذكر ان فكرة خطرت على بالى حينئذ • تساءلت : ترى أليس من الممكن أن يكون منذ قليل قد قام بمحاولة من النوع الذى دار فى خلد آنا آندريفنا ؟ من يدرى ؟ لعل الله قد اوحى اليه بهذه الخطة ، فكان ذاهباً الى ناتاشا ، ثم عدل عن ذلك فى الطريق ، أو لعل شيئاً قد وقع ، فتزعزع قراره ، فعاد الى بيته غاضباً ، مهاناً ، خجلاً مما شرع فيه ، ومما خالجه من عواطف ، يبحث عن شخص يصب على رأسه الغضب الذى ايقظه فيه ضعفه ، ويختار لهذا الغرض أولئك الذين يقّدر انهم يشعرون بهذه الرغبات عينها ، وبهذه العواطف نفسها ، أو لعله ، وقد أراد أن يغفر لابنته ، قد تصور ماسيجيش فى نفس عجوزته المسكينة من حماسة وفرح ، فلما أخفق فى مشروعه كانت عجوزه أول من يتحمل نتائج هذا الاخفاق•

وحين رآها حزينة محطمة ، ترتعد أمامه حزنا ، تأثر تأثرا شديدا • وكأنه خجل من ثورته ، فكظم غيظه لحظة • وصمتنا جميعاً ، وحاولت ألا أنظر اليه • لم تدم هذه اللحظة طويلاً • فلقد كان لا بد له ان يتكلم مهما كلف الامر ، ولو بانفجار ، ولو بلعنات • فقال فجأة :

ـ اسمع يا فانيا • ان ما سأقوله يؤلمنى ، وما كنت لأحب أن أقوله • ينبغى ان اتكلم بصراحة ، بلا لف ولا دوران ، كما يليق بكل رجل شريف مستقيم •• هل تفهمنى يافانيا ؟ يسرنى ان تكون الآن هنا ، ولهذا اريد ان اتحدث بصراحة ، وذلك حتى يفهم الآخرون ان جميع هذه السخافات ، وهذه الدموع ، وهذه التنهدات ، وهذه الآلام ، تزعجنى

اخيراً • ان الشخص الذى انتزعته من قلبى ، ولعلنى اذ فعلت ذلك قد آلمت قلبى وأدميته ، لن يعود الى قلبى ابداً • نعم ، سأفعل ما قلته • اننى اتحدث الآن عما وقع منذ ستة اشهر ، هل تفهمنى يا فانيا ؟ ولئن كنت اتحدث عن ذلك الآن بمثل هذه الصراحة ، فلكى لا تخطىء التقدير يوماً فتسىء فهـم كلامى (قال ذلك وهـو يثبت فىّ نظراته الملتهبـة ويتحاشى نظرات زوجتـه المذعورة) • أعـود فأقول : لا أريد بعـد الآن هـذه السخافات • ان الامر الذى يضنينى اكثر من كل شىء ، ويثير أعصابى هو ان الجميع يظنون ان من الممكن ان تخامرنى عواطف حقيرة مسكينة الى هذا الحد ، كاننى امرؤ غبى تافه •• يظنون اننى اجن الآن المآ • كل هذا سخف • لقد انتزعت عواطفى القديمة ونسيتها الى الأبد • لم يبق لى من ذكريات ، كلا ثم كلا ثم كلا !•

ونهض فجأة ، وضرب بيده على المنضدة ، فأخذت الاقداح ترن •

ـ نيقولا سرجتش ، الا ترحم آنا آندريفنا ؟ انظر ماذا تفعل بها •

قلت ذلك وقد نفد صبرى ، ونظرت اليه فيما يشبه الاستياء • الا اننى ما زدت بهذا على ان اصب فوق النار زيتاً ، فانه ما ان سمع كلامى حتى قال وهو يرتجف ويمتقع لونه :

ـ لا ! لست ارحم احداً ، اذ ليس يرحمنى احد • لا ارحم احداً ، لانهم فى بيتى يحيكون المؤامرات علىّ ، انا الذى تلوث شرفى ، فى سبيل ابنة فاجرة ، خليقة بكل انواع العقاب واللعن •

ـ نيقولا سرجتش ، يا عزيزى ، لا تلعنها !•• اعمل ما تشـاء ، ولكن لاتلعنها !

فصرخ العجوز بصوت أقوى :

ـ بل سألعنها ، لأنني أنا الذى أ هنت وتطلبون منى فوق ذلك أن اذهب الى هـذه الملعونة اطلب منها العفو والمغفرة ! نعم، نعم، هذا ما يراد منى . انكم تعذبوننى بهذا كل يوم ، ليل نهار ، فى عقر بيتى ، بالدموع والاهانات والتلميحـات السخيفـة ! تريدون أن يرق قلبى ... اسمع يا فانيا : (قال هذا متوجهاً الىّ وهو يسارع فيسحب من جيبـه ، بيـد مرتعشة ، أوراقاً) هـذه خلاصات من الملف . اننى أنعت باننى لص ، محتال ، بأننى سرقت الرجل الذى أحسن الىّ ! لقد ثُلم شرفى بسببها . خذ . أنظر أنظر !.

وأخذ يسلُ من جيب سترته أوراقاً شتى يرميها على المنضدة واحدة بعد واحدة ، محاولاً أن يعثر بينها ، وهو يرتجف ويهتز ، على الورقة التى كان يريد أن يطلعنى عليهـا . غير أنه لم يجـدها ، فنفد صبره ، فانتزع من جيبه كل ما وجدته فيها يده ، فاذا نحن نسمع ، فجأة ، رنين شيء ثقيل يسقط على المنضدة.. فانطلقت من صدر آنا آندريفنا صرخة. كان ذلك الشيء هو النيشان الذى فقدته .

ما كدت أصدق عينيّ . وصعد الدم الى رأس العجـوز ، فاحمر وجهه حتى صار كالارجوان . وارتعش . فوقفت آنا آندريفنا ، مكتفةً ذراعيها ، وألقت على زوجها نظرة توسل وضراعة . كان وجهها يشرق بأمل مشـع . ما هذا الاحمـرار الذى يصبغ وجه العجـوز ، ما هـذا الاضطراب ؟ لا ، انها لم تخطيء . لقد فهمت الآن كيف ضاع النيشان .

فهمت أن زوجها هو الذى وجده ، وأنه سُرّ به ، وأنه لعله ارتعش فرحاً ، فأخفاه عن جميع الانظار ، وأنه خلا اليه خفية يتأمل وجه ابنته الحبيبة فى حب لا حد له دون أن يرتوى من النظر فيه ؛ وأنه لعله فعل ما فعلته الأم المسكينة ، فحبس نفسه يتحدث مع عزيزته ناتاشا ، ويتخيل

أجوبتها ، ويجيب عليها ، وانه ، في الليـل ، وقد أمضـه القلق ، خنق تنهداته في صدره ، وداعب الصورة المحبوبة وأغرقها بالقبـل ، ودعـا بالغفران لتلك التي يأبى أمام الجميع ان يراها ، ويصر على ان يلعنها •

ـ اذن ما زلت تحبها يا عزيزى !

بهذا هتفت آنا آندريفنا ، دون أن تستطيع كبح جماحها أمام هـذا الاب الصارم الذى كان منذ دقيقة يلعن ناتاشا •

ولكنه ما ان سمع صرختها حتى لمع فى عينه غضب مجنون • فتناول النيشان ورماه بقوة على الارض ، واخذ يدوسه برجليه فى حنق محموم•

قال وهو يلهث لهاث من انقطعت انفاسه :

ـ لعنها الله ، لعنها الله لعنة أبدية ، أبدية ، أبدية •

فهتفت العجوز الطيبة تقول :

ـ يا الهى • يدوس ناتاشا ، ناتاشا ، يدوس وجهها الصغير ، يدوسه• طاغية ، صلف ، قاسى القلب ، مغرور !

فلما سمع العجوز امرأته ، توقف كالمجنون ، مذعورا مما فعله • وفجأة تناول النيشان من الارض ، وهرع يخرج من الغرفة • ولكنـه ما ان سار بضع خطوات حتى سقط على ركبته ، واستند بيده الى أريكة امامه ، ثم أسقط عليها رأسه خائر القوى محطما •

كان ينتحب كطفل ، كامرأة • النحيب يكاد يشـق صدره • لقد اصبح العجوز الرهيب ، فى طرفة عين ، أضعف من طفل • أصبح الآن عاجزاً عن اللعن ، وأصبح لا يستحى من أحد ؟ وها هو ذا ينفجر حباً ، فيغرق بالقبل ، على مرأى منا ، الصورة التى كان يدوسها برجليه منذ

دقيقة . ان الحب العنيف الذى يحمله لابنته والذى كظمه طوال هـذه المدة ينفلت الآن فى قوة لا تقاوم ، ويحطم كيانه كله .

هتفت آنا آندريفنا تقول وهى تبكى ، وتنحنى على زوجها وتقبله :

ـ اغفر لها ، اغفر لهاه ردها الى بيت ابويها ياعزيزى. وسيجزيك الله فى يوم الحساب خير جزاء على تواضعك وتسامحك !

فصرخ بصوت أجش مختنق :

ـ مستحيل ، مستحيل . لن يكون هذا أبداً . لن يكون أبداً .

الفصل الرابع عشر

وصلت الى ناتاشا متأخراً ، في الساعة العاشرة . كانت يومئذ في فونتانكا قرب جسر سيمونوفسكي ، في الطابق الرابع من عمارة حقيرة يملكها التاجر كولوتوشكين . وكانت في المدة الأولى التي أعقبت ذهابها تسكن مع أليوشا في منزل جميل ، صغير ، لكنه أنيق مريح ، غير أن موارد الأمير الصغير مالبثت أن نضبت ، فانه لم يعمل أستاذا للموسيقى ، بل أخذ يقترض ، وأغرق نفسه في ديون ثقيلة باهظة . وأنفق المال في تزيين منزله ، وفي تقديم الهدايا لناتاشا ؛ وكانت ناتاشا تحتج على هذا التبذير ، وتؤنبه ، وتبكي . وكان اليوشا ، العاطفي ، يقضي في بعض الأحيان أسبوعا برمته يحلم في الهدية التي سيقدمها لناتاشا ، ويتخيل وقعها في نفسها . كان يجعل من ذلك عيداً ، وينبئني في حماسة بما سيعمله وبما يحلم به . وكان ازاء تقريع ناتاشا وبكائها يغرق في كآبة تبعث على الشفقة ، وكانا بعد ذلك يتخذان من هذه الهدايا موضوع ملامات وأحزان ومشاجرات . ثم انه كان ينفق كثيراً من المال بغير علم ناتاشا ، فقد كان رفاق السوء يجرونه الى أماكن مشبوهة يخون فيها ناتاشا مع نساء بغايا . غير انه كان لا يزال يحب ناتاشا كثيرا ، بل لقد كان يحبها حباً معذباً ، وكثيرا ما كان يأتي اليها مهدماً حزيناً يعلن انه لا يستحق أصبع ناتاشا الصغير ، وانه فظ شرير ، وانه عاجز عن فهمها وأنه غير جدير بحبها . صدق أليوشا . لقد كان بين الاثنين تفاوت عظيم . كان هو يشعر أمامها بأنه طفل ، وكانت هي تعامله دائماً على انه طفل . كان

يأتي اليَّ في بعض الأحيان باكياً منتحباً يعترف لي بعلاقاته مع هذه الفتاة أو تلك من النساء ، ويتوسل اليَّ في الوقت نفسه ألا أبوح بشيء من هذا لناتاشا : فاذا عاد اليها بعد كل هذه الاعترافات ، وجلاً مرتجفاً (وكان لا بد أن يصحبني في مثل هذه الاحوال ، قائلاً انه لا يستطيع أن يقع بصره عليها بعد ارتكابه جريمته ، وانني الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يثبِّت جنانه) أدركت ناتاشا بنظرة واحدة انه عائد من جريمة . وكانت ناتاشا غيورة جداً ، ولكنها ، لا أدري كيف ، كانت تغفر له هذه الحماقات دائماً . وكان الامر يتم في العادة على النحو التالي : يدخل أليوشا معي ويتوجه اليها بالكلام خجلا ويلقي عليها نظرات وجلة ، فتحزر فوراً أنه أثم ، ولكنها لا تدع قناعتها تظهر في وجهها ، ولا تبدأ الحديث عن ذلك قط ، ولا تطرح على أليوشا أي سؤال ، بل تزداد مداعباتها له ، ويزداد لطفها ومرحها ، ولم يكن ذلك منها لعباً ولا مكراً . ان هـــذه المخلوقة الرائعة تجد في الصفح لذة لا نهاية لها ، فكانها ترى في العفو نفسه فتنة حادة ما لها نظير . والحق ان اليوشا لم يكن له علاقة حتى ذلك الحين الا بامرأة تدعى جوزيفين . فاذا رأى لطف ناتاشا وتسامحها لم يسعه الا أن يعترف لها بكل شيء من تلقاء نفسه ، ليتخفف من ذنبه «وليعود كما كان» على حد تعبيره . حتى اذا نال منها الصفح والمغفرة ، التهب حماسة ، وأخذ في بعض الأحيان يبكي فرحاً وحباً ، ويضمها بين ذراعيه يغرقها بالقبل ، ثم يسيطر عليه الفرح، فيطفق يقص ، في براعة الطفل ، تفاصيل مغامراته مع جوزيفين، ويضحك ملء شدقيه، ويكيل المديح والاطراء لناتاشا . وكانت السهرة تنتهي هكذا في مرح . وحين نفد ماله أخذ يبيع من أشياء البيت ؟ وبتأثير الحاح ناتاشا وجد بيتاً صغيراً في فونتاكا اكتراه بأجر دون أجر البيت الاول . واستمرا على بيــع مايملكان من تحف ، حتى أن ناتاشـا باعت ملابسها ، ثم وجدت عملا ، فلما علم أليوشا بذلك هوى الى حضيض

اليأس ، وأخذ يلعن نفسه ، ويصرخ انه يحتقر ذاته ، غير انه لم يعمل شيئاً من شأنه أن يصلح هذه الحال • وقد نضبت الآن هذه الموارد الاخيرة ذاتها ، ولم يبق الا عمل ناتاشا ، غير ان الاجر الذى كانت تتقاضاه زهيد لايغنى ولا يسمن من جوع •

وفى أول الامر ، حين كانا لايزالان يسكنان معاً ، قامت بين اليوشا وبين أبيه مشاجرة عنيفة • كانت نية الامير فى تزويج ابنه من كاترين فيدوروفنا فيليمونوفنا ، ابنة زوج الكونتيسة ، ماتزال فى حيز التفكير ، الا ان الامير كان يحرص على تحقيق هذه الفكرة حرصاً شديداً ، فكان يأخذ ابنه الى بيت خطيبته المقبلة ، ويشجعه على الاعجاب بها ، ويحاول أن يقنعه بقبول الفكرة بالقسوة تارة وبالعقل تارة أخرى • الا ان المشروع أخفق بسبب الكونتيسة ؛ عندئذ غض الأمير طرفه عن علاقة ابنه بناتاشا ، وترك الامر للزمن ؛ فقد كان يأمل ، لعلمه بخفة ابنه وطيشه ، ان هذا الحب سيزول فى القريب • حتى لقد أصبح فى الايام الاخيره لايخشى أن يتزوج ابنه ناتاشا ، وأصبح على مثل اليقين من أنه لن يتزوجها • وأما العشيقان فقد أجلا تحقيق هذه الفكرة الى أن يتم الصلح بينهما وبين أبى ناتاشا، أى الى أن تتغير الظروف تغيراً تاماً•وكان واضحاً من جهة أخرى،ان ناتاشا لاتحب أن يدور الكلام حول هذا الموضوع • وقد زل لسان اليوشا مرة أمامى فقال ان أباه مسرور من هذه العلاقة ، وان الامر الذى يعجبه فى هذا كله هو اذلال اخمنيف وتحقيره • وكان مع ذلك ، محافظةً منه على المظاهر ، يستمر على ابداء استيائه من ابنه ، حتى لقد طفف المساعدات التى يتفضل بها عليه ، وهى قليلة قبل ذلك ، (كان الامير بخيلاً جداً على ابنه) ، وهدده بأن يمنع عنه حتى هذه المساعدات الطفيفة • ولكن بعد ذلك بقليل ، سافر الامير مع الكونتيسة الى بولونيا ، لاعمال تتعلق بالكونتيسة • والحق ان اليوشا كان أصغر من أن يتزوج ،

الا ان الخطية كانت من الغنى بحيث يستحيل على الامير أن يدع الفرصة تفلت منه • ووصل الامير أخيراً الى هدفه ، وبلغ الى أسماعنا ان مسألة الخطوبة قد سويت ؛ وفي هذا الوقت الذي أصفه كان الامير قد عاد الى بطرسبرج ، واستقبل ابنه في حب وحرارة ، الا ان استمرار علاقته بناتاشا قد أدهشه وساءه ، فأخذ يشك ، ويرتجف ، وطلب الى ابنه بلهجة قاسية صارمة أن يقطع علاقته بناتاشا ، ثم ارتأى أن يعمد الى وسيلة أفضل من هـــذه الوسيلة ، فقاد ابنه الى منزل الكونتيســة • كانت ابنة زوج الكونتيسة فتاة جميلة ، وان كانت ماتزال أشبه بطفلة ، وكان لها قلب طيب رقيق ، وروح صافية بريئة ، وكانت مرحة ، خفيفة الظل ، رقيقة الشعور • كان الامير يقدر ان هذه الشهور الستة قد فعلت فعلها في ابنه ، وان ناتاشا لم يبق لها في نظره ما كان لها من سحر ، وانه لن ينظر الآن الى خطيبته المقبلة نظرته اليها منذ ستة أشهر • وكان تقدير الامير صحيحاً بعض الصحة فحسب •• لقد افتتن أليوشا حقاً • ويجب أن أضيف الى ذلك ان الاب أصبح يتطلف مع ابنه فجأة (مع امتناعه عن اعطائه المال) • وشعر أليوشا ان هذا التحبب يخفي وراءه قراراً حاسما لا يتزعزع ، فكان يشكو من ذلك ، ولكن أقل مما كان يمكن أن يشكو لو انه لا يرى كاترين فيدوروفنا كل يوم •

كنت أعلم ان اليوشا لم يزر ناتاشا منذ أربعة أيام • وحين مضيت اليها بعد أن تركت منزل اخمنيف كنت أتساءل قلقا عما عسى أن تنبئني به • ولمحت ، من بعيد ، نوراً في النافذة • كنا قد اتفقنا فيما بيننا على ان تضع شمعة على مسند النافذة حين تكون في حاجة ملحة الى رؤيتي ، حتى اذا اتفق لي أن مررت قريباً من بيتها (وكان يتفق لي ذلك في كل مساء تقريبا) أدركت من هذا النور الذي لاتضعه الا في بعض الأحوال ، أنها تنتظرني ، وأنها في حاجة الي • ولقد أصبحت في هذه الأيام الأخيرة تكثر من وضع الشمعة ••

الفصل الخامس عشر

وجدت ناتاشا وحدها • كانت تذرع الغرفة بخطى بطيئة، وقد كتفت ذراعيها ، وغرقت فى تفكير عميق • وكان على المنضدة سماور منطفىء ينتظرنى منذ مدة طويلة • فلما رأتنى قدمت الىّ يدها مبتسمة، دون أن تنبس بكلمة • كان وجهها شاحباً ، ينضح بمعانى الألم •

كان فى ابتسامتها عذاب ، ورقة ، واذعان •

وقد ازداد ظل عينيها الزرقاوين الصافيتين ظلاماً ، وازداد شعرها كثافة ، نتيجةً نحولها ومرضها •

قالت وهى تمد يدها :

ــ ظننت انك لن تجىء ، حتى لقد بدا لى أن أبعث مافرا لتأتينى بأنبائك ، وقلت لنفسى لعل المرض قد عاوده ثانية •

ــ ليس الامر كذلك ، وانما حُجزت • سأقص عليك كل شىء • ولكن انبئينى أولاً بما بك يا ناتاشا ! ما الذى حدث ؟

فقالت مستغربة :

ــ لا شىء •• لماذا هذا السؤال ؟

ــ ولكنك كتبت الىّ •• كتبت الى أمس أن أجىء ، حتى لقد حددت

لمجيئى ساعة معينة لا أستقدمها ولا أستأخرها • وهذا شيء جديد لا عهد لى بمثله من قبل •

ـ ها •• نعم •• لقد كنت أنتظره أمس •

ـ ولم يجيء بعد ؟

ـ لم يجيء •

وصمتت لحظة ، ثم أضافت :

ـ قلت لنفسى : ان لم يجيء فلابد لى من حديث معك •

ـ وهذا المساء ، هل كنت تنتظرينه ؟

ـ لا • انه فى هذا المساء هناك •

ـ هل تعتقدين انه لن يأتى بعد الآن أبداً ؟

أجابت وهى تنظر الى نظرة جادة خطيرة :

ـ ليست هذه هى المسألة • سيعود •

كان واضحاً ان سرعة أسئلتى تزعجها • وصمتنا ، نطوف فى الغرفة طولا وعرضاً •

واستأنفت بعد مدة تقول مبتسمة :

ـ انتظرتك مدة طويلة جداً يا فانيا • هل تعلم ماذا كنت أفعل ؟ كنت أذهب وأجيء وأنا أنشد بعض القصائد • هل تتذكر : الناقوس الصغير ، الطريق تحت الثلج : « السماور يغلى على المائدة المصنوعة من شجر السنديان • » لقد قرأنا هذه القصيدة معاً :

« هدأت العاصفة ، والقمر يضوء السماء • *

« والليل ينظر الى الارض بالملايين من عيونه الكابية •

ثم :

« وفجأة خيل الى اننى أسمع صوتاً يجيش بعاطفة حارة ،

« ويتحد برنين الناقوس الصغير ، ويقول :

« سيأتى يوم يُلقى فيه صديقى برأسه على صدرى •

« الحياة فى منزلى ناعمة رخية !

« ما يكاد الفجر يداعب جليد نافذتى

« حتى يغلى السماور على مائدتى المصنوعة من خشب السنديان ،

« وحتى تتراقص النيران فى مدفأتى ،

« وترسل أضواءها الحمر الى السرير ، فى الركن ،

« تحت الستارة ذات الازهار •• »

انه لشـعر جميل يا فانيا ، شعر يؤثر فى القلب تأثيراً قوياً • يا لها من لوحة واسعة غنيـة ! ليس فى اللوحة الا خطـوط قليلة ، ولكنك تستطيع أن تنسج حولها ما تشاء • هناك شيئان أساسيان : هذا السماور ، وهذه الســتارة ذات الأزهار • هـذا كله مألوف ، تراه فى البيـوت البورجوازية من مدينتنا الصغيرة ، حتى لكأننى أرى البيت نفسه : منزل جديد ، ماتزال تحف به سلالم الخشب ، لم يتم طلاؤه بعد •

وهذه لوحة أخرى :

ثم سمعت هذا الهاتف نفسه يقول ،

حزيناً كصوت الناقوس الصغير :

« أين صديقى القديم ؟

« أخشى أن يدخل ، وان يغرقنى بالقبل والدغدغات !

« ما هذه الحياة التى أحياها !

« مسكنى كله حجرة مظلمة حزينة .

« الريح تعوى ...

« وثمة شجرة وحيدة ، شجرة كرز ، أمام نافذتى .

« الا ان الجليد يحجبها عن نظرى .

« ولعلها ماتت منذ زمان بعيد .

« ماهذه الحياة التى أحياها ؟

« لقد ذبلت ستارتى .

« وهاءنا ذا أضرب فى غرفتى ، مريضة ، لا أعرف أهلى .

« لا أحد هنالك يؤنبنى : ليس لى أصدقاء .

« ما أنا ، بعد ، الا ثرثارة عجوز ... »

« أضرب فى غرفتى مريضة ... » ما أجمل كلمة « مريضة » فى هذا الموضع ! لا أحد هنا يؤنبنى : ما أكثر ما فى هذا البيت من عاطفة ، وحنين ! ما أكثر مافيه من ألم ، ألم الذكرى .. يا الهى ! ما أجمل هذا الشعر ، ما أصدق هذا الشعر !

وصمتت ، كأنما هى تختنق اختنـاقة ألمت بحلقها . وقالت بعـد دقيقة :

ـ عزيزى فانيا .

ثم صمتت مرة أخرى ، كأنها نسيت ما كانت تريد أن تقوله ، أو كأنها قالت ماقالته دون تفكير ، بدافع من تأثر سريع .

وكنا أثناء ذلك ما نزال نذرع الغرفة . وأمام الأيقونة ، كان هنالك

قنديل يشتعل . كانت ناتاشا ، في المدة الاخيرة ، تزداد تقى وتمسكاً بالعبادة يوماً بعد يوم ، ولا تحب أن تتحدث في هذا .

ـ أغداً عيد ؟ أرى قنديلك مشتعلاً .

ـ لا ... ولكن اجلس يا فانيا ، لابد انك تعبت . هل تريد قليلاً من الشاى ؟ لم تحتس شيئاً من الشاى بعد ؟

ـ لنجلس يا ناتاشا ، لقد شربت نصيبى من الشاى .

ـ من أين انت الآن آت ؟

ـ من عندهم (هكذا كنا نسمى أبويها) .

ـ من عندهم ؟ كيف اتسع وقتك ؟ أذهبت اليهم من تلقاء نفسك ، أم انهم دعوك ؟

وأمطرتنى بوابل من الأسئلة . وامتقع لونها بتأثير انفعالها .

قصصت عليها بالتفصيل لقائى مع أمها ، وحكاية النيشان ، قصصت عليها ذلك كله بدقة ، دون أن أخفى عنها شيئا ، وكانت تصغى الىّ بشراهة ، وتلتهم كل كلمة من كلماتى التهاماً ، والتمعت فى عينيها دموع ؛ وحين قصصت عليها حكاية النيشان اضطربت اضطرابا شديداً ، فكانت كثيرا ما تقاطعنى قائلة :

ـ انتظر يا فانيا ، انتظر : فصّل أكثر من ذلك ، انك تسرف فى الاجمال والايجاز ! ..

فكنت أكرر الشيء مرتين وثلاثاً ، وأجيب على كل سؤال من أسئلتها التى لاتنقطع .

ـ هل تعتقد حقا انه كان آتيا لرؤيتى ؟

ـ لا أدرى يا ناتاشا ، بل انني لا أستطيع أن أتصور ذلك . اما انه يتألم لغيابك ، وانه يحبك ، فهذا واضح . واما انه كان ذاهباً اليك ، فهذا ، هذا ...

ـ وقد قبّل النيشان ، أليس كذلك ؟ وماذا قال وهو يقبله ؟

ـ كلاماً كثيراً .. كان يطلق عليك أرق الاسماء ، وكان يناديك ..

ـ ناداني ؟

ـ نعم .

وأخذت تبكي في صمت .

ـ مساكين !

ثم أضافت بعد لحظة :

ـ لا أستغرب أن يكون على علم بكل شيء . انه كذلك على علم بأمور والد اليوشا .

قلت لها وجلاً :

ـ ناتاشا ، يجب أن نذهب اليهم ..

فسألتني ، وهي تصفر وتنهض عن مقعدها قليلا :

ـ متى ؟

كانت تظن انني أقترح عليها أن نذهب اليهم فوراً .

ثم استدركت وهي تضع يديها على كتفيها وتبتسم ابتسامة حزينة :

ـ كلا يا فانيا ، كلا يا صديقي ، انك تعود دائماً الى هذا .. الاحسن ألا تحدثني عن هذا الامر بعد الآن .

فهتفت في حزن شديد :

ـ هـذه الخصومة الكريهة ، أليس لها اذن من نهاية أبداً ؟ أبداً ؟

أأنت من الكبرياء والصلف بحيث لا تريدين أن تقومي بالخطوة الأولى ؟ عليك انت أن تضربي المثل ، أن تكوني القدوة • لعل آباك لا ينتظر غير هذا ليغفر لك •• انه أبوك ، وانت التي أسأت اليه • احترمي كبرياءه : انها مشروعة طبيعية • يجب عليك أن تذهبي اليه ، وأنا واثق انه سيصفح عنك بلا قيد ولا شرط •

ـ بلا قيد ولا شرط ! مستحيل • لا تلمني يا فانيا ، عبث • لقد فكرت في الامر ، واني لأفكر فيه ليل نهار • ما انقطعت عن التفكير فيه ساعة واحدة منذ تركته • وكم مرة تحدثنا فيه معا ! انت نفسك تعلم ان هذا مستحيل !

ـ حاولي •

ـ كلا يا صديقي ، لا أريد • اذا حاولت ذلك زدت حنقه عليّ • ما فات لن يعود ، وانت تعلم انه يستحيل ان يعود • لن استطيع ان احيي تلك الايام السعيدة ، أيامَ طفولتي التي قضيتها معهم ! وهب أبي غفر لي ، فانه لن يجد فيّ بعد الآن ابنته ناتاشا • انه ما يزال يحب فيّ البنت الصغيرة ، الطفلة ، التي كان يدللها ويدغدغ رأسها على نحو ماكان يفعل أيام كنت في السابعة من عمري أجلس على ركبتيه وأنشده آغاني الصغيرة • ومنذ طفولتي الى آخر يوم ، كان يأتي الى سريري كل مساء يرسم عليّ اشارة الصليب قبل أن أنام• وقبل المصيبة بشهر واحد،اشترى لي قرطاً ، دون أن يحدثني عنه قبل أن يشتريه ، (وكنت أعلم كل شيء) ، وكان يفرح فرح الطفل حين يتصور فرحتي بهديته • وقد ثار على الجميع، وثار عليّ قبل الجميع ، حين عرف ، مني ، انني كنت على علم بأنه اشترى القرط منذ مدة طويلة • وقبل خروجي من البيت بثلاثة أيام لاحظ انني حزينة ، فما لبث أن قلق أشد القلق حتى مرض ، بل لقد فكر ـ هل تصدق ذلك ؟ ـ ليسري عني ، في أن يأخذني الى المسرح • حقا ، كان

يريد أن يشفيني بهذه الوسيلة ! أعود فأقول لك ان البنت الصغيرة هي التي كان يعرفها فيّ ويحبها ، وما كان يريد أن يتصور انني سأصبح ذات يوم امرأة ... ما كان هذا يدور في خلده . فاذا عدت الآن أنكرني ولم يعرفني ، وان صفح عني . لست الآن عين الشخص الذي أحبه ، لست الآن طفلة ، لقد عشت كثيراً . وان رضي بي كما أنا ، تنهد رغم ذلك أسفاً على السعادة الماضية ، وحزن على انني لست ماكنته في الماضي ، حين كان يحبني طفلة . وما مضى يبدو دائما أفضل ! يا له من عـذاب ، تذكر

وكأنما صعد الدم الى رأسها فصرخت تقطع حديثها بهذا الهتاف الذي يخرج من قلبها :

ـ آه يا فانيا ، ما أجمل الماضي ! ..

قلت :

ـ كل ما تقولينه صحيح يا ناتاشا . وانما ينبغي له الآن اذن أن يتعلم كيف يحبك وكيف يعرفك مرة أخرى ، وخاصةً كيف يعرفك ؛ ومتى عرفك أحبك ، ما في ذلك ريب . وأرجو ألا يذهب بك الظن الى انه لايستطيع أن يعرفك وأن يفهمك ، هو ، هذا القلب النبيل .

ـ أواه يا فانيا ، لا تكن ظالماً . ماذا هنالك من أمور كثيرة يجب أن تُفهم فيّ ؟ ليس هـــذا ما أردت أن أقوله . هناك شيء آخر ، اسمـع يا فانيا : ان حب الأب ، هو أيضا ، حب غيور . ان الذي يجرحه هو ان كل شيء بدأ وانتهى مع اليوشا بدونه ، بدون أن يرى شيئا ، بدون أن يحزر شيئاً . وهو يعرف ان ذلك كله لم يدر في خلده قبل وقوعه ، وهو يرى ان ما انتهى اليه حبنا من نتائج شقية يرجع الى «نفاقي» السفيه . لم أذهب اليه منذ بداية حبي ، ولم أعترف له بعد ذلك بكل خلجة من

خلجات قلبي ؟ بالعكس ، أخفيت كل شيء في نفسي ، تواريت عن أبي ؟ وأؤكد لك ، يا فانيا ، انه في قرارة نفسه يجد في هذا من الاهانة أكثر مما يجده منها في نتائج حبنـا ، في هربي من منزلنا ، في استسلامي لعشيقي • وهبه استقبلني الآن كأب ، في حرارة وعاطفة رقيقة ، فان بذرة العداوة ستبقى • وغداً أو بعد غد ، تبدأ الشكوك ويعود التأنيب • ثم انه لن يغفر لي بلا قيد ولا شرط • لنسلم انني قلت له الحقيقة مخلصة من أعماق قلبي ، لنسلم انني اعترفت له صادقة بأنني أفهم مدى اساءتي اليه واجرامي في حقه • وهبني ، اذا لم يشأ أن يفهم ما كلفتني هـذه السعادة مع اليوشا من آلام وما احتملت في سبيلها من عذاب ، هبني أخرست ألمي من ذلك، واحتملت كل هذا : انه لن يكتفي • لسوف يطلب مني تكفيراً مستحيلاً : سوف يسألني أن ألعن ماضيّ ، أن ألعن اليوشا ، وأن أندم على ما محضته من حب • سيطلب المستحيل : أن أستعرض الماضي ، فأحذف من حياتنا هـذه الأشهر الستة الأخيرة • ولكنني لن ألعن أحداً ، ولا أريد أن أندم •• ما وقع كان لا بد أن يقع •• لا يافانيا، هذا الآن مستحيل • لم يحن الوقت بعد •

ـ ومتى يحين ؟

ـ لا أدري ، لابد أن نتألم حتى النهاية في سبيل سعادتنا المقبلة ، يجب أن نشتريها بآلام جديدة • ان الالم يطهر كل شيء • آه يا فانيا ، ما أكثر ما نتألم في هذا الوجود •

صمت ونظرت اليها مفكراً •

ـ لماذا تنظر اليّ هكذا يا اليوشـا ، أقـول يا فانيا • (قالت ذلك وابتسمت لهذا الخطأ) •

ـ الآن أرى ابتسـامتك يا ناتاشا • من أين أتيت بهـا ؟ ما كنت تبتسمين هكذا من قبل •

ـ ماذا بها ، ابتسامتي ؟

ـ ماتزال بها سذاجة الطفولة .. ولكن حين تبتسمين يشعر المرء ان ثمة شيئاً يقبض صدرك . ما أشد ما نحلت يا ناتاشا ! ان شعرك يبدو أكثف مما كان .. ماهذا الثوب ؟ أعندهم صنع أيضاً ؟

قالت وهي تلقى عليّ نظرة تترقرق فيها العاطفة :

ـ انك تحبني يا فانيا ! ولكن قل لى ماذا تفعل انت الآن ؟ كيف يسير عملك ؟

ـ لم يتغير شيء . مازلت أكتب روايتي ، الا ان العمل صعب ، لايتقدم كثيراً . لقد نضب الالهام . ولو تهاونت قليلاً ، فقد أخرج شيئاً شائقاً طريفاً . ولكنها خسارة ان أفسد فكرة جيدة دارت في خيالى . انها فكرة أحرص عليها أشد الحرص . ومن أجل مجلة ، لا بد من انجاز العمل في مواقيته المحددة ، حتى لقد خطر ببالى أن أترك الرواية ، تخيل بسرعة ، قصة قصيرة ، شيئاً فنياً رشيقاً ، لا يشتمل على أية نزعه مظلمة قاتمة ، شيئاً يسلى جميع الناس ويمتعهم !

ـ مسكين أيها العامل ! وسميث ؟

ـ مات .

ـ ألم يأت لرؤيتك ؟ أكلمك جادة يا فانيا : انت مريض ، وأعصابك مهدمة ، ولك أحلام غريبة .. حين قلت لى انك استأجرت هذا المسكن ، لاحظتُ كل ذلك .. وهل مسكنك رطب غير صحي ؟

ـ نعم ، وقد وقعت لى منذ قليل حادثة .. سأرويها لك فيما بعد .

لم تسمعنى . كانت مستغرقة في تفكير عميق .

وقالت أخيراً وهي تنظر اليّ نظرة من لا ينتظر جوابا :

ـ لا أفهم كيف تركتهُم ! كنت محمومة !

يقيني انني لو توجهت اليها بكلام في هذه اللحظة لما سمعتني •

قالت بصوت لا يكاد يفهم :

ـ فانيا ، لقد رجوتك أن تأتي ، لأن ثمة أمراً خطيراً أريد أن أفضي به اليك •

ـ ماهو ؟

ـ سأتركه •

ـ ستتركينه أم تركته ؟

ـ يجب أن أنهي هـذه الحياة • لقد أومأت اليك أن تأتي لأقص عليك كل ماتجمع وتراكم في نفسي ، كل ما أخفيته عنك حتى الآن •

كانت تبدأ دائما بمثل هذا الكلام حـين تريد أن تفضي اليّ بنواياها الخفية ، وكان يتضح دائما تقريبا انني أكون على علم بأسرارها منـذ مدة طويلة ، باحت لي بها هي نفسها •

ـ ناتاشا ، سمعتك تقولين هذا مائة مرة ! صحيح انكما لاتستطيعان أن تعيشا معا ، فعلاقتكما شيء غريب ، وليس ثمة مايجمع بينكما • ولكن ••• هل تقوين على هذا ؟

ـ قبل الآن كان ذلك في مجال النية فحسب ، أما الآن فقد عقدت العزم حاسماً قاطعاً • انني أحبه حباً لا نهاية له ، ومع ذلك أدرك أنني عدوته الاولى • انني أسيء الى مستقبله فيجب أن أرد اليه حريته • انه لا يستطيع أن يتزوجني ، لا يملك القوة على مقاومة أبيه ، ولا أريد أنا أربطه ، وانه ليسرني أن يحب خطيبته • يجب أن أتركه ! هذا واجبي ••• اذا كنت أحبه فينبغي أن أضحي بكل شيء في سبيله ، أن أبرهن له على حبي ، هذا واجبي ! أليس كذلك ؟

ـ ولكنك لن تستطيعى اقناعه .

ـ لن أحاول اقناعه ، سأظل معه كما كنت من قبل ، يستطيع أن يدخل متى شاء ، ولكن يجب أن أبحث عن وسيلة تجعله يتركنى بسهولة دون أن يعذبه ضميره . هذا مايسهدنى يا فانيا ، ساعدنى . بم تنصحنى ؟

قلت :

ـ ليس هناك الا وسيلة وحيـدة : أن تكفى عن حبه وأن تحبى شخصاً آخر . ولكننى أشك فى نجاح هذه الوسيلة . انك تعرفين طبعه ! هاقد مضى على غيابه عنك خمسة أيام . واذا فرضنا انه هجرك هجراً نهائياً ، فيكفى أن تكتبى اليه بأنك تهجرينه أنت حتى يسارع اليك على الفور .

ـ لماذا لاتحبه يا فانيا ؟

ـ أنا ؟

ـ نعم انت انت . انك عدوه ، سراً وعلانية ! لاتستطيع أن تتحدث عنه دون شعور بالحقد . لاحظت مائة مرة ان أكبر لذة تشعر بها هى فى اهانته وتسويد صفحته ! نعم تسويد صفحته ، أقول الحقيقة !

ـ قلت لى ذلك مائة مرة . كفى يا ناتاشا ، لندع هذا الحديث .

قالت بعد صمت :

ـ أريد أن أترك هذا البيت . ولكن لاتزعل يا فانيا ..

ـ وبعد ذلك ؟ لاشك أنه سيوافيك فى المسكن الجديد . ثقى أننى لم أزعل .

ـ الحب قوى : يستطيع حب جديد أن يحبسه عنى . وهبه عاد الىّ ، فلن يعود الا الى حين ، ما رأيك ؟

ـ لا أدرى يا ناتاشا ، كل شيء فيه لا شأن له بالمنطق • انه يريد أن يتزوج الأخرى ، ويريد فى الوقت نفسه أن يستمر على حبك • يريد الامرين فى آن واحد •

ـ لو كنت واثقة من أنه يحبها ، لعزمت أمرى ، وقطعت برأى • فانيا ، لا تخف عنى شيئاً • هل تعلم شيئاً لا تريد أن تبوح لى به !

وسددت الىّ نظرة قلقة فاحصة •

ـ لا أعلم شيئاً يا صديقتى ، أقسم لك بشرفى • لقد كنت صريحاً معك دائما • على أنه يخطـر ببالى شيء : قد لا يكون مفتونا بابنـــة زوج الكونتيسة الى الحد الذى نتصوره • قد لايكون هذا أكثر من حماسة عابرة ••

ـ أتظن هذا يا فانيا ؟ يا الهى ! ليتنى كنت واثقة من ذلك ! آه ، لشد ما أتمنى لو أراه فى هذه اللحظة ، لا لشيء الا لألقى عليه نظرة واحدة ، فأقرأ فى وجهه كل شيء ! ولكنه لايجيء ، لايجيء !

ـ ولكن هل تنتظرين مجيئه يا ناتاشا ؟

ـ كلا • انهعندها • أعلم ذلك • أرسلت من يأتينى بالأنباء • لشدّما أود لو أراها هى أيضاً ! ••• اسمع يا فانيا ، سأقول لك شيئاً سخيفاً : يستحيل علىّ ألا أراها ، ألا ألقاها أبدا • ما رأيك ؟

وانتظرت جوابى قلقة :

ـ أن تريها ؟ هذا ممكن • ولكنك تعلمين ان رؤيتها لاتكفى •

ـ يكفى أن أراها ، وبعد ذلك أحزر • اسمع ، هل تعلم أننى أصبحت سخيفة : لا أعمل شيئاً غير الطواف فى الغرفة وحدى ، وازجاء الوقت بالتفكير ؟ كأن فى رأسى زوبعة ، وهذا يتعبنى ! وقد خطرت على

بالى فكرة يا فانيا : ألا تستطيع أن تتعرف اليها ، مادامت الكونتيسة قد أطرت روايتك وقرظتها ؟ (أنت قلت لى ذلك) . انك تذهب أحياناً الى سهرات الامير ر .. ، وهى تذهب اليها كذلك . حاول أن تقدم نفسك اليها ، أو لعل أليوشا نفسه يستطيع أن يقدمك اليها . وستقص علىّ كل شيء .

ـ ناتاشا ، عزيزتى ، سنتحدث فى هذا فيما بعد . ولكن قولى لى الآن : هل تعتقدين حقاً أنك تقوين على تركه ؟ أنظرى فى نفسك ، هل تقولين ماتقولين هادئة ؟ .

فقالت بصوت لا يكاد يُفهم :

ـ نعم أقوى على ذلك . سأعمل كل شيء فى سبيله . سأضحى بحياتى كلها من أجله . ولكن هل تعلم يا فانيا ؟ اننى لا أطيق أن يكون فى هـــذه اللحظة عندها : لقد نسينى ، انه الآن الى جانبها ، يحدثهـــا ويضحك ، هل تتذكر ، مثلما كان يضحك هنا .. انه ينظر فى عينيها . هكذا نظرته دائما ، فى العينين ، ولا يخطر بباله اننى هنا .. معــك .

ولم تكمل كلامها ، وألقت علىّ نظرة يائسة :

ـ ماهذا يا ناتاشا ؟ ألم تقولى منذ لحظة ، منذ لحظة ..

فقاطعتنى وهى تلقى علىّ نظرة ملتهبة :

ـ سننفصـــل جميعاً ، جميعاً . ولكن يا فانيـــا ما أقسى أن يبدأ هو بنسيانى . آه يا فانيا ، ما أشد عذابى . أنا نفسى لا أفهم : الفكر شيء ، والواقع شيء آخر . رباه ، أكاد أجن .

ـ كفاك يا ناتاشا ، هدئى روعك !

ـ خمسة أيام ، فى كل ساعة ، فى كل دقيقة .. أراه فى حلمى وفى يقظتى ... أراه دائماً . هيا بنا يا فانيا . خذنى اليه .

ـ هدئى نفسك يا ناتاشا ..

ـ بل خذنى اليه . من أجل هذا انما انتظرتك . فانيا ، فكرت فى هذا الامر ثلاثة أيام . من أجل هذا الموضوع انما كتبت اليك .. يجب أن تقودنى اليه ، لا تضن عليّ بهذا .. انتظـرتك .. ثلاثة أيام .. انه فى هذا المساء هناك ، انه هناك ، هيا بنا !

كانت كأنها تهذى . وسمعت ضجة تقوم فى مدخل البيت : كأن مافرا مع أحد .

ـ أسمعى يا ناتاشا ، ماهذا الذى أسمعه !

فأصاخت بسمعها وهى تبتسم ابتسامة من لايصدق شيئاً ، وفجأة امتقع لونها امتقاعاً مخيفاً رهيباً .

وقالت بصوت لايكاد يسمع :

ـ يا الهى ، من هذا ؟

وأرادت أن تمسك بى ، غير اننى خرجت ألقى مافرا عند المدخل . انه هو ، اليوشا . كان يطرح أسئلة على مافرا ، وحاولت مافرا فى أول الامر أن تمنعـه من الدخول . وسمعتها تقـول له ، كأنها هى سيـدة المنزل :

ـ من أين انت خارج هكذا ؟ هه ؟ أين كنت تتشرد ؟ هيا امض ، امض . بماذا تستطيع أن تجيب ؟

ـ لست أخاف أحداً . سوف أدخل .

قال ذلك فى شىء من الخجل .

ـ ادخل ، ما أثقلك !

ـ نعم سأدخل • ها ، أأنت هنا ، أنت أيضاً ؟ ما أحسن أن تكون انت أيضاً هنا • هاءنا ذا • أرأيت ؟ كيف تراني ؟

ـ ولكن ادخل ، ماذا تخشى ؟

ـ لست أخشى شيئاً ، أؤكد لك ، لانني لست مذنباً ، أشهد الله على ذلك ! انت تعتقد ان الخطيئة خطيئتي • سوف ترى الآن • سأشرح كل شيء على الفور • ناتاشا ، هل أستطيع أن أدخل ؟ (قال ذلك في ثقة مصطنعة وهو واقف أمام الباب) •

ولم يجب أحد •

فقال وقد ظهر على وجهه القلق والخوف :

ـ ماذا ؟

ـ فأجبت :

ـ لاشيء ، كانت هناك منذ لحظة • اللهم الا ان ••

ففتح اليوشا الباب في حذر ، وأجال في الغرفة نظرة خجلى • لم يكن في الغرفة أحد •

وفجأة لمحها في ركن من الغرفة ، بين الخزانة والنافذة • كانت واقفة هنالك ، كأنها تختبيء ، وهي أقرب الى الموت منها الى الحياة • حتى هذا اليوم ، كلما فكرت في ذلك المشهد لا أستطيع أن أمنع نفسي عن الابتسام • اقترب اليوشا منها بخطى بطيئة حذرة ، وقال في خجل وهو ينظر اليها بنوع من الذعر :

ـ ناتاشا ، مابك ؟

فأجابت وهي في حالة انفعال رهيب ، كأنها هي المجرمة •

ـ مابي ؟ لا •• لا شيء •• هل •• تريد قدحاً من الشاي ؟

فقال اليوشا وقد طار صوابه :

ـ ناتاشا ، اسمعي . لعلك تعتقدين انني مجرم . ولكنني لست مجرماً . لست مجرماً أبداً . سترين ، سأقص عليك كل شيء .

فتمتمت ناتاشا تقول :

ـ علام تقص كل شيء ؟ لا ضرورة . ناولني يدك ، فينتهي كل شيء ، كما ينتهي دائماً .

وخرجت من ركنها ، وقد تلون خداها .

كانت تغض طرفها ، كأنما هي تخشى أن تنظر في وجه اليوشا .

فهتف اليوشا في حماسة :

ـ لو كنت مذنباً ، لما جرؤت ان انظر اليها .

والتفت الي يقول :

ـ انظر ، انظر . انها تعتقد انني مذنب . كل شيء يدينني ، كل الظواهر تلقي التبعة علي ! خمسة أيام أغيب عنها ، وقد سمعت من يقول لها انني في بيت خطيبتي ، ثم هي تصفح عني . تقول لي : ناولني يدك فينتهي كل شيء . ناتاشا ، عزيزتي ، ملاكي ! لست مذنبا ، اعلمي هذا ، لم أقترف أي عمل سيء ! بالعكس ، بالعكس !

ـ ولكن كان عليك أن تذهب الى هنالك .. لقد دعوك .. كيف أتيت الى هنا .. كم الساعة الآن ؟

ـ العاشرة والنصف . كنت هنالك .. ولكنني قلت انني مريض ، وخرجت . هذه هي المرة الاولى التي اكون فيها حراً بعد خمسة ايام ، فأستطيع أن أفلت منهم وآتي اليك . الحقيقة أنه كان في وسعي أن آتي قبل الآن ، ولكني آثرت أن لا اجيء . لماذا ؟ ستعرفين السبب بعد هنيهة،

سأشرح لك كل شيء : وانما أتيت لاشرح لك كل شيء • ولكني اقسم لك انني ، في هذه المرة ، لست مذنباً في حقك ابداً ، ابداً !

ورفعت ناتاشا رأسها وثبتت نظرها فيه •• غير ان نظرة اليوشا كانت من قوة اشعاعها بالصدق ، والاخلاص ، والفرح ، بحيث يستحيل ان لا يصدّق • وخيل اليّ انهما سيصرخان ، وأن كلاً منهما سيرتمي بين ذراعي الآخر ، كما حدث ذلك اكثر من مرة في مثل مناسبات التصالح هذه ، الا ان ناتاشا ، وكأنما اخرستها السعادة ، القت برأسها على صدره ، وأخذت تبكي بكاء صامتاً على حين فجأة •• ولم يستطع اليوشا أن يتمالك نفسه ، فاذا هو يرتمي على قدميها ، ثم يقبل يديها ورجليها •• كان كمن طاش صوابه وخرج عن طوره • وتقدمت اليّ ناتاشا بكرسي ، فجلست عليه ، وكانت ركبتاها تصطكان •

الجزء الثاني

الفصل الأول

وماهي الا دقيقة حتى كنا نضحك جميعاً كالمجانين • قال اليوشا وهو يغطينا جميعاً بصوته الرنان :

ـ يظنّان أن كل شيء هو الآن كما كان من قبل ••• يظنان أنني لا أقول الا سخفاً ••• أؤكد لكما أن ما سأقوله هام جداً •• وبعد ؟ ألن تسكتا ؟

كان اليوشا يتحرق شوقاً الى قص قصته • كان واضحاً لمن ينظر في وجهه انه يحمل أنباء هامة ، الا ان هيئة الجد التي كان يضفيها عليه زهوه الساذج بأنه يحمل هذه الأنباء سرعان ما أفرح ناتاشا ، فأخذت تضحك ، واخذت أنا اضحك رغم أنفي • وكلما ازداد اليوشا حنقاً علينا ازددنا نحن ضحكاً • ان حنقه ، ثم أسفه الساذج ، انتهيا بنا الى تلك الحالة التي يكفي فيها ان يُظهر صاحبنا طرف اصبعه حتى ننفجر في قهقهة لا تنتهي ! وكانت مافرا ، وقد خرجت من المطبخ ، واقفة على باب الغرفة تتأملنا في استياء قاتم ، وتأسف على ان ناتاشا لم تؤنب اليوشا بعد أن انتظرته خمسة أيام طوال ، بدلاً من أن تضحك الآن مرحة هذا المرح •

واخيراً توقفت ناتاشا عن الضحك ، حين رأت ان قهقهاتنا تؤلم اليوشا ، وسألته :

ـ ماذا تريد ان تقص علينا ؟

وقالت مافرا ، مقاطعة اليوشا ، دون ان تحفل به البتة :

ـ هل اجيء بالسماور ؟

فأجابها وهو يدفعها فى سرعة بيده :

ـ اذهبى يا مافرا ، اذهبى • سـأقص عليكما كل ما وقع ، وكل ما يقع ، وكل ما سيقع ، لأننى أعرف كل هذا • أرى ، يا صديقيَّ ، أنكما تريدان ان تعلما اين كنت طوال هذه الايام الخمسة ، وهذا ما أريد ان اقصه عليكما ، الا انكما لا تدعان لى فرصة الكلام • والآن سوف اتكلم• فأقول قبل كل شيء : لقد خدعتك طوال هـذه المدة يا ناتاشا ، خـدعتك منذ مدة طويلة ، وهذا اهم شيء •

ـ خدعتنى ؟

ـ نعم منذ شهر • بدأت بذلك قبل وصول ابى : وقد حان ان أكون صريحاً كل الصراحة • منذ شهر ، قبل ان يصل ابى ، تلقيت منه رسالة طويلة كتمت عنكما امرها • فى هذه الرسالة يبلغنى ابى ، ببسـاطة تامة (بلهجة جدية خفت منها) ان زواجى قد تقرر ، وان خطيبتى فتاة هى الكمال بعينـه ، واننى ـ طبعا ـ لا أستحقها ، وانمـا يجب مع ذلك ان اتزوجها حقاً ، وان علىَّ ، تهيؤاً لهذا ، أن أطرد من رأسى جميع الحماقات، الخ• الخ • تعرفين ماذا يقصد بالحماقات• وهذه الرسالة قد اخفيتها عنك•

فقاطعته ناتاشا تقول :

ـ لم تخفها عنا ابداً : لا داعى لان تعتز بهذا • الواقع انك قصصت علينا كل شيء فى الحال • واذكر انك اصبحت على حين غرة ، طيباً جداً ، لطيفاً جداً ، لا تتركنى ابداً ، كأنك قد اقترفت ذنباً تريد ان تكفر عنه ، وقد رويت لنا الرسالة كلها اجزاء •

ـ مستحيل • انني حقاً لم أرو لكما الشيء الاساسي في الرسالة • ربما حزرتما شيئاً •• هذا من شأنكما •• اما انا فلم أقصّ شيئاً • لقد اخفيت عنكما الامر ، وتألمت من ذلك كثيراً •

اضفت وانا انظر الى ناتاشا :

ـ أذكر يا اليوشا انك كنت يومئذ تسألني النصيحة في كل لحظة ، وقد حكيت لي كل شيء ، اجـزاء مبعثرة بطبيعة الحـال ، وعلى صـورة افتراضات ••

ـ لقد رويت لنا كل شيء • لا تعتز ، أرجوك • أأنت تستطيع ان تخفي شيئاً ؟ أأنت تستطيع المكر ؟ ما فرا نفسها تعرف كل شيء ، أليس كذلك يا مافرا ؟

فأجابت مافرا ، وهي تمد رأسها من الباب :

ـ طبعاً • لقد حكيت لنا كل شيء في الايام الثـلاثة الاولى • أنت لا تستطيع أن تخبيء شيئاً •

ـ الحديث معك مزعج يا ناتاشا • أنت تعملين هـذا كله انتقاما • أذكر أنني كنت يومئذ كالمجنون • هل تذكرين يا مافرا ؟

ـ كيف لا أذكر ؟ واليوم أيضاً أنت كالمجنون !

ـ ليس هذا قصدي ؟ أقصد هل تذكرين أنه لم يكن لدينا يومئذ شيء من المال ، وانك ذهبت ترهنين علبة سجائري الفضية ! ولكن اسمحي يا مافرا ان اقول لك انك تنسين نفسك أمامي ، ولا تتحرجين من قول أي شيء • ناتاشا هي التي علمتك كل هذا • على كل حال ، لنسلم بأنني رويت لكم كل شيء منذ ذلك الوقت ، اجزاء مبعثرة (أتذكر هذا الآن)، ولكنكم لا تعرفون اللهجة ، لهجة الرسـالة • واللهجة في رسـالة من الرسائل هي الشيء الأساسي • هذا ما أريد أن أقوله •

قالت ناتاشا :

ـ وكيف كانت لهجة تلك الرسالة ؟

ـ اسمعى ياناتاشا ، انك تسأليننى هذا السؤال وكأنك تمزحين . أرجوك لا تمزحى . أؤكد لك ان الامر خطير . كانت لهجة الرسالة من القسوة بحيث شعرت ان ذراعيّ تسقطان من كتفى . لم يتفق لأبى فى حياته ان خاطبنى بمثل هذه اللهجة ! اسمعى لهجة الرسالة .

ـ هات حدثنا عن لهجة الرسالة . ولماذا كان لا بد لك ان تكتم عنى امرها ؟

ـ كى لا أرعبك ، طبعا . كنت آمل ان أرتب الامور بنفسى . وبعد هذه الرسالة ، منذ وصول أبى ، بدأت متاعبى ، وبدأ عذابى . كنت قد وطنت العزم على أن أجيبه بقوة ، بجرأة ، بكلام واضح ، غير أن الفرصه لم تتح . فانه لم يطرح على اى سؤال : انه ماكر . حتى لقد كان يتصرف تصرف من يرى أن كل شيء مقرر ، وانه لا يمكن ان يكون بيننا أى نقاش او خلاف . هل تسمعين : كان يتصرف تصرف من يعتبر انه لا يمكن ان يكون بيننا اى نقاش او خلاف ! اى غـرور هذا ؟ وكان معى لطيفاً رقيقاً الى ابعد حدود اللطف والرقة ! ودهشت من هذا . انه رجل ذكى، لو تعلمين ما اذكاه يا ناتاشا ! لقد قرأ كل شيء ، وهو يعلم كل شيء . يكفى ان تنظرى اليه مرة واحـدة ، حتى يعرف افكارك كمـا يعـرف افكاره ، ولا شك انهم لهذا انما ماقالوا عنه : يسوعى . ان ناتاشا لاتحب أن أمدحه . لا تزعلى يا ناتاشا . بالمناسبة كان فى أول الأمر لا يعطينى مالا ، ولكنه أعطانى بالأمس ، يا ناتاشا ، يا ملاكى ، لقد انتهى بؤسنـا . خذى . انظرى . كل ما قد قطعـــه عنى على سبيل العقوبة خلال ســتة أشهر ، رده اليّ بالأمس . انظرى كم أعطانى ، لم أعد المبلغ الى الآن .

مافرا ، انظری ما أكثر ما نملك الآن من مال ! لن نحتاج بعد اليـوم الى رهن ملاعقنا وأزرار الأكمام .

وأخرج من جيبه حزمة من الأوراق النقدية ، تقارب قيمتها ألفاً وخمســـمائة روبلاً فضـة ، ووضـعها على المنضدة . ونظرت مافرا الى الاوراق النقدية فی دهشة ، وهنأت ألكسي . وكانت ناتاشا تستحثه على اكمال كلامه . وتابع أليوشا يقول :

ـ تساءلت ماذا أفعل ؟ كيف اعترض عليه ؟ احلف لكمـا أنه لو اساء معاملتی ، ولم يكن رقيقاً الی هذا الحد ، لما فكرت فی شیء من هذا ، لأعلنت له بصراحة تامة اننی لا ارید ، واننی لست الآن طفلا ، وان كل شیء قد انتهی ، ولاصررت علی هذا فی عناد ، صدقانی . ولكن ما عسای استطیع ان افعل والامر كما تریان ! ولكن ما ینبغی ان تتهمانی . اری انك ممتعضة یاناتاشا. لماذا تتغامزان ؟ لاشك انكما تعتقدان انهم خدعونی، واننی لا املك ذرة من قوة الارادة . انكما مخطئـان . اننی املك قوة الارادة . والبرهان علی ذلك اننی رغم ظروفی هذه سرعان ما قلت لنفسی: « یجب علی ان اقص علی ابی كل شیء » . ثم بدأت ، فقصصت علیه كل شیء ، واصغی ابی الی كلامی حتی النهایة .

فسألته ناتاشا بلهجة قلقة :

ـ ماذا قلت له ؟

ـ قلت له اننی لا ارید خطیبة اخری ، لان لی خطیبة هی انت . الحق اننی لم اقل له ذلك صراحة بعد ، ولكننی هیأته لذلك ، وسأعلنه له غدا . قررت هذا . وقبل كل شیء ، ذكرت له ان من العار والحقارة ان یتزوج المرء من اجل المال ، وان من الغباوة من جهتنا ان نعد انفسنا من الطبقة الارستقراطیة (لاننی كنت اخاطبه بحریة تامة كأننی اخاطب

أخاً لا أباً) ثم قلت له انني متوسط الحال ، وان هذا هو الأساسى ، وانني اعتز بذلك ، وانني شبيه بكل الناس ، لا اريد ان أتميز على احد •• اى شرحت له ، على الجملة ، كل هذه الافكار السليمة الصحيحة •• وكنت اتحدث فى حرارة واندفاع ••• حتى لقد استغربت ذلك من نفسى •• وقلت له بصراحة : « مانحن بالامراء الا اسماً ! لقد ولدنا أمراء ، ولكن ليس لنا من صفات الامراء غير هذا •• نحن اولاً لسنا بالاغنياء ، والغنى اهم شىء •• ان اكبر امير فى عصرنا هو روتشيلد • ثم اننا منذ زمان بعيد لم يبق لنا فى المجتمع العالى من ذكر • آخرنا عمى سيمون فالكوفسكى ، ولم يكن معروفا الا فى موسكو ، ولم يعرف فيها الا لانه فقد النفوس الثلاثمائة الاخيرة التى كان يملكها • ولولا ان أبى قد جنى بنفسه ثروة ، لاصبح احفاده يحرثون الارض ، كما يفعل بعض الامراء • واذن فليس ثمة ما نزهو به » • اى اننى ، على الجملة ، قد اخرجت كل ما كان يغلى فى نفسى ، كل شىء ، فى قوة وعنف ، بلا لف ولا دوران ، بل لقد زدت على ذلك قليلا• ولم يجب ابى على كلامى بشىء ، واكتفى بأن اخذ يلومنى على اننى تركت منزل الكونت ناينسكى ، ثم قال بعد ذلك ان علىّ ان اتقرب من الأميرة ك •• اشبينتى ، واننى اذا أحسنت وفادتى لدى الأميرة ك أحسنت وفادتى فى كل مكان ، وضمن مستقبلى ، وراح يضرب على هذا التوتر •• وكان طوال الوقت يلمع الى اننى تركتهم جميعا منذ أصبحت أعيش معك يا ناتاشا ، وان هذا كان بتأثير منك • غير انه حتى الآن لم يحدثنى عنك حديثا مباشراً ، ومن الواضح انه يتحاشى التعرض لهذا الموضوع • اننا نمكر كلانا ، ويتربص كل منا بالآخر ، وثقى أنه سيأتى يوم •••

ـ كل هذا حسن • ولكن قل لى كيف انتهى الامر ؟ ما الذى قرره ؟ هذا اهم شىء • ما اكثر ثرثرتك يا اليوشا !

ـ الله اعلم ! يستحيل ان يستخرج المرء من كلامه ما عزم عليه • وأنا لست بثرثار ، وانما اقول كلاماً جداً • لم يقرر شيئا البتة • كان ، وهو يسمع حججي ، لا يزيد على أنه يبتسم ، كأنه يرثي لحالي • أشعر ان في هذا احتقاراً لي ، ولكنني لا أشعر منه بالعار • قال لي : « انني أوافقك كل الموافقة على ما قلت ، هيا نذهب الى الكونت ناينسكي ، ولكن لا تقل هنالك شيئاً مما قلته الآن • أنا أفهمك ، أما هم فلن يفهموك • يظهر أنه هو نفسه لا يُستقبل استقبالاً حسناً جداً في كل مكان • انهم يأخذون عليه شيئاً ما ، وانهم على وجه العموم يتجهمون له في هذه اللحظة • ومنذ البداية استقبلني الكونت في عنجهية وتكبر ، كأنما هو نسي نسياناً تاماً أنني ترعرعت في بيته ! انه يأخذ عليّ انني نسيت الجميل، والحق ان المسألة ليست مسألة نسيان جميل من جانبي ، ولكن المرء يأخذ الملل والضجر بخناقه في بيت الكونت ، لهذا السبب لم أذهب اليه • ثم انه لا يراعي جانب أبي كثيراً ، انه لا يقيم له وزناً كبيرا ، وقد أدهشني ذلك ، واثار حنقي • ان ابي المسكين ليكاد ينحني امامه حتى يلامس الأرض • أعلم انه يفعل ذلك من أجلي أنا ، ولكنني لست في حاجة الى شيء من ذلك • وأوشكت أن أصارح أبي بكل عواطفي ، ولكنني أمسكت عن ذلك • وعلام اصارحه بعواطفي هذه ! انني ان فعلت لن اغير من قناعته شيئاً ، ولن ازيد على ان أضاعف حزنه • حسبه ما هو فيه من حزن ! عندئذ قلت لنفسي : سأمكر ، وسأبزهم جميعاً في الحيلة والمكر ، وسأضطر الكونت الى احترامي اضطراراً • وصدقاً لقد أدركت هدفي هذا على الفور ، فما هو الا يوم واحد حتى تغير كل شيء ، واصبح الامير لا يداري احداً غيري ، وقد فعلت ذلك كله وحدي ، بحيلتي ومكري ، حتى ادهشت ابي !

هتفت ناتاشا وقد نفد صبرها :

ـ اسمع يا أليوشا ، الافضل ان تقص علينا الحكاية • كنت اظن انك ستحدثنا عما يهمنا ، وها أنت ذا تذكر لنا كيف ظهرت وتميزت فى منزل الكونت ! مالى انا وللكونت !انه لا يهمني •

ـ لا يهمها : اسمع يا ايفان بتروفتش ! لا يهمها • ولكن تلك هي النقطة الاساسية • سترين ، ستدهشين انت نفسك • سيتضح لك كل شيء فى النهاية ، ولكنى دعيني اتكلم • واخيرا (نعم ، ولماذا لا اتكلم بصراحة) ، قد اكون يا ناتاشا ، يا ايفان بتروفتش ، قد اكون احمق ، بل قد اكون (وهذا واقع) ابله ، ولكن أؤكد لكما اننى فى هذه المرة قد برهنت على كثير من المكر والحيلة ، نعم • بل ومن الذكاء ، وقلت لنفسى لا شك انهما سيسران اذا علما اننى لست دائماً •• غبياً •

ـ هوه • ماذا تقول يا أليوشا ؟ هل لك ان تسكت ؟

كانت ناتاشا لا تطيق ان يُنعت أليوشا بانه غير ذكي • كم مرة زعلت ، دون ان تعلن زعلها صراحة ، حين كنت ابين لأليوشا ، فى غير ما تحرج ، انه قد ارتكب حماقة ما ••• كان هذا وتراً حساساً فى نفس ناتاشا • كانت لا تطيق أن يُهان أليوشا ، لا سيما وانها كانت فى أعماق نفسها تعرف حدوده •• ولكنها لم تصارحه يوماً بشعورها خشية ان تجرح كرامته • اما هو فكان فى مثل هذه اللحظات نافذ البصيرة جداً ، فكان يحزر مشاعرها الخفية • وكانت ناتاشا ترى ذلك ، وتحزن له حزنا كبيرا ، ثم ما تلبث ان تأخذ بمداعبته وتدليله •• لهذا السبب كان لكلام اليوشا فى هذه اللحظة صدى فى قلبها مؤلم ••

ـ اسكت يا أليوشا ، كل ما هنالك انك طائش •• هذا كل ما فى الامر ، لماذا تحقر نفسك ؟

ـ طيب • ولكن دعيني اتم كلامى • بعد استقبال الكونت ، كان ابى غاضباً عليّ • أقول انتظرى قليلا • وذهبنا الى منزل الأميرة ، وكنت

قد سمعت انها خرفت من الشيخوخة ، وانها عدا هذا صماء ، وانها تحب الكلاب الى حد الجنون . ورغم ذلك ، فان لها فى المجتمع الراقى تأثيراً كبيراً ، حتى ان الكونت ناينسكى نفسه كان يتضاءل امامها . وفيما نحن فى الطريق اليها ، رسمت خطتى ، هل تعرفان علام اقمت هذه الخطة ؟ اقمتها على اساس ان جميع الكلاب تحبنى . هذه حقيقة اقولها لكما ! لقد لاحظت ذلك . لا ادرى ألأن بى قوة مغناطيسية ام لاننى انا نفسى احب جميع الحيوانات ؟ المهم ان الكلاب تحبنى . وبمناسبة المغناطيسية ، اظن اننى لم احدثكما اننا قد استحضرنا الارواح منذ مدة . كنت عند احد الخبراء باستحضار الأرواح ، والغريب ان هذا الموضوع قد شاقنى كثيرا يا ايفان بتروفتش . لقد استحضرت روح يوليوس قيصر*.

ـ ما حاجتك الى يوليوس قيصر ؟ هذا ما كان ينقصك ..

قالت ناتاشا ذلك وهى تنفجر ضاحكة .

ـ ولم لا ؟ أأنا .. لماذا لا يحق لى ان استحضر روح يوليوس قيصر ؟ فيم يسىء هذا اليه ؟ انها تضحك !

ـ طبعا . لا يسىء اليه فى شىء .. آه يا صديقى العزيز !.. دعنا ! وماذا قال لك يوليوس قيصر ؟

ـ لم يقل لى شيئاً . كنت ممسكا بقلم ، وكان القلم يتحرك من تلقاء نفسه على الورقة ويكتب . كان يوليوس قيصر هو الذى يكتب ، فيما قالوا لى . ولكننى لا اعتقد بهذا .

ـ وماذا كتب ؟

ـ كتب شيئاً يشبه أن يكون « غط قلمك »*.. ولكن أما كفاك ضحكاً ؟

ـ حدثنا الآن عن الاميرة !

ـ انك تقاطعينني دائما . وصلنا الى بيت الاميرة واخذت الاطف ميمى . وميمى هذه كلبة عجوز فظيعة ، تثير الاشمئزاز ، وهى الى هذا عنيدة ، وتعض ، والاميرة مستطارة اللب بها ، وهما تبدوان فى سن واحدة . بدأت احشو ميمى بالحلوى ، وما هى الا عشر دقائق حتى استطعت ان اعلمها كيف تمد قائمتها ، وهذا امر لم يستطيعوا ان يدربوها عليه طوال حياتها . فلما رأتها الاميرة تفعل ذلك ، طار عقلها فرحا حتى كادت تبكى : « ميمى ، ميمى ، هاتى يدك ! لقد علمها ذلك عزيزى اليوشا » . ودخل الكونت ناينسكى : « ميمى ، هاتى يدك ! » . ونظرت الىّ وهى تكاد تبكى من قوة العاطفة . يا لها من عجوز رائعة ! لقد اثارت فى قلبى الشفقة . ولم ادع الفرصة تمر ، فلاطفتها ملاطفة ثانية . كان على علبة تبغها نقش يمثل صورتها وهى صبية ، اى منذ ستين عاما خلت . ووقعت علبة تبغها على الارض ، فسارعت الى التقاطها وقلت متجاهلا : يا له من رسم بديع . انه الجمال المثالى . فما سمعت هذا حتى ذابت تماما ، وأخذت تتودد الىّ وتحدثنى فى كل أمر : تسألنى أين درست ، وأين اسكن ، وتطرينى ، وتقول ان لى شعراً رائعا ، الخ ، الخ . وقد زدت مرحها بأن قصصت عليها حكاية خليعة . انها تحب هذا . صحيح انها هددتنى باصبعها ، الا انها ضحكت كثيرا . وحين انصرفت ، قبلتنى ، ورسمت علىّ اشارة الصليب ، وأصرت على أن أجيء اليها فى كل يوم لأسليها ، وصافحنى الكونت بحرارة ، وهو ينظر الىّ نظرة رقيقة حانية . اما ابى ، فرغم انه احسن من على وجه الارض واشرفهم وانبلهم ، صدقونى او لا تصدقونى ، كاد يبكى من شدة الفرح ، حين عدنا الى البيت . لقد قبلنى ، وراح يفضى الىّ بأمور عن الحياة ، والعلاقات بالناس ، والمال ، والزواج : أمور عجيبة غاب عنى فهم كثير منها ، وفى تلك اللحظة

انما اعطانى المال • وقع ذلك بالأمس ، وغدا سأعود الى الاميرة ، غير ان ابى رغم هذا انبل انسان على وجه الارض ، لا تسيئوا الظن فيه • صحيح انه يبعدنى عنك يا ناتاشا ، ولكنه انما يفعل ذلك ، لان حب المال قد اعماه ، لانه طامع فى ملايين كاترين ، ولانك انت لا تملكين هذه الملايين ، على انه لا يطمع فى هذه الملايين الا من اجلى انا ، واذا كان لا ينصفك فلأنه يجهلك • وأىأب لايرغب فى سعادة ابنه ؟ وليس الذنب ذنبه ان كان قد اعتاد على أن يقدر السعادة بالملايين • انهم جميعاً كذلك • يجب ان ننظر اليه على هذا الاساس لا على اساس آخر ، حتى اذا فعلنا ذلك أدركنا فوراً انه على حق • ولقد أسرعت أجىء اليك يا ناتاشا لأقنعك بهذا ، لاننى اعرف انك تنظرين اليه نظرة سيئة ، وطبيعى ان الذنب فى هذا ليس ذنبك • ولست ألومك ••

ـ اذن فكل ما حدث لك هو قيامك بتلك الوظيفة لدى الاميرة ؟ هذا هو مكرك كله !

ـ ماذا تقولين ؟ ليس هذا الا بداية •• لقد حدثتك عن الاميرة ، لاننى بواسطتها انما اقبض على زمام ابى ، هل تفهمين ؟ ولكننى لم ابدأ قصتى الاساسية !

ـ اذن قصَّها علينا بسرعة !

ـ فى هذا اليوم وقع لى حادث آخر غريب كل الغرابة ، أدهشنى وصعقتنى • لاحظى أنه اذا كان أبى والأميرة قد قررا زواجنا رسمياً ، فما من شىء قد تمَّ نهائياً حتى الآن : نستطيع ان ننفصل على الفور دون أية فضيحة • ان الكُونت ناينسكى وحْده على علمٍ بالأمر، وهم يعدونه قريباً وحامياً • ورغم اننى فى هذين الاسبوعين الأخيرين قد لقيت كاتيا كثيراً ، فاننا حتى الليْلة البَارحة لم نتحَدث فى المُستقبل ، أى فى

الزواج ، ولا .. نعم .. فى الحب . ثم انهم قد قرروا فى بادىء الامر ان يطلبوا موافقة الاميرة ك .. التى ينتظرون منها حماية عظيمة ، وسيلا من الذهب . ان ما ستقوله الاميرة سيقوله المجتمع الراقى ، لأن لها علاقات هائلة .. وهم يريدون قطعاً ان يخرجونى الى المجتمع وان يجعلونى أشق طريقى . الا ان الكونتيسة ، زوجة أبى كاتيا ، هى التى تلح على هذه الأمور . والواقع ان الاميرة لا تستقبل الكونتيسة فى بيتها حتى الآن، وربما كان ذلك بسبب ما قامت به الكونتيسة من أعمال طائشة فى الخارج ، واذا لم تستقبلها الاميرة لم يستقبلها الآخرون أيضا . واذن فخطبتى كاتيا فرصة مواتية ، لذلك فان الكونتيسة التى كانت فى أول الامر تعارض هذا الزواج افرحها اليوم كثيراً فوزى بحظوة الاميرة . غير ان هذا كله على الهامش ، واليك الأمر الهام : لقد عرفت كاترين فيدوروفنا منذ العام الماضى ، ولكننى كنت حينذاك طفلا ، ولم أكن أفهم شيئاً ، لذلك لم ار فيها يومذاك شيئاً ..

فقاطعته ناتاشا :

ـ كل ما فى الأمر انك كنت تحبنى أكثر مما تحبنى الآن ، فلم تر شيئاً ، اما الآن ..

فهتفت اليوشا فى عنف :

ـ اسكتى يا ناتاشا ، أنت مخطئة كل الخطأ ، وانك لتهينينى بهذا الكلام ! . ولن أجيبك . اصغى الى بقية كلامى ، تفهمى كل شىء ! . ليتك تعرفين كاتيا ! ليتك تعرفين روحها الرقيقة الصافية ! ولكنك ستعرفين ذلك . المهم أن تصغى الى كلامى حتى النهاية . منذ خمسة عشر يوماً ، حين قادنى أبى الى كاتيا بعد وصوله أخذت أراقبها بانتباه ، ولاحظت انها تراقبنى هى الاخرى ، واثار هذا فضولى . لست اتحدث

الآن عما كنت قد انتويته من تعميق معرفتي بها ، منذ وصلتني من ابى تلك الرسالة التى شدهتني • على كل حال سأسكت الآن عن الاشادة بمحاسنها ، وانما اكتفى بان اقول ما يلي : هذه انسانة اصيلة ، هذه انسانة قوية ، قوية لأنها صافية مستقيمة ، وهي من هذا كله بحيث انني اصبحت ازاءها طفلاً لا اكثر ، اخاً اصغر ، رغم انها لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها • وقد لاحظتُ كذلك شيئاً آخر : انها حزينة حزناً عميقاً ، كأنها تحمل في أعماقها سراً دفيناً • انها غير ثرثارة • وهي فى بيتها صامتة كل الوقت تقريباً ، كأن بها خوفاً •• كأنها تفكر فى أمر ما • ويظهر عليها أنها تخشى أبي • وهى لا تحب زوجة أبيها ، ادركتُ ذلك : ان الكونتيسة هي التى تزعم ، لامر ما ، ان ابنة زوجها تحبها بل تعبدها • هذا كذب • كل ما فى الامر ان كاتيا تطيعها طاعة عمياء ، كأنهما اتفقتا على ذلك فيما بينهما • ومنذ أربعة أيام ، بعد كل هذه الملاحظات ، قررت أن اضع مشروعى موضع التنفيذ ، وهذا مافعلته مساء أمس ، أى أن أقص على كاتيا كل شيء ، ان اعترف لها بكل شيء ، ان استميلها الى جانبنا ، فأنهى المسألة دفعة واحدة ••

فسألته ناتاشا بلهجة قلقة :

ـ تروى لها ماذا ؟ تعترف لها بماذا ؟

ـ بكل شيء ، بكل شيء •• وأحمد الله على أنه ألهمنى هذه الفكرة• ولكن اسمعى ، اسمعى ! منذ اربعة ايام قررت ان ابتعد عنك ، وان اتولى بنفسي انهاء كل شيء • ولو قد بقيت معك ، اذن لترددت طوال الوقت ، واصغيت الى كلامك ، ولم اتخذ اى قرار ، فى حين انني استطعت وحدى ان اضع نفسي فى موضع من يقنع نفسه فى كل لحظه بان عليه أن يضع حدا لهذه المسألة ، فاستجمعت شجاعتي ، ومضيت الى النهاية ! وقد وعدت نفسي بأن اعود اليك بقرار ، وها أنا ذا اعود اليك بقرار !

ـ كيف ؟ ماذا حصل ؟ قل ، اسرع !

ـ المسألة بسيطة ، ذهبت اليها رأسا ، باخلاص وجرأة •• ولكن قبل كل شيء يجب ان اروى لك حادثاً سبق هذا الحادث ، واثر في تأثيراً قوياً • قبل ان نخرج تلقى ابى رسالة • وقد دخلت في تلك اللحظة الى حجرته ، ووقفت قرب الباب ، دون أن يرانى • كان ابى من شدة تأثره بالرسالة يتكلم بينه وبين نفسه ، ويصرخ صرخات التعجب ، ويذهب ويجيء في الغرفة ، خارجاً عن طوره ، واخيراً اخذ يضحك على حين فجأة • وكان يمسك الرسالة بيده • خفت ان ادخل ، فتلبثت قليلاً ، ثم جازفت ودخلت ، وسُر ابى كثيراً ، وخاطبنى بلهجة غريبة ، وفجأة قطع كلامه ، وامرنى ان استعد للخروج على الفور ، رغم ان الوقت لم يحن بعد • في هذا اليوم لم يكن عندهم احد ، كنا وحدنا ، يا ناتاشا ، وقد اخطأت اذ اعتقدت أن هناك سهرة اليوم ياناتاشا • لقد اخطأ من ابلغك ذلك •

ـ لاتخرج عن الموضوع يا اليوشا ، ارجوك• قل لى كيف قصصت على كاتيا كل شيء •

ـ من حسن الحظ اننا بقينا وحدنا ، أنا وهى ، ساعتين كاملتين • ابلغتها ، ببساطة ، ان زواجنا مستحيل ، رغم رغبتهم فيه ، واننى ارتاح اليها ، وانها وحدها تستطيع ان تنقذنى • وكشفت لها عندئذ عن كل شيء • تصورى أنها كانت لا تعرف شيئاً عن قصتنا ، يا ناتاشا • ليتك رأيت مدى تأثرها حين قصصت عليها ذلك • في اول الامر ظهر عليها ما يشبه الذعر ، فامتقع لونها امتقاعا شديداً • رويت لها قصتنا كلها : أنك تركت بيتك من أجلى ، أننا نعيش وحدنا ، أننا نعذب ونضطهد ، اننا خائفان من كل شيء ، واننا نلجأ الآن اليها (كنت اتكلم باسمك ايضاً يا ناتاشا) بغية ان تقف هى نفسها الى جانبنا ، فتعلن لزوجة ابيها صراحة

انها لا تريد ان تتزوجنى ، وان هذا هو السبيل الوحيد الى نجاتنا ، واننا اصبحنا لا ننتظر اية معونة من غيرها • وقد استمعت الى كلامى فى كثير من الاستطلاع ، ومن العطف ! ما كان أجمل عينيها فى تلك اللحظة ! لكأن روحها كلها قد انتقلت الى نظرتها ! ان عينيها زرقاوان بلون السماء تماما • وقد شكرت لى أننى لم أشك فيها ، ووعدتنى لتساعدنّنا بكل ما أوتيت من قوة • ثم ألقت علىّ بعض الأسئلة عنك ، وقالت انها تود لو تتعرف اليك ، وسألتنى ان اقول لك انها تحبك منذ الآن حب الاخت أختها ، وترجوك أن تحبيها أنت أيضاً كأنها أخت لك • وحين علمت اننى لم أرك منذ خمسة ايام أرسلتنى اليك على الفور •

وظهرت على ناتاشا علائم التأثر •

صرخت وهى تلقى عليه نظرة تفيض بمعانى العتب :

ـ أليوشا ، أليوشا ، أتحمل كل هذه الاخبار ، ثم تضيع الوقت بأن تقص علينا « شطاراتك » لدى اميرة طرشاء ! أليوشا ! وكاتيا ؟ هل كانت مرحة ، فرحة ، وهى ترسلك الىّ ؟

ـ نعم كانت سعيدة بأن اتيحت لها فرصة القيام بعمل نبيل ، وكانت تبكى • ذلك أنها تحبنى ايضاً ، هل تعلمين ياناتاشا ؟ لقد اعترفت لى بأنها كانت قد بدأت تحبنى ، وانها لا تلقى الا قليلا من الناس ، واننى أحظى باعجابها منذ مدة طويلة • وقد ميزتنى عن غيرى خاصة ، لانها لا ترى حولها الا خداعا وكذبا ، ولاننى ظهرت لها صادقاً شريفا • نهضت عن مكانها وقالت لى : « سامحك الله يا أليوشا ، كنت اعتقد ••• » ولم تتم كلامها ، بل انفجرت باكية ، وخرجت من الغرفة • وقد اتفقنا أن تذهب فى الغد الى زوجة ابيها تعلن لها انها لا تريد أن تتزوجنى ، وان امضى انا الى ابى اقول له كل شىء بقوة وجرأة • وقد لامتنى على اننى لم أكاشفها

بالأمر من قبل ، قائلة : « ان الرجل الشريف يجب ان لا يخشى شيئا »• ما أنبلها يا ناتاشا ! انها لا تحب أبي ايضاً ، وهي تصفه بأنه مخاتل وبانه يسعى وراء المال • وقد دافعت عنه ، لكنها لم تصدقني • وفي رأيها انني اذا لم أنجح مع ابي (وهي على يقين من انني لن انجح) فيجب ان الجأ الى الاميرة ك •• اطلب حمايتها ، فما من احد منهم جميعاً يجرؤ على معارضتها • وقد تواعدنا على أن نكون أخاً وأختاً • ليتك تعلمين أيضا قصتها ، ليتك تعلمين مدى ما تعاني من شقاء ، ومدى ما تشعر به من تقزز واشمئزاز من حياتها مع زوجةأبيها ، ومن كل هذا التمثيل ! •• لم أتذكر لي ذلك صراحة ، كأنما هي تخشاني انا ايضاً ، ولكني ادركته من بعض كلامها • ناتاشا ، صديقتي ، ليتها تراك ، اذن لتُحبنّك حباً ما بعده حب• لقد خلقتما كأختين ، ويجب ان تحب كل منكما الاخرى • لقد فكرت في هذا يا ناتاشا ، وهو صحيح : سأجمعكما ، وسأبقى الى جانبكما أتأملكما • لا أحب أن ينصرف ذهنك الى غير ماينبغي يا ناتاشا ، ودعيني أتكلم عنها • انني في حاجة الى ان أحدثك عنها ، ولكنك تعلمين انني احبك اكثر مما احب اى شخص آخر ، اكثَر مما احبها • انت لي كل شيء !

كانت ناتاشا تنظر اليه صامتة ، في حب يمازجه حزن • لكأن كلمات اليوشا كانت تلاطفها وتعذبها في آن واحد •

وتابع اليوشا كلامه يقول :

ـ لقد كونت رأيي في كاتيا منذ مدة طويلة ، منذ خمسة عشر يوما • كنت أذهب اليهم في كل مساء •• وكنت حين أعود الى البيت لا أزيد على أن أفكر فيكما ، وأوازن بينكما •

فسألته ناتاشا مبتسمة :

ـ وأيتُنا غلبت الأخرى !

ـ تارة انت ، وتارة هى • ولكن الرجحان كان لك دائما • حين أتحدث معها أشعر دائما اننى أصبح خيراً مما كنت ، أصبح أذكى ، أنبل ، ان صح التعبير • ولكن غداً ، غداً يتقرر كل شيء !

ـ ولكنك تقول انهـا تحبك ، تقول انك لاحظت ذلك بنفسك • ألا تشفق اذن عليها ؟

ـ بلى •• اشفق عليها •• ولكننا أحبة نحن الثلاثة ، واذن ••

ـ اذن فالوداع •

قالت ذلك ناتاشا برفق ، وهى تنظر اليه نظرة مضطربة •

الا ان هذه المحادثة انقطعت فجأة ، على نحو لم يكن فى الحسبان أبداً • فمن المطبخ ، الذى كان مدخل البيت ، سمعنا ضوضاء خفيفة ، كأن شخصاً قد دخل • وماهى الا دقيقة حتى فتحت مافرا الباب ، وأشارت بيـدها خلسةً ، تستدعى اليوشا ، فالتفتنا جميعاً اليهـا ، فقالت بلهجة عجيبة :

ـ هلا تفضلت فجئت ؟ ان فى الباب من يسأل عنك •

ـ يسألون عنى فى مثل هذه الساعة ؟

قال اليوشا ذلك وهو يلقى علينا نظرة دهشة ، وأضاف :

ـ سأرى !

فى المطبخ كان يقف خادم الامير ، أبيه • ان الامير ، وهو فى طريق عودته الى بيته ، أوقف عربته أمام منزل ناتاشا ، وأرسل خادمه يسأل هل اليوشا هنالك • أبلغ الخادم رسالته هذه ، وانسحب على الفور•

قال اليوشا مضطرباً وهو يلفنا بنظرة سريعة :

ـ هذا غريب ! لم يقع قبل ذلك قط . مامعنى هذا ؟

ونظرت اليه ناتاشا نظرة قلقة خائفة . وفجأة فتحت مافرا الباب مرة أخرى ، وقالت في سرعة بصوت خافت :

ـ الامير آتٍ بنفسه .

واختفت حالاً .

شحب لون ناتاشا ، ونهضت عن مكانها ، وأخذت عيناها تلتمعان على حين فجأة ، واستندت الى المنضدة في رفق ، وجعلت تنظر ، مضطربةً ، الى الباب الذى سيدخل منه هذا الزائر الذى ما كان يتوقع أحد حضوره .

ودمدم اليوشا يقول وهو مضطرب ولكنه مسيطر على نفسه :

ـ لا تخافى شيئاً يا ناتاشا . أنا هنا . ولن أسمح له بالاساءة اليك.

وانفتح الباب ، وظهر في العتبة شخص الامير فالكوفسكى .

الفصل الثاني

لفتنا الأمير بنظرة سريعة يقظة • وما كان فى وسعنا ، بعد ، أن ندرك ، أجاء الينا صـديقاً أم عدواً • وأريد أن أصف مظهره تفصيلا• لقد لفت انتباهى فى ذلك المساء خاصة •

كنت فيما رأيته قبل ذلك • هو رجل فى نحو الخامسة والاربعين من عمـره ما تعـداها ، متناسب قسـمات الوجه ، جميـل غاية الجمال ، يتغـير وجهه بتغـير الظروف ، ولـكنه يتغـير تغـيراً تاماً ، على حـين فجأة ، بسرعة هائلة ، فينتقل من المودة الى السخط ، كأنما بضغط على زر • ان وجهه البيضاوى الضارب الى السمرة ، وأسنانه الرائعة ، وشفتيه الرقيقتين الجميلتين ، وانفه المستقيم ، المستطيل قليلا ، وجبينه العالى الذى لاترى فيه أثراً من تغضن ، وعينيه العسليتين الواسعتين ، ان كل ذلك يجعله رجلا جميلا ، ولـكنك رغم هـذا كله لا ترتاح الى رؤيته • ومايُنفِّرك خاصة فى هذا الوجه أن تعبيره كأنه ليس منه ، وانما هو متكلف مدروس مستعار ، فما ان تره حتى تقتنع اقتنـاعاً قوياً بأنك لن تقرأ فيه معنىً صادقاً قط • واذا أنعمت النظر فيه أخذت تتصور وراء هذا القناع الدائم شيئاً خبيثاً ، شريراً ، مراوغا ، أنانياً الى أقصى حد • ان عينيه العسليتين الواسعتين الجميلتين تخطفان بصرك خاصة ، كأنهما الشىء الوحيد الذى لايضع لارادته ، اذ حتى حين يريد أن ينظر اليك نظرة رقيقة لطيفة ، فان اشـعة نظرته تزدوج ان صح التعبير ، فاذا انت ترى مع

الاشعة الرقيقة اللطيفة اشعة أخرى قاسية شرسة فاحصة غادرة •• وهو فارع القامة ، قوى البنية ، على شيء من النحول ، ويبدو أصغر من سنه كثيراً ، فان شعره الاشقر الناعم لم يكد يخالطه الشيب • وان اذنيه ويديه واطراف قدميه لتثير بجمالها الدهشة : انها ذات جمال ارستقراطي • وكان أنيقاً فى ملبسه ، مرهف الذوق ، وكان لبعض حركاته مظهر الشباب ، وكان هذا يناسبه • كان يبدو كأنه الاخ الاكبر لأليوشا ، ولا يمكن على كل حال أن يُظن انه أب لشاب فى مثل هذه السن •

تقدم من ناتاشا وقال لها وهو يلقى عليها نظرة واثقة :

ـ أعلم أن وصولى الى منزلك فى هذه الساعة ، دون سابق انذار ، غريب ومخالف لجميع قواعد اللياقة ، ولكننى آمل أن تعتقدى على الاقل بأننى شاعر بغرابة مسعاى • وانى لاعرف كذلك اننى ازاء شخص واسع الصدر سمح كريم • مُنّى على بعشرة دقائق من وقتك ، وأنا آمل أنك ستفهميننى وستحبذين ما أنا بصدده •

قال ذلك كله بلطف وتهذيب ، على قوة وصلابة •

قالت ناتاشا ، قبل أن تسترد رباطة جأشها :

ـ تفضل فاجلس •

فانحنى قليلا ، وجلس • ثم بدأ يقول وهو يشير الى ابنه :

ـ قبل كل شيء ، اسمحى لى أن أقول له كلمتين •• يا أليوشا ، حين ذهبت دون أن تنتظرنى ، بل دون أن تودعنا ، جاء من يقول للكونتيسة ان كاترينا فيدوروفنا فى حال سيئة • وكانت الكونتيسة على وشك أن تهرع اليها حين دخلت كاترين فيدروفنا فجأة فى حالة من سوء الهندام وفرط الاضطراب ، فأعلنت لنا بغير لف ولا دوران انها لا تستطيع أن تكون زوجة لك ، وأضافت الى ذلك انها ستدخل الدير

راهبة ، وانك سألتها المعونة ، وافضيتَ اليها بأنك تحب ناتاليا نيقولايفنا • واضح ان هذا الاعتراف العجيب قد بعث عليه ماقصصته عليها من أمور عجيبة • كانت في حالة يرثى لها من الاضطراب ، ولعلك تقدِّر أن قد كان لهذا في نفسي وقع قوي وانه أخافني فلما مررت الآن في الشارع لمحت النور في نوافذ بيتك (قال ذلك وهو يلتفت الى ناتاشا) • فاستولت عليَّ فكرة لاحقتني منذ زمان بعيد ، فلم أستطع مقاومة فتنتها واغرائها فدخلت • لماذا ؟ سأقول لك ذلك حالاً ، ولكنني أرجوك قبل كل شيء ألا تعجبي لغرابة ما سأقول • ان هذا كله قد جاءني على حين فجأة ••

قالت ناتاشا في تردد :

ـ آمل أن أفهم ماستقوله وأن أقدره حق قدره •

فنظر اليها الامير نظرة ملحاحة ، كأنما هو يحاول أن ينفذ الى جميع دخائلها في لحظة واحدة • واستأنف يقول :

ـ انني أعتمد أيضاً على فطنتك ونفاذ بصيرتك • فلئن سمحت لنفسي أن آتي لرؤيتك هـذا المساء ، فلأنني أعرف من أخاطب • انني أعرفك منذ مدة طويلة ، رغم انني قد ظلمتك في السابق ، وتجنيت عليك ، وأجرمت في حقك • اسمعي : انت تعلمين ان بيني وبين أبيك خلافات قديمة ، ولست أبرىء نفسي ، فلعلي قد تجنيت عليه أكثر مما أظن حتى الآن ، ولكن اذا صح هذا فانما يصح لأنني أكون قد أخطأت الظن وضللت ، فانني امرؤ رياب شكاك ، لابد من الاعتراف بهذه الحقيقة • انني أفترض الشر قبل الخير ، وتلك صفة سيئة يتصف بها ذوو القلوب القاسية • غير انني ما اعتدت أن أخفي نقائصي • لقد صدَّقتُ جميع الوشايات ، وحين هجرت أهلك خفت على اليوشا • بيد انني ما كنت قد عرفتك بعد • ثم جاءتني الانباء التي أرسلت في طلبها ، تطمئنني شيئاً

فشيئاً ، وراقبت وأنعمت النظر ، وانتهيت الى الاقتناع بأن شكوكي قائمة على غير أساس • عرفت انك قد قطعت صلاتك بأهلك ، وعلمت ان أباك يعارض في أمر زواجك بابني معارضةً عنيفة لا هوادة فيها • ثم انك ، رغم ما لك من تأثير وسلطان على اليوشا ، لم تحاولي حتى الآن أن تستغلي هذا السلطان فتكرهيه على الزواج بك ، وهذا وحده خليق بأن يرفع قدرك في نظري ، وأن يحسِّن ظني فيك • على انني أعترف لك بأنني ، رغم ذلك ، قد قررت يومئذ أن أقاوم زواجك بابني بكل ما أوتيت من قوة • أعرف انني أفصح عن ضميري في شطط من الصراحة ، ولكن في هذه اللحظة يجب أن أكون صريحاً قبل كل شيء • وستوافقين انت نفسك على هذا بعد أن تصغي الى حديثي حتى نهايته • بعد أن هجرت منزلك بقليل ، سافرتُ الى بطرسبرج ، ولكن مخاوفي بصدد اليوشا كانت قد ذهبت • كنت أعتمـد على كبريائك النبيـلة • كنت قد فهمت انك ، انت نفسك ، لاترغبين في الزواج بأليوشا قبل أن تنتهي خصوماتنا العائلية • وانك لاتريدين أن تزرعي الخلاف بيني وبين اليوشا ، وانك تعلمين انه لو تزوج بك لما غفرت له هذا ماحييت ، وانك لاتريدين أن يقال عنك انك تركضين وراء عريس من سلالة أمراء ، وانك متهالكة على الانتماء الى أسرتنا العريقة ؟ حتى انك ، بالعكس ، قد أظهرت لنـا احتقارك ، ولعلك كنت تنتظرين أن آتي بنفسي اليك لأرجوك أن تشرفينا بقبول ابني زوجا لك• ومع ذلك ظللت عدوا لك لايتزحزح عن عداوته• لا أريد أن أبرىء نفسي ، ولكنني لا أكتم عنك الاسباب التي دفعتني الى مناصبتك العداء ، وهذه هي الاسباب : انك لاتملكين لا اسماً ولا ثروة • لست أنكر انني غني ، ولكنني أريد المزيد من الغنى • لقد هبطت أسرتنا ، ونحن في حاجة الى صـــلات والى مال • وان ابنة الكونتيســة زينائيد فيدوروفنا على جانب عظيم من الثراء ، وان لم تكن ذات صلات رفيعة • واذا تأخرنا أقل تأخر ، تقدم غيرنا فخطف الخطيبة : وما كان ينبغي أن

ندع الفرصة تفلت منا ؟ لذلك ، ورغم ان اليوشا ما يزال صبياً ، قررت أن أزوجه . ترين انني لا أخفي عنك شيئاً . تستطيعين أن تنظرى نظرة احتقار الى هذا الاب الذى تسيره المصلحة والتقاليد البالية ، فيحض ابنه على ارتكاب فعل سيىء. أليس فعلاً سيئاً أن يترك شاب فتاة نبيلةالقلب ضحت في سبيله بكل شيء ، وأساء اليها اساءات كبيرة ؟ والسبب الثانى الذى دفعنى الى التفكير فى تزويج ابنى من ابنة زوج الكونتيسة زينائيد فيدوروفنا هو ان هذه الفتـاة جديرة بالحب والاحترام الى أقصى حد . انها جميلة ، مهذبة ، قوية الشخصية ، ذكية جداً ، رغم انها ما تزال طفلة غرة من نواح كثيرة . واليوشا ضعيف الشخصية طائش ، قليل التبصر الى أبعد الحدود ، ومايزال طفلا رغم انه فى الثانية والعشرين من عمره . انه لايملك من المزايا الا الكرامة وطيب القلب ، وهما ميزتان خطرتان اذا ضمتا الى نقائصه . وقد لاحظت منذ مدة طويلة أن تأثيرى فيه أخذ يقل : فحماسة الشباب واندفاعاته تتغلب فيه على بعض الواجبات. قد أكون مسرفاً في محبته ، ولكننى مقتنع باننى أصبحت لا أستطيع السيطرة عليه وحدى ، ولابد مع ذلك من شخص يؤثر فيه تأثيراً مفيداً مستمراً . ان طبيعته خضوع ، ضعيفة ، يسيطر عليها الحب . انه يفضل أن يحب و يخضع على ان يقود ويُخضـع . وسيظل على هذه الحال طوال حياته. تستطيعين اذن أن تتصورى مدى فرحي حين التقيت بكاترين فيدوروفنا ، المثل الاعلى للفتاة التى أتمناها امرأةً لابنى . غير ان الاوان كان قد فات ، فقد كان ابنى خاضعاً لتأثير فتاة أخرى بلا منازع : هى انت . ولقد راقبته مراقبة يقظة حين عدت من بطرسبرج منذ أسبوع ، فلاحظت فيه تغيراً حسناً أدهشنى ، لاحظت فيـه صبوات نبيلة تترسـخ وتشتد ، رغم انه مايزال طائشاً ، ومايزال طفلاً . لاحظت انه أخذ يهتم لا بالترهات فحسب ، بل بأمور رفعية شريفة . ان له أفكاراً غريبـة ،

متقلبة ، وأحياناً مستحيلة • غير ان رغباته ، واندفاعاته ، وقلبه ، خير من ذلك ، وهذا أساس كل شيء • لا مشاحة ان جميع هذا التحسن الذي أصابه يرجع الفضل فيه اليك • لقد جددت تربيته • واعترف لك بانني في تلك اللحظة انما تراءى لي انك تستطيعين أن تحققي سعادته أكثر من أي انسان آخر • ولكنني طردت هذه الفكرة من ذهني ، وأخذت أعمل ، وخيّل اليّ انني بلغت غايتي • ومنذ ساعة فحسب ، كنت لا أزال أعتقد ان الظفر حليفي • الا ان الحادث الذي وقع في بيت الكونتيسة قلب ظنوني رأساً على عقب ، دفعةً واحدة • والامر الذي فجأني خاصةً هو هذا الجد العنيد في اليوشا ، هذه الصلابة في تعلقه بك ، هذا الاستمرار وهذا العنف في تلك الصلة التي بينك وبينه • أعود فأقول لك : انك قد جددت تربيته • وسرعان ما لاحظت أيضاً ان التغير الذي تم فيه أبعد مدىً مما ظننت • فقد برهن اليوم أمامي على ذكاء ماكنت أظنه فيه ، وبرهن في الوقت نفسه على رهافة في التفكير نادرة ، ونفاذ في البصيرة عجيب • لقد اختار أضمن الطرق للخروج من الموقف الذي يظنه مأزقاً حرجاً ، فمس في قلب الانسان أرهف أوتاره ، أعني روح الغفران والرد على الشر بالخير • مضى الى الانسانة التي أساء اليها ، فطلب منها العطف والمعونة ، اعتمد على كبرياء المرأة التي أصبحت تحبه ، فاعترف لها بانه يحب غيرها ، وفي الوقت نفسه أيقظ في نفسها العطف نحو غريمتها ، وحصل منها على الصفح والمغفرة ، حتى وعدته بصداقة أخوية مخلصة مبرأة من الغرض• ان أعقل الرجال وأحكمهم وأحذقهم يعجزون أحياناً عن بسط مثل هذا الامر دون أن يجرحوا أو يسيئوا ؟ والذين يستطيعون ذلك انما هم ذوو القلوب الغضة النضرة الصافية كقلبه • أنا مقتنع بأنك لم تساهمي في مسعاه اليوم لا بالكلام ولا بالنصح • ولعلك لم تعلمي بهذا الامر الا في هذه اللحظة •• أأنا مخطىء ؟

ـ لست مخطئاً !

قالت ناتاشا ذلك وقد احمر وجهها حتى أصبح بلون الجمر ، وكانت عيناها تلتمعان ببريق عجيب كأنه بريق الالهام • لقد بدأ حديث الامير يحدث فيها تأثيره •

وأضافت تقول :

ـ لم أر اليوشا منذ خمسة أيام • هو الذى تخيل هذا كله ، ووضعه موضع التنفيذ •

قال الامير مؤيداً :

ـ الامر هكذا بلا شك • ولكن رغم ذلك ، فان هذا الفهم النافذ الذي لا عهد له به من قبل ، وهذه العزيمة ، وهذا الشعور بالواجب ، وهذه الصلابة النبيلة ، كل هذا انما هو نتيجة من نتائج تأثيرك فيه • لقد استقر رأيي بهذا الصدد ، وقد فكرت فى هذا الموضوع أثناء عودتى الى بيتى ، وشعرت ، بعد تفكير ، اننى قادر على اتخاذ قرار حاسم • ان مشروع الزواج الذى أردته له قد تعطل ، وليس فى الامكان استئناف الكلام فيه والسعى اليه : وهبى ذلك ممكناً ، فليس ثمة مايبرره ويحض عليه ، ذلك اننى مقتنع ، فى الواقع ، بانك الانسانة الوحيدة التى تستطيع أن تحقق سعادة ابنى ، وانك حقاً خير مرشد له ، وانك قد أرسيت منذ الآن أسس سعادته المقبلة ! ما أخفيت عنك شيئاً ، وما أخفى عنك الآن شيئاً • اننى امرؤ مولع بالتقدم والمال والشهرة والجاه ، واعترف بان فى ذلك كثيراً من سيطرة الآراء الخاطئة ، ومع ذلك لا أريد أبداً أن أركل هـــذه الامور بقدمى • ولكن هناك ظروفاً ينبغى للمرء فيهـا أن يأخذ باعتبارات أخرى ، ظروفاً لا يستطيع المرء فيها أن يزن الامور بميزان واحد •• ثم اننى أحب ولدى حباً عظيماً • وصفوة القول اننى انتهيت الى هذه النتيجة ، وهى ان اليوشا يجب ألا يتركك ، لانه اذا تركك

ضاع لا محالة . وهل تحبين أن أعترف لك بشيء آخر ؟ لعلني قد اتخذت هذا القرار منذ شهر ، ولكنني الآن انما أعترف لنفسي بأن ذلك القرار كان صائباً . وكان في امكاني ، طبعاً ، كي أخبرك بهذا كله ، ان آتى اليك غداً ، وألا أزعجك في مثل هذا الوقت وقد انتصف الليل أو كاد ، ولعل تعجلي هذا أن يبرهن لك على شدة اهتمامي بهذا الموضوع ، وعلى مدى صدقي فيه بوجه خاص . لست طفلاً صغيراً ، ولا أستطيع ، في هذه السن ، أن أعزم على أمر قبل أن أنعم فيه النظر والتفكير . حين دخلت الى هنا كان كل شيء قد تقرر في ذهني ورسخ . واننى لأعلم انه لابد من الانتظار مدة طويلة حتى أقنعك بصدقي اقناعاً تاماً .. هل تريدين أن أبسط لك الآن سبب مجيئي ؟ جئت لأفي ديناً لك على ، لأسألك بما أحمل لك من احترام عظيم أن تحققي سعادة ابني بقبوله زوجاً لك ! ولكن أرجوك ألا تحسبيني أبا رهيباً قرر ، على سبيل حل المشاكل ، أن يغفر لولديه ، وأن يمن عليهما بالموافقة على سعادتهما ! لا ! لا ! انك لتهينينني اذا حسبتني كذلك ! لا ولا تحسبي اني موقن منذ الآن بأنك موافقة على هذا الزواج ، استناداً الى ما أسلفت من تضحيات في سبيل ولدي . لا ! أنا أول من يقول ان ابني ليس كفئاً لك و ... (انه مخلص وطيب) .. وسيقر هو نفسه بهذا . ليس هذا كل شيء . ليس هذا الامر وحده هو الذي قادني الى هنا في مثل هذه الساعة .. لقد أتيت الى هنا .. (قال ذلك ونهض من مكانه في احترام يشبه الاجلال) لأصبح صديقك ! أنا أعلم ان ليس لي في هذا حق .. ولكن اسمحي لي أن أحاول أن أكون جديراً بهذا الحق ! اسمحي لي أن أؤمل ذلك ! ..

قال هذا وانحنى امام ناتاشا في احترام ، وانتظر جوابها . كنت طوال حديثه أراقبه في انتباه يقظ ، ولاحظ هو ذلك .

لقد ألقى خطابه فى برود ، وفى شيء من التحذلق ، وفى نوع من الاهمال فى بعض الفقرات • وكانت لهجته لاتناسب ، فى جميع مواضع الخطاب ، هذه الاندفاعة التى القته الينا فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ، وفى مثل هذه الظروف على وجه الخصوص • كانت بعض عباراته تنبىء بأنها مهيأة ، وكان فى مواضع اخرى من هذا الخطاب الطويل ، الغريب فى طوله ، ان يخفى تحت الوان النكتة والمرح والمزاح شعوراً يحاول ان يعبر عن ذاته • على اننى سأحلل هذا كله فيما بعد ، فانما نحن الآن فى شأن آخر • لقد بلغ فى كلماته الاخيرة من التدفق والعاطفة وصدق التعبير عن احترامه لناتاشـا ما جعله يأسرنا ويسيطر علينا جميعاً ، حتى لمع بين أهدابه فى لحظة من اللحظات ، شيء أشبه بدمعة• لقد أسر قلب ناتاشا النبيل ، فنهضت كما نهض • ومدت اليه يدها دون ان تقول كلمة واحدة ، وهى فى حالة من الانفعال الشديد والتأثر العميق • فتناول يدها وقبلها فى حب ورفق وعاطفة • وكان أليوشا من فرط حماسته قد خرج عن طوره ، فهتف :

ـ ألم أقل لك ياناتاشا ؟ كنت لاتصدقيننى ، كنت لاتصدقين انه انبل رجل على وجه الأرض ! هل ترين الآن ؟ •

وارتمى على ابيه فقبله فى حماسة عنيفة ، ورد أبوه القبلة بمثلها ، ولكنه اسرع فوضع حداً لهذا المشـهد العاطفى ، كأنما هو يستحى ان يظهر عواطفه •

قال وهو يتناول قبعته :

ـ كفى هذا • انا ذاهب ، لقد استأذنتكم فى عشر دقائق ، وهاءنا ذا قد مكثت ساعة برمتها(قال ذلك وضحك ضحكة صغيرة) • غير اننى اتركم منتظراً لقاءكم مرة اخرى بصبر فارغ ، وشوق محرق ، وارجو

ان يكون هذا اللقاء فى اقرب فرصة ممكنة • هل تسمحين لى ان آتى لرؤيتكم كلما اتسع وقتى لذلك ؟

قالت ناتاشا :

ـ نعم ، نعم ، على قدر ما تستطيع !

واضافت تقول خجلة مضطربة :

ـ انني أود أن •• أحبك بأقصى سرعة ممكنة !

قال الأمير وهو يبتسم لكلامها :

ـ ما اصدقك ، وما اشرف نفسك ! انك لاتحاولين اخفاء عواطفك حتى فى قول كلمة لطيفة • ولكن صدقك اثمن من كل هذا اللطف الذى يتظاهر به الناس • نعم ! اشعر انه لابد من مضى وقت طويل ، طويل ، قبل ان استحق صداقتك !

فقالت ناتاشا مضطربة :

ـ كفى مجاملة !

ما كان اجملها فى هذه اللحظة !

قال الأمير ينهى الحديث :

ـ لك ماتشائين• ولكن اسمحى لى بكلمتين اخيرتين• هل تستطيعين ان تتصوري مدى تعاستى ؟ لن استطيع ان آتى لرؤيتك غداً ولا بعد غد • لقد وصلتنى فى هذا المساء رسالة هامة جداً ، يُطلب الى فيها أن أساهم بلا ابطاء فى قضية من القضايا • لا استطيع ان اتخلص من هذا بوجه من الوجوه • سأترك بطرسبرج فى صباح الغد • أرجوك أن لا تظنى اننى أتيت لرؤيتك فى هذه الساعة المتأخرة من الليل لأننى ما كنت أستطيع أن آتى غداً أو بعد غد • انك لاتظنين هذا حتماً ، ولكن فكـرى الشـكاك الرياب يصوّر لى ما يشاء ! لماذا تراءى لى انك ستظنين هذا لا محالة ؟

يالسوء ظني ما أشده ! ما أكثر ما عاقني في هذه الحياة ! ولعل اختلافي مع أهلك أن يكون مرده الى سوء هذا الظن هذا ، الى هذا الطبع السيء الذي يسبب لي كثيراً من المتاعب ! •• هذا اليـــوم هو يوم الثلاثاء • سأتغيب الاربعـاء والخميس والجمعة • وآمل ان أعـود حتمـاً في يوم السبت ، وسآتي لرؤيتك في ذلك اليوم نفسه • هل أستطيع أن آتي لقضاء السهرة كلها !

ـ طبعاً طبعاً • سأنتظرك في مساء السبت بفارغ صبر !

ـ ما أسعدني بهذا ! سأزداد معرفة بك يوماً بعد يوم •• أنا ذاهب الآن • ولكنني لا أستطيع أن أذهب بدون أن أصافحك (قال هذا وهو يلتفت فجأة نحوي) • سامحني • اننا جميعاً في هـذه اللحظة نتحـدث حديثاً متقطعا •• لقد سعدت قبل اليوم ، عدة مرات ، بلقائك ، حتى لقد قُدم كل منا للآخر • لا أستطيع أن أذهب دون أن أعبر لك عن مدى سروري بتجديد التعارف بيننا •

أجبت وأنا أتناول يده التي مدها اليّ :

ـ لقد التقينا قبل اليوم ، هذا صحيح ، ولكنني لا أذكر أن أحدنا قُدم للآخر •

ـ في منزل الامير س •• السنة الماضية •

ـ عفواً ، لقد نسيت هذا • وأعاهدك على ألا أنسى بعد هذه المرة • ستبقى هذه الامسية ماثلة في ذاكرتي لا تبارحها •

ـ اصبت • وأنا كذلك لن أنسى هذا اللقاء . انني أعرف منذ مدة طويلة انك صـديق ناتاليا نيقولايفنا وابني •• ونعم الصـديق المخلص انت ! آمل أن أكون رابعكم • أليس كذلك ؟ (قال هذا وهو يلتفت الى ناتاشا) •

ـ نعم انه صديق مخلص ، ويجب أن نجتمع نحن الاربعة •

قالت ناتاشا ذلك تلهمها عاطفة عميقة • مسكينة ! لقد أضاء وجهها بفـــرح عظيم حين رأت أن الامير لم ينس أن يتــــودد الىّ ! ما أعظم ما تحبنى ! ••

وأضاف الامير يقول :

ـ لقيت كثيراً من المعجبين بموهبتك ، وأعرف اثنتين من قارئاتك المتحمسات ، يسرهما جداً أن تعرفاك شخصياً ، وهما الكونتيسة ، خير صديقاتى ، وابنة زوجها كاترين فيدوروفنا فيليمونوفا • اسمح لى أن آمل ألا تضن علىّ بمتعة تقديمك الى هاتين السيدتين •

ـ سيكون ذلك شرفاً عظيماً لى ، وان تكن علاقاتى فى هذه الايام قليلة ••

ـ هلا سمحت باعطائى عنوانك ؟ أين تسكن ؟ ولســوف يسرنى جداً أن •••

ـ اننى لا أستقبل أحداً فى بيتى ، أيها الامير ، فى هذه الايام على الاقل ••

ـ ولكننى ، وان كنت لا أستحق أن أستثنى ، أريد أن ••

ـ لك ما تشاء أيها الامير ما دمت تصر ، وسيسرنى هذا جداً •• اننى أسكن فى شارع ن •• عمارة كلوجن •

فهتف ، كأنما شدهه هذا :

ـ منزل كلوجن ؟ كيف ؟ هل •• تسكن فى هذا المنزل منذ مدة طويلة ؟

قلت وأنا أنظر اليه على غير ارادة منى :

ـ كلا ، لا أسكن فيه منذ مدة طويلة •• ورقم مسكني هو ٤٤ •

ـ ٤٤ ؟ وتعيش •• وحدك ؟

ـ نعم وحدي •

ـ ها •• ذلك ان •• يبدو لي انني أعرف هذا المسكن • حسناً ، هذا يسهل علي •• سأذهب اليك حتما ، حتما • ثمة أشياء كثيرة أحب أن أقولها لك ، وانني لأنتظر منك أشياء كثيرة • تستطيع أن تتفضل عليَّ في أمور كثيرة • أرأيت ؟ هاءنا ذا أبدأ على الفور بتقديم مطالب ! والآن الى اللقاء • هات يدك ، مرة أخرى !

وصافحني ، وصافح أليوشا ، وقبل يد ناتاشا الصغيرة مرة أخرى ، وخرج دون أن يرجو أليوشا اللحاق به •

ظللنا نحن الثلاثة مضطربين أشد الاضطراب • لقد تم هذا كله فجأة على غير توقع • وشعرنا جميعاً أن كل شيء قد تغير في طرفة عين ، وأن شيئاً جديداً مجهولاً يبدأ • جلس أليوشا الى جانب ناتاشا دون أن ينبس بكلمة ، وقبل يدها في رفق • وكان يلقي عليها من حين الى حين نظرة انتظار لما ستقول •

قالت ناتاشا أخيراً :

ـ أليوشا ، عزيزي ، اذهب منذ الغد الى كاترين فيدوروفنا •

ـ فكرت في هذا أيضاً ، سأذهب حتماً •

ـ ولكن قد يشق عليها أن تراك •• فما العمل ؟

ـ لا أدري يا عزيزتي • لقد فكرت في هذا • سأرى • سأتخذ قراراً • اسمعي يا ناتاشا ، لقد تغير الآن كل شيء (لم يسع أليوشا ألا يقول هذا) •

فابتسمت ناتاشا ، وألقت عليه نظرة طويلة تفيض عطفاً وحباً .

ـ ما ألبقه ! لقد رأى مسكنكِ الفقير ، ولم يقل شيئاً ...

ـ بصدد ماذا ؟

فأجاب وقد احمر وجهه :

ـ بصدد الانتقال من هذا المسكن ... أو شيء آخر ...

ـ هل تريد أن تسكت يا أليوشا ؟ ماهذا الكلام ؟

ـ أريد أن أقول انه لبق جداً . لقد أثنى عليك كثيراً . ألم أقل لك ؟ نعم ، انه يستطيع أن يفهم كل شيء ، وأن يشعر بكل شيء . ولكنه تحدث عني حديثه عن طفل : انهم جميعاً ينظرون الىّ نظرتهم الى طفل ! ولم لا ؟ انني في الواقع طفل .

ـ انك طفل يا أليوشا ، ولكنك أنفذ بصيرة منا جميعاً . انك طيب يا أليوشا !

ـ لقد قال ان طيب قلبي يسيء الىّ ؟ ما معنى هذا ؟ انني لا أفهم ! ما رأيك يا ناتاشا ؟ ألست أحسن صنعاً اذا لحقت به فوراً ؟ سأكون عندك غداً منذ الفجر .

ـ اذهب اذهب يا عزيزي . فكرة حسنة . اذهب اليه حتماً . وغداً تأتي متى استطعت . في هذه المرة لن تختفي خمسة أيام (قالت هذا بلهجة متخابثة ، وهي تنظر اليه نظرة مداعبة) .

كنا جميعاً في فرح عظيم كامل . وهتف أليوشا وهو يترك الغرفة :

ـ تعال معي يا فانيا .

ـ بل سيبقى هنا . ثمة أمور يجب أن نتحدث فيها يا فانيا . انتبه يا أليوشا ، غداً منذ الفجر !

ـ هو كذلك ، الى اللقاء يا مافرا !

كانت مافرا مضطربة جداً • لقد أصغت وراء الباب الى كل ما قاله الامير ، ولكنها لم تفهم كل شيء • كان بودها لو تنفذ الى السر ، ولو تطرح بعض الاسئلة • على انها في هذه اللحظة كان يبدو عليها الجد بل والخيلاء ! كانت تشعر كذلك أن ثمة تغيراً كبيراً قد تم •

وبقينا وحدنا • وتناولت ناتاشا يدي ، وظلت صامتةً بعض الوقت ، كأنها تبحث عما تقوله ••

وقالت أخيراً بصوت ضعيف :

ـ انني تعبة • اسمع يا فانيا • ستذهب غدا الى بيت اهلي ، مارأيك؟

ـ سأذهب حتماً •

ـ تحدث الى أمي ، ولكن لا تقل له هو شيئاً •

ـ تعلمين أنني لا أحدثه عنك أبداً •

ـ صحيح •• سيعلم بالأمر دون أن تحدثه به • ولكن لاحظ ما سيقوله ، لاحظ كيف يستقبل النبأ • رباه ! قل لي يا فانيا هل يُعقل ألا يلعنني بسبب هذا الزواج ؟ لا ، ليس يُعقل !

أجبت بسرعة :

ـ على الامير أن يدبر الامر كله • يجب أن يصالح أباك حتماً • ومتى تم هذا ، تذللت العقبات كلها •

قالت بصوت متوسل :

ـ يا ليت هذا يتم !

ـ لا تقلقي يا ناتاشا ، سيتم كل شيء على ما تحبين، لقد انفتح الطريق •

فنظرت الىّ نظرة طويلة ملحة •

ـ فانيا ، ما رأيك فى الامير ؟

ـ اذا كان صادقاً فيما قال ، فهو في رأيي انسان على جانب عظيم من النبل •

ـ هذا رأيي ايضاً •

قلت فى نفسي : اذن فقد خامرها شيء من الريب • عجيب !

ـ كنت تتفرس فيه طوال الوقت •

ـ نعم ، لاح لى غريباً بعض الشيء •

ـ وكذلك بدا لى انا • انه يتحدث على نحو ••• انني متعبة يا صديقى • اسمع يا فانيا : عُد انت ايضاً الى بيتك • وتعال الىّ غداً متى استطعت ، بعد ان تذهب اليهم • اسمع ايضا : ألم اسيء اليه حين قلت له انني اود ان احبه بأقصى سرعة ممكنة ؟

ـ ليس فى هذا الكلام ما يسيء !

ـ أليس فيه شيء من الحماقة ؟ اليس يعنى انني لا أحبه بعد ؟

ـ ليس على كلامك من مأخذ • كان حديثك ساذجا عذبا • وكنت فى تلك اللحظة فى غاية الجمال !•• وانه ليكون غبيا اذا لم يقدر كلامك حق قدره !

ـ كأنك مستاء منه يا فانيا ؟ آه ، ما اكثر شكوكى وغرورى ! لا تضحك : انت تعلم انني لا اخفى عنك شيئا • آه يا فانيا ، يا صديقى العزيز • اذا عدتُ شقيةً بائسة كما كنت ، اذا عاد الىّ الشقاء والبؤس ، فستكون حتماً هنا الى جانبى ، أعلم ذلك • وقد تكون الوحيد ! كيف ارد لك هذا الجميل كله ! لا تغضب منى يوماً يا فانيا !

حين عدت الى بيتى ، خلعت ثيابى فوراً ، واضطجعت على سريرى انشد النوم . كانت الغرفة مظلمة رطبة كأنها كهف . وحاصرتنى افكار كثيرة ، واحساسات غريبة ، وظللت مدة طويلة لا استطيع النوم .

هناك رجل لا بد انه كان يضحك منا ملء شدقيه فى تلك اللحظة ، وهو يرقد على سريره الوثير ، هذا اذا رضى ان يتفضل بالضحك منا ! فلعله يرى فى ذلك شيئا لا يليق بمقامه الرفيع .

الفصل الثالث

صباح الغداة ، في نحو الساعة العاشرة ، بينما كنت خارجاً من مسكني لأذهب مسرعاً الى أسرة اخمنيف في فاسيلي أوستروف ثم الى ناتاشا ، اصطدمت عند عتبة الباب بزائرة الليلة البارحة ، حفيدة سميث . كانت آتية الى بيتي . وأذكر انني سررت برؤيتها سرورا عظيما ، لا أدري لماذا ! لم يتسع وقتي ، أمس ، للتفرس فيها ، حتى اذا رأيتها اليوم في وضح النهار ، زاد عجبي لها . من الصعب أن يلقى المرء مخلوقاً أعجب وأندر من هذه الطفلة ، من حيث مظهرها على أقل تقدير . كانت تستطيع أن تستوقف انتباه أي انسان في الشارع : قامة قصيرة ، عينان سوداوان براقتان ليس فيهما شيء روسي ، شعر ناعم مبعثر على الرأس خصلاً كثيفة ، نظرة خرساء كأنها لغز . ان نظرتها هي التي تفجأ الانتباه خاصة : هي نظرة يلتمع فيها ذكاء حاد ، ويشيع فيها الريب والتحدي في الوقت نفسه ، أما ثوبها المتهرّئ فقد ظهر لي في وضح النهار أسوأ مما ظهر البارحة . انه أسمال خلقة بالية . ولاح لي انها مصابة بمرض من الأمراض مزمن ، بطيء ، عنيد ، يهدم الجسم شيئاً فشيئاً لا محالة . كان وجهها النحيل أصفر أسمر في آن واحد ، تنظر اليه فتعرف أن صاحبه مريض . على انها لم تكن دميمة ، رغم جميع التشوه الذي حمله اليها المرض والبؤس : ان حاجبيها جميلان ، مقوسان في كثير من الدقة والنعومة ، وان جبينها عريض وسيم ، وان شفتيها

دقيقتان تلوح فيهما امارات الجرأة والكبرياء ، ولكنهما شاحبتان لا تكاد ترى لهما لونا •

هتفت أقول :

ـ ها • هذا أنت ؟ كنت أعرف انك ستأتين • ادخلى ادخلى •

اجتازت العتبة ببطء ، وهي تلقى على ما حولها نظرة ارتياب ، كما فعلت بالامس • واخذت تدقق فى هذه الغـرفة التى عاش فيها جدها ، كأنها تحاول ان ترى ما أحدثه الساكن الجديد من تبديل فيها • قلت فى نفسى : ما الحفيدة الا جـدها ، أتراها مجنونة ؟ وظلت صامتة وظللتُ انتظر •

ودمدمت تقول اخيراً ، وهى تغض طرفها :

ـ جئت آخذ الكتب •

ـ ها • نعم • كتبك • هذه هى • خذيها • لقد احتفظت لك بها خصيصا •

فرمقتنى بنظرة مستطلعة ، وارتسم على شفتيها ما يشبه ان يكون ابتسامة ؛ غير ان مشروع الابتسامة هذا ما لبث أن زال ، وحل محله ، فجأة ، المعنى القديم القاسى الغريب •

ـ سألتنى وهى تنظر الىّ من قمة الرأس الى اخمص القدمين نظرة ساخرة :

ـ هل حدثك جدى عنى ؟

ـ لا •• لم يحدثنى عنك ، ولكنه ••

فقاطعتنى تسأل :

ـ فكيف عرفت اذن اننى سآتى ؟

ـ لانه لاح لى ان جدك كان لا يمكن ان يعيش وحده لا يأتى اليه أحد • لقد كان هرما ضعيفا ، فلا بد أن أحداً كان يأتى اليه • خذى هذه كتبك • هل تدرسين فيها ؟

ـ لا •

ـ فيم تفيدك اذن ؟

ـ كان جدى يعطينى دروسا حين آتى اليه •

ـ ثم لم تأت بعدئذ ؟

ـ ثم لم آت ، لاننى مرضت •

قالت ذلك كأنها تبرر انقطاعها عن المجىء •

ـ هل لك اسرة ؟ أب ، أم ؟

ما ان القيت عليها هذا السؤال حتى قطبت مابين حاجبيها ، ورشقتنى بنظرة مذعورة ؟ ثم خفضت عينيها ، واستدارت من غير أن تنطق بكلمة ، وخرجت من الغـرفة ببطء ، دون ان تتنازل فتجيبنى ، كما فعلت امس تماماً • وتابعتها بعينى مشدوها ، فاذا هى تتوقف عند عتبة الباب فجأة ، وتلتفت نحوى التفاتاً خفيفاً ، وتسألنى بحركة تشبه حركتها أمس حين نظرت الى الباب وهى خارجة لتسألنى عن أخبار آزور :

ـ ممَّ مات ؟

فاقتربت منها ، وأخذت أروى لها الحكاية بسرعة • فكانت تصغى الىّ صامتة منتبهة ، وقد خفضت رأسها وأدارت لى ظهرها • رويت لها ايضاً ان العجوز ذكر الشارع السادس وهو يموت • واصفت اقول : « فافترضت ان شخصاً عزيزاً على العجوز يسكن فى ذلك الشارع ، ولهذا كنت انتظر مجىء احد يسأل عنه • لا شك انه كان يحبك كثيراً ، لذلك تحدث عنك فى لحظاته الاخيرة » • فدمدمت تقول فى أسف :

ـ لا ، لم يكن يحبنى .

كانت متأثرة أشد التأثر . وقد انحنيت عليها ، وانا اتكلم ، ونظرت فى وجهها ، فلاحظت انها تبذل جهوداً هائلة لخنق انفعالها امامى ، كبرياءً ، وأخذ لونها يزداد شحوباً شيئاً بعد شيء ، ثم عضت شفتها السفلى عضاً قوياً . غير ان ضربات قلبها العجيبة هى التى لفتت انتباهى خاصة ، لقد اخذت ضربات قلبها تشتد وتشتد ، حتى اصبح من الممكن ان تُسمع على بعد خطوتين او ثلاث خطوات . وخيل الى انها ستنفجر باكية ، كما فعلت بالامس ، ولكنها سيطرت على نفسها ، وسألتنى :

ـ اين مكان السياج ؟

ـ أى سياج ؟

ـ السياج الذى مات بالقرب منه .

ـ سأريك اياه .. حين نخرج . ولكن اسمعى .. ما اسمك ؟

ـ ليس ضرورياً ..

ـ أى شيء هو غير ضرورى ؟

ـ لا شيء . ليس لى اسم .

قالت ذلك فجأة ، وتحركت تهمُّ أن تذهب ، فأمسكت بها ، وقلت:

ـ انظرى أيتها البنية الغريبة ! انى اريد لك الخير ، وأنت تعرفين ذلك . لقد اشفقت عليك منذ رأيتك تبكين أمس فى ركن من السلم . لا أستطيع ان اتصور ذلك .. ثم ان جدك قد مات بين يدى ، ولا شك انه كان يفكر فيك حين ذكر الشارع السادس ، فكأنه اذن قد عهد بك الىَّ . انه يظهر لى فى الحلم .. وقد احتفظت لك بكتبك ، ولكنك متوحشة ، كأنك تخافين منى . لا شك انك فقيرة ، وربما كنت يتيمة ، تعيشين فى كنف آخرين . أليس هذا صحيحاً ؟

كنت أحاول ان اهـدىء روعها فى حـرارة ، ولا ادرى انا نفسى ما الذى كان يجذبنى اليها • كان يمازج عاطفتى شىء آخر غير الشفقة • أيرجع ذلك الى هذا الجو العجيب الذى احاط لقـائى بها ، ام الى الاثر الذى احدثه فىّ سميث ، ام الى مزاجى الغـريب الخاص ؟ لا ادرى • ولكننى كنت منجذباً اليها انجذاباً لا يقـاوم • وبدا لى ان كلمـاتى قد اثرت فيها • لقد نظرت الىّ نظرة غريبة لم تكن قاسية هذه المرة ، بل كانت لطيفة وطويلة ، ثم ما لبثت ان خفضت عينيها مرة اخرى ، كأنها لم تعزم امرها • وفجأة دمدمت تقول بصوت منخفض :

ـ هيلين •

ـ اسمك هيلين ؟

ـ نعم •

ـ قولى ، هلاّ أتيت الىّ من حين الى حين !

فدمدمت تقول ، وكأنها مع نفسها فى صراع :

ـ لا استطيع •• لا اعرف •

وفى هذه اللحظة ، سمعنا دقات ساعة • فانتفضت هيلين ، وسألتنى وهى تنظر الىّ فى قلق اليم لا يوصف :

ـ كم الساعة الآن ؟

ـ لعلها العاشرة والنصف •

فصرخت من الذعر تقول :

ـ يا الهى !

وهرولت على الفـور ، ولكننى امسكت بها مرة اخـرى فى غرفة المدخل ، قائلا :

ـ لن اتركك تذهبين هكذا ؟ ما الذى يخيفك ؟ هل تأخرت عن الوقت ؟

ـ نعم نعم • لقد خرجت خلسةً • دعنى •

ثم صرخت وهى تحاول الافلات من بين يديّ :

ـ ستضربنى !

ـ اسمعى قليلاً ، لا تهتاجى : انت ذاهبة الى فاسيلى اوستروف ، وانا ايضاً ذاهب الى الشارع ١٣*؛ لقد تأخرت عن موعدى ، وانوى استئجار عربة ، فهل تأتين معى ؟ سأقودك الى بيتك ، فتصلين بسرعة •

فهتفت تقول وقد استبد بها ذعر هائل :

ـ مستحيل •• يجب ان لا تأتى الى بيتى ••

وتشوه وجهها تشوهاً من الذعر •• لمجرد أنها تصورت ان من الممكن ان اذهب الى حيث تسكن •

ـ ولكننى قلت لك اننى ذاهب الى الشارع ١٣ لقضاء عمل من الاعمال ، ولست ذاهباً الى بيتك • لن اتبعك ، وستوصلنا العربة بسرعة• هيا !•

وهبطنا على عجل ، واستوقفتُ اول عربة لقيتها • كان واضحاً ان هيلين مستعجلة جداً ، ما دامت قد قبلت ان تركب العربة الى جانبى • واعجب شىء اننى لم اجسر على سؤالها عن شىء • حتى اذا سألتها : من الذى تخافه فى بيتها ، حرّكت ذراعيها وهمّت ان تقفز من العربة • فقلت فى نفسى : ما هذا السر ؟

كانت جلستها فى العربة قلقة جداً ، فكانت كلما اهتزت العربة ، تتمسك بسترتى بيدها اليسرى ، الصغيرة الوسخة المتشققة • وكانت تقبض كتبها بيدها الاخرى • ان كل شىء يشير الى ان هذه الكتب عزيزة

عليها • وفيمـا هي تصلح ثوبها ، انكشفت سـاقها ، فاذا انا ارى ، على دهشة ، ان قدميها عاريتـان في حـذاء ممزق • ورغم انني قـررت ان لا اسألها عن شيء ، لم استطع في هذه المرة ان امنع نفسي عن السؤال :

ـ ما هذا ؟ أليس لك جوارب ؟ كيف تستطيعين ان تخرجي عارية القدمين في هذه الرطوبة وهذا البرد ؟

فأجابت بلهجة متقطعة :

ـ ليس لي جوارب •

ـ رباه ! ولكنك تسكنين عند احد الناس مع ذلك ، وكان ينبغي ان تطلبي جوارب ، ما دمت قد احتجت الى الخروج •

ـ يعجبني الامر هكذا •

ـ ولكن هذا يؤذيك ، ومن الممكن ان تموتي !

ـ سيان •

كان واضحاً انها تكره الاجابة ، وكانت اسئلتي تغيظها •

ـ انظري • هناك مات •

قلت لها ذلك وانا اشير الى البيت الذي مات العجوز بالقرب منه • فنظرت الى المكان بانتباه ، ثم تحولت اليّ فجأة بوجه متوسل تقول :

ـ ارجوك ، لا تتبعني ، سآتي اليك ، سآتي ، سآتي متى استطعت•

ـ حسـناً • قلتُ انني لن اذهب الى بيتـك • ولـكن من الذي تخافينه ؟ لا شك انك شقية • انه ليؤلمني ان أراك ••

فقالت بنوع من الحنق :

ـ لا اخاف احدا •

ـ ولكنك قلت منذ لحظة « انها ستضربك ! »

فأجابت وقد اخذت عيناها تلتمعان :

ـ فلتضربني !

ثم كررت بلهجة مرة ، وهي ترفع شفتها العليا احتقاراً ، وترتجف :

ـ فلتضربني !

ووصلنا اخيراً الى فاسيلي اوستروف ، فاستوقفتْ الحوذي عند مدخل الشارع السادس ، وقفزتْ من العربة وهي تلقي حولها نظرة قلقة . وكررت تقول وقد اخذ منها الخوف كل مأخذ ، وجعلت تضرع اليّ ان لا اتبعها :

ـ اذهب ، سآتي اليك . اذهب حالا .. بسرعة .. بسرعة .

وتابعت طريقي ، ولكنني ما ان حاذيت رصيف النهر لحظة ، حتى صرفت الحوذي ، وعدت ادراجي الى الشارع السادس ، فانتقلت الى الرصيف الثاني بسرعة ، فلمحتها . لم يكن وقتها قد اتسع لابتعادها كثيراً ، رغم انها كانت تسير بخطى سريعة جداً . وكانت تنظر حولها في كل لحظة ، حتى لقد توقفت برهة ، لتعرف أأنا أتبعها أم لا . ولكنني اختفيت تحت احد الابواب فلم تلمحني ؛ وظلت تسير ، وظللت اتبعها ، من الجهة الثانية دائماً .

كان حب الاستطلاع قد بلغ مني ذروته . لقد وعدتها ان لا اتبعها، ولكنني كنت اريد ان اعرف البيت الذي ستدخله ، مهما يكلف الامر . لقد استبدّ بي شعور ثقيل غريب يشبه الشعور الذي احدثه فيّ جدها حين مات آزور في المقهى .

الفصل الرابع

مشينا طويلا حتى بلغنا « الجـــادة الصغرى* » • كانت تسيرسيراً أشبه بالركض • ودخلت أخيراً احدى الدكاكين فوقفت أنتظرها • قلت لنفسي : انهــا لا تسكن دكاناً على كل حال • وما هي الا دقيقة حتى خرجت فعلاً ، ولكنها لا تحمل كتبها الآن ، وانما تحمــل اناء من آجر • وبعد أن اجتازت طريقاً قصيراً ، دخلت باب بيت حقير المظهــر ، صغير ، هرم ، مبنى بآجر ، ذى طابقين ، مصبوغ بلون أصفر وســخ • وفي احدى النوافذ الثلاث من الطابق الادنى يرى المرء تابوتا صغيرا أحمر، اشارةً الى أن ههنا مصنع توابيت • كانت نوافذ الطابق الاعلى صـغيرة جداً ، مربعة تماماً ؛ وزجاجها كاب أخضر متشقق يرى المرء من خـلاله ستائر من نسيج قطنى وردي اللون •

اجتزت الشارع ، واقتربت من البيت ، فقرأت على لوحة من الحديد موضوعة فوق الباب : « منزل الست «بوبنوفا » •

وما ان فرغت من قراءة هذا الاسم حتى سمعت ، من صحن منزل السيدة بوبنوفا ، صرخةً حادة ، تبعتها شتائم مقذعة • فألقيت من خلال فتحة الباب نظرة الى الداخل ، فرأيت امرأة سمينة واقفة على درج صغير خشبى ، وقد وضعت على رأسها طاقية وعلى كتفيها شالاً ، واصطبغ وجهها بلون أحمر منفّر• كان واضحاً انها سـكرانة، رغم أن وقت الغداء مايزال بعيدا • وكانت تصب على المسكينة هيلين سيلا من الشتائم ، وكانت هيلين

واقفة امامها كالمشدوهة ، وقد امسكت آنيتها بيديها . وفى اسفل الدرج ، وراء ظهر المرأة ذات الوجه القرمزى ، وقفت امرأة شعثاء ، اختلط فى وجهها الاحمر بالابيض ، وقفت تنظر الى المشهد . وبعد لحظة ، فُتح باب السلم من الطابق الأعلى ، وظهرت على الدرجات امرأة متوسطة العمر ، فقيرة الملبس ، حلوة المنظر ، متواضعة الهيئه ، لا شك ان اصوات الصراخ هى التى دفعتها الى الخروج ؟ ومن خلال الباب المفتوح ظهرت رءوس أناس آخرين من ساكنى الطابق الأعلى : شيخ مترنح وفتاة صبية ... وفى وسط الباحة وقف فلاح فارع القامة قوى البنيـة لا شك انه البواب ، قد حمل بيده مكنسة ، واخذ ينظر الى المشهد كله فى كسل .

ـ يا ملعونة ، يا علقة ، يا بقة ..

كذلك كانت المرأة تعوى ، وتصب على رأس هيلين كل ما تعرف من شتائم ، دون نقاط او فواصل ، كأنها تحزّق . وتضيف قائلة :

ـ أهكذا تكافئيننى على ما احتمله من عناء ، يا وسخه ؟ أرسلها لتأتينى بقليل من الخيار ، فتختفى ! لقد حدثنى قلبى بأنها ستهرب : مزقتها امس شر ممزق ، وها هى ذى تهرب اليوم مرة اخرى ! ولكن اين تذهبين يا فاجرة ، اين تذهبين ؟ الى من تذهبين يا فاسقة ، يا قملة ، يا سمّ ، الى من تذهبين ؟ قولى والا خنقتك !

ثم ارتمت على البنية وقد جنت من الحنق .. ولكنها ، وقد رأت سكان الطابق الاعلى ينظرون اليها ، توقفت فجأة ، والتفتت اليهم ، واخذت تصرخ صراخاً اشدّ وهى تحرك ذراعيها ، كأنما لتشهدهم على الجريمة النكراء التى ارتكبتها ضحيتها المسكينة :

ـ تعرفون ان أمها قد فطست ، ايها الطيبون . وبقيت هى وحيدةً

لا تملك ما تسـد به الرمق • قلت لنفسي : سأتحمل عنـاء كفـالة هذه اليتيمة اكراماً للقديس نيقولا ، وحضنتها في بيتي • وها قد مضى شهران وانا اعيلها ، شربت دمي ، اكلت لحمي • يا علقة ، يا حية ، يا جنية • انها لا تقول شيئاً • لا تقول شيئاً ، ضربتها ام لم اضربها •• كأن في فمها ماء • تُحطم قلبي ولا تقول شيئاً ! ماذا تظنين نفسك يا حشرة ، ياقردة ! لولاي لمتِّ من الجوع في الازقة •• يجب ان تبوسي قدمي يا مِلْصة ! لولاي لكنت فطست من زمان •

فسألتها المرأة التي كانت تتجه اليها بالكلام ، سألتها باحترام :

ـ ولكن لماذا تجهدين نفسك هكذا يا آنا تريفونوفنا ؟ ماذا فعلت اليوم ايضا حتى ازعجتك هذا الازعاج كله ؟

ـ ماذا فعلت ؟ انني لا اريد ان يخرج على ارادتي احد • شعاري : لأن تعمل ما أريد ولو كان خطأ ، خير من ان تعمـل ما تريد ولو كان صوابا • هكذا انا • ولكنها اوشكت ان تقتلني اليوم ! ارسلتها لشراء قليل من الخيار ، فلم تعد الا بعد ثلاث ساعات ! كان قلبي يحدثني بذلك حين ارسلتها • الى اين ذهبت ؟ ايّ حماة قد وجدت ؟ ألم اغرقها بجميلي واحساني ؟ هل يجب ان اذكر انني سددت عن أمها الحقيرة دين اربعة عشر روبلاً من الفضـة ، وانني انفقت على دفنها ، وانني اتولى تربيـة شيطانتها ! تعرفين انت نفسك هذا ، ياسيدتي ! أليس من حقي ان اهزّها قليلا بعد هذا كله ؟ كان يجب ان يكون في قلبها شيء من عاطفة ، ولكنها بدلاً من ذلك تعاكسني ! اردت سـعادتها ، اردت ان ترتدي اثوابا من الموسلين ، واشتريت لها حذاء من السوق ، وألبستها كما تلبس الاميرات، فهل تعرفون ماذا فعلت ايها السادة ؟ مزقت ثوبها مزقاً ، واصبحت كما ترون • فعلتْ ذلك عامدة ، لست اكذب ، رأيتهـا بعيني • وقـالت : « اريد ثوباً من كتان ، لا اريد الموسلين » • وعندئذ خففت عن نفسي ،

فظللت اضربها وأدقها دقاً حتى اضطررت الى استدعاء الطبيب ، ودفع مال له .. كان يجب ان اذبحك يا قملة ، ولكننى بدلا من ذلك اكتفيت بحرمانك من الحليب اسبوعاً واحداً ! ولكى اعاقبها ، الزمتها ايضاً بغسل الارض ؛ وصدقونى انها تغسل ، هذه الجيفة ، انها تغسل !.. تناكدنى ثم تغسل ! قلت لنفسى : انها ستهرب ! وما كدت اتصور هذا حتى اختفت فعلاً ، فى غمضة عين ! لقد سمعتم بأنفسكم ، ايها الناس الطيبون ، كم ضربتها بالأمس . لقد تحطمت يداى من الضرب . لقد نزعتُ جواربها وحذاءها ، ظناً منى أنها لن تخرج عارية القدمين ، ومع ذلك خرجت ! أين كنت ؟ قولى ! ذهبت لرؤية من يا زوانة ؟ لمن وشيت بى ؟ قولى ، قولى يا غجرية !

وارتمت ، وهى فى سورة الغضب هذه ، على الطفلة المجنونة من الذعر ، فحملتها من شعرها ، ورمتها على الارض . فأفلت الوعاء من يد هيلين وتحطم . وزاد هذا غضبَ الغولة السكرانة ، فضربت ضحيتها على الوجه وعلى الرأس . ولكن هيلين ظلت صامتة فى عناد ، لم يفلت من فمها صوت ولا صرخة ولا آهة ، رغم الضرب المبرح . فأسرعتُ الى صحن الدار ، وقد طار صوابى من الاستياء ، وتقدمت من المرأة السكرانة ، وامسكت بذراعها ، صائحا :

ــ ماذا تعملين ؟ كيف تجرؤين ان تعاملى يتيمة فقيرة مثل هذه المعاملة ؟

ــ نعم ؟ ومن انت ؟ وماذا تصنع فى بيتى ؟

هكذا أخذت تعوى ، وقد تركت هيلين ووضعت قبضتها على خصرها .

فصرختُ :

ـ انت امرأة بلا شفقة • كيف تجرؤين أن تعذبي طفلة مسكينة هذا التعذيب ! ليست هي ابنتك : سمعتك تقولين انك تبنيتها تبنياً ، وانها يتيمة فقيرة ••

فأخذت تصرخ مهتاجة :

ـ يا يسوع المسيح ! من أين جئت أنت ايها الرجل ؟ لعلك جئت معها ! اذن فانتظر •• انني ذاهبة فوراً الى ضابط الشرطة •• ان آندره تيموفئتش نفسه يعدُّني نبيلة من النبيلات ! اذن فهي تذهب اليك ! من انت ؟ وما مجيئك الى هنا تزرع الاضطراب في بيوت الناس ؟ النجدة •• النجدة !

وهجمت عليَّ قابضة يديها • ولكن في تلك اللحظة دوَّت على حين غرة صرخة حادة عجيبة • ونظرت ، فاذا هيلين ، التي كانت واقفة كأنها لا عاطفة لها ، ترتمي فجأة على الارض ، صارخة تلك الصرخة المخيفة ، غير العادية ، وتضطرب في تشنجات رهيبة • وتجعد وجهها • انها نوبة صرعة • فأسرعت الفتاة الشعثاء والمرأة التي في الطابق الادنى تنهضانها وتحملانها •

وصرخت المرأة المهتاجة تقول :

ـ ليتها تفطس ، هذه الملعونة • هي النوبة الثالثة في هذا الشهر •• اخرج ، اخرج ايها المفسد •

وهجمت نحوي •

قال لي البواب بصوت منخفض متثاقل ، كأنما ليقوم بواجبه :

ـ اخرج • لا تتدخل في شئون الآخرين • هيا اذهب •

ولم يكن بد من الخروج ، فاجتزت الباب ، وانا مقتنع بأن تدخلي

كان عقيمـا كل العقم • ولكننى كنت اغلى من الاسـتياء • وظللت على الرصيف قريباً من البـاب ، انظر من الفتحة • وما ان خرجت ، حتى صعدت المرأة بسرعة الى فوق ، واختفى البواب هو الآخـر بعد ان قام بواجبه • وبعد لحظة ، نزلت المرأة التى ساعدت فى حمل هيلين ، مسرعةً نحـو مسـكنها ، فلمـا لمحتنى توقفت ونظرت الىَّ نظرة اسـتطلاع • وقد سـكّن وجهها الهـادىء روعى ، فعدت الى فنـاء المنزل وتقـدمت نحوها ، قائلا :

ـ هل تسمحين لى أن أسألك من هى هذه البنية وما تصنع بها هذه المرأة الفظيعة ؟ ارجوك ان لا تظنى اننى اطرح عليك هذا السـؤال من قبيل الفضـول ، فقد صادفت هـذه الطفلة ، وانا بسبب بعض الظروف يعنينى امرها كثيراً •

ـ اذا كان أمرها يعنيك ، فالافضل ان تأخذها اليك ، او ان تجد لها مكاناً ، والا ضاعت هنا •••

قالت ذلك كأنما على اسف ، وهى تتحرك لتبتعد عنى •

ـ ولكن ما الذى استطيع ان افعله اذا لم تعطينى بعض المعلومات ؟ اننى لا اعرف من الامر شيئاً • لعل هذه المرأة هى مدام بوبنوفا نفسها ، صاحبة البيت ؟

ـ نعم هى هى •

ـ ولكن كيف وقعت هذه الطفلة بين يديها ؟ هل ماتت امها هنا ؟

ـ على كل حال ، هى هنا •• والمسألة لا تهمنا •

وارادت مرة اخرى ان تذهب • فقلت :

ـ من فضلك : ان هـذا الامر يعنينى كثيراً ، وربما اسـتطعت ان

افعل شيئاً • من هي هذه الطفلة ؟ ومن كانت امها ؟ هل تعلمين شيئاً عن هذا ؟

ـ يظهر انها أتت من بلد آخر •• يظهر انها غريبة • وكانت تعيش تحت ، وكانت مريضة جدا ، وماتت مصدورة •

ـ كانت تسكن القبو ؟ اذن لقد كانت فقيرة جدا •

ـ نعم ، يا لها من بائسة ! كان منظرها يمزق القلب ألماً • ومع اننا اناس فقراء ، فقد اصبحت مدينةً لنا بستة روبلات بعد الاشهر الخمسة التي قضتها هنا • ونحن دفناها ، وزوجي هو الذي صنع التابوت •

ـ فلماذا تزعم بوبنوفا اذن انها هي التي دفنتها ؟

ـ غير صحيح !

ـ ماذا كان اسمها ؟

ـ لا استطيع ان أنطق به • انه صعب • لا بد انها كانت المانية •

ـ سميث ؟

ـ لا •• ليس هذا تماما • وقد اخذت آنا تريفونوفنا البنت الصغيرة، لتربيها فيما تزعم ، ولكن المسألة ليست نظيفة •

ـ لا شك انها اخذتها لغاية في نفسها ••

ـ انها تقوم باعمال فاسدة ••

قالت ذلك في تردد كأنها لا تريد ان تتكلم • واضافت تقول :

ـ على كل حال ، هذا لا يعنينا نحن ••

وعندئذ دوّى وراءنا صوت رجل يقول :

ـ والأفضل أن تصوني لسانك •

انه رجل متقدم فى السن بعض الشيء ، يرتدى ثوب المنزل وفوقه قفطان • كان ظاهرا عليه انه من اصحاب الحرف ! انه زوج محدثتى • قال لى وهو ينظر الى شزراً •

ـ اسمع يا سيد ، ليس لدينا ما نقوله لك ، الأمر لا يعنينا •

والتفت الى امرأته يقول :

ـ وانت اذهبى •

ثم اضاف يقول لى :

ـ وداعا ايها السيد • نحن صانعو توابيت • فاذا كنت فى حاجة الى شيء يمت الى مهنتنا بصلة ، فعلى الرحب والسعة •• اما فيما عدا ذلك فلا شأن لك معنا البتة •

وخرجت من هذا البيت المعقد المضطرب • لم يكن فى وسعى أن أفعل شيئاً ، ولكننى كنت أشعر أنه يشق عليَّ أن أترك كل شيء على هذه الحال • ولقد هزتنى كلمات قالتها زوجة صانع التوابيت : ان فى الأمر شيئا قذراً : كنت أوجس ذلك • وفيما كنت سـائراً ، خافض الرأس ، غارقا فى تأملاتى ، اذا بصوت خشن ينادينى باسم عائلتى فجأة • ونظرت، فاذا أمامى رجل سكران يترنح • انه يرتدى ملابس نظيفة بعض النظافة، ولكنه ملفع بمعطف رديء ، وعلى رأسه قبعة قذرة • اننى أعرف وجه هذا الرجل • ووقفت أتفرس فيه ، فغمزنى بعينه ، وابتسم لى ابتسامة ساخرة وهو يقول :

ـ ألم تعرفنى ؟

الفصل الخامس

ها هذا أنت يا ماسلوبويف ! انه للقاء ! ..

بهذا صحت حين عرفت فيه فجأة رفيقا من رفاق المدرسة الثانوية فى بلدتى ، فأجاب :

ــ نعم ! هذه ست سنين أو سبع لم نلتق خلالها .. بل الأصح أننا التقينا ، ولكن « معاليك » لم تتنازل فتمن علينا بنظرة ، ذلك انك قائد من قادة الأدب .

قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة ساخرة . فقاطعته اقول :

ــ دعك من هذا الهراء ! فالقادة ، حتى قادة الأدب ، لم يُخلقوا مثلى ... واسمح لى ان اقول لك ثانيا اننى اتذكر اننى لقيتك فى الشارع مرتين او ثلاث مرات ، ولكنك انت الذى هربت منى ، كان ذلك واضحاً كل الوضوح ، وأنا امرؤ لا أقرب انسانا حين أرى انه يتحاشانى . هل تعلم ما الذى أعتقده الآن ؟ أعتقد انك ما كنت لتنادينى لولا انك سكران، أليس هذا صحيحا ؟ على كل حال ، دعنا من هذا ، وعم صباحاً ! اننى سعيد جداً ، سعيد جداً بلقائك .

ــ صحيح ؟ ألست أسيء الى سمعتك اذا سرت معك وانا على ماترى من مظهرٍ .. غير لائق ؟ ولكن دعنا من هذا ، فليس له من قيمة . اننى ما زلت اتذكر الطفل الوديع الذى كنتَه ، ايها الأخ فانيا . هل تذكر

انهم جلدوك يوماً بدلاً مني ؟ انك لم تقل شيئاً ، ولا وشيت بي ، وقد سخرت انا منك طوال اســبوع كامل ، من قبيل الاعتراف بالجميل • ما أطهر نفسك ! (وتعانقنا) • انقضت ســنون كثيرة ، وأنا اضــطرب وحدي ، في الليل والنهار ، والأيام تنقضي ، ولكنني لا أنسى الماضي • لا انسى • وانت ، وانت ؟

ـ وانا ايضا اضطرب وحدي ••

ونظر اليّ نظرة طويلة فيها رقة انسان اضعفته الخمرة • لقد كان على كل حال فتى طيباً • وقال اخيراً بلهجة أسيانة :

ـ لا يا فانيا ، انت شيء آخر • لقد قرأت يا فانيا ، لقد قرأت •• ولكن اسمع : قل لي بصراحة ، أأنت مستعجل ؟

ـ الصراحة أن هناك حادثا هزّني هزاً قويا • قل لي اين تسكن• هذا افضل •

ـ سأقول لك • ولكن هذا ليس افضل • هل تريد ان اقول لك ما هو الافضل ؟•

ـ ما هو ؟

فأشار الى لافتة محل يبعد عشر خطوات عن المكان الذى كنـا فيه وقال :

ـ انظر • مقهى ومطعم • والحق انه مطعم فحسب ، ولكنه مكان لطيف • واقول لك انه مكان شريف • اما الفودكا فحدث عنها ولاحرج• لقد شربتها هنـاك كثيرا ، فأنا اعرفها حق المعـرفة • وفي هـذا المحل لا يجرءون على تقديم شيء رديء اليّ • انهم يعرفون ڤيليب فيليبتش • ان اسمي فيليب فيليبتش • ماذا ؟ لماذا تكشر ؟ لا ••• دعني اتم كلامي •

الساعة الآن الحادية عشرة والربع • ففى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين تماما سأدعك تذهب • والى ان يحين ذلك الوقت سنثرثر قليلا• هل تستكثر عشرين دقيقة على صديق قديم ، هه ؟

ـ أوافق على عشرين دقيقة ، اما اكثر من ذلك ، فلا ! لأن هناك اعمالا يجب ان اقوم بها ، اقسم لك ••

ـ اذا كنت توافق فأنا اوافق • ولكن لى كلمتين اقولهما قبل كل شيء : لا يبدو عليك انك مرتاح ، كأن أحداً قد ازعجك منذ لحظة ، أهذا صحيح ؟

ـ نعم صحيح •

ـ لقد حزرت • ذلك اننى ايها الأخ منصرف الآن الى دراسة علم الفراسة •• هذا عمل كغيره من الاعمال ! ولكن هيّا الآن • سنتحدث بعد قليل • فى خلال عشرين دقيقة سأجْهز قبل كل شيء على سماور شاى ، ثم ابتلع قدحا من شراب السندر ، فقدحاً من شراب الهال ، فقدحاً من شراب البرتقال ، ثم أقداحا من اشربة اخرى• اننى اشرب ايها الاخ. وليس لى من قيمة الا فى ايام الاعياد قبل الصلاة • اما انت ، فتستطيع ان لا تشرب اذا لم تشأ ان تشرب • ولكننى فى حاجة اليك • واذا شربت معى كان ذلك دليلا على نبل نفسك • هيا • سنثرثر قليلاً ، ثم يذهب كل منا الى سبيله ، خلال عشرة اعوام ، انا لا استحقك ايها الاخ فانيا !

ـ هيا ، كفى هرفا ، لنسرع الخطى ، لا يتسع وقتى لأكثر من عشرين دقيقة ، ثم أدعك وشأنك •

وكان علينا ، فى المطعم ، ان نصعد الى الطابق الثانى ، متسلقين سلماً خشبياً • وفجأة ، اصطدمنا على السلم برجلين قد اخذ منهما السكر كل مأخذ • فلما رأيانا اصطفّا مترنحين •

كان احدهما فتى صغيراً لم تنبت لحيته بعد ، ولم يكد ينبت شارباه. وكان منظره يعبر عن غباوة كبيرة . وكانت ملابسه أنيقة ، ولكنها مضحكة قليلاً ، فكأنه مرتد ملابس شخص آخر ، وكان يزين أصابعه بخواتم جميلة ، ويرصع ربطة عنقه بدبوس ثمين ، وكانت تسريحة شعره غريبة ذات ذؤابة . وكان يبتسم ويضحك طوال الوقت . اما صاحبه فهو في نحو الخمسين من عمره : سمين بطين ، ذو هندام مهمل ، وكان هو الآخر يزين ربطة عنقه بدبوس كبير ، وكان اصلع ، وكان وجهه ضئيلا خرعا ثملاً ، وكان يضع نظارتين على انفه الذى يشبه شكله زراً . ان وجهه يعبر عن السوء والشهوانية . كأن عينيه الشريرتين الخبيثتين الريانتين الغارقتين في الشحم تنظران من خلال شق . كان واضحا انهما يعرفان كليهما ماسلوبويف ، ولكن الرجل السمين كشر حين رآنا تكشيرة الاستياء ، ولكن هذه التكشيرة ما لبثت أن اختفت . أما الصبى فقد انطلق وجهه بابتسامة متطفلة خاضعة ، حتى انه رفع قبعته . كان يضع على رأسه قبعة . ودمدم يقول ، وهو ينظر الى صاحبي نظرة تلطف :

ـ اغفر لى يا فيليب فيليبتش .

ـ اغفر لك ماذا ؟

فضرب الصبى عنقه بسبابته وقال :

ـ لا شيء . ان متروشكا هناك . هذا كلب . واضح ذلك .

ـ مامعنى هذا الكلام ؟

ـ طبعا .. وهذا صاحبنا (وأشار برأسه الى رفيقه) قد رشُّوا وجهه في الأسبوع الماضي بالقشدة .. بفضل متروشكا ذاك نفسه ..

وهنا دفعه صاحبه من ذراعه غاضباً .

ـ ينبغي ان تأتي معنا ، يا فيليب فيليبتش ، سنفرغ الآن زجاجة او زجاجتين ، هل يمكن ان تتفضل بالمجيء معنا ؟

فأجابه ، ماسلوبويف قائلا :

ـ لا يا عزيزي ، لا يتسع وقتي الآن ، تنتظرني اعمال •

ـ هأ هأ ، انا ايضاً تنتظرني اعمال ، وانت ••

ودفعه رفيقه مرة اخرى من كوعه •

كان ماسلوبويف يحاول ان لا ينظر اليهما • ولكننا ما ان دخلنا الحجرة الاولى التي تمتد على طولها منضدة مكتظة بانواع من المقبلات واللحوم الباردة وزجاجات الشراب المختلفة الالوان ، حتى قادني بسرعة الى ركن من اركانها وقال :

ـ اما الفتى فهو ابن سيزوبريوخوف*، تاجر الحبوب المعروف • لقد ورث عند موت أبيه نصف مليون ، وهو الآن يتلف ما ورث • ذهب الى باريز ، وبدد كثيراً من المال ، بل لعله أنفق كل ما يملك • ثم ورث مرة أخرى عمه ، وعاد من باريز ، وهو يصفي الآن ما بقي له • وربما اصبح شحاذاً بعد سنة واحدة • انه أحمق كاوزة ، يختلف الى أرقى المطاعم ، والحانات ، والملاهي ، والممثلات • وقد تقدم بطلب للالتحاق بالفرسان الغجر • وأما الآخر ، المسن ، فهو أرشيبوف ؟ انه تاجر أو ناظر ، أو شيء من ذلك ، يُعني بتجارة الخمور ، هذا الحقير المحتال ، وهو الآن رفيق سيزوبريوخوف لا يتركه لحظة • انه يهوذا وفالستاف في آن واحد ، وقد أفلس مرتين ، وهو مخلوق شهواني الى درجة مقززة •• وصاحب نزوات • انى أعرف له بهذا الصدد أمراً اجرامياً ، ولكنه قد خرج منه • ويسعدني جداً ، بمعنى من المعاني ، أنني لقيته هنا • كنت أتوقع ذلك • طبيعي أن أرشيبوف يختلس مال سيزوبريوخوف ،

انه يعرف كل أنواع الامكنة ، وهو لذلك شيء ثمين بالنسبة الى صبية من هذا النوع • انني أنقم عليـه منـذ مدة طويلة • هل ترى ذلك الرجل القوي الجالس عند النافذة ، الذي يرتدي معطف فلاح ، ويشـبه رأسه رأس غجري ؟ ان اسمه متروشـكا ، وهو يحنق عليـه ايضاً • انه من سماسرة الخيل ، ويعرف جميع فرسان المدينة • سأقول لك شيئاً : انه محتال فظيع ، حتى لقد يزيف ورقة نقدية على مرأى منك ، ثم اذا بك تبدلها له رغم انك رأيته يزيفها بأم عينك • وهو يبدو بمعطفه المخملي من المتعصبين للسلافية • (وفي رأيي ان ذلك يليق به • ثم انك لو ألبسته لباساً انيقاً وذهبت به الى النادي الانجليزي ، وقلت هنالك انه امير يحكم بارابانوف ، لاستطاع ان يُخدع الناس في امره طوال ساعتين ، يلعب الوايست ويتحدث كما يتحدث الامراء ، دون ان يلاحظوا شيئاً البتة)•* سينتهي نهاية سيئة • المهم ان متروشكا هذا يحقد على الرجل السمين ، لأنه الآن مفلس ، وقد اختلس منه السـمين صـديقه سـيزوبريوخوف قبل ان يتسع وقته لنفضه تماماً • واذا كانا قد التقيا منذ لحظة في المطعم ، فلا بد ان تكون قد وقعت مشكلة ، بل انني اعـرف الموضـوع ، فمن متروشكا ، لا من غيره ، عرفت أن أرشيبوف وسيزوبرويوخوف سيجيئان الى هنا ، وأنهما يهوّمان في هذه النواحي سعياً الى أمر حقير • أريد أن استفيد مما يضمره متروشكا من بغض لأرشيبوف ، وهناك ما يحملني على ذلك ، ومن اجل هذا جئت الى هنا ، ولكنني لا اريد ان يفكر متروشكا في شيء • لا تنظر اليه • وحين سنخرج ، سيأتي من تلقاء نفسـه يذكر لي ما انا في حاجة الى معرفته •• والآن فلندخل هذه الغرفة يا فانيا ••

ثم تابع يقول متجها بكلامه الى الخادم :

ـ هيه ! ستيفان ، هل تعرف ماذا اريد ؟

ـ نعم سيدي •

ـ وستأتينا به ؟

ـ نعم سيدى •

ـ هكذا • اجلس يا فانيا • لماذا تنظر الىّ هذه النظرة ؟ أرى انك تنظر الىّ ! هل يدهشك هذا ؟ لا داعي للدهشة • كل شيء يمكن أن يقع للانسان ، حتى الأمور التى كان لا يتصورها فى الحلم •• ولا سيما •• هل تذكر أيام كنا نقرأ معا كورنيليوس نيبوس • اسمع يا فانيا ، هناك شيء يجب أن تصدقه : مهما يكن ماسلوبويف قد ضل ، فان قلبه مايزال كما كان ، ولكن الظروف هي التي تغيرت • رغم اننى قد وسخت يدى ، فاننى لست أسـوأ من غيرى • لقد أردت أن أصبح طبيبا ثم حضرت شهادة تعليم الادب الروسى ، حتى لقد كتبت مقالة عن غوغول ، ثم أردت أن أجعل نفسى باحثا عن الذهب ، وأوشكت أن أتزوج ، ذلك لان الرجل الذى يحب الحياة ، يرغب فى أن يأكل خبزاً أبيض ، وقبلتْ ، هى ، رغم ان البيت كان خالياً مما يطعم هرة ، وكنت على وشك أن أذهب الى حفلة الزواج، وكنت أُريد أن أستعير حذاء متينا لأن حذائى كان قد تنقب منـذ سنة ونصف سنة • ولكننى لم أتزوج • وتزوجت هى أستاذاً من الأساتذة • واكتفيت أنا بأن أعمل فى أحد المكاتب• ثم كانت أغنية أخرى• وانقضت سنون • ورغم اننى لا أعمل الآن ، فاننى أكسب مالاً كثيراً دون تعب • أتقاضى أجراً على التوسط للناس ، وأدافع عن الحقيقة : أسدٌ أمام النعاج ، ونعجة أمام الاسود • ان لى مبادىء • فأنا أعرف مثلاً ان العدد الكثير هو الذى يؤلف قوة كبيرة ، و •• أنصرف الى أعمالى • وأنا أعمل خاصة فى أمور شبه رسمية •• هل فهمت ؟

ـ لستَ جاسوسا على كل حال ؟

ـ لا ، لست جاسوسا ، ولكننى أقوم بأعمال بعضها رسمي ، وبعضها

شخصي • هل ترى يا فانيا ؟ انني أشرب • ولكنني لم أغرق عقلي أبدا في الخمرة ، وأنا لذلك أعرف مستقبلي • لقد فات الاوان ، ولكنني سأقول لك شيئا : لو قد مات فيّ الانسان لما اعترضتك اليوم • ان ماذكرته منذ لحظة صحيح يا فانيا لقد سبق ان رأيتك قبل اليوم ، وأردت غير مرة أن أعترضك ، ولكنني لم أجرؤ ، وكنت أرجيء ذلك دائما • انني لاأستحقك• وقد أصبتَ حين قلت انني لو لم أكن سكران ، لما اعترضتك اليوم • على كل حال ، هذا حديث مشوش مضطرب ، ودعنا الآن من الكلام عني • ولنتحدث عنك • اسمع يا صديقي ، لقد قرأت لك ، قرأت كتابك الاول من بدايته الى نهايته • وحين فرغت من قراءته أوشكت أن أصبح انسانا سويا ! ولكنني فكرت ، وآثرت أن أحتفظ بحياتي المضطربة ، وهكذا •

ظل يحدثني مدة طويلة ، فكلما ازداد سكره ازدادت عاطفته ، ففاضت عيناه بالدموع • لقد كان ماسلوبويف دائما من خيرة الفتيان ، الا انه كان يحب التفرد دائما ، وكان نموه فوق نمو من هم في سنه ، وكان ذا مكر وكيد وخبث وميل الى المماحكة والمناقرة ، وان لم يكن خاليا من العاطفة • كان انسانا ضائعا • ثمة أناس كثيرون من هذا النوع بين الروس• وكثيراً مايكونون موهوبين • ان كل شيء مضطرب في نفوسهم حتى لقد يخالفون ضميرهم واعين عامدين ، لضعف في بعض الامور ، فلا يضيعون أنفسهم فحسب ، بل يعرفون حق المعرفة انهم يسعون الى حتفهم بظلفهم • ولقد كان ماسلوبويف ، كغيره ، يغرق نفسه في الخمرة •

وتابع يقول :

ـ كلمة أخيرة • لقد وصلتْ اليّ في أول الأمر أصداءُ مجدك ثم قرأت بعد ذلك مقالات في نقدك (نعم •• لقد قرأت هذه المقالات ، لعلك تعتقد انني لا أقرأْ) ، وصادفتك بعد ذلك منتعلاً حذاء خلقا ، تمشي في

الوحل بلا كاوتشوك ، وعلى رأسك قبعة متجعدة •• ففكرت فى هذا طويلاً • أنت تعمل الآن فى الصحافة ، أليس كذلك ؟

ـ نعم •

ـ معنى هذا انك أصبحت حصان عربة •

ـ شيئا من ذلك •

ـ لذلك أيها الأخ قلت لك ان الاقبال على الشراب أفضل • فأنا مثلا أسكر ، وأتمدد على ديوانى (عندى ديوان ممتاز ذو نوابض) ، وأفكر ، فأرانى هوميروس أو دانتى أو فريدريك باربروس ، ذلك لأن الانسان يستطيع أن يتخيل مايشاء • أما انت فلا تستطيع أن تتخيل أنك دانتى أو فريدريك باربروس • أولاً لانك ترغب فى أن تكون انت نفسك ، وثانيا لأن كل رغبة ممنوعة عنك ، مادمت حصان عربة • لى أنا الخيال ، ولك انت الواقع • اسمع ، قل لى بصراحة ، بلا لف ولا دوران، كما يقول أخ لأخيه (والا كنت تهيننى مدة عشر سنين) ، ألست فى حاجة الى مال ؟ ان لدى مالاً • لا تكشر • خذ هذا المال ، فترتاح من الذين يستخدمونك ، وتنزع اللجام عن عنقك ، وتعيش هادىء البال سنة بكاملها ، وتستطيع عندئذ أن تنصرف الى فكرة عزيزة عليك ، أن تنتج كتابا كبيراً • ما رأيك ؟

ـ اسمع يا ماسلوبويف ! اننى أقدّر هذا العرض الأخوى ، ولكننى لا أستطيع أن أجيبك الآن بشىء ، لماذا ؟ هذا أمر يطول شرحه • ذلك رهن بالظروف • ثم اننى أعدك بأن أقول لك كل شىء ، أيها الأخ • أشكر لك ماعرضته على • وأنا أعدك بأن أزورك ، بأن أزورك كثيرا • ولكن اليك الامر الذى يهمنى الآن : ما دمت صريحاً معى ، فقد قررت

أن أستشيرك ، لاسيما وانك أستاذ فى هذا النوع من الامور ؟

وقصصت عليه حكاية سميث وحفيدته ، من أولها الى آخرها ، مبتدئاً بالمقهى • ولفت نظرى شيء عجيب : كان يخيل الىّ ، وأنا أقص الحكاية ، اننى أقرأ فى عينيه انه على علم بها ، فسألته عن ذلك ، فأجاب :

ــ لا ، لست أعرفها • غير اننى سمعت قليلا عن سميث ، وعرفت ان شيخاً عجوزاً قد مات فى ذلك المقهى • أما السيدة بوبنوفنا فاننى أعرف عنها بعض الامور حقا • وكان لى معها شأن منذ شهرين • اننى أعرف من أين تؤكل الكتف ، ومن هذه الناحية وحدها أشبه موليير • ورغم انى ابتززت منها مائة روبل ، فقد آليت على نفسى ألا أكتفى فى المرة القادمة بأقل من خمسمائة روبل • تلك امرأة فظيعة ! •• انها تقوم بتجارة حقيرة ! وكان يهون الامر ، لو انها لا تسرف فى الانحطاط حقاً فى بعض الأحيان • أرجو ألا تظن أننى دون كيشوت • واقع الامر هو اننى أستطيع الانتفاع، وقد سرنى جداً اننى لقيت سيزوبريوخوف منذ نصف ساعة• لاشك انهم جاءوا به الى هنا •• الرجل الضخم هو الذى جاء به •• ولما كنت أعرف ماهو العمل الذى يتعاطاه هذا الرجل ، فقد استنتجت من ذلك ان ••• ولكننى سأقبض عليه ! •• لقد سرنى انك حدثتنى عن تلك البنت الصغيرة ، فقد اطلعت الآن على شيء جديد • اعلم يا عزيزى اننى أتولى تحقيق أنواع كثيرة من المهمات يعهد بها الىّ ، وليتك ترى الناس الذين أتردد اليهم ! لقد توليت أخيراً القيام بتحريات كلفنى بها أمير من الامراء ، انها قضية لا يُنتظر مثلها من مثله • أم هل تريد أن أروى لك قصة امرأة متزوجة ؟ زرنى فى يوم من الايام ، فلدى من الاحاديث ما لايصدقه عقلك ! •

فقاطعته أقول ، وقد أوجست الأمر :

ــ ما اسم ذلك الأمير ؟

ـ مالك ولاسمه ؟ اسمه فالكوفسكى ، اذا كنت تصر على معـــرفة اسمه .

ـ بطرس فالكوفسكى .

ـ نعم .. هل تعرفه ؟

ـ قليلاً .. وسأسألك عن أنباء هذا السيد غير مرة ، لقـد شاقنى .. أ .

ـ ذلك ، وأنا أنهض .

ـ اسمع أيها الصـــديق القديم ! انك تســتطيع أن تسألنى عن كل ماتريد ، وأنا امرؤ يجيد رواية الحكايات ، ولكننى لا أطلق للسانى العنان ، بل أظل فى نطاق بعض الحدود ، هل فهمت ؟ والا فقدت ثقة الناس فىّ ، وفقدت شرفى ، فى الأعمال طبعاً ، وهكذا دواليك ...

ـ اذن فى الحدود التى يسمح لك بها الشرف ...

وكنت مضطربا ، فلاحظ هو ذلك . قلت :

ـ ما قولك فى القصة التى رويتها لك منذ لحظة ؟ هل انتهيت فيها الى رأى أم لا ؟

ـ قصتك ؟ انتظر لحظة . سأدفع الحساب .

واقترب من البسطة فاذا هو يجد نفسه ، فيما يشبه الصدفة ، الى جانب الفتى ذى المعطف الفلاحى، الذىأسماه فى كثير منالبساطة والألفة باسم متروشكا . وبدا لى ان ماسلوبويف يعرفه أكثر قليلا مما زعم . كان واضحاً على الاقل انهما لايلتقيان لأول مرة . وكان منظر متروشكا منظرا فريداً بعض الشيء : فمعطفه الروسى وقميصه الحريرى الاحمر والقسمات الحادة البارزة على انسجام ، فى وجهــه الاسمر الفتى ، ونظرته اللامعة الجريئة ، كل ذلك يضفى عليه طابعا يلفت النظر ولا يخلو من أن يكون

جذابا • وكانت تبدو الثقة الظاهرة فى حركاته مصطنعة • ولكن كان واضحا فى الوقت نفسه انه فى تلك اللحظة يتجلد ويحبس مافى نفسه ويريد أن يظهر بمظهر الشخص الهام الجاد ذى الاعمال الكثيرة •

ـ تعال الىّ يا فانيا فى الساعة السابعة • فلربما كان هنالك ما أقوله لك • اننى حين أكون وحدى لا أملك عقلاً • وقد كان لى قبل ذلك عقل ، أما الآن فما أنا الا سكير • وقد انسحبت من الاعمال ، ولكن بقيت لى علاقات • أستطيع أن ألتقط بعض المعلومات من هنا ومن هناك ، أستطيع أن أتشمم الريح الى جانب أناس مرهفين • تلك هى طريقتى فى العمل • صحيح اننى فى لحظاتى الضائعة ، أعنى حين لا أسرف فى الشراب ، أقوم أيضاً ببعض الاعمال ، بعض التحريات ••• ولكن ماذا ؟ يكفى هذا •• اليك عنوانى : فى شارع «الدكاكين الست» • أيها الأخ ، أخذت أنزعج الآن • يجب أن أُفرغ فى جوفى قدحا آخر ، ثم أعود الى بيتى • علىّ أن أنام قليلاً • ستأتى الى • وسأقدمك الى الكسندرا سيمينوفنا ، واذا اتسع الوقت ، تحدثنا فى الشعر •

ـ وسنتحدث أيضا فى القضية الاخرى •

ـ ربما •

ـ اذن سأجىء حتماً •••

الفصل السادس

كانت آنا آندريفنا تنتظرنى منذ مدة طويلة • ان ما قلته لها أمس بصدد بطاقة ناتاشا قد أثار حب الاطلاع لديها اثارة قوية ، وكانت تنتظر أن أوافيها قبل ذلك كثيرا ، فى نحو الساعة العاشرة من الصباح • فلما وصلت اليها فى الثانية بعد الظهر كان قلق الانتظار قد استنفد قوى العجوز المسكينة ، وكانت ، عدا ذلك ، تريد ، بفارغ صبر ، أن تفضى الى بالآمال الجديدة التى أشرقت فى نفسها منذ أمس ، وأن تحدثنى عن نيقولا سرجتش الذى كان ، على أوجاعه واكتئاب مزاجه منه البارحة ، رقيق العاطفة فى معاملتها • فلما رأتنى استقبلتنى بوجه بارد مستاء ، وما كادت شفتاها تتحركان بالتحية ، ولم تظهر شيئا من حب الاطلاع • كانت كأنها تقول لى : « لماذا جئت ؟ ان وقتك ما يزال يتسع للتسكع هنا وهناك ، يا عزيزتى • » كانت تحقد على لأننى تأخرت فى المجىء • ولكنى كنت مستعجلا ، فقصصت عليها مشهد الأمس كله بلا ابطاء • فلما علمت ان الامير زار ناتاشا ، وانه قدم اقتراحه الرائع ، تبدد استياؤها الظاهر بمثل لمح البصر • لا أستطيع أن أصف فرحها بكلام : لقد أصبحت كمن فقد صوابه ، فاذا هى ترسم اشارة الصليب ، ثم تبكى ، ثم تسجد على الأرض أمام الأيقونة ، ثم تقبلنى ، ثم تهم أن تهرع الى نيقولا سرجتش لتشركه فى فرحها • قالت :

ـ أرجوك ، يا صديقى • ان تلك الاذلالات وتلك الاهانات كلها هى

التي حطمت أعصابه ، ولكنه متى علم بأن كرامة ناتاشا ردت اليها كاملة ، فسينسى كل شيء فوراً •

ولم أستطع أن أثنيها عن عزمها الا في كثير من العناء • ان العجوز المسكينة ماتزال تجهل زوجها ، رغم انها عاشت معه خمسة وعشرين عاماً، وكانت تتحرق كذلك شوقاً الى أن تمضي معه الى ناتاشا فوراً • فاعترضت على ذلك بقولي ان نيقولا سرجتش لن يحبذ عملها هذا ، حتى ان من الممكن ان نفسد به الامر كله • فعدلت عن فكرتها في كثير من العناء ، ولكنها حبستني عندها نصف ساعة بلا جدوى ، وهي لا تنفك تقول : « كيف أبقى الآن سجينة جدران أربعة ، وأنا فيما أنا فيه من فرح ؟ » وأقنعتها أخيراً بأن تسمح لي بالانصراف ، قائلاً لها ان ناتاشا تنتظرني بفارغ صبر • فرسمت العجوز علي اشارة الصليب عدة مرات ، وحمّلتني تحية خاصة لناتاشا ، وأوشكت أن تبكي حين رفضت أن أعدها بالمجيء اليها في المساء رفضاً باتاً ، اذا لم يقع لناتاشا أمر يستوجب مجيئي • لم ار نيقولا سرجتش في هذه المرة : لقد أرق الليل كله ، وأصيب بصداع شديد ورعشات متصلة ، وهو الآن نائم في غرفته •

وقد انتظرتني ناتاشا ، هي أيضاً ، طوال النهار • فحين دخلت ، كانت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً على عادتها ، وقد شبّكت يديها ، واستغرقت في التفكير • مازلت الى يومي هذا ، حين استحضر ذكراها ، لا أتصورها الا وحيدة دائماً ، في غرفة صغيرة بائسة ، مطرقةً تفكر ، مهجورةً ، منتظرة ، مكتوفة اليدين ، خافضة العينين ، ذاهبة آيبة بلا هدف •

قالت لي وهي ما تزال تسير جيئة وذهاباً : لماذا تأخرت هذا التأخر كله ؟

فقصصت عليها مغامراتي كلها في ايجاز ، ولكنها كانت لاتكاد تصغي الى حديثي • كان واضحاً انها مشغولة البال • سألتها :

ـ هل من جديد ؟
فأجابت بقولها :
ـ لا شيء •
ولكنني حزرت من هيئتها ان ثمة أمراً جديداً ، وانها انتظرتني لتقص علي هذا الامر ، ولكنها ، على عادتها ، لن تقصه عليّ فوراً ، بل حين أهم أن أمضي • هكذا كانت تجري الامور بيننا دائماً • فتوقعت ذلك وانتظرت •
بدأنا طبعا بالحديث عما جرى أمس • ومما أدهشني خاصة اننا اتفقنا كل الاتفاق في رأينا في الامير •• كانت تكرهه صراحة ، أكثر مما كرهته بالامس • وانا لنستعرض جميع تفاصيل زيارته ، اذا بناتاشا تقول لي فجأة :
ـ اسمع يا فانيا ، هذه قاعدة عامة : اذا كرهتَ شخصاً في أول الأمر ، فتلك اشارة تكاد تكون يقينية الى انك ستحبه بعد ذلك • هذا مايقع لي أنا ، على الاقل •
ـ ان شاء الله ، يا ناتاشا • واليك رأيي القاطع بعد أن وزنت جميع الامور حق وزنها : ربما كان الامير يعبث ، ولكنه يوافق حقاً على زواجكما موافقة جادة •
فتوقفت ناتاشا في وسط الغرفة ، والقت عليّ نظرة قاسية • لقد تبدل تعبير وجهها كله ، حتى لقد ارتعشت شفتاها قليلاً •• قالت :
ـ ولكن كيف يمكنه أن يحتال و ••• أن يكذب في ظرف كهذا ؟
قالت ذلك بلهجة مترددة ، تفيض كِبْرا •
فأسرعت أؤيدها قائلاً :
ـ صحيح ! صحيح !
ـ لا شك انه لم يكذب • ويخيل اليّ ان هذا يجب ألا يخطر لنا

بال ، ينبغي ألا نرى في ذلك حيلة من الحيل ! ثم ماعسى أن أكون في نظره حتى يضحك عليّ هكذا ؟ ليس في امكان رجل أن يرتكب وقاحة كهذه !

فقلت مؤيداً :

ــ طبعاً ، طبعاً !

ولكنني قلت بيني وبين نفسي : « ومع ذلك لعلك لاتفكرين الا في هذا ، وانت تذهبين وتجيئين في غرفتك ، يا صغيرتي المسكينة ، ولعلك تشكّين في الامر أكثر مما أشك فيه أنا » .

قالت :

ــ آه ، كم أود لو يعود بسرعة . كان يريد أن يقضي معي السهرة كلها . لا شك أن أعمالا هامة تنتظره ، ما دام قد ترك كل شيء ومضى . هل تعرف شيئاً عن ذلك يا فانيا ؟ هل سمعت شيئاً عن ذلك ؟

ــ لا والله . انه يحاول الحصول على مال . وقد قيل لي انه سيساهم في مشروع مالي ، هنا ببطرسبرج . نحن يا ناتاشا لا نفهم شيئاً في شئون الاعمال .

ــ صحيح . لقد حدثني اليوشا عن رسالة تلقاها أمس .

ــ لا شك انها تحمل اليه أخباراً . هل جاء أليوشا ؟

ــ نعم .

ــ مبكراً ؟

ــ في الظهر . انت تعلم انه ينام متأخراً . ولكنه لم يمكث الا لحظة . لقد بعثت به اليّ كاترين فيدوروفنا . كان يستحيل غير ذلك .

ــ ألم يكن ينوي هو أن يذهب اليها ؟

ــ بلى ، بلى .

وأرادت أن تضيف الى قولها هذا شيئاً ، ولكنها صمتت ، فنظرتُ

اليها وانتظرت . كان وجهها حزينا جدا . وددت لو أطرح عليها بعض الاسئلة ، ولكنها كانت في بعض اللحظات تكره الاسئلة .

قالت أخيراً ، وهي تصعّر شفتيها قليلاً ، وكأنها تحاول ألا تنظر الي:

ـ عجيب أمره ، هذا الفتى !

ـ ماذا ؟ هل حدث شيء .

ـ لا . لاشيء .. هكذا . ثم انه كان لطيفاً جداً ، ولكن ..

قلت :

ـ الآن انتهت كل أحزانه وكل همومه .

فألقت عليّ ناتاشا نظرة ملحاحة متفحّصة . لعلها أرادت أن تقول لي هي نفسها ان أليوشا لم يكن له هموم كبيرة في يوم من الايام . ولكنها اعتقدت انها تقرأ هذه الفكرة نفسها في عيني ، وصمتت مغتاظة .

لكنها سرعان ما عادت لطيفة محببة . كانت في هذه المرة ناعمة كل النعومة . ومكثت عندها أكثر من ساعة . كانت قلقة . لقد أخافها الامير. ولاحظت من بعض أسئلتها انها تود كثيراً لو تعرف ماهو الأثر الذي تركته في نفسه أمس . هل أحسنت التصرف ؟ ألم تبالغ في اظهار فرحها أمامه ؟ ألم تظهر مسرفةً في سرعة التأذي ، أو مسرفة في شدة الانقياد ؟ ماعسى أن يكون رأيه فيها ؟ أهو يهزأ بها ؟ أهو يحتقرها ؟ وحين راودتها هذه الفكرة التهب وجهها بحمرة شديدة . قلت لها :

ـ لماذا تصدّعين رأسك بما عسى أن يفكر فيه هذا الرجل السيء ؟ هبيه يفكر في ذلك ، فما قيمة هذا كله ؟

فسألتني تقول :

ـ ولماذا تعده سيئاً ؟

كانت ناتاشا متحدية ، ولكن لها قلباً طيباً ونفساً مستقيمة. ان تحديها يتدفق من نبع رائق . ان في نفسها لكبرياء ، كبرياء نبيلة . كانت لاتطيق

أن 'يعرَّض للسخرية أمام عينيها ماتعده فوق كل شيء . اذا احتقرها انسان شرير ، فلا شك انها ترد الاحتقار باحتقار مثله ، ولكنها مع ذلك تتألم في أعماق قلبها أشد الألم اذا سخر أحد بما تعده مقدساً ، كائنا من كان الساخر . وليس يرجع ذلك الى نقص في الصلابة . وانما يرجع بعضه الى جهلها بالبشر ، والى قلة معاشرتها الناس ، والى انزواء حياتها. لقد عاشت دائما في زاويتها ، لم تخرج منها قط . ثم ان لها تلك الملكة التي تنعم بها النفوس السمحة الكريمة ، والتي لعلها ورثتها عن أبيها : أعني الاندفاع في الثناء على شخص ، والاصرار على تقديره فوق قدره ، والمبالغة في تصوير محاسنه على تحيز . انه ليشق على هؤلاء الناس أن يفقدوا بعد ذلك أوهامهم ، يشق عليهم ذلك خاصة لشعورهم بأنهم هم أنفسهم مذنبون . لماذا تنتظر أن 'تعطى أكثر مما يمكن أن 'تعطى ؟ ان الخيبة تتربص بهؤلاء الناس من لحظة الى لحظة . والافضل أن يظلوا في زاويتهم هادئين ، لا يخرجون منها . حتى لقد لاحظت انهم يحبون زوايتهم حقا ، الى أن يعتصموا بها اعتصاماً تاماً . ثم ان ناتاشا قد تحملت كثيراً من أنواع الشقاء ، وكثيراً من الاساءات . انها انسان مريض . فيجب ألا تُتهم ، هذا اذا كان في أقوالي شيء من الاتهام .

كنت مستعجلا ، فنهضت لاذهب ، فشُدهت من ذلك ، وكادت تنفجر باكية ، رغم انها لم تظهر نحوي شيئاً من العاطفة الرقيقة طوال المدة التي قضيتها معها ، حتى لقد كانت أشد برودة في معاملتي من عهدي بها. ولكنها عانقتني عندئذ في كثير من العاطفة ، ونظرت في عيني مدة طويلة ، ثم قالت :

ـ اسمع ، لقد كان أليوشا غريبا كل الغرابة اليوم ، لقد أدهشني كثيراً . كان لبقاً جداً ، وكانت تلوح عليه أمائر السعادة ، ولكنه كان يتراقص كفراشة ، ويختال ويمشي مرحا ، ولا يني ينظر الى نفسه في

المرآة •• كان لايتحرج أى تحرج •• ثم انه لم يمكث مدة طويلة • وتصور انه اتانى بسكاكر •

ـ سكاكر ؟ هذا شيء لطيف جداً ، برىء جداً • يا لها من فصول هذه التى تقومان بهـــا كلاكما ! ان كلاً منكما الآن يلاحظ صاحبه ، ويتجسس عليه ، ويحاول أن يقرأ فى وجهه أفكاره المستسرة (وانتما لاتعرفان منها شيئاً) • ان اليوشا لا يسرف فى هذا على كل حال • انه مرح ، انه تلميذ ، كما كان فى السابق ، اما انت ، انت !

أتذكر ان ناتاشا كانت كلما بدلت لهجتها واقتربت منى لتشكو الىَّ اليوشا ، أو لتطرح على سؤالاً شائكا ، أو لتفضى الى بسر تحب أن أفهمه بنصف كلمة ، كانت تنظـر الى مبتسمة ، كأنهـا تتوسل أن أتخذ القرار الذى يهدىء من روعها • ولكننى أتذكر أيضا اننى كنت فى تلك اللحظات أصطنع لهجة قاسية حاسمة ، كأننى أقرع أحداً ، واننى كنت أفعل ذلك دون أية نية مبيتة ، وان ذلك كان ينجح دائما • كانت قسوتى تأتى فى محلها ، فتؤثر تأثيراً أشد ، لان الانسان يشعر فى بعض الاحيان بحاجة الى أن يوعَظ ، ولقد كانت ناتاشا تشجعنى على ذلك فى بعض الاحيان على الاقل •

واستأنفت ناتاشا تقول وقد وضعت احدى يديها على كتفى ، وشدت بالاخرى على يدى ، وهى تبحث عن عينى بنظرة متملقة :

ـ لا يا فانيا ، اسمع ، لقـد بدا لى خفيفا مسرفاً فى الخفـة • كان يصطنع هيئة زوج ، هيئة رجل متزوج منذ عشر سنين ، وما يزال لطيفا مع زوجته • ألم يبكر فى هذا ؟ •• كان يضحك ، ويدور على رجل واحدة ، كأن هذا كله لايخصنى أنا الا قليلاً ، وكان يتعجل الذهاب الى كاترين فيدوروفنا • كنت أكلمه ، فلا يصغى الى ، أو يأخذ بالكلام •• آه من تلك العادة السيئة المألوفة فى المجتمع الراقى ، التى حاولنا كلانا أن

نخلصه منها • الخلاصة ، لقد كان •• قليل المبالاة • اذا صح التعبير • ولكن ماذا أقول ! هاءنا ذا أندفع ! آه ما أقسى مطالبنا جميعا ، يا فانيا •• اننا لطغاة ذوو نزوات ! انني أدرك ذلك الآن ! اننا لانغفر مجرد تغير يطرأ على الوجه •• ويعلم الله لماذا يكون الوجه قد تغير ! كنت على حق حين لمتني منذ قليل ! الذنب فى ذلك كله ذنبى أنا • اننا نخلق لأنفسنا أحزانا وأشجانا ، ونظل نشكو ونتوجع •• شكرا يا فانيا ، لقد أحسنت الى حقا • يا ليته يجيء اليوم ! ولكن •• لعله استاء مما وقع !

ـ ماذا ؟ هل تشاجرتما ؟

قلت ذلك مشدوها •

ـ لا ، أبداً ، ولكننى كنت حزينة قليلاً ، وكان هو مرحا ، فاذا هو يسترسل فى الوجوم على حين فجأة • وخيل الى انه ودعنى وداعا جافا • ولكننى سأرسل فى طلبه •• تعال انت أيضا يا فانيا •

ـ سأجيء طبعا ، الا ان يمنعنى عن ذلك شيء •

ـ أى شيء ؟

ـ لقد أقحمت نفسى فى بعض الامور ! ولكننى آمل أن أستطيع المجيء •

الفصل السابع

وصلت الى منزل ماسلوبويف فى الساعةالسابعة تماما • انه يقطن جناحا من عمارة صغيرة فى شارع «الدكاكين الست » • بيتــه ثلاث حجرات ليست على شيء من النظافة ، ولكنها حسنة الاثاث ، حتى ان المرء يلاحظ فيها بعض ثراء ، ويلاحظ فى الوقت نفسه اهمالا شديدا • فتحت لى الباب فتاة جميلة جدا تناهز العشرين من عمرها ، كانت ترتدى ثيــابا بسيطة ولكنها أنيقة ، ونظيفة كل النظافة ، وفى عينيها مرح •

حزرت على الفور انها هى نفسها الكسندرا سيمينوفنا ، تلك التى اسمعنى ماسلوبويف اسمها ودعانى الى زيارته للتعرف بها • سألتنى من أكون ، فلما عرفت اسمي قالت ان ماسلوبويف كان ينتظرنى ، الا انه الآن نائم فى غرفته • وقادتنى الى الغرفة • كان ماسلوبويف راقداً على أريكة جميلة وثيرة ، ملتحفا معطفه الوسخ ، وتحت رأسه مخدة جلدية خلقة • كان نائما نوما خفيفا جدا ، فما ان دخلنا الغرفة ، حتى نادانى باسمى :

ـ هذا انت ! كنت أحلم الآن انك وصلت وانك توقظنى • اذن لقد أزف الوقت • هيا بنا •

ـ الى أين ؟

ـ الى تلك السيدة ؟

ـ أى سيدة ؟ لماذا ؟

ـ السيدة بوبنوفا •• لكي ••

ثم تابع يقول وهو يلتفت نحو الكسندرا سيمينوفنا ، ويقبّل أطراف أصابعه على ذكر السيدة بوبنوفا :

ـ يا لها من امرأة جميلة رائعة !

فقالت الكسندرا سيمينوفنا ، وهي تحسب ان من واجبها أن تغضب بعض الغضب :

ـ هو ذا يذهب •• وما أكثر ما سيتخيل أيضا !

ـ أنتما لايعرف أحدكما الآخر ؟ يا الكسندرا سيمينوفنا ، أقدم لك جنرالاً من جنرالات الادب الذين لايراهم المرء مجانا الا مرة واحدة في السنة ، اما فيما عدا ذلك فلابد له أن يدفع أجراً •

ـ أتظنني غبية الى هذا الحد ؟ لاتستمع الى ما يقول ، أرجوك • انه يسخر مني دائما • عن أي جنرالات يتحدث !

ـ قلت لك انهم جنرالات من نوع خاص • اما أنت ، يا صاحبة السعادة ، فلا تظني انك غبية• انت أذكى كثيراً مما تظهرين أول وهلة•

ـ لا تصغ الى مايقول • انه يخجلني دائما أمام الناس المحترمين ، هذا الوقح ، ليته على الاقل ، يأخذني الى المسرح من حين الى حين !

ـ الكسندرا سيمينوفنا ، احبي الـ •• هل نسيت ما الذي يجب أن تحبيه ؟ هل نسيت الكلمة الصغيرة التي علمتك اياها ؟

ـ طبعا لم أنسها •• كلمة سخيفة •

ـ ماهي اذن ؟

ـ أموت خجلا اذا نطقت بها أمام ضيف •• فقد تعني شيئا أفضّل أن يُقطع لساني على أن أقولها •

ـ اذن لقد نسيتها !

ـ لا ، لم أنسها : انها كلمة صوامع ! أحبى الصوامع •• ما أكثر مايخترع من ألفاظ ! الصوامع ! لعلها لم توجد يوما •• ولماذا يجب على المرء أن يحبها ؟ انه لا يقول الا سخافات ••

ـ ولا كذلك عند السيدة بوبنوفا ••

ـ اذهب انت وصاحبتك بوبنوفا !

قالت الكسندرا سيمينوفنا ذلك ، ثم خرجت راكضة ، وقد استبد بها مزيد من الحنق :

ـ آن الاوان •• هيا بنا •• الى اللقاء يا الكسندرا سيمينوفنا •

وخرجنا •

ـ أولاً ، يا فانيا ، سنركب هذه العربة ؛ وثانياً يجب أن أقول انني بعد أن تركتك منذ قليل ، عرفت أيضا أمراً أو أمرين ، ليسا من نوع الافتراضات بل هما من الوقائع الصحيحة • لقد بقيت فى فاسيلى أو ستروف ساعة أخرى • ان ذلك الرجل المنفوخ شخص حقير فظيع ، يثير الاشمئزاز ، صاحب نزوات دنيئة وميول منحطة • وبوبنوفا عُرفت منذ مدة طويلة بأعمال ومكائد من هذا النوع • وقد أوشكت ، ذات يوم ، أن يُقبض عليها فى أمر فتاة تنتمى الى أسرة ذات شأن • ان أثواب الموسلين التى ألبستها لليتيمة (كما وصفت لى ذلك منذ قليل) لم تطلعنى على شىء جديد • سمعت شيئاً من هذا القبيل من قبل • ولقد حصلت منذ لحظة على بعض المعلومات •• حصلت على هذه المعلومات مصادفة ، والحق يقال ، ولكنها تبدو لى صحيحة • ما عمر الصبية ؟ •

ـ ثلاث عشرة سنة ، فيما يبدو من وجهها •

ـ وأقل من ذلك فيما يبدو من جسمها ؟ هذا مايراه المرء فيها •

وتستطيع بوبنوفا أن تزعم ان سنها احدى عشرة سنة أو خمس عشر سنة، تبعاً للحاجات • والصبية بلا حام يحميها ، بلا أسرة تعولها ، فيمكن ••

ــ أهذا ممكن ؟

ــ ماذا تظن اذن ؟ لعلك تحسب أن السيدة بوبنوفا قد حضنت الصبية شفقةً عليها ورحمة بها ؟ اذا كان المنفوخ قد سار الى البيت ، فمعنى ذلك ان القضية قد دُبرت • لقد رآها هذا الصباح • وُعد ذلك الجلف سيزوبريوخوف بامرأة متزوجة ، هي امرأة موظف برتبة كولونيل أركان حرب • ان ابناء التجار الذين يلهون يهمهم هذا الامر : انهم يسألون دائما عن الرتبة • كما في قواعد اللغة اللاتينية ، هل تتذكر ؟ الدلالة تغلب الاعراب • على كل حال ، أظن اننى مازلت سكران • تلك هى اذن بوبنوفا • اياك أن تحشر نفسك فى مثل هذه الامور •• انها تريد أن تهزأ بالبوليس • ولكنها تخاف منى أنا ، لانها تعرف ان لى ذاكرة قوية ••• هل تفهمنى ؟

أثر فىَّ هذا الكلام تأثيراً رهيباً ، وأسلمتنى هذه الأنباء لاضطراب شديد • وخشيت أن نصل متأخرين ، فاستعجلت الحوذى • قال ماسلوبويف :

ــ لا تقلق : لقد اتخذنا اجراءاتنا • ان متروشكا هناك ، سيدفع له سيزوبريوخوف من ماله ، وسيدفع له المنفوخ ، ذلك الحقير ، من جسمه • لقد استقر رأينا على هذا منذ قليل • أما بوبنوفا ، فهى من شأنى أنا •

وصلنا ، ووقفنا عند المطعم • لكن الرجل الذى يطلق عليه اسم متروشكا لم يكن هنالك • وبعد أن أمرنا الحوذى بأن ينتظرنا عند الرصيف، مضينا الى بيت بوبنوفا • كان متروشكا ينتظرنا عند الباب • وكانت أنوار ساطعة تخرج من النوافذ ، وكانت ضحكات سيزوبريوخوف المخمورة تُسمع من خارج •

قال لنا متروشكا :

ـ انهم جميعاً هنا منذ ربع ساعة • الآن اللحظة الفاصلة •

قلت :

ـ ولكن كيف ندخل ؟

فأجاب ماسلوبويف :

ـ ندخل ضيوفاً مدعوِّين • انها تعرفني • وهي تعرف أيضاً متروشكا •• صحيح ان كل شيء مغلق ، ولكنه ليس مغلقاً دوننا نحن •

وطرق طرقاً خفيفاً فاذا الباب يُفتح حالاً • وتبادل البواب ومتروشكا نظرة خاطفة • ودخلنا بلا ضوضاء • لم يسمعنا أحد • وقادنا البواب الى سلم صغير وطرق باباً ، فنودي من الداخل ، فأجاب بأنه وحده ،ففُتح الباب ، ودخلنا جميعاً ، وغاب البواب •

كانت بوبنوفا تقف في حجرة المدخل الصغيرة ، ثملةً خليعة مكشوفة النحر ، وفي يدها شمعة • فقالت :

ـ من هناك ؟

فأجاب ماسلوبويف :

ـ من ؟ كيف هذا ؟ أتنكرين ضيوفك الاعزاء يا آنا تريفونوفنا ؟ من عسى يكون هناك غيرنا ؟ •• فيليب فيليبتش •

ـ ها ، فيليب فيليبتش ! هذا انتم أيها الضيوف الاعزاء •• ولكن كيف •• أنا •• لاشيء .. تعال من هنا ، أرجوك •

لقد اضطربت أشد الاضطراب ، وطاش صوابها تماماً •

ـ من أين ؟ هنا حاجز •• لا ، سوف تستقبليننا استقبالاً أحسن من ذلك • سنشرب شامبانيا •• هل ثمة بنات جميلات ؟

فما سمعت هذا الكلام حتى استردت شجاعتها ، وقالت :

ـ لضيوف أعزاء مثلكم أبحث عن بنات تحت الارض ، أجيء بهن من الصين •

ـ سؤال يا آنا تريفونوفنا ، هل سيزوبريوخوف هنا ؟

ـ ن ••• عم •

ـ أريد أن أراه • كيف يجرؤ هذا الخبيث أن يلهو دون أن أكون معـه ؟

ـ لا شك انه ما نسيك • لقد كان ينتظر شخصاً هو انت حتما !

ودفع ماسلوبويف الباب ، فاذا نحن فى حجرة صغيرة ذات نافذتين مزينتين بالغرانيون ، وفيها كراسٍ مضفورة وبيانو ردىء •• كل ما كان يجب • ولكن متروشكا كان قد اختفى من قبل أن ندخل ، أى أثنـاء التفاوض فى حجرة المدخل • وعرفت بعد ذلك انه لم يدخل ، وانما انتظر على الباب • كان عليه أن يفتح الباب لقادم • اتضح ان المرأة الشعثاء المخضبة التى نظرت فى هذا الصـباح من فوق كتف بوبنوفا هى اشبينة متروشكا •

كان سيزوبريوخوف جالساً على أريكة ضيقة من خشب الكابلى ، أمام مائدة مسـتديرة مفروشـة بغطاء • وكان على المائدة زجاجتان من الشمبانيا ، وزجاجة من ردىء الروم ، وصحون فيها سكاكر وفطائر وثلاثة أنواع من الجوز • وكانت تجلس الى المائدة أمام سيزوبريوخوف امرأة دميمة تثير الاشمئزاز ، مجدورة الوجه ، فى نحو الاربعين من العمـر ، ترتدى ثوبا من التفتا الأسـود ، وتحمل فى معصميها أساور من نحاس • انها امـرأة الكولونيل أركان حـرب ، من قبيل التزوير طبعـاً ، وكان سيزوبريوخوف ثملاً ، راضياً كل الرضى ، ولم يـكن رفيقه السـمين هناك •

تبعَّق ماسلوبويف يقول :

ـ هكذا يتصرفون ! ويدعونك أيضاً الى دوسو !

فدمدم سيزوبريوخوف يقول وهو ينهض للقائنا دمثاً رقيق الحاشية :

ـ ما أسعدنا بك يا فيليب فيليبيتش •

ـ أأنت تشرب ؟

ـ نعم ، معذرة •

ـ لا تعتذر • الاولى أن تدعونا • فانما جئنا لنلهو معك بعض الوقت• أنظر ، لقد جئت بضيف آخر : صديق •

وسمَّانى ماسلوبويف •

ـ سعيد بمعرفتك •• هأ !

ـ أهذه شمبانيا ! انها أشبه بحساء الكرنب الحامز !

ـ انت تهيننا !

ـ لقد بلغت من الامر انك أصبحت لا تجرؤ على الظهور عند دوسو •• وتدعو الناس أيضاً !

قالت امرأة الكولونيل :

ـ لقد ذكر لى منذ لحظة انه كان بباريز • لا شك انه يمزح !

ـ فيدوسيا تيتشنا ، لا تجرحينا بكلامك • لقد ذهبنا حقاً الى باريز ، قمنا برحلة الى باريز •

ـ فلاح كهذا ، يذهب الى باريز •

ـ لقد ذهبنا الى باريز • كنا نملك الوسيلة لذلك • وتميزنا هنالك مع كارب فاسيليتش • هل تعرفين كارب فاسيلتش ؟

ـ لماذا تريد أن أعرف صاحبك كارب فاسيلتش •

ـ هكذا•• ان لهذا علاقته بالسياسة• لقد ذهبنا معه الى مدام جوبير. وكسرنا هنالك مرآة كبيرة •

ـ ماذا كسرتم ؟

ـ مرآة كبيرة . كانت تغطي الحائط كله ، وترتفع حتى السقف ؛ كان كارب فاسيليتش قد بلغ من السكر انه أخذ يتحدث الى مدام جوبير بالروسية ، وكان واقفاً الى جانب المرآة ، فاتكأ عليها ، فصرخت مدام جوبير تقول له بلغتها : « ان ثمن المرآة سبعمائة فرنك .. وأنت توشك أن تكسرها » فأخذ يضحك ، ونظر الىّ ، وكنت جالساً أمامه على أريكة ، وكان معي امرأة جميلة رائعة الجمال ، لا امرأة سكيرة دميمة كهذه . وأخذ يصرخ : « ستيفان تيرنتش ، هه .. ستيفان تيرنتش ! أأنت مبسوط ؟» فقلت : «نعم أنا مبسوط». فضرب المرآة بقبضتيه الكبيرتين... زننن....فلم يبق منها الا حطام. فأخذت مدام جوبير تصرخ، وهجمت عليه ، وأمسكت بخناقه : « أيها اللص ، ماذا دهاك ، ماجئت تفعل هنا ؟ » (قالت ذلك بلغتهم أيضاً) . فما كان منه الا أن أجابها بقوله : « مدام جوبير خذى المال الذى تريدين ، ودعيني أتصرف كما يشاء لى هواى » ، ونقدها على الفور ستمائة وخمسين روبلاً ، أى حصلنا على تخفيض مقداره خمسون فرنكاً .

في هذه اللحظة دوّى وراء عدة أبواب ، في غرفة لا شك ان حجرتين او ثلاث حجرات تفصلها عن غرفتنا ، دوّى صوت حاد رهيب ، فما ان سمعتُه حتى ارتعشت ارتعاشاً قوياً ، وصرخت انا أيضاً . انه صوت هيلين . وبعد هذه الصرخة الحزينة ، سمعنا صرخات اخرى ، وشتائم ، وجلبة ، ثم سمعنا فرقعة صفعات واضحة رنانة . لعله متروشكا يقتص من غريمه . وفتح الباب ، فجأة ، بقوة وعنف ، وظهرت هيلين ممتقعة اللون ، مضطربة العينين، مرتدية ثوباً من الموسلين ابيض متجعداً متمزقاً ، منفوشة الشعر بعد تصفيف ، واسرعت تدخل الغرفة . كنت جالسا امام

الباب فارتمت عليّ ، وأحاطتني بذراعيها• فنهض جميع من بالغرفة واقفين وقد أحسوا بالخطر • وقد سمعنا مع دخـول هيلين قرقعات وصرخات ، وظهر في اثرها متروشكا عند الباب يشد عدوه السمين من شعره ، ويظل يجره الى ان وصل به العتبة ، ثم رماه في الغرفة • قال متروشكا بلهجة يشيع فيها كثير من السرور والرضى :

ـ هذا هو ، خذوه •

فقال لي ماسلوبويف ، وهو يقترب مني بهدوء ، ويربت على كتفي :

ـ اسمع ، خذ العربة ، وامض بالصغيرة ، وعد الى بيتك • لم يبق لك ما تعمله هنا • وسنصفي باقي الحساب غداً •

لم انتظر ان يكرر كلامه مرة أخرى ، فأمسكت بيد هيلين ،وخرجت بها من هذه المغارة ، ولم اعرف ما الذي وقع بعد ذلك • ولم يمنعنا احد من الخروج ، فلقد كانت صاحبة البيت مصـــعوقة من الخوف ، وتمت الامور كلها بسرعة كبيرة ، فلم يبق مجال لان يعترض سبيلنا معترض • وكان الحوذي ينتظرنا ، فما مضت عشرون دقيقة حتى كنا في بيتي •

كانت هيلين أقرب الى الموت منها الى الحياة ، ففككت عـرى ثوبهـا ورششتها بالماء ، ومددتها على اريكتي • وانتابتها الحمى ، واخذت تهذي • ونظرت الى وجهها الصغير المتقع لونه ، والى شـفتيها الذاويتين ، والى شعرها الأسود ، والى زينتها كلها ، الى العقد الصغيرة من الشريط الوردي التي بقيت هنا وهناك على ثوبهـا ، نظرت الى كل ذلك ففهمت الحكاية الفظيعة كلها • مسكينة ! وكانت حالتها تسوء شيئاً فشيئاً ، فلم اتركها ، وقررت ان لا اذهب الى ناتاشا في ذلك المساء • كانت هيلين ترفع هدبيها الطويلين المقوسين ، من حين الى حين ، تحدق اليّ ، كأنها تريد أن تعرف من أنا ، ثم نامت في ساعة متأخرة من الليل ، في الساعة الواحدة بعـد منتصف الليل • وغفوت أنا قريباً منها على الأرض •

الفصل الثامن

نهضت من نومى فى ساعة مبكرة من الصباح • وكنت أستيقظ كل نصف ساعة فأقترب من المريضة المسكينة ، وأتفرس فيها • كانت محمومة ، وكانت تهذى قليلا • ولكنها نامت عند الصبح نوما عميقا • قلت فى نفسى : ان نومها هذا يبشر بخير ، ولكننى ما ان استيقظت حتى قررت ان أمضى باحثاً عن طبيب ،بينما المسكينة ماتزال نائمة • كنت اعرف احد الاطباء ، وهو عجوز عازب ، لكنه رجل شهم ، يعيش فى شارع فلاديمير ، منذ زمان سحيق ، مع خادم ألمانية • ذهبت اليه ، فوعد أن يجىء فى الساعة العاشرة ، وكنت قد وصلت اليه فى الثامنة• كانت بى رغبة جارفة فى أن أصعد أثناء عودتى الى بيت ماسلوبويف، ولكننى عدلت عن هذه الرغبة : فلابد ان ماسلوبويف مايزال نائماً بعد سهرة البارحة ، كما أن هيلين يمكن ان تستيقظ اثناء ذلك ، وقد تشعر بالخوف اذ تجد نفسها وحيدة فى بيتى • وقد تنسى ، وهى فيما هى فيه من مرض ، متى نامت عندى وكيف ؟

واستيقظت هيلين فى اللحظة التى دخلت فيها الى الغرفة ، فاقتربت منها ، وسألتها عن حالها بكثير من الرفق ، فلم تجب ، بل نظرت الىّ طويلا ، وهى تتفرس فىّ بعينيها السوداوين المعبرتين • واعتقدت من نظرتها هذه أنها تفهم كل شىء ، وانها تملك وعيها كاملا ، وأنها اذا لم تجبنى ، فلأن هذه عادتها • انها ، أمس وأول أمس ، حين جاءت الىّ ،

لم تجب أيضاً بحرف واحد على بعض أسئلتى ، وانما رشقتنى بنظرتها هذه الثابتة العنيدة التى تدل على الاضطراب والتساؤل والكبرياء فى آن واحد ، وقد رأيت الآن فى نظرتها شيئاً من القسوة ونوعاً من سوء الظن . فوضعت يدى على جبينها لأرى أما تزال محمومة ، ولكنها دفعت يدى عنها برفق ، دون ان تقول كلمة واحدة ، والتفتت نحو الحائط ، فابتعدت حتى لا أزعجها .

كان عندى غلاية للشاى نحاسية ، اتخذها سماور منذ مدة طويلة ، وأغلى فيها الماء . وكان عندى حطب ، فان البواب قد أتانى بحطب يكفى خمسة ايام أو ستة . فأشعلت المدفأة ، وجئت بماء ، ووضعت الغلاية على النار ، ورتبت ادوات الشاى على المائدة . وكانت هيلين قد التفتت نحوى واخذت تنظر الى هذا كله متطلعة ، فسألتها هل ترغب فى شىء ، فاشاحت عنى مرة اخرى ولم تجب بكلمة .

قلت فى نفسى : « ترى لماذا هى حانقة علىّ ؟ يا لها من بنية غريبة الاطوار ! » .

وجاء طبيبى العجوز فى الساعة العاشرة ، كما وعد بذلك . ففحص المريضة بكل ما أوتى من دقة ألمانية ، ثم طمأننى بقوله انه ما من خطر يُخشى ، رغم الحمى ، وأضاف الى ذلك ان البنت ربما كانت مصابة بمرض آخر مزمن ، لعله خفقان فى القلب ، و« لكن هذه النقطة فى حاجة الى ملاحظات خاصة ، ولا خطر الآن » . وأمر لها بشراب وسفوف ، من قبيل العادة لا الضرورة ، ثم لم يلبث أن سألنى من اين لى بهذه البنت ، واخذ فى الوقت نفسه ينظر فى بيتى دهشاً . لقد كان الطبيب العجوز يحب الثرثرة كل الحب .

وقد أدهشته هيلين : سحبت يدها من يده حين كان يجس نبضها ،

ورفضت ان تريه لسانها ، ولم تجب على اسئلته بكلمة واحدة ، واكتفت بأن تتأمل ، طوال الوقت ، صليب القديس ستانسلاس الذى كان يتدلى من عنقه ٠

قال العجوز :

ـ لا بد انها عانت صداعاً شديداً ٠ ولكن انظر كيف تحدق فىّ ، أنظر كيف تحدق فىّ !

ورأيت من غير المفيد أن أقص عليه شيئاً عن هيلين ، وتملصت من الموضوع بقولى : هذه قصة طويلة ٠

قال وهو يخرج :

ـ استدعنى اذا اقتضى الأمر ، أما الآن فلا خطر ٠

وقررت ان أبقى النهار كله مع هيلين ، وان لا أدعها وحدها الا فى الضرورة القصوى ، الى ان تبلّ من مرضها ٠ لكننى ، وانا اعرف أن ناتاشا وآنا آندريفنا يمكن أن تقلقا أشـد القلق اذا انتظرتانى ولم أجىء اليهما ، قررت أن أبلغ ناتاشا أننى لن أوافيها هذا اليوم ٠ ولم يكن من الضرورى أن أكتب الى آنا آندريفنا ، فقد طلبت الىّ مرة ألا أبعث اليها برسائل أبداً ، منذ كتبت اليها أنبئها بمرض ناتاشا ٠ لقد قالت لى يومئذ : « ان العجوز سيزداد عناداً اذا رأى رسالة منك ٠ سيحترق المسكين شوقاً الى معرفة ماتتضمنه الرسالة ، ولكنه لن يستطيع أن يسألنى فى ذلك ، لن يجرؤ على هذا ٠ وسيظل مضطرباً نهاره كله ٠ أضف الى ذلك يا عزيزى انك بالرسالة لاتزيد على أن تثيرنى ٠ هل تكفينى عشرة أسطر ؟ اننى أريد أن أطرح عليك أسئلة تتعلق بالتفاصيل فما أجدك أمامى ! » لذلك لم أكتب الا الى ناتاشا ، وأودعت الرسالة صـندوقَ البريد فى طـريقى الى الصيدلية ٠

نامت هيلين أثناء ذلك ، وكانت فى نومها تتأوه تأوهاً رفيقاً ، وترتعش

من حين الى حين . لقد أصاب الطبيب في تقديره ، فانها تعاني آلاماً شديدة في الرأس . وكانت في بعض الاحيان تطلق صرخات صغيرة ، وتستيقظ من نومها وتنظر الىّ نظرة عداوة ، كأن عنايتي بها تؤلمها كثيراً . وينبغي أن أعترف ان ذلك كان يحز في نفسي .

وصل ماسلوبويف في الساعة الحادية عشرة . كانت تبدو عليه أمارات الهم والذهول ، ولقد دخل يقول انه لن يمكث الا دقيقة واحدة . كان يستعجل الخروج . قال وهو ينظر حوله :

ـ أيها الاخ ، ماكنت أنتظر أن يكون منزلك واسع الثراء طبعاً ، ولكنني ماكنت أتوقع أيضاً أن أراك تسكن في علبة . ان مسكنك هذا علبة وليس ببيت . ولنسلم على كل حال بان هذا الامر ليس له من قيمة .. ان الشيء الخطير هو ان هذه المشاغل الكثيرة الاضافية تصرفك عن عملك . لقد فكرت في ذلك أمس ، ونحن ذاهبان الى بوبنوفا . ها أنت ذا ترى ، أيها الاخ ، انني بطبيعتي وبوضعي الاجتماعي من أولئك الناس الذين لايعملون شيئاً مفيداً ، ولكنهم يعظون غيرهم . اسمع : ربما أتيت اليك غداً أو بعد غد . وعليك انت ، على كل حال ، ان توافينني صباح يوم الاحد . والى أن يحين ذلك الوقت تكون قصة الصغيرة قد سويت تماماً ، فيما أرجو ، وسنتحدث يومئذ حديثاً جدياً ، ذلك ان من الضروري أن نعنى بامرك عناية جدية . لا يستطيع امرؤ أن يعيش كما تعيش . لقد اكتفيت أمس باشارات سقتها على سبيل التلميح ، ولكنني سأناقشك بعد الآن مناقشة منطقية . قل لي أخيراً : هل تعتقد ان من العار عليك أن تقترض مني بعض المال الى حين ؟

فقلت أقاطعه :

ـ لا تشاجرني الآن ، بل قل لي كيف انتهى الامر أمس !

ـ على ماتحب ، لقد بلغنا هدفنا ، هل تفهمني ؟ ولست أملك الآن

برهةً من الوقت ، وانما جئت اليك لحظةً لاقول لك ان وقتى لا يتسع الآن للاهتمام بأمرك ، ولأسألك أتريد أن تعهد بالصبية الى أحد ، أم تريد الاحتفاظ بها فى بيتك . ذلك ان من الضرورى أن نفكر فى هذا الامر ، وأن نتخذ بصدده قرارا .

ـ لا أعرف ذلك بعد . والحق اننى كنت أنتظرك لاسألك رأيك . أى عذر يمكن أحتج به لاحتفظ بها فى منزلى ؟

ـ الامر سهل . تستطيع أن تحتفظ بها ، كخادمة مثلاً ..

ـ اخفض صوتك ، أرجوك ، فهى على مرضها تملك وعيها كاملاً ، وقد لاحظتُ انها ارتعشت حين رأتك . فهى تتذكر اذن ماوقع البارحة .

وهنا حدثته عن طبع هيلين ، وذكرت له كل ما لاحظته فيها ، فكان يهتم بكلامى . وأضفت الى ذلك اننى قد أعهد بها الى بيتٍ أعرفه ، وقلت له بضع كلمات عن صاحبىَّ العجوزين ، فما كان أشد دهشتى حين علمت انه يعرف شيئاً من قصة ناتاشا ، حتى اذا سألته : «ومن أين عرفت هذا؟» أجاب بقوله :

ـ عرضاً ... عرفته منذ مدة طويلة بمناسبة عمل من الاعمال . لقد ذكرت لك اننى أعرف الامير فالكوفسكى . انها لفكرة حسنة ان ترسل الصبية الى هذين العجوزين ، والا فان وجودها معك لابد أن يزعجك . ثم هناك شىء آخر : لابد للطفلة من أوراق . ولكن لاتحفل بهذا الامر ، فسأتولاه أنا . الى اللقاء . تعال الىَّ كثيراً . هل هى نائمة الآن ؟

ـ أظن .

ولكن ما ان خرج حتى نادتنى هيلين ، وسألتنى :

ـ من هذا ؟

كان صوتها يرتعش ، ولكنها لا تزال ترشقنى بتلك النظرة العنيدة المتكبرة نفسها . لا أستطيع أن أستعمل ألفاظاً أخرى .

ذكرت لها اسم ماسلوبويف ، وأضفت الى ذلك اننى بفضله انما استطعت أن أنتزعها من بوبنوفا ، لان بوبنوفا تخشى بأسه كثيراً • فاحمر خداها فجأة ، ولاشك ان ذلك يرجع الى انها تذكرت الماضى • فسألتنى هيلين وهى تنظر الىَّ نظرة فاحصة :

ــ ولن تجىء بعد الآن أبداً الى هنا ؟

فأسرعت أطمئنها ، فصمتت ، وتناولت يدى بأصابعها المحترقة ، ولكنها سرعان ما تركتها كأنها غيرت رأيها • قلت فى نفسى : يستحيل أن تشعر نحوى بمثل هذا النفور • ولكن هذه هى طريقتها فى السلوك •• أو •• ان المسكينة قد عانت فى حياتها من ألوان الشقاء ما أفقدها ثقتها بأى انسان •

وفى الموعد المعين ذهبت الى الصيدلية لآتى بالدواء ، ودخلت فى الوقت نفسه الى مطعم كنت فى بعض الاحيان أتعشى فيه أحياناً دَيْناً • وكنت قد حملت معى من البيت اناء ، فطلبت من المطعم شيئاً من مرق الدجاج لهيلين • ولكنها رفضت أن تأكل شيئاً ، وظل الحساء على المدفأة •

وبعد أن جرعتها دواءها ، أخذتُ أعمل • كنت أظن انها نائمة ، ولكننى حين نظرت اليها فجأة رأيت انها كانت قد انهضت رأسها وراحت تتابع حركاتى بانتباه ، فتظاهرت باننى لم ألاحظها • وحين نامت آخر الامر نوماً هادئاً ، دون هذيان ودون تأوه ، على دهشتى من ذلك ، شعرت بارتباك كبير : ان ناتاشا التى تجهل سبب غيابى عنها ، يمكن أن تغضب منى أشد الغضب لتخلفى عن المجىء اليها فى هذا اليوم ، بل سوف تشعر حتماً بطعنة تصيب كرامتها من اهمالى اياها فى هذه اللحظة التى لعلها أحرج لحظة تحتاج فيها الىَّ • وقد تعرض لها هموم جديدة ، وربما كانت تريد أن تعهد الىَّ بعمل من الأعمال ، فاذا هى تتلفت حولها فلا تجدنى ، كأننى غبت عنها على عمد !

أما آنا آندريفنا فلم أكن أعرف أبداً كيف أعتذر لها فى الغد •

وفكرت في الامر طويلاً ، ثم قررت فجأة أن أركض اليهما كليهما ، قائلا في نفسي : قد لا أغيب أكثر من ساعتين ، وهيلين نائمــة ، ولن تشــعر بخروجي • ونهضت فجأة ، فدسست معطفي ، وتناولت قبعتي ، حتى اذا هممت بالخروج ، سمعت صوتها يناديني على حين بغتة • استغربت ذلك : أكانت تتظاهر اذن بانها نائمة ؟

يجب أن أقول بهذه المناسبة ان ماكانت توجهه الى من نداء في كثير من الاحيان ، وما كانت تشعر به من حاجة الى اطلاعي على حيرتها ، كان يدل على انها تريد أن تكلمني ، رغم ان هيئتها تشير الى غير ذلك ، وكان هذا يسرني كثيراً •

سألتني وأنا أقترب منها :

ـ أين تريد أن تضعني ؟

لقد كانت في أكثر الاحيان تطرح أسئلتها على حين غرة ، بطريقة ليست في الحسبان ، حتى انني في هذه المرة لم أفهمها على الفور •

وأضافت تقول :

ـ قلتَ لصديقك منذ قليل انك تريد أن تضعني في بيت من البيوت• لا أريد أن أذهب الى أي مكان •

انحنيت عليها ، فلاحظت ان حرارة محرقة قد عادت فانتابتها • فأخذت أطمئنها ، ووعدتها بانني لن أرسلها الى أحد اذا كانت تريد أن تبقى معي • قلت لها ذلك ، وخلعت معطفي وقبعتي ، لانني لم أستطع أن أقرر تركها وهي في مثل هذه الحالة • فقالت وقد أدركت انني أريد البقاء :

ـ بل اذهب • انني أريد أن أنام ، وسأنام فوراً •

فقلت متردداً :

ـ ولكنك لاتستطيعين أن تبقي وحدك ! على انني ان ذهبت فسأعود حتماً بعد ساعتين ••

ـ اذن فاذهب • أئذا مرضتُ أنا سنةً كاملة ، بقيتَ انت فى البيت سنةً كاملة لاتخرج •

وحاولت أن تبتسم ، ورشقتنى بنظرة غريبة ، كأنها تكافح عاطفة طيبة تتكلم فى قلبها • مسكينة هذه الطفلة ! ان قلبها الرقيق الكريم يتكشف على حقيقته رغم ماتشعر به نحو الناس من كره ، ورغم مايبدو عليها من مظاهر القسوة •

أسرعت أولاً الى آنا آندريفنا • كانت تنتظرنى على أحر من الجمر ، واستقبلتنى باللوم والتقريع • كانت قلقة أشد القلق : لقد خرج نيقولا سرجتش بعد العشاء فوراً ، ولا يعرف أحد الى أين ذهب • أدركت ان العجوز لم تستطع أن تكتم الامر ، فقصت عليه كل شيء ، تلميحاً ، على عادتها • بل انها اعترفت لى بذلك تقريباً ، فقالت انها لم تتحمل ألا تشركه فى فرحة كبيرة كهذه الفرحة ، ولكن نيقولا سرجتش أصبح بعد سماع كلامها قاتماً كغيوم العواصف ، على حد تعبيرها ، ولم ينبس بحرف واحد (« لم يفتح شفتيه ولا أجاب على أسئلتى ») ، وخرج من البيت فجأة ، بعد العشاء • كانت آنا آندريفنا تقص علىَّ ذلك وهى ترتعش خوفا ، وتوسلت الىَّ أن أنتظر معها نيقولا سرجتش • فاعتذرت عن ذلك ، وقلت لها، دون مراعاة، اننى قد لا أجيء اليها فىالغد أيضا، واننى ماجئت اليوم الا لأبلغها ذلك• فكدنا نتشاجر، وانفجرت باكية ، ووجهت الىَّ لوماً حاداً مراً ، فلما تجاوزت الباب للخروج ارتمت على عنقى ، وشدتنى اليها بذراعيها ورجتنى ألا أغضب منها هى « اليتيمة » ، وألا يسوءنى كلامها •

وذهبت الى ناتاشا فوجدتها وحدها ، على خلاف ما كنت أتوقع ؛ والشيء الغريب اننى لم ألاحظ انها سُرت بمقدمى كما سرت به أمس ، وكما تسر به عامةً فى سائر الأيام ، حتى لكأن مجيئى أزعجها • وسألتها

هل جاءها أليوشا اليوم ، فأجابت بانه جاء ولم يمكث الا قليلا ، وأضافت الى ذلك ، مترددةً ، انه قد يمر بها في المساء •

ـ والبارحة ؟

ـ لا • لم يجيء • منعته بعض الظروف من المجيء •

قالت ذلك بسرعة ، ثم أضافت تسألني :

ـ وانت يا فانيا كيف تجرى شئونك ؟

لاحظت انها تريد أن نقف حديثنا عند هذا الحد ، وأن ننتقل الى موضوع آخر ، وأنعمت النظر فيها ، فرأيت انهـا في حالة من اليأس • وحين لاحظت انني أتفرس فيها ، رشقتني بنظرة سريعة مفاجئة أحسست كأنها جمرة تحرقني • قلت في نفسي : لا شك ان هناك شيئاً جديداً لا تريد ان تتحدث فيه •

وأجبتها على سؤالها ، فقصصت عليها حكاية هيلين تفصيلاً ، فاهتمت بالأمر اهتماماً شديداً ، وأُخذت بالقصة أخذاً قوياً ، وهتفت تقول :

ـ وكيف استطعت أن تتركها ؟

فذكرت انني لم أكن أنوى المجيء اليها ، ولكنني خشيت أن تغضب منى ، وقدرت انها قد تكون في حاجة الىَّ •

فقالت كأنها تخاطب نفسها وهي تفكر :

ـ في حاجة اليك ! حقاً يا فانيا ، قد أكون في حاجة اليك ، ولكن الافضل أن نرجيء هذا الامر الى مرة أخرى • هل زرتهم ؟

فقصصت عليها ماجرى • فقالت :

ـ نعم • لا أدرى كيف يمكن أن يستقبل أبي هذه الانباء •• ولكن على كل حال ، ماقيمة هذا كله ! ••

ـ كيف تقولين ماقيمة هذا كله ؟ كيف تستخفين هذا الاستخفاف بتبدل كبير كهذا التبدل !

ـ نعم •• ولكن أين ذهب هذه المرة ؟ لقد ظننت في المرة الماضية انه جاء الىّ • اسمع يا فانيا ، تعال الىّ غداً ، ان استطعت• قد تكون هنالك أمور يجب أن أفضى بها اليك • ولكن يسوءنى أن أقلق راحتك • والآن ينبغى لك أن تعود الى مريضتك • لقد تركتَها منذ ساعتين •

ـ طيب • الى اللقاء يا ناتاشا • كيف كان سلوك أليوشا معك اليوم ؟

ـ أليوشا •• لا جديد •• انى لاستغرب سؤالك •

ـ الى اللقاء يا صديقى •

ـ وداعاً •

قالت ذلك ومدّت الىّ يدها فى اهمال ، وأدارت وجهها بعد نظرة الوداع فتركتها دهشاً بعض الدهشة • ولكننى قلت فى نفسى : لابد ان هناك أمراً آخر تفكر فيه• ان المسألة خطيرة • وستقص علىّ غداً كل شىء من تلقاء نفسها •

وعدت الى بيتى حزيناً ، فما كان أشد تأثرى حين اجتزت العتبة فرأيت هيلين جالسة على الاريكة ، وقد انحنت برأسها على صدرها ، كأنها فى حلم عميق • لم تنظر الىّ ، حتى لكأنها غائبة عن وعيها• فاقتربت منها، فسمعتها تدمدم بكلام • قلت فى نفسى : أهى تهذى ؟ وسألتها وأنا أجلس الى جانبها وأطوق جسمها بذراعى :

ـ هيلين ، صغيرتى ، مابك يا هيلين ؟

ـ أريد أن أذهب ، أفضل أن أذهب اليها •

قالت ذلك دون أن ترفع رأسها •

فسألتها دهشاً :

ـ أين ؟ الى من ؟

ـ اليها ، الى بوبنوفا • تقول اننى مدينة لها بمال كثير ، تقول انها

تولت الانفاق على دفن أمي •• وأنا لا أريد أن تهين أمي •• سأعمل عندها سدادا لدين أمي • وبعدئذ أتركها • أما الآن فأريد أن أعود اليها •

ـ هدئي نفسك يا هيلين • لاتستطيعين أن تذهبي اليها • ستعذبك ، ستضيعك •

فقالت هيلين في حرارة :

ـ فلتضيعني ، فلتعذبني • لست أول بنت تتعذب • هناك بنات أخريات ، بنات أفضل مني ، يتعذبن أيضاً • قالت لي ذلك شحاذة في الشارع • أنا فقيرة ، وأريد أن أكون فقيرة • سأظل فقيرة طوال حياتي • هذا ما أمرتني به أمي وهي تموت • سأعمل • لا أريد أن أرتدي هذا الثوب •

ـ غداً اشتري لك ثوباً آخر • وسآتيك بكتب • ستعيشين معي • لن اضعك عند احد ، اذا كنت لا تريدين ذلك • هدئي نفسك •

ـ سأشتغل عاملة •

ـ طيب • طيب • هدئي نفسك الآن • تمددي • نامي •

ولكن الطفلة المسكينة أخذت تبكي ، وشيئاً فشيئاً صارت دموعها الى نحيب • واحترت ماذا أفعل • وجئت بماء فبللت به صدغيها وجبينها • تهالكت أخيراً على الأريكة ، خائرة القوى ، وعاودتها رعشات الحمّى ، فغطيتها بما وجدته امامي ، ونامت ، لكن نومها كان مضطرباً مرتعشاً ،فكانت تستيقظ في كل لحظة • وكنت انا اشعر بتعب شديد ، رغم انني لم أمش في ذلك اليوم كثيرا ، وقررت ان أسرع الى النوم • كانت تدوى في رأسي افكار قلقة أليمة • كنت أحس ان هذه البنية ستسبب لي متاعب كثيرة • ولكن ناتاشا هي التي كان يقلقني أمرها خاصة • اني لأدرك اليوم انني قلما عانيت حالة نفسية مظلمة كتلك التي عانيتها قبل ان انام في تلك الليلة الشقية •

الفصل التاسع

استيقظت من نومي متأخراً ، في نحو العاشرة من الضحى، فوجدتني مريضاً • كان بي دوار وصداع • ونظرت الى سرير هيلين فوجدته خاليا • وفي الوقت نفسه سمعت من الغرفة اليمنى صوتاً كأنه صوت تنظيف البلاط ، فخرجت ، فاذا هيلين تكنس الأرض ، وقد رفعت باحدى يديها ثوبها الأنيق الذي لم تخلعه منذ الليلة البارحة ، ووجدت الحطب مكدساً في أحد أركان الغرفة ، ورأيت المائدة منظفة ، والغلاية ممسوحة • كانت هيلين تقوم اذن بأعمال المنزل •

هتفتُ بها قائلا :

ـ اسمعي يا هيلين ، من قال لك ان تكنسي الارض ؟ لا أريد منك هذا • أنت مريضة • هل جئت اليّ خادمة !

فأجابت بقولها ، وهي تنهض وتنظر الي :

ـ من يكنس اذن ؟ لست الآن مريضة •

ـ ولكنني ما أخذتك لتعملي • لكأنك تخافين ان ألومك ، كما لامتك بوبنوفا ، على انك تعيشين في بيتي عالةً عليّ ؟

قلت لها ذلك ثم أضفت وأنا أنظر اليها دهشاً :

ـ ومن اين أتيت بهذه المكنسة النظيفة ؟ لم يكن عندي مكنسة !

ـ هي لي •• أنا اتيت بها الى هنا • كنت اكنس الأرض لجدي• وقد بقيت المكنسة منذ ذلك الوقت هناك ، تحت المدفأة •

وعدت الى غرفتي مطرقاً افكر : بدا لي ، وقد اكون على خطأ ، ان ضيافتي لها كانت تثقل عليها ، وانها تريد ان تبرهن لي ، بكل الوسائل ، على انها لا تقيم عندي مجاناً • قلت لنفسي : اذا صح هذا فما أغرب هذا الطبع في شدة تأذيه ! وما انقضى على ذلك دقيقتان او ثلاث دقائق حتى دخلت الغرفة ، وجلست صامتة في المكان الذي جلست فيه بالامس ، على الأريكة ، تنظر الىّ نظرة فاحصة • كنت أثناء ذلك قد سخنت الماء ، وأضفت اليه الشاي ، فصببت قدحاً ، ومددته اليها مع قطعة من الخبز الابيض ، فتناولت الشاي والخبز صامتة دون ان تحتج • لقد انقضى يوم كامل لم تأكل خلاله شيئاً البتة •

قلت لها وقد لاحظت أخدوداً أسود في أسفل تنورتها :

ـ وسخت ثوبك الجميل •

فبحثت عن الموضع الموسخ ، ثم اذا بها ، فجأة ، على دهشة مني ، تدع قدحها جانباً ، وتمسك بكلتا يديها حافة تنورة الموسلين الجميلة ، في بطء وهدوء ، وتشقها بحركة واحدة من اسفلها الى اعلاها • ثم ترفع الىّ ، دون أن تقول كلمة واحدة ، نظرتها العنيدة اللامعة • انها ممتقعة اللون •

هتفت مقتنعاً بأنني امام مجنونة :

ـ ماتصنعين ياهيلين ؟

فقالت وهي تكاد تختنق من شدة الانفعال :

ـ هذا ثوب حقير • لماذا قلت انه ثوب جميل ؟

وصرخت تقول فجأة وهي تنهض :

ـ لا احب ان ارتديه • اريد ان امزقه • انا لم اطلب اليها ان تجملني بهذا الثوب • لقد ألبستينه عنوة • مزقت قبله ثوبا آخر ، وسأمزق هذا أيضاً ، سأمزقه ، سأمزقه ! ••

وانقضت على الثوب الشقي فى حنق ما بعده حنق ، فما هى الا طرفة عين حتى كان الثوب مزقاً• فلما فرغت من ذلك ، كانت قد بلغت من شدة الشحوب انها لاتكاد تستطيع ان تستوى على قدميها • وتأملت هذه الضرواة كلها مشدوهاً • أما هى فكانت تنظر الىّ نظرة الاستفزاز كأنني أنا أيضاً مذنب فى حقها • ولكنني كنت اعرف في هذه المرة ما الذى بقي ان افعله •

قررت دون ابطاء ، ان اشترى لها ثوباً جديداً في هذا الصباح نفسه• ان على المرء ان يعامل هذا المخلوق المتوحش النزق برفق • لكأنها لم تلق فى حياتها أناساً ذوى شهامة • اذا كانت قد مزقت ثوبها الاول اربا رغم العقوبة القاسية ، فلاشك انها تنظر فى كثير من الحنق الى هذا الثوب الثانى الذى يذكرها بلحظة قريبة العهد فظيعة !

كان فى وسع المرء ان يجد لدى بائع الرثاث ثوباً بسيطاً جميلا ، بسعر زهيد • وانما المصيبة انى كنت فى تلك اللحظة لا أكاد املك شروى نقير • ولكنني كنت قد قررت فى الليلة البارحة ، قبل ان انام ، ان امضى اليوم الى مكان آمل ان احصل منه على مال ، فعزمت ان اتجه الآن الى ذلك المكان ، فتناولت قبعتى ، وكانت هيلين تلاحظنى فى كثير من الانتباه ، كأنها تنتظر شيئاً ، فلما أخذت المفتاح لأغلق باب المنزل ورائى ، كما فعلت أمس واول امس ، سألتنى :

ـ هل تحبسنى أيضاً ؟

فقلت لها وانا اعود اليها :

لا تغضبى يا بنيتى • فانما اغلق الباب خشية أن يدخل عليك احد •

وانت الآن مريضة ، فقد تخافين . ولا يدرى الا الله من عسى يجيء ...
قد ترتئى بوبنوفا أن ...

قلت لها ذلك عامداً ، وانما كنت احبسها لانني اشك فيها ، ولانني اقدّر ان فكرة الهروب قد تراودها على حين غرة . فقررت ان أحتاط . لزمت هيلين الصمت . وحبستها هذه المرة ايضاً .

كنت اعرف ناشراً شرع منذ اكثر من سنتين فى نشر مؤلف يضم عدداً كبيراً من المجلدات ، وقد سبق ان وجدت لديه عملاً مرات كثيرة ، وذلك حين اكون فى حاجة الى كسب سريع ، وكان دقيقاً فى معاملته لا يتأخر عن الدفع ، فذهبت اليه ، فأسلفنى خمسة وعشرين روبلا عن مقالٍ وعدته بتقديمه فى بحر الاسبوع. وكنت آمل ان اختلس بعض الوقت لروايتى . ذلك ما كنت أفعله كثيراً حين تلح عليّ الحاجة.

فما ان حصلت على المال حتى ذهبت الى سوق الرثاث ، فوجدت هنالك بائعة عجوزاً اعرفها ، تبيع جميع انواع الثياب والاثاث ، فوصفت لها قامة هيلين ، فما هى الا لحظة حتى اخرجت لى ثوباً هندياً صغيراً ذا ألوان زاهرة ، متيناً ، لم يُغسل الا مرة واحدة ، زهيدَ الثمن . فاشتريته واشتريت منديلاً للعنق أيضا . وقد تذكرت وانا ادفع الثمن ان هيلين فى حاجة الى فروة او معطف او ما يشبه ذلك ، فالجو بارد وليس لها ما يقيها البرد . ولكننى أرجأت شراء مثل هذا الى مرة اخرى ، فان هيلين سريعة التأذى شديدة الكبرياء . وليس يعلم الا الله كيف تستقبل هذا الثوب ، رغم اننى تعمدت ان يكون بسيطاً غاية البساطة محتشماً كل الاحتشام فهو ثوب عادى من اكثر الاثواب شيوعاً ، واشتريت لها عدا ذلك زوجين من جوارب القطن وزوجين آخرين من جوارب الصوف ، وقلت اننى استطيع ان اقدمها لها متذرعاً بأنها مريضة وبأن جو الغرفة بارد شديد البرودة . وكانت فى حاجة أيضاً الى ملابس داخلية . ولكننى

أرجأت شراء ذلك الى وقت يزداد فيه تعارفنا • واشتريت فى مقابل هذا أغطية قديمة للسرير ، وهى اشياء لا بد منها ، وقد تسر هيلين كثيراً •

وعدت الى البيت حاملاً اشيائى ، فى الساعة الواحدة بعد الظهر • وكان قفل البيت ينفتح بلا جلبة ، فلم تشعر هيلين بدخولى فوراً • فرأيتها واقفة على مقربة من منضدتى تقلب كتبى وأوراقى • فلما سمعتنى أسرعت فطوت الكتاب الذى كانت تقرؤه ، وابتعدت عن المنضدة وقد احمر وجهها • فألقيت نظرة سريعة على الكتاب • انه احدى النسخ الخاصة من روايتى الاولى ، عليها اسمى بخط عريض تحت عنوان الكتاب •

قالت لى هيلين بلهجة مناكدة :

ــ طرق احدهم اثناء غيابك ، وسألنى لماذا أقفلت علىّ الباب •

ــ لعله الطبيب • ألم يكلمك يا هيلين ؟

ــ لا •

لم أجب ، بل فضضت الرزمة ، وسللت منها الثوب الذى اشتريته ، فقلت لها وانا اقترب منها :

ــ اسمعى يا صغيرتى هيلين • لا يمكن ان تستمرى على ارتداء اسمال ممزقة ، لذلك اشتريت لك ثوباً مما يُلبس كل يوم ، ثوبا زهيد الثمن ، فلا تقلقى • انه لم يكلفنى الا روبلا واحداً وعشرين كوبكاً • البسيه ، ارجوك •

ووضعت الثوب الى جانبها • فاحمر وجهها احمراراً شديداً ، وجعلت تحدق فىّ تحديقاً قوياً •

كانت فى دهشة كبيرة ، وبدا لى فى الوقت نفسه أنها خجلى • الا ان شيئاً رقيقا ناعما قد اشرق فى نظرتها• فلما رأيت انها صامتة لا تجيب ، عدت الى قرب المائدة • كان واضحاً ان عملى قد فجأها • ولكنها جهدت ان تسيطر على نفسها ، وخفضت عينيها •

كان بى دوار وصداع ما ينفكان فى ازدياد ، فان الهواء الطلق لم يخفف منهما شيئاً • وكان علىّ رغم ذلك ان اذهب الى ناتاشا • فان قلقى عليها لم يقلّ عن البارحة بل ازداد • وأحسست فجأة ان هيلين تنادينى ، فالتفت نحوها ، فقالت لى وهى تنظر الى جانب ، وتلفف طرف الاريكة كأنها مستغرقة فى هذا العمل :

ـ اذا ذهبت فلا تغلق علىّ الباب • لن اهرب •

ـ طيب يا هيلين • انا آقبل • ولكن ما عساك فاعلة اذا جاء احد ؟ لا يعلم الا الله ما قد يقع !

اذن فاترك لى المفتاح أغلق الباب من الداخل ، فاذا طرق طارق قلت له انك لست فى البيت •

قالت ذلك ورشقتنى بنظرة متخابثة كأنها لتقول : « هذا ما يُفعل ، ببساطة ! » • ثم سألتنى فجأة قبل أن استطيع اجابتها :

ـ من يغسل لك ملابسك ؟

ـ امرأة هنا فى البيت •

ـ أنا اعرف أن اغسل • وأين أكلت امس ؟

ـ فى المطعم •

ـ أنا اعرف ايضاً ان اطبخ • سأهيىء لك طعامك •

ـ ماذا تعرفين اعداده من طعام ؟ ما اظنك جادة فيما تقولين •

فسكتت وغضت طرفها • كان واضحاً أن ملاحظتى قد آذتها • وانقضى على ذلك عشرة دقائق فى اقل تقدير ، لم ينبس احد منا خلالها بكلمة • وفجأة ، قالت دون ان ترفع رأسها :

ـ استطيع ان أهيىء لك حساء •

فسألتها دهشا :

ـ حساء ؟ أي حساء ؟

ـ اعرف كيف تهيأ الحساء • كنت اصنع منها لأمي حين كانت مريضة • وكنت اذهب الى السوق ايضا •

فقلت لها وانا اقترب منها واجلس الى جانبها على الاريكة :

ـ اسمعي يا هيلين • ما هذه الكبرياء ! انني أعمل ما يمليه عليه قلبي • فأنت ابنة وحيدة ، ليس لك اهل ، انت صبية شقية ، وانا أريد ان أساعدك ، وستساعدينني انت ايضاً حين احتاج الى دلك • ولكنك لاتريدين ان تفكري في الامر على هذا النحو ، فيعز عليك ان تقبلي مني أية هدية ، وتريدين أن تردي الي الجميل فوراً ، تريدين أن تدفعي ثمن معونتي عملاً تقومين به ، كأنك تحسبين انني بوبنوفا ، وكأنني لمتك على شيء • عيب يا هيلين ان تفكري هذا التفكير •

فلم تجب هيلين ، وكانت شفتاها ترتعشان • كان يبدو انها تريد ان تقول شيئاً ، ولكنها حبست لسانها وصمتت • ونهضتُ لاذهب الى ناتاشا• وتركت لها المفتاح هذه المرة ، ورجوتها أن ترد على من قد يطرق الباب ، وان تسأله عن اسمه • كنت على يقين من ان امراً خطيرا قد وقع لناتاشا ، وانها تخفي عني هذا الامر ، كما اتفق ان فعلت ذلك غير مرة • وقد قررتُ على كل حال ان لا ادخل عليها الا دقيقة واحدة حتى لا ازعجها بزيارة في غير اوانها •

وهذا ما تم • فاستقبلتني ناتاشا بنظرة قاسية ساخطة • وكان ينبغي ان ارحل فوراً ، لكن ساقيّ ضعفتا عن ذلك • بدأت قائلاً :

ـ انما جئت اليك لحظةً يا ناتاشا ، أريد أن أسألك النصح : ماعساي فاعلاً بهذه البنية ؟

وقصصت عليها كل ما يتصل بهيلين قصاً سريعاً، فاصغت الى كلامى حتى النهاية دون ان تقول شيئاً ، فلما انتهيتُ قالت :

ـ لا ادرى بم انصحك . ان كل شيء يدل على ان هـذه الصبية مخلوقة غريبة. لعلها تحملت كثيراً من الاذى ، فأصبحت شديدة الوجل. دعها تسترد عافيتها . هل تنوى ان ترسلها الى بيتنا ؟

ـ تقول انها لا تريد ان تترك منزلى . ثم اننى لا اعرف كيف يمكن ان يستقبلوها هناك . لذلك تريننى حائراً لا ادرى ماذا افعل .

قلت هذا ثم سألتها خجلاً :

ـ ولكن انت ، انت كيف حالك ؟ كان يبدو عليك الالم بالامس !

فأجابت ذاهلةً :

ـ نعم ، والى اليوم ما يزال بى صداع . هل رأيت أحدا من اهلى .

ـ لا . ولكننى سأذهب اليهم غداً .. وغداً هو يوم السبت ..

ـ يعنى ؟

ـ الامير سيأتى مساء غد ..

ـ ما نسيت ذلك .

ـ صحيح ، ولكننى قلت هذا هكذا .

وتوقفت امامى تماماً ، وحدّقت فىّ طويلا . كان يلوح فى عينيها تصميم عنيد . كان هناك ما يحرقها حرقاً .

ـ سأقول له شيئاً يافانيا : ارجوك ان تدعنى ، فانك تزعجنى كثيراً.

نهضت من مكانى ، ونظرت اليها بدهشة يعجز اللسان عن وصفها. ثم صرخت مذعوراً :

ـ ناتاشا ، ما بك يا عزيزتى . ما الذى حدث ؟

ـ لم يحدث شيء ، ستعرف غداً كل شيء ، كل شيء • اما الآن فأريد ان أكون وحدى • اسمع يا فانيا • اذهب حالاً • تؤلمنى رؤيتك الآن ، تؤلمنى جداً !

ـ ولكن قولى لى ، على الاقل ••

ـ غداً تعرف كل شيء • أوه ! لماذا لا تذهب ؟

وخرجت • كنت مصعوقاً حتى لكأننى فقدت الوعي • ووثبت علىّ مافرا عند المدخل ، تسألنى :

ـ أهى غاضبة ؟ اننى لا أجرؤ على الاقتراب منها •

ـ ماذا بها ؟

ـ الذى بها أن صاحبنا لم يأت منذ يومين •

فسألتها دهشاً :

ـ كيف ؟ لقد ذكرت انه جاء اليها امس صباحا وانه ينوى ان يعود فى المساء •

ـ غير صحيح • لم يأت صباح أمس •

انه غاب منذ اول امس • هل قالت لك انه جاء صباح أمس !

ـ نعم •

ـ معنى ذلك ان الامر يقلقها ، ما دامت ترفض حتى ان تعترف لك بأنه لم يجيء • يا له من رجل ذى مروءة حقا !

هتفت اقول :

ـ ولكن ما معنى هذا ؟

فأجابت مافرا وهى تباعد ذراعيها :

ـ معناه انني لا اعرف ماذا اصنع بها • لقد امرتني امس ان اذهب اليه ، ثم استوقفتني ، ثم أمرتني ، ثم استوقفتني • وها هي ذي اليوم تأبى حتى ان تكلمني • ينبغي لك ان تمضي اليه • اما أنا فلا أجرؤ ان ادعها وحدها •

فأسرعت اهبط السلم • وصرخت مارفا سائلة :

ـ هل تأتي في هذا المساء ؟

فأجبتها دون ان اتوقف :

ـ سنعرف ذلك هناك • وقد آتي لاسـألك عما تم في الامر ، اذا بقيت على قيد الحياة •

احسست ان طعنة قد نفذت في قلبي حقاً •

الفصل العاشر

ذهبت رأسا الى أليوشا ، وكان يسكن عند أبيه ، فى مورسكايا الصغيرة • كان للاب شقة كبيرة ، رغم انه يعيش وحده ، وكان اليوشا يحتل فى هذه الشقة حجرتين كبيرتين جميلتين • لم يسبق لى ان ذهبت اليه الا مرة واحدة ، فيما أظن ، قبل ذلك اليوم • أما هو فكان يأتى الىّ من حين الى حين ، وكان يكثر من زيارتى ، فى أول الأمر خاصة ، أى فى الأوقات الأولى من صلته بناتاشا •

لم أجد اليوشا فى البيت ، فمضيت الى غرفته رأسا ، وكتبت له هذه الكلمة :

« يظهر يا أليوشا أنك قد فقدت صوابك • فى مساء يوم الثلاثاء ، حين تقدم ابوك نفسه الى ناتاشا يسألها ان تشرفك بقبولك زوجاً لها ، كنت أنت سعيداً جداً بهذا الطلب ؛ لقد شهدت ذلك بنفسى ، فلا بد أن تعترف اذن بأن سلوكك الآن غريب بعض الغرابة • هل تدرك ما تصنعه بناتاشا ؟ مهما يكن من أمر ، فان كلمتى هذه ستذكرك بأن تصرفك مع زوجتك المقبلة تصرف شائن لا يليق بك ، تصرف طائش الى أبعد حدود الطيش • أنا أعلم أن ليس لى عليك حق النصح ، ولكن هذا لا يهمنى البتة » •

« حاشية : انها لا تعرف شيئا عن هذه الرسالة ، بل انها لم تحدثنى عنك بكلمة واحدة » •

وغلفت الرسالة وتركتها على المنضدة • وحين سألت الخادم عن اليوشا اجابني بأن الكسى بتروفتش لا يكاد يجيء الى البيت ، وانه لن يعود الا في نحو الصباح •

وقفلت راجعاً الى بيتي أجرُّ قدمي جراً من شدة الاعياء • كان رأسي يدور ، وكانت ساقاي تصطكان • فلما وصلت ، وجدت الباب مفتوحا ، ووجدت نيقولا سرجتش في انتظاري • كان جالسا على مقربة من المنضدة ، ينظر الى هيلين دهشا دون ان ينبس بكلمة واحدة ، وكانت تنظر اليه هي أيضا بدهشة لا تقل عن دهشته ، صامتةً مصرة على الصمت، فقلت في نفسي : « لا بد انها تبدو له غريبة شاذة » •

قال حين رآني :

ـ انا هنا منذ ساعة •

ثم اضاف يقول ، وهو يلف الغرفة بنظرة سريعة ، ويغمز بعينه غمزة خفيفة لا تدرك ، متجها نحو هيلين :

ـ واعترف انني لم اكن اتوقع ان اجدك هكذا ••

كانت عيناه تعبران عن الدهشة ، ولكنني حين انعمت النظر فيه لاحظت انه حزين قلق • لقد كان وجهه اشد شحوبا مما عهدته فيه من شحوب •

واستأنف يقول بلهجة ممزقة :

ـ اجلس ، اجلس • لقد اسرعت اليك ، لان ثمة امراً خطيراً يجب ان ابوح به لك • ولكن ما بك ؟ ليس وجهك وجه انسان ••

ـ صحتي سيئة • رأسي يدور منذ الصباح •

ـ يجب أن تحترس . يجب أن لا تهمل هـذا الامر . لعل برداً اصابك ؟

ـ لا .. هى نوبة عصبية . يقع لى ذلك من حين الى حين . وانت كيف حالك ؟

ـ بخير . حالة قلق . هذا كل ما فى الامر. لقد وقع شيء ، اجلس.

فقربت كرسياً وجلست الى المنضدة امامه . فمال العجوز نحوى ، وأخذ يقول بصوت خفيض :

ـ انتبه ، لا تنظر اليها ، ولنتظاهر بأننا نتحدث فى أمر آخر . من هذه الصبية ؟

ـ سأبسط لك امرها فيما بعد يا نيقولا سرجتش . انها بنية فقيرة ، يتيمة الأبوين . هى حفيدة سميث الذى كان يسكن هنا ، ومات فى المقهى.

ـ ها .. كان له اذن حفيدة ! يا لهـا من فتاة غريبة . انها تنظر نظرة عجيبة ! أصارحك بأنك لو تأخرت خمس دقائق أخرى لما بقيت . لم تسمح لى بالدخول الا فى كثير من العناء ، ثم لم تفتح فاها أبداً . انها خائفة . لكأنها ليست بانسان .. وما الذى جاء بها اليك ؟ ها .. نعم .. فهمت ، لا شك انها جاءت لترى جدها جاهلةً انه مات .

ـ نعم . لقد كانت شقية جداً . وقد تحـدث عنها العجـوز وهو يحتضر .

ـ هم .. ما أشبه الحفيدة بالجد . ستحدثنى عن هذا كله فيما بعد ، ولعلنا نستطع ان نساعدها اذا كانت شقية ذلك الشقاء كله .. والآن ألا يمكننا ان نطلب اليها الانصراف ؟ اننى اريد ان أكلمك فى أمر هام .

ـ ولكنها لا تستطيع أن تذهب الى أى مكان . انها تسكن هنا .

وشرحت للعجوز مااستطعت ان اشرحه بكلمتين ، واضفت الى ذلك أننا نستطيع ان نتحدث امامها ، لانها طفلة •

ـ نعم ، طبعا ، طفلة • ولكنني لم افهم الى الآن يا عزيزتي • هي تسكن معك ؟ يا الهي ، يا رب !••

ونظر اليها العجوز مرة اخرى دهشاً •

لقد احست هيلين ان الحديث يدور عليها ، فظلت جالسةً لا تنطق بكلمة ، وقد خفضت رأسها وراحت تنسّل حاشية الأريكة • كانت قد ارتدت ثوبها الجديد الذي ناسبها كثيراً ، وعنيت بتصفيف شعرها بعض العناية ، ولعلها فعلت هذا احتفالاً بثوبها الجديد ، وتكريماً له • فلولا ما في نظرتها من غرابة وحشية لكانت على الجملة فتاة حلوة •

واستأنف العجوز يقول :

ـ سأوجز الامر يا عزيزي ، وسأحاول الدقة والوضوح • اليك المسألة : انها قصة طويلة ، وقضية خطيرة ••

كان العجوز غاضاً طرفه ، وكان يرين على وجهه الجدُّ والقلق ؛ ورغم استعجاله ، ورغم « ايجازه » و « دقته » و « وضوحه » ، كان لا يعرف من اين يبدأ • قلت لنفسي : « ما عساي سامعاً الليلة ؟•• » •

ـ انظر يا فانيا ، لقد جئت أطلب اليك أمراً خطيراً • ولكن قبل ذلك •• اظن ان عليّ ان اشرح لك بعض الملابسات •• الدقيقة جداً •

ثم سعل والقى عليّ نظرة مختلسة ، ثم احمرّ وجهه ، ثم غضب من نفسه وحنق على ما يعوزه من حضور البديهة •

ـ ولكن ماذا اشرح لك ! ستفهم الامر من تلقاء نفسك • المسألة

كلها هى اننى سأطلب الامير للمبارزة ، واريد منك ان تهيىء الامر وان تكون شاهدى .

فما سمعت هذا الكلام حتى انقلبت على ظهر الكرسى ، ونظرت اليه وقد اخذ منى الانشداه كل مأخذ .

ـ لماذا تنظر الىّ هكذا ؟ انا لست مجنوناً .

ـ ولكن اسمح لى يا نيقولا سرجتش . بأية حجة تطلبه للمبارزة ؟ ولاى غرض ؟ ثم هل يمكن ...

فصرخ العجوز يقول :

ـ اى حجة ؟ اى غرض ؟ شيء عظيم !...

ـ نعم ، نعم ، أنا أعرف ما ستقول ، ولكن فيم يفيدنا هذا الانفجار؟ وما الذى نخرج به من هذه المبارزة ؟ انا لا افهم ، اعترف لك بذلك .

ـ لقد قدرت انك لن تفهم . اسمع . ان قضيتنا قد انتهت (أى انها ستنتهى فى غضون ايام قليلة ، فلم يبق الا الاجراءات الشكلية) ، ولقد خسرت القضية .. يجب ان ادفع عشرة آلاف روبل . هذا ماقررته المحكمة . واخمينيفكا هى الضمان . ومعنى ذلك ان هذا الجرو واثق من انه سيقبض المبلغ . وانا اذ اتنازل له عن اخمينيفكا ، اسدد دينى واصبح غريباً عنه ، فاستطيع ان ارفع الآن رأسى ، وان اقول له : « ايها الامير المحترم ، لقد ظللت تهيننى سنتين كاملتين ، لوثت اسمى ، ولطخت شرف اسرتى ، وكان لا بد من احتمال ذلك كله ! كنت لا استطيع ان ادعوك الى النزال . لأننى لو فعلت لأجبتنى بقولك دون أن تنزعج : « يا لك من رجل محتال ، تريد أن تقتلنى حتى تتخلص من دفع المال الذى سيُحكم به عليك ، آجلاً أو عاجلاً . لا ، لا . فلننظر أولا ما ستؤول اليه القضية ، ثم تدعونى الى المبارزة » ؟ اما الآن ، ايها الامير النبيل ، فقد

فصلت المحكمة في القضية ، وربحتَ انت الدعوى ، ولم يبق ثمة مايحول دون نزالنا ، فهيَّا الحق بي الى السهل » .

هذه هي المسألة . أليس من حقي في رأيك ان اثأر لنفسي من كل شيء ، من كل شيء ؟

كانت عيناه تلتمعان ، ونظرت اليه طويلاً في صمت . تمنيت أن أصل الى أخفي ما في ضميره ، وقررت أخيراً أن أنطق بالكلمة الأساسية التي ما كان لنا ان نتفاهم بدونها ، فقلت له :

ـ اسمع يا نيقولا سرجتش ، هل تستطيع ان تصدِّقني كل الصدق ؟

فأجاب جازماً :

ـ نعم .

ـ قل لي صراحةً : هل عاطفة الثأر هي التي تحدوك وحدها الى طلب المبارزة ، ام ان لك اهدافاً اخرى ؟

ـ اسمع يا فانيا ، انت تعلم ان هناك اموراً لا اسمح لأحد بأن يمسَّها في الحديث . ولكنني سأشذّ هذه المرة عن القاعدة ، لانك بما لك من بصيرة نافذة قد اردكت فوراً ان من المستحيل تحاشي هذا الموضوع . نعم ، لي هدف آخر ، هو ان انقذ ابنتي التي تسير الى الضياع ، وان احوِّلها عن هذا الطريق المشئوم الذي القتها اليه الأحداث الأخيرة .

ـ ولكن كيف تنقذها هذه المبارزة ؟ ذلك هو السؤال .

ـ بافساد ما يدبرّ هنالك . اسمع . لا تظنن ان العاطفة الابوية لو ضروبا من هذا الضعف هي التي تتحدث فيّ الآن . هذه كلها حماقات! أنا لا أظهر أحداً على قرارة قلبي . وأنت نفسك لا تعرف هذا . ان

ابنتي قد هجرتني ، وتركت بيتي الى عشيقها ، فانتزعتها من قلبي الى الابد ، في ذلك المساء ، هل تتذكر ؟ واذا كنت قد رأيتني اجهش في البكاء منكباً على صورتها ، فليس معنى ذلك انني اريد ان اغفر لها . حتى في تلك اللحظة ، لم اكن أعفو عنها . وانما كنت ابكي سعادتي الذاهبة ، وغرور احلامي ، لم اكن ابكيها هي ، كما هي الآن . وكثيراً ما ابكي في هذه الايام . لست استحي من الاعتراف بأنني احببت ابنتي اكثر من اي شيء في هذا العالم . وقد تقول لي : اذا كان الامر كذلك ، اذا كان لا يعنيك مصير هذه الفتاة التي أصبحت لا تعدُّها ابنتك ، فلماذا تحسر نفسك فيما يدبر هنالك . وجوابي ان ذلك يرجع اولاً الى انني لا احب ان يغلبني هذا الرجل الحقير المحتال ، ويرجع ثانياً الى عاطفة انسانية عادية . فالبنت لا اعدّها بنتي ، ولكن ذلك لا ينفي انها فتاة مخدوعة ، ضعيفة ، عزلاء ، فتاة ما زالوا يغررون بها ، ويمعنون في التغرير بها، الى أن يضيعوها تماما . وانا لا استطيع ان اتدخل في هذا الامر تدخلاً مباشراً ، ولكنني استطيع ان اتدخل فيه تدخلاً غير مباشر ، وذلك بأن اطلب الامير الى النزال . فاذا قتلني ، او سفح دمي ، فلن تسير على جثتي وتتزوج ابن قاتل ابيها ، كابنة ذلك القيصر (تتذكر ذلك الكتاب الذي كان عندنا ، والذي تعلمت فيه القراءة) التي سارت بعربتها على جثة ابيها ؟ واذا قتلته فان اميرنا نفسه سيعدل عن هذا الزواج . وزبدة الامر انني لا أريد أن يتم هذا الزواج ، وسأبذل كل ما أستطيع بذله من جهود لأحول دونه . هل تفهمني الآن ؟

ـ لا ، لا افهمك . اذا كنت تريد سعادة ناتاشا فكيف تقرر ان تحول دون هذا الزواج ، وهو الشيء الوحيد الذي يمكن ان يرد اليها اعتبارها ؟ ان امامها حياة طويلة ، وهي في حاجة الى سمعتها بين الناس.

ـ رأي الناس ! هذا ما ينبغي ان تفكر فيه !!.. يجب ان تشعر

ان اكبر فضيحة تصيبها هي هذا الزواج ، هي هذا الارتباط بأناس ادنياء أراذل • ان أنبل جواب تردُّ به على الناس هي أن تحافظ على كبريائها النبيلة • وقد اقبل يومئذ ان امدَّ اليها يدى ، وسنرى من يجرؤ حينذاك على ان يلوث شرفى •

ادهشتنى هذه المثالية اليائسة • ولكننى ادركت ان الرجل قد خرج عن طوره ، وان اندفاعة الغضب هي التى تملى عليه هذا الكلام • فقلت له :

ـ هذا افراط فى المثالية ، فافراط فى القسوة • انك تطلب منها قوة لعلك لم تهبها لها حين وهبت لها الحياة • هل تظن انها تقبل هذا الزواج لانها تريد ان تصبح اميرة ؟ انها تحب ، وانت تعلم ذلك : انه الهوى ، انه القدر • ثم انك تريد منها ان تحتقر رأى الناس ، مع انك اول من يخضع له • لقد اهانك الامير ، واتهمك على رءوس الاشهاد بانك تريد بالحيلة ولاسباب دنيئة ان ترتبط بأسرته ، وها أنت ذا ترى الآن انها اذا رفضت الزواج من تلقاء نفسها بعد ان تقدموا بطلب يدها ، كانت تنفى التهمة القديمة نفياً واضحاً كاملا • هذا ما تحصل انت عليه : تخضع لرأى الامير ، وتتأدى به الى الاعتراف بخطئه • انك تحترق رغبةً فى الهزء به ، والانتقام منه ، ومن اجل ذلك تضحى بسعادة ابنتك• اليس هذا من الانانية ؟

كان العجوز جالساً ، قاتم الوجه ، مقطب الحاجبين ، وظل مدة طويلة لا يجيب • وقال اخيراً ، والدمع يلتمع فى عينيه :

ـ انت تظلمنى يا فانيا ، اقسم انك لتظلمنى • ولكن دعنا من هذا•

قال ذلك ونهض واقفاً وتناول قبعته ، وأردف يقول :

ـ لا استطيع ان اقلب قلبى امامك • وحسبى ان اقول لك ما يلى :

لقد تحدثتَ منذ لحظة عن سعادة ابنتي • فاعلم اذن انني لا أؤمن بأن ابنتي سعيدة ، بل انها لن تكون سعيدة ابداً ، حتى ولو لم اتدخل •

فهتفت اقول دهشاً :

ـ كيف ؟ لماذا تظن هذا ؟ هل تعرف شيئاً ما ؟

ـ لا ، لا أعرف شيئاً خاصاً • ولكن ذلك الثعلب الخبيث لا يمكن ان يقدم على هذا الامر • ذلك كله مكر • انه فخ • انا مقتنع بذلك ، وسأذكرك بهذا الكلام ، وسترى صدق ما اقول • ثم ان هذا الحقير اذا ارتضى لابنه حقاً ان يتزوجها ، فانما يكون ذلك على اساس خطة يبيتها وحساب يخفيه ، فما يعرفه احد ، فيكون هذا الزواج حلقة من حلقات الخطة ، ورقماً من أرقام الحساب ، وهما خطة وحساب أجهلهما أنا كل الجهل • فاسأل نفسك واحتَكم الى قلبك : هل يمكن ان تكون ابنتي سعيدة بمثل هذا الزواج ؟ ستكون حياتها مع هذا الصبي الذي لا نعرف منذ الآن قيمة ما يشعر به من حب ، سلسلة من المتاعب والمذلة • لسوف يحتقرها متى تزوجها ، ولسوف يصب عليها الوان الأذى والهوان • ولسوف يشتد حبها له وتعلقها به كلما ازدادت عاطفته فتوراً ، وعندئذ تأتي الغيرة ويأتي العذاب والجحيم ، ثم تأتي القطيعة ، وربما الجريمة •• لا ، لا يا فانيا ، اذا كان هذا ما تهيئه وتدفع اليه وتشجع عليه ، فان الله سيسألك عما جنت يداك ، وستندم بعد فوات الاوان ! وداعاً •

فأمسكت به ، ومنعته من الخروج :

ـ اسمع يا نيقولا سرجتش • يجب ان ننتظر • وثق انني لا اتابع هذه القضية وحدي • وقد تنحل من تلقاء ذاتها على خير وجه ، دون عنف ولا تصنع ، كهذا النزال الذي تحدثت عنه • دع الوقت يحل الامر كما لا يحله اي انسان • واسمح لي بعد ذلك ان اقول لك ان ما تفكر فيه لا يمكن تحقيقه • هل تظن ان الامير يقبل منازلتك ؟

ـ ولم لا ؟ ماذا دهاك ؟ هل فقدت صوابك ؟

ـ أؤكد لك انه لن يقبل • وثق انه سيجد المهرب السليم ، وانه سيدبر الامر كله برصانة واستعلاء ، وانه سيجعلك عندئذ موضع الهزء والسخر ••

ـ ارجوك يا عزيزى ارجوك • ان هذا الكلام ليقطع الايدى والأرجل • ولكن كيف يمكن ان لا يقبل النزال • لا ، لا يا فانيا ، انت شاعر ، هذا كل ما فى الامر ، انت شاعر حقاً • اذن ففى رأيك انه سيجد فى منازلتى غضاضة ؟ ولكننى كفء له • اننى عجوز • اننى أب أهين • وأنت كاتب روسى ، أي شخصة محترمة ، ويمكن أن تكون شاهدى •• و •• و •• لست افهم .. ماذا يجب اكثر من هذا ..

ـ سترى • سيعرض من الحجج ما يجعلك اسرع منه الى رفض النزال •

ـ هم ••• طيب يا عزيزى • ليكن الامر كما تشاء • سأنتظر ، ولكن الى حين ، طبعا • لننظر ما يفعل الوقت • ولكن اسمع ياصديقى ، عدنى وعد الحر أنك لن تذكر شيئاً عما جرى بيننا من حديث اليوم ، لا هناك ، ولا لآنا آندريفنا •

ـ لك ما تريد •

ـ ثم يا فانيا ، ارجوك ان لا تحدثنى فى هذا الامر بعد الآن •

ـ أعدك بذلك •

ـ وثمة رجاء أخير : أنا أعرف يا صديقى ان مجيئك الينا يضايقك ، ولكننى ارجوك مع ذلك ان تكثر زياراتك اذا استطعت • ان المسكينة آنا آندريفنا تحبك كثيراً وتضيق اشد الضيق حين لا تأتى اليها •• هل تفهمنى يا فانيا ؟

قال ذلك وشدّ على يدى شداً قوياً ، فوعدته مخلصاً وعدى .

ـ والآن ، يا فانيا ، لى سؤال أخير . هل معك مال ؟

ـ مال ؟

كررت هذه الكلمة دهشاً . فاحمر وجه العجوز وغض طرفه ، وقال :

ـ نعم .. لقد رأيت بيتك ، ورأيت ظروف معيشتك ، فقدرت ان نفقاتك كثيرة (وخاصة الآن) ، فخذ هذه المائة والخمسين روبلاً يا صديقى ، عسى ان تحتاج اليها .

ـ تعطينى مائة وخمسين روبلاً ، عسى ان احتاج اليها .. بعد ان خسرت انت قضيتك ؟

ـ فانيا ، يخيل الىّ انك لا تفهمنى أبداً ! قد تحتاج الى نفقات ليست فى الحسبان ، خذ هذا المبلغ . المال فى بعض الاحوال يتيح للانسان أن ينعم باستقلال شخصيته وحرية رأيه . قد لا تكون الآن فى حاجة الى هذا المال . ولكن ألا ينبغى للمرء ان يفكر فى المستقبل ؟ على كل حال ، سأترك لك هذا المبلغ ، وهو كل ما استطعت ان أجمعه ، فاذا لم تنفقه رددته الىّ . والآن ، وداعاً يا فانيا . ولكن ما بك يا فانيا ؟ ما هذا الشحوب الشديد ؟ لا شك انك مريض ...

لم اجب على كلامه ، واخذت المبلغ . لقد اعطانى هذا المال لسبب واضح كل الوضوح .

وأجبته قائلا :

ـ اننى لا اكاد استطيع الوقوف على قدمى .

ـ لا تهمل نفسك يا فانيا ، لا تهمل نفسك . اياك ان تخرج اليوم

من البيت • سأقول لآنا آندريفنا انك مريض • الا يجب استدعاء طبيب ؟ سآتى اليك غداً ، سأحاول ذلك ، فان حملتنى ساقاى جئت • ويحسن بك الآن ان تنام • الى اللقاء • الى اللقـاء ايتها الصـــغيرة • انظر كيف تشيح بوجهها عنى • اسمع ، يا صديقى ، هذه ايضـاً خمسـة روبلات للصغيرة • لا تقل لها انها منى • ولكن أنفقها عليها وحـدها ؛ اشتر لها حذاء وملابس داخليـة ••• لا شـك ان أشـياء كثيرة تعوزها • وداعاً يا صديقى •

شيعته حتى باب العمارة • وكان لا بد ان ارسل البواب فى شراء شيء من الطعام ، فان هيلين لم تتناول عشاءها •

الفصل الحادي عشر

مازن

عدت الى منزلى حتى أصابنى دوار فوقعت فى وسط الغرفة • لا أتذكر الآن الا صرخة هيلين، وأنها ضربت كفاً بكف ، وهرعت الى لتمسك بى • كانت هذه هى اللحظة الأخيرة التى بقيت فى ذاكرتى •

فلما صحوت من غيبوبتى ، وجدتنى راقداً على السرير • وقد روت لى هيلين فيما بعد انها نقلتنى الى الاريكة بمساعدة البواب الذى جاء يحمل الينا الطعام فى تلك اللحظة • وقد استيقظت عدة مرات ، فكنت فى كل مرة أنظر الى وجه هيلين الصغير مائلاً الىّ ، وقد فاض بمعانى القلق والرحمة • ولكننى اتذكر هذا كله كأنه تم فى حلم ، كأنه ملفع بالضباب ؛ وكان طيف البنية الصغيرة يتراءى لى اثناء غفوتى لطيفاً رشيقاً ، كأننى فى رؤيا ، او كأننى انظر فى لوحة • وكانت تجيئنى بجرعة ماء ، وتنهضنى ، او تظل جالسة قربى ، حزينة ، خائفة ، تلاعب شعرى • واتذكر انها لامست خدى مرة بقبلة • وفى مرة ثانية ، استيقظت فجأة اثناء الليل ، فرأيت فى ضوء شمعة ذابلة على منضدة صغيرة بجانب السرير ، رأيت هيلين قد وضعت رأسها على مخدتى واستغرقت فى نوم خائف وجل وقد انفرجت شفتاها الشاحبتان ، واستراحت يدها على خدها الفاتر • فلما استيقظت بعد ذلك تماماً ، كان الصباح قد طلع ، وكانت الشمعة قد انطفأت ، وكانت اشعة الفجر تتراقص على الجدار ساطعة بلون الارجوان.

كانت هيلين قاعدة على كرسى أمام المنضدة ، وكان رأسها المتعب مستنداً الى ذراعها اليسرى الممتدة على المنضدة ، وهى تغط فى نوم عميق . اذكر انني تأملت وجهها ، فرأيت فيه الطفولة وقد رانت عليها حتى فى النوم معانى الحزن الذي يعانيه الكبار ، ورأيت جمالاً غريباً مريضاً . كان هذا الوجه ذو الأهداب الطويلة المعقوفة ، والخدين الخاسفين ، محفوفاً بشعر اسود كخشب الابنوس ، غزيرٍ معقود على اهمال ، متهدل من جانب . وكانت يدها الاخرى تستريح على مخدتى . فقبلت اليد الصغيرة النحيلة فى رفق ، فلم تستيقظ الطفلة المسكينة ، ولكن بسمة لطيفة طافت على شفتيها الشاحبتين . فتأملتها لحظة طويلة ، ثم نمت نوماً هادئاً مريحاً . وظللت نائماً ، فى هذه المرة ، حتى الظهيرة . فلما استيقظت كنت احس كأنني ابللت من مرضى فلم يبق منه الا شيء من الوهن وشيء من الثقل فى اليدين والذراعين . كنت اصاب قبل ذلك بنوبات عصبية قصيرة ، فانا اعرف هذه النوبات حق المعرفة . وكان المرض لا يدوم فى العادة اكثر من يوم ، ولكن هذا لا ينفى انه قاس عنيف .

كان النهار قد انتصف او كاد . وأول شيء وقع عليه بصرى هو الاغطية التى اشتريتها امس ، وقد شدّتها هيلين على حبل فى ركن ، فهيأت لنفسها فى الغرفة زاوية خاصة بها . ورأيت هيلين جالسة أمام المدفأة تعدّ الشاى ، فلما لاحظت اننى استيقظت أشرق وجهها وأقبلت علىّ بابتسامة فرحة فوراً .

قلت لها وأنا أمسك بيدها :

ــ ياصديقتى الصغيرة ، لقد سهرت علىّ الليل كله . ما كنت اعرف انك نبيلة كل هذا النبل .

فقالت وهى تنظر الىّ وتبتسم لى ابتسامة لطيفة متحابثة خجلى ، ويحمر وجهها وهى تنطق بكلماتها :

ـ وكيف تعرف انني سهرت عليك ؟ ما يدريك انني لم انم طوال الوقت !

ـ لقد استيقظت فرأيت كل شيء • انك لم تنامى الا فى مطلع الصبح •

فقاطعتنى ، كأن مواصلة هذا الحديث تزعجها ، كما يقع ذلك لجميع الذين يتصفون بالحياء ويتميزون بالشرف والاستقامة حين يوجّه اليهم الثناء ، قاطعتنى بقولها :

ـ هل تريد قليلا من الشاى ؟

ـ نعم • ولكن هل تعشيت امس ؟

ـ لم أتعش ، ولكننى تناولت شيئاً من الطعام فى الليل • لقد جاءنى البواب بما كنت فى حاجة اليه • ولكن عليك ان لا تتكلم الآن ، وان تظل راقداً بهدوء •

قالت ذلك ثم اضافت وهى تحمل الىّ الشاى وتجلس على سريرى:

ـ انك لم تُشفَ بعدُ تماماً :

ـ نعم ، سأظل راقداً حتى المساء • ولكن لا بد لى من الخروج بعد ذلك • حقاً لابد لى من الخروج يا هيلين •

ـ هل هذا شيء لا بد منه حقاً ؟ الى من تذهب ؟ الى زائر الأمس ، أليس كذلك ؟

ـ لا •

ـ من حسن الحظ • انه هو الذى اثارك • أذن ستذهب الى ابنته ؟

ـ كيف عرفت ان له ابنة ؟

ـ سمعت كل شيء •

قالت ذلك وغضت طرفهـا ، ثم عـادت الى وجهها مسحة الالم ، وقطبت ما بين حاجبيها ، واردفت تقول :

ـ هذا رجل شرير •

ـ أنت لا تعرفينه • بالعكس ، انه شهم جداً •

ـ لا ، لا ، انه شرير ، لقد سمعت كلامه •

قالت ذلك فى حرارة •

ـ ماذا سمعت ؟

ـ انه لا يريد ان يغفر لابنته ••

ـ ولكنه يحبها • لقد أساءت اليه ، وهو يعانى كثيراً من العـذاب بسببها •

ـ ولماذا لا يصفح عنها ؟ فى رأيى ان على ابنته الآن ان لا تعود اليه، حتى ولو غفر لها •

ـ كيف ؟ لماذا ؟

ـ لأنه لا يستحق ان تحبه ابنته ، فلتهجـره الى الابد ، ولتطلب الصدقات من الناس ، حتى يراها تتسول وتتعذب •

قالت ذلك بحرارة ، وقد التمعت عيناها ، واحمر خداها • فقلت فى نفسى : لا بد ان هنالك سبباً يدفعها الى هذا الرأى دفعاً •

وأردفت بعد فترة من صمت تسألنى :

ـ أفى بيت هذا الرجل كنت تريد ان تضعنى ؟

ـ نعم ، يا هيلين •

ـ أفضّل أن أعمل خادمة •

ـ ما هذا الكلام ياصغيرتى هيلين ؟ ماهذه الحماقة ؟ عند من تريدين ان تعملى خادمة ؟

ـ عند أول فلاح ألقاه •

قالت ذلك ، وقد نفد صبرها ، وظلت خافضة عينيها • كان واضحاً انها حانقة •

فقلت وانا اضحك ضحكة صغيرة :

ـ ولكن الفلاح لا يستفيد من خادمة مثلك •

ـ اذن اعمل عند سادة من علية القوم !

ـ أيمكن لفتاة لها ما لك من طبع ان تقيم مع سادة من علية القوم ؟

ـ نعم •

كان غضبها يشتد ، وكانت أجوبتها تزداد عنفاً •

ـ ولكنك لن تحتملى ذلك •

ـ بل أحتمله • سيؤنبوننى ، فأصمت ، وسيضربوننى، فأظل صامتة، ومهما يضربوننى ، فلن ابكى • وسيزداد غضبهم حين لا أبكى •

ـ ماذا دهاك يا هيلين ؟ انك حادة شديدة الحدة ، متكبرة شديدة الكبرياء ! لا شك أن ذلك يرجع الى انك شقيت كثيراً ••

ونهضت واقتربت من المنضدة الكبيرة ، وظلت هيلين جالسة على الأريكة ، مطرقة الى الارض ، تشدشد الحاشية بأصابعها •

تساءلت بينى وبين نفسى : ترى هل أغضبتها كلماتى ؟

وفتحت الكتب التى اخذتها امس لكتابة المقال ، فتحتها على غير شعور ، فاذا أنا أستغرق فى القراءة شيئاً فشيئاً • ان هذا الأمر ليتفق لى

كثيراً : افتح كتاباً من الكتب وفى نيتى ان اراجع فيه شيئاً من الاشياء خلال دقيقة واحدة ، فاذا انا استرسل ناسياً كل شيء •

سألتني هيلين بابتسامة خجلى وهى تقترب من المنضدة :

ـ ماذا تكتب ؟

ـ اشياء كثيرة يا صغيرتى • اننى اتقاضى على الكتابة أجراً •

ـ هل تكتب عرائض ؟

ـ لا ، لا اكتب عرائض •

وشرحت لها ، ما استطعت الشرح ، أننى اكتب قصصاً مختلفة عن أناس مختلفين ، وأننى أخرج من ذلك بكتب تسمى أقاصيص او روايات• فأصغت الى كلامى بكثير من الاهتمام •

ـ وهل تقول الحقيقة دائماً ؟

ـ لا بل اخترع •

ـ لماذا تكتب أكاذيب •

ـ خذى هذا الكتاب الذى سبق ان رأيته مرة فاقرئيه ، وستفهمين• هل تحسنين القراءة ؟

ـ نعم •

ـ اذن ستفهمين ••• هذا الكتاب انا كتبته •

ـ انت ؟ اذن سأقرؤه ••

لقد كانت فى حاجة شديدة الى ان تقول لى شيئاً ما ، ولكن ذلك كان يزعجها ازعاجا واضحاً ، فكانت مضطربة شديدة الاضطراب • كان ثمة شيء يختفى تحت أسئلتها • وسألتنى اخيرا :

ـ هل الاجر الذى يدفع لك أجر كبير •

ـ يتوقف ذلك على جودة ما اكتب • فان جاء ما اكتبه جيداً نلت عليه أجراً كبيراً ، والا لم انل شيئاً • ان هذا العمل صعب جدا يا هيلين •

ـ لست اذن غنياً ؟

ـ لا •

ـ اذن سأعمل وأساعدك •••

قالت ذلك ورشقتنى بنظرة سريعة ، واحمرت احمراراً سديداً ، ثم خفضت عينيهـا • وما هى الا لحظة حتى اقتـربت منى خطـوتين • وأحاطتنى بذراعيها فجأة ، وشدت وجهها الى صدرى شداً عنيفاً • نظرتُ اليها مشدوها • فقالت :

ـ انا أحبك ••• لست متكبرة • قلت لى امس اننى متكبرة ••• لا ، لا ، هذا غير صحيح ، انا احبك • لم يحببنى احد غيرك •

ولكن الدموع كانت قد خنقت صوتها ، فما هى الا دقيقة ، حتى انفجرت فى بكاء عنيف ، كما وقع لها امس اثناء تلك النوبة الشديدة • ثم ركعت على ركبتيها ، واخذت تقبل يدىَّ ، وتقبل قدمىَّ ••• وهى تسألنى :

ـ هل تحبنى ؟ هل تحبنى ؟ انت الانسان الوحيد الذى احبنى •• الوحيد ••

كانت تشد ركبتى بذراعيها فى تشنج • ان عواطفها التى حبستها مدة طويلة تنفجر الآن انفجاراً عنيفاً لا سبيل الى كبحه ، وفهمتُ عندئذ ذلك العناد الكبير فى قلبها الذى ظل مغلقاً من الخجل الى الآن ، والذى كانت صلابته فى الانغلاق على قدر قوة حاجته الى الانفتاح ، والى التعبير

عمّا فيه من عواطف ، الى ان وقع الانفجار الذى لا بد منه حين يستسلم المرء لهذه الحاجة الى الحب ، والامتنان ، والملاطفة ، والدموع .. استسلاماً ينسى معه نفسه ...

وظلت تبكى الى ان انتهت الى نوبة هسترية . ولم استطع ان اتحلل من ذراعيها اللتين تحيطان بى الا فى كثير من العناء فانهضتها وحملتها الى الاريكة . وظلت تبكى مدة طويلة ، وقد دفنت رأسها بين الوسائد ، كأنها تستحى ان اراها على هذه الحال ، ولكنها كانت تشد يدى بيدها شداً قوياً ، وتحتفظ بها فوق على صدرها .

وهدأت شيئاً فشيئاً ، ولكنها لم ترفع رأسها . واختلست النظر الىّ مرة او مرتين ، فكان فى نظرتها كثير من الرقة ، وكان فيها عاطفة وجلة تخفيها من جديد . وأخيراً احمر وجهها وابتسمت . قلت :

ـ هل تحسنت حالتك ، يا صغيرتى الحسّاسة ، يا ابنتى المريضة ، يا هيلين ؟

فدمدمت تقول وهى تشيح بوجهها عنى مرة اخرى :

ـ يجب أن لا تخاطبنى بهذا الاسم ؟

ـ بأى اسم اخاطبك اذن ؟

ـ باسم نللى .

ـ نللى ؟ لماذا نللى بالذات ؟ لا مانع عندى من ذلك ، فالاسم جميل جداً ، وسأناديك به ، ان شئت .

ـ بهذا الاسم كانت تنادينى امى .. ولم ينادنى به احد غيرها ابداً .. كنت لا اريد ان يخاطبنى احد غيرها بهذا الاسم .. اما انت فاريد ان تسمينى به .. سأحبك دائماً ، دائماً .

قلت فى نفسى « يا له من قلب متكبر محب ! لكم احتجتُ الى وقت حتى اكتسبت حبك ... يا نللى » .

ولكنني اعرف الآن انها قد محضتني حبها الى الابد •

قلت لها حين هدأت :

ـ اسمعي يا نللي • لقد قلتِ منذ برهة ان امك وحدها كانت تحبك ، وان أحداً غيرها لم يحبك • فهل كان جدك لا يحبك ؟

ـ نعم •

ـ ولكنك بكيت هنا في السلم حين ابلغتك نبأ موته ، هل تتذكرين ؟

وظلت واجمة تحلم خلال دقيقة من الزمن •

ـ لا ، لم يكن يحبني •• كان رجلاً شريراً •

قالت ذلك وارتسمت على قسماتها عاطفة اليمة •

ـ ولكن ما ينبغي ان يُطلب منه ذلك • لقد كان كمن عاد الى الطفولة • ومات كما يموت مجنون • لقد رويت لك كيف مات ؟

ـ نعم ، ولكنه لم يبدأ بنسيان نفسه تماماً الا في الشهر الاخير ، فكان يظل جالسا هنا النهار كله ، فاذا لم آت اليه ظل كذلك يومين او ثلاثة ايام لا يأكل ولا يشرب • اما قبل ذلك فكانت حالته احسن كثيراً •

ـ قبل ذلك ؟ كيف ؟

ـ قبل ان تموت امي •

ـ اذن ، كنت انت تحملين اليه طعامه يا نللي •

ـ نعم •

ـ ومن اين كنت تأتينه بالطعام ؟ من بيت بوبنوفا ؟

ـ لا ، لم اكن آخذ من بوبنوفا شيئاً •

قالت ذلك بلهجة جازمة ، ولكن بصوت مرتعش •

ـ من اين كنت تأتينه اذن بالطعام ؟ انك لا تملكين شيئاً •

فصمتت نللى ، وشحب وجهها شحوباً رهيباً ، ثم القت عليّ نظرة طويلة •

ـ كنت اتسول فى الشارع ، حتى اذا جمعت خمسة كوبيكات ، اشتريت له بها خبزاً وشيئاً من نشوق التبغ ••

ـ وكان يقبل ذلك يا نللى ؟ يا نللى !••

ـ فى اول الامر لم اكن اقول له • فلما علم بذلك ، ارسلنى اتسول من تلقاء نفسه ، فكنت اقف على الجسر اطلب الصدقة من المارة ، وكان هو يقف الى جانبى ينتظر ، فاذا رأى انهم اعطونى شيئاً ، هجم عليّ واخذه منى ، كأنه يظن اننى سأحتفظ به لنفسى ، وكأنه يجهل اننى له اتسول •

قالت ذلك وارتسمت على شفتيها ابتسامة مرة ساخرة • ثم اردفت تقول :

ـ كل ذلك كان بعد موت امى • وكان جدى ايامئذ كالمجنون •

ـ اذن كان يحب امك كثيراً ، فلماذا كان لا يعيش معها ؟

ـ لا ، لم يكن يحبها •• لقد كان شريراً ، وكان لا يريد ان يغفر لها •• مثلَ ذلك العجوز الذى جاءك امس ••

قالت ذلك فى رفق ، بصوت يشبه ان يكون همساً ، وكان لونها يزداد شحوباً •

ارتعشت • ان عقدة رواية برمتها قد التمعت فى خيالى : المرأة المسكينة تحتضر فى قبو عند صانع توابيت ، ابنتها اليتيمة تزور جدّها الذى غضب على امها ، العجوز الغريب يفقد عقله ويموت فى مقهى بعد موت كلبه !

وقالت نللي فجأة ، وهي تبتسم لذكرى من الذكريات :

ـ كان آزور في اول الامر لأمي • كان جدي يحب امي كثيراً في الماضي ، فلما تركته بقي آزور عنده • لذلك كان يحب آزور حباً شديداً •

ثم اضافت بصوت قاس ، وقد اختفت الابتسامة من وجهها :

ـ انه لم يغفر لأمي ، ولكن حين مات آزور ، مات هو أيضاً •

وسألتها بعد لحظة من صمت :

ـ فمن كان جدك هذا ، يا نللي ؟

ـ اعرف انه كان رجلاً غنياً ، يملك مصنعاً ، فهذا ما قالته لي امي• كانت امي في اول الامر تعدني طفلة صغيرة ، فما تفاتحني في شيء البتة •• كانت تقبلني وتقول لي : « ستعرفين كل شيء ، يا طفلتي المسكينة ، يا طفلتي الشقية ! كانت تناديني دائماً بالطفلة البائسة الشقية • وفي الليل ، حين كانت تظن انني نمت ، (وما كنت انام بل اتظاهر بالنوم) كانت تبكي ، وتقبلني ، قائلة : « ايتها الطفلة البائسة ، ايتها الطفلة الشقية ! » •

ـ ممّ ماتت أمك ؟

ـ من السل ، منذ ستة أسابيع •

هل تتذكرين الأيام التي كان جدك فيها غنياً •

ـ لم أكن ولدت في ذلك الحين • لقد تركت امي جدي قبل ان أولد انا •

ـ مع من ذهبت امك ؟

ـ لا أعرف ، لقد ذهبت الى بلاد أجنبية وهناك ولدت انا •

قالت ذلك بصوت منخفض ، وكأنها تحلم •

ـ ذهبت الى بلاد أجنبية ؟ الى اين ؟

ـ الى سويسرا • لقد طفت كثيراً من البلاد ، وذهبت ايضاً الى ايطاليا وباريز •

ـ هل تتذكرين هذا كله يا نللى ؟

قلت ذلك دهشاً ، فأجابت بقولها :

ـ اتذكر أشياء كثيرة •

ـ وكيف تجيدين الروسية هذه الاجادة ؟

ـ علمتنى امي اللغة الروسية هناك • كانت أمي روسية ، وكانت أمها روسية ، اما جدى فكان انجليزياً ، ولكنه أشبه بروسى • فلما عدنا الى هنا ، أنا وأمى ، منذ سنة ونصف سنة ، أتقنت الكلام بالروسية • وكانت أمى فى ذلك الوقت قد اصيبت بالمرض منذ مدة • وأصابنا الفقر ، والح علينا ، فكان يزداد يوماً بعد يوم • وكانت أمى لا تنى تبكى ليل نهار • ظلت فى اول الامر مدة طويلة تبحث عن جدى هنا ببطرسبرج ، وكانت تقول دائما انها اساءت اليه ، وكانت تبكى •• ما اكثر ما كانت تبكى ؟ فلما علمت ان جدى أصبح فقيراً ، اشتد بكاؤها ، وكانت تكتب اليه فى كثير من الاحيان ، ولكنه كان لا يرد على رسائلها أبداً •

ـ لماذا رجعت امك الى هنا ؟ هل كانت رغبتها فى البحث عن ابيها هى الدافع الوحيد الذى حملها على العودة ؟

ـ لا ادرى • كنا هناك على احسن حال •

قالت ذلك واخذت عيناها تلتمعان • واردفت تقول :

ـ كانت امى تعيش وحدها معى • وكان لها صديق طبيب مثلك ، تعرفه من هنا • ولكنه مات • ومن اجل هذا عادت ••

ـ اذن لقد سافرت أمك معه حين تركت جدك •

ـ بل سافرت مع شخص آخـر ، ولكن هذا الشخص الآخر قد هجرها •••

ـ من هو ذلك الشخص يا نللى ؟

نظرت الىّ نللى ، ولم تجب بشيء • كان واضحـاً انهـا تعـرف الرجل الذى سافرت معـه أمها ، والذى لعله ابوها • ولكن كان يشق عليها ان تذكر اسمه ، ولو لى أنا •

لم أشـأ ان ارهقها باسـئلتى • لقد كان طبعها طبعاً غريبا ، كان طبعاً عصبياً حاداً ، ولكنه يلجم اندفاعاته ، وكان طبعاً محبياً الى القلب ، ولكنه مغلق على كبرياء لاتلين • فرغم انها أحبتنى حباً يخرج من اعماق القلب ، حباً مضيئاً صافياً لا يضارعه فى ضيائه وفى صفائه حب ، حباً يكاد يعدل حبها لامها التى كانت لا تستطيع ان تتحدث عنها دون أن يحز فى نفسها الالم ، رغم ذلك ظلت طوال المدة التى ارتبطتُ خلالها بها ، لا تفضى الىّ بذات نفسها الا قليلا ، ولا تشعر بالحاجة الى ان تحدثنى عن ماضيها الا نادراً ، فيما عدا ذلك اليوم ، حتى لقد كانت تخفى عنى ذلك الماضى بنوع من القسوة • الا انها ، فى ذلك اليـوم ، قد أطلعتنى ، فى ساعات ، من خلال الآلام والنحيب ، على كل ما كان من ذكرياتها يقض مضجعها ويعـذبها أكثر من غـيره ، ولن انسى قصتها ما حييت • ولكن الامر الاساسى من هذه القصة سيجىء حينه فيما بعد •

انها قصة رهيبة : قصة امرأة هجرها صاحبها وما يزال يعيش على انقاض سعادتها ، قصة امرأة مريضة هدّها الالم ، وانصرف عنها جميع

الناس ، وانكرها الانسان الذى كانت تعقد عليه آخر رجاء ، أبوها الذى أساءت اليه فى الماضى ، وفقد عقله هو الآخر تحت وطأة انواع العذاب والذل التى لا يمكن ان يحتملها بشر ؛ قصة امرأة استبدّ بها اليأس ، فأخذت تطوف فى شوارع بطرسبرج ، الباردة القذرة ، تطلب الصدقات من الناس ، مع ابنتها التى ترى انها ما تزال طفلة صغيرة ؛ قصة امرأة فنيت بعد ذلك خلال شهور فى قبو رطب ، ورفض ابوها ان يمنّ عليها بغفرانه الى آخر لحظة من حياتها ؛ حتى اذا ثاب اليه صوابه ، فهرع اليها ليغفر لها ، لم يجد فى مكان ابنته التى احبها أكثر مما أحب اى شيء فى حياته ، الا جثة باردة . انها قصة غريبة ، قصة علاقات عجيبة لا يكاد يفهمها المرء ، بين رجل عجوز ارتد الى الطفولة وبين حفيدة له كانت تفهمه ، على صغر سنها ، وكان لها من نفاذ الفكر ما لا يصل اليه كثير من الناس خلال حياتهم الهادئة الرخية . انها قصة مظلمة ، قصة من تلك القصص السوداء الاليمة التى كثيراً ما تجرى دون ان يلمحها احد ، كأنها اسرار خفية ، تحت سماء بطرسبرج الثقيلة ، فى الزوايا المظلمة المتتسرة من المدينة الكبيرة وسط اصطخاب الحياة ، والأنانية الضارية ، والمصالح المتصارعة ، والفجور الكالح ، والجرائم الخبيثة ، فى كل هذا الجحيم من الحياة المجنونة الشاذة ..

ولكن هذه القصة سيأتى حينها فيما بعد ...

الجزء الثالث

الفصـــل الأول

جاء الغسق وتلاه المساء منذ زمن ، ولم أتذكر الحاضر الا حين صحوت من هـذا الحلم الثقيل القاتم •
قلت لنللى :

ـ نللى ، أنت الآن مريضة مهدودة القوى، ومع ذلك لا بد لى من أن أتركك وحيدة ، مضطربة ، دامعة • عفـوك يا بنيتى ، واعلمى ان هناك انساناً آخر تحبه ، أبوا أن يغفروا له ، فهـو شقى مهان مهجور • انها تنتظرنى • وقد بلغت من الاضطراب بعد القصة التى رويتها لى اننى لا أحتمل أن لا أذهب اليها لأراها ، فورا ، فى هذه اللحظة نفسها •••

لا ادرى هل فهمت نللى ما قلتـه لهـا • لقد كنت مضطرباً أشـد الاضطراب ، بسبب القصة التى روتها لى ، وبسبب النوبة التى اصابتنى• ولكننى هرعت الى ناتاشـا ، فوصلت اليهـا متأخـراً ، فى نحو السـاعة التاسعة •

وفى الشارع ، بالقرب من باب العمارة التى تسـكن فيها ناتاشا ، لمحت عربة خيـِّل الىَّ انها عربة الامير • فما ان صعدت الدرجات الأولى من السلم حتى سـمعت وقع خطوات فوقى ، هى خطوات رجل يصـعد السلم تلمساً ، فى حـذر ، لانه لم يألف هذا المكان • فتخيلت ان هذا الرجل لا بد ان يكون هو الامير ، ولكننى ما لبثت ان اعتقدت اننى على خطأ ، فان هذا الرجل المجهول كان ، وهو يتسلق السلم ، يهمهم متذمراً

ويسب ويلعن في اقذاع ما ينفك يشتد كلما صعد درجة اخرى • صحيح ان السلم كان ضيقاً قذراً وعراً ، ولم يُضأ بنور يوماً • ولكنني لم استطع أبدا أن أتصور هذه الشتائم صادرة عن الامير • كان الرجل يجدف بكلام بذيء ككلام حوذي • وكان في الدور الثالث شيء من النور ، هو نور مصباح يضيء أمام باب ناتاشا • وامام باب ناتاشا انما ادركت الرجل المجهول ، فما اشد ما شُدهت حين رأيت انه الامير عينه ؟ كان واضحا انه قد ساءه كثيراً ان يلقاني هذا اللقاء الذى لم يكن فى الحسبان • انه لم يعرفني فى اللحظة الاولى ، ولكن وجهه ما لبث ان تبدل فجأة ، فاذا نظرته التى كانت تفيض بالكره والخبث ، تصبح نظرة محببة مرحة ، دفعة واحدة ، واذا هو يمد الىَّ يده فى كثير من الفرح •

ـ ها ••• هذا انت ! لقد كدت اركع على ركبتي ، وابتهل الى الله ان ينقذني • هل سمعتني اسب والعن ؟

قال ذلك وانفجر ضاحكاً فى دماثة ورقة • ولكن وجهه ما لبث ان اكتسى طابع الجد والغضب ، وقال وهو يهز رأسه :

ـ كيف يجيز اليوشا لنفسه ان يسكن ناتاليا نيقولايفنا فى بيت كهذا البيت ؟ ان الامور الصغيرة هى التى تميز المرء ، كما يقول المثل • انني أخشى عليه • انه طيب كريم القلب • ولكن انظر : انه يحب حباً جامحاً ، ثم يسكن تلك التى يحبها فى كوخ كهذا الكوخ • بل لقد بلغنى انهما فى بعض الاحيان يعوزهما الخبز (قال ذلك بصوت هامس ، وهو يتلمس الباب بحثاً عن قبضة الجرس) • ان رأسي ليدور حين افكر فى مستقبله ، وخاصة فى مستقبل آنا نيقولايفنا حين تصبح زوجة ••

اخطأ الامير فى اسم ناتاشا دون ان يفطن الى ذلك ، وكان لا يزال يتلمس الباب باحثاً عن الجرس معكر المزاج •ولكن لم يكن ثمة جرس• فحركت قبضة الباب ، ففتحت لنا مافرا فوراً ، واستقبلتنا وقد لاح عليها

الانشغال • ورأيت من خلال باب المطبخ الذى يفصله عن المدخل الضيق حاجز من خشب ، رأيت ان ثمة اعداداً وتحضيراً ، فكل شيء قد نظف ومُسح اكثر مما ينظف ويمسح عادةً ، والمدفأة مشتعلة ، وعلى المائدة اطباق جديدة • كان واضحاً انهم فى انتظارنا • واسرعت مافرا فخلعت معطفينا • سألتُ مافرا :

ـ هل اليوشا هنا ؟

فأجابتنى مدمدمة ، وقد بدا على وجهها معنى غريب :

ـ لم يجىء بعد •

ودخلنا على ناتاشا ، فلم نر فى غرفتها استعدادات خاصة ، بل كان كل شيء هناك على عهدى به • ثم ان غرفتها نظيفة دائماً انيقة دائماً ، فما تحتاج الى مزيد من ترتيب • وفوجئت بما يلوح على ناتاشا من هزال هو هزال المرض ، ومن شحوب فى وجهها شديد ، رغم ان الحمرة كانت تصعد فى بعض اللحظات الى خديها الذاويين • كانت عيناها محمومتين • ومدت يدها بسرعة الى الامير ، دون ان تنبس بكلمة • كان واضحاً انها مضطربة شاردة اللب • حتى انها لم تلق علىَّ نظرة • فظللت واقفاً ، وانتظرت فى صمت • قال الامير بلهجة فرحة تشيع فيها روح الصداقة :

ـ هاأناذا اخيراً • اننى لم اعد الا منذ ساعات • وما غبت عن بالى لحظة خلال هذا الوقت كله •

قال ذلك وقبَّل يدها فى رقة ولطف ، وأردف :

ـ ما اكثر ما فكرت فيك ، ثم اعدت التفكير •• فى ذهنى امور كثيرة يجب ان اقولها لك •• ولكننا سنتحدث على مهل • وقبل كل شيء ، اين ذلك الطائش الذى لم يصل بعد ، فيما ارى ؟

فقاطعته ناتاشا قائلة ، وهى تحمر وتضطرب :

ـ هل تسمح ايها الامير •• يجب أن أقول كلمتين لايفان بتروفتش •• تعال يا فانيا •••

وامسكت بيدى ، وقادتني الى ما وراء الحاجز ، فقالت لى هامسة ، بعد ان جرتني الى ابعد ركن مظلم :

ـ فانيا ، هل غفرت لى ؟

ـ هلاّ سكت يا ناتاشا ؟ ماذا دهاك ؟

ـ لا ، لا ، يا فانيا ، لقد غفرت لى قبل الآن كثيراً من الامور ، وان للصبر حدوداً • اعرف انك ستظل تحبني ، ولكنك ستعدّني عاقة ، فلقد كنت امس ، واول امس ، قاسية انانية عاقة ••

وتفجرت دموعها فجأة ، واسندت رأسها الى كتفي ، فأسرعت أقول لها :

ـ كفي يا ناتاشا • لقد كنت مريضاً جداً طوال الليل ، وما زلت الى الآن مهدود القوى لا أكاد استطيع الوقوف على قدمي • لذلك لم اجيء اليك لا امس مساء ولا اليوم ، فلا تظنى انني تخلفت عن المجيء غضباً ! هل تحسبين ، يا صديقتي ، أنني أجهل ما تعانينه في هذه الايام ؟

فقالت وهي تبتسم من خلال الدموع ، وتشد يدى شداً موجعاً :

ـ طيب ، طيب ، اذن فقد غفرت لى • هذا يكفيني الآن ، وما عداه يجيء حينه • ثمة اشياء كثيرة يجب ان افضى بها اليك ، يا فانيا • أما الآن فلنعد اليه ••

ـ هلمى يا ناتاشا ، فلقد تركناه فجأة في غير رفق ••

فدمدمت تقول بسرعة :

ـ سوف ترى ما سيحدث • انني اعرف الآن كل شيء ، لقد

أدركت كل شيء • ان الذنب كله ذنبه هو • ستقرر هذه السهرة كثيراً من الأمور • هيا بنا •

لم افهم معنى ما قالته ناتاشا ، ولكن المجال لا يتسع لطرح الاسئلة• وتقدمت ناتاشا نحو الامير ثابتة الخطى رصينة الوجـــه ، وكان ما يزال واقفاً ، ممســكا قبعته بيده ، فاعتذرت له اعتــذاراً مرحاً ، وتناولت منه قبعته ، وقدمت له بنفسها كرســياً ، وجلســنا نحن الثلاثة حــول المائدة الصغيرة •

قال الأمير :

ـ بدأت بالكلام عن ابني الطائش •• انني لم اره الا دقيقة واحدة ، حتى لقد كان لقاؤنا في الشارع ، وهو في طريقه الى الكونتيسة زينائيد فيدوروفنا • كان يستعجل الخطى ، وتصوري انه أبى أن يركب معي ، رغم انني لم اره منذ اربعة ايام •• والذنب ذنبي في انه ليس الآن بيننا ، وفي اننا وصلنــا قبله • ذلك انني انتهزت الفرصــة فحملته رســالة الى الاميرة ، لانني لا استطيع ان اذهب اليها اليوم بنفسي • ولكنه سيصــل بعد لحظة •••

فسألته ناتاشا ، وهي تنظر اليه نظرة ساذجة :

ـ لا شك انه وعدك بالمجيء هذا المساء ؟

فهتف الامير ، وهو يتفرس فيها دهشاً :

ـ كيف تسألين هذا الســؤال ؟ هل يمكن ان لا يأتي ؟ على انني افهم الامر : فانت غاضبة منه حانقــة عليــه • لا شك ان وصــوله آخر الواصلين شيء معيب • ولكنني اكرر ما قلته منذ لحظة ، وهو ان الذنب في ذلك ذنبي • فلا تلوميه • صحيح انه ضعيف ، طائش ؟ لست ادافع عنه ، الا ان ثمة ظروفاً خاصة توجب ان لا يهمل في هذه اللحظة منزل

الكونتيسة ولا منازل بعض الاصدقاء الآخرين ، وتحتم عليه ان يزورها وان يكثر من زيارتها .

واغلب الظن انه اصبح لا يخرج من عندك في هذه الايام ، حتى نسي كل شيء في العالم ، فلا تؤاخذيني اذا انا سلبتك اياه من حين الى حين ، بضع ساعات في اكثر تقدير ، ليقضي لي بعض اعمالي . اعتقد انه لم يذهب الى الاميرة آ .. منذ ذلك المساء ، ويؤسفني انني لم اسأله عن هذا الامر حين لقيته منذ قليل .

القيت نظرة على ناتاشا ، فرأيتها تصغي الى كلام الامير ، وقد علت شفتيها ابتسامة خفية تشبه ان تكون ابتسامة السخر . ولكن الامير كان يسوق كلامه صريحاً لا كلفة فيه ، حتى ليستحيل على المرء ان يشك في صدق ما يقول .

سألته ناتاشا بصوت ناعم هادىء كأنها تتحدث عن امر عادي :

ـ هل تجهلُ حقاً انه لم يزرني مرة واحدة خلال هذه الايام كلها ؟

ـ ماذا ؟ لم يزرك مرة واحدة ؟ ماذا تقولين ؟

قال الامير ذلك ، وقد بدت عليه اشد آيات الدهشة .

ـ لقد جئتَ اليّ يوم الثلاثاء ، في ساعة متأخرة من السهرة . وفي الصباح أتاني فمكث نصف ساعة ، ثم لم أره بعد ذلك أبدا .

ـ هذا كلام لا يكاد يصدق !

قال ذلك وقد ازدادت دهشته شدة ، ثم اردف :

ـ كنت اظن انه لا يتركك ابداً . عفوك ومغفرتك . ان هذا لأمر عجيب ، لا يصدقه العقل !

ـ هو مع ذلك صحيح .. شيء مؤسف ... كنت انتظر مجيئك حتى اعرف منك اين هو !

ـ آه ، يا رب ! • ولكنه سيصل بعد لحظة ••• ان ما ذكرته لى الآن قد صفعنى صفعة أليمة ••• أعترف لك اننى كنت أتوقع منه كل شيء الا هذا !

ـ هل ادهشك كلامى كل هذه الدهشة ؟ كنت اظن انه لن يفاجئك بل كنت أظن انك تعرف ان الأمور ستجرى هذا المجرى •

ـ اعرف ؟ أؤكد لك يا ناتاليا نيقولايفنا اننى لم اره الا لحظة واحدة هذا اليوم ، واننى لم أسأل عنه أحداً • وانى لأستغرب كيف يبدو عليك انك تشكين فى صدق ما اقول •

قال ذلك وهو يلفنا كلينا بنظره •

قالت ناتاشا :

ـ معاذ الله ! اننى مقتنعة كل الاقتناع بأنك تقول الحقيقة •

قالت ذلك وانفجرت ضاحكة امام انفه ، فقطب ما بين حاجبيه تقطيباً خفيفا • ثم قال مرتبكاً :

ـ اشرحى ما فى نفسك •

ـ ليس هناك ما اشرحه • اننى اتكلم وكفى • وانت تعرف انه طائش نساء • والآن وقد ملك حريته كاملة ، أرخى لنفسه العنان •

ـ كيف يرخى لنفسه العنان ! لا شك ان وراء هذا الامر ما وراءه ، وسأجبره على ان يعلل سلوكه ، متى جاء بعد قليل • والشيء الذى يدهشنى الى ابعد حدود الدهشة انك تكادين تحملييننى تبعة هذا السلوك ، مع اننى كنت غائباً • ثم اننى أرى يا ناتاليا نيقولايفنا انك حانقة عليه جداً، وهذا امر افهمه ، فان لك ان تحنقى عليه ، و •• طبعا •• انا المذنب الاول لاننى وصلت قبله ، اليس كذلك ؟

قال الامير عبارته الاخيرة ، وهو يلتفت الىّ ويبتسم ابتسـامة تثير الحنق فاحمرت ناتاشا احمراراً شديداً . واردف الأمير يقول فى وقار :

ـ اسمحى لى يا ناتاليا نيقولايفنا ... انا اسلم باننى اذنبت ، ولكن ذنبى الوحيد هو اننى سافرت بعد ان تعـارفنا بيوم واحـد ، فاذا انت ، لما يتصف به طبعك من شك ألاحظه ، تغيرين رأيك فىّ ، خاصـة وان الظروف ساعدت على ذلك . فلولا اننى سـافرت لاستطعت أن تعرفينى معرفة اكمل ، ولولا ان اليوشا افلت من رقابتى اثناء غيابى لما فعل مافعل. ستسمعين باذنيك ما سأقوله له .

ـ اى انك ستعمل ما يجب عمله من اجل ان يشعر بأننى ثقيلة عليه . من المستحيل ، وانت تملك ما تملك من ذكاء ، ان تفكر حقاً فى مساعدتى بهذه الطريقة .

ـ هل تعنين اننى اريد ان أشعره بانك عبء عليه ؟ انك لتهينيننى يا ناتاشا نيقولايفنا .

ـ اننى احاول ان اتحاشى التلميح ، كائناً من كان محدثى ؛ وأوثر عليه التصريح ، وستقتنع من تلقـاء نفسـك بذلك ، ربما هذا اليوم . لا أريد أن أهينك ، وما من سبب يدعونى الى أن أرغب فى ذلك . ثم انك تشعر من كلامى باهانة ، مهما يكن هذا الـكلام . انا مقتنعة بذلك كل الاقتناع ، لاننى افهم علاقاتنا المتبادلة كل الفهم : انك لا تستطيع ان تحمل كلامى على محمل الجد ، اليس كذلك ؟ ولكن اذا كنت قد آذيتك حقاً ، فأنا على اتم الاستعداد للاعتذار اليك ، حتى أقوم نحوك بكل واجبات .. الضيافة .

لم ار ناتاشا فى حياتى كلها تبلغ هذا المبلغ من الغضب ، رغم لهجتها اللينة التى تشـبه ان تكون لهجـة المزاح ، ورغم الابتسـامة التى كانت

ترتسم على شفتيها . عندئذ تصورت الآلام التى تجمعت فى قلبها خلال هذه الايام الثلاثة . واخافتنى تلك الكلمات الاحجيات التى قالتها لى منذ لحظة ، وهي انها عرفت كل شيء وادركت كل شيء . كانت هذه الكلمات اذن تتناول الامير . لقد غيرت رأيها فيه ، واصبحت تغده عدوها . هذا واضح . انها تعزو الى تأثير الامير فى ابنه كل ضروب الاخفاق التى عانتها مع اليوشا ، ولعلها تعرف اموراً تحملها على ذلك . وخشيت ان يقوم بينهما شجار على حين فجأة . ان لهجة السخر التى تلتزمها فى حديثها واضحة لا تخفى . وكلامها الأخير عن أن الأمير لا يمكن أن ينظر الى علاقاتهما نظرة الجد ، وجملتها عن الاعتذار اليه بحكم واجبات الضيافة ، والوعد الذى قطعته على نفسها فى صورة وعيد ، بأنها ستبرهن له فى هذه الليلة نفسها على انها تتحدث بلا مواربة.. كل هذا كان قارصاً، صريحاً، لا يمكن الا ان يفهمه الامير . وقد تغير وجه الامير ، ولكنه كان يعرف كيف يسيطر على نفسه . فسرعان ما تظاهر بأنه لم يلاحظ هذه الكلمات الاخيرة ، وبأنه لم يفهم معناها ، وتخلص من الموقف بمزاح ، فقال وهو يضحك :

ــ معاذ الله أن أسألك الاعتذار ! اننى أقلُّ الناس رغبة فى أن يُعتذر الىَّ ، وليس من مبادئى ان اطلب الاعتذار الى امرأة . وقد نبهتك الى طبعى منذ لقائنا الاول ، لذلك اظن انك لن تغضبى اذا انا ابديت هذه الملاحظة ، خاصة وانها تتصل بجميع النساء . ولعلك ستسلم لى بصدق هذه الملاحظة (قال ذلك متجهاً الىَّ) : لقد لاحظت فى طبع النساء صفة عامة تميزهن ، هى ان المرأة حين تخطىء ، تؤثر ان تمحو خطأها بالمداراة والتدليل فيما بعد ، على ان تعترف حالاً وان تعتذر عنه ، رغم انها تكون مقتنعة كل الاقتناع بأنها اخطأت . لذلك ، اذا سلمنا بأنك اهنتنى الآن ، فأنا أرفض أن تعتذرى الىَّ ، وأوثر أن أنتفع بهذا فيما بعد ، حين

تدركين خطأك من تلقاء نفسك ، فتحاولين ان تزيلي هذا الخطأ وان تكفري عنه •• بالمداراة والتدليل • ثم انك من نبل النفس وطهارة القلب ونضارة الروح وانطلاق السجية بحيث ان الدقيقة التى ستندمين فيها على خطئك ستكون رائعة حقاً ••• فلا حاجة الى الاعتذار الآن ، بل قولى لى كيف استطيع ان ابرهن لك اليوم على اننى اصدق كثيراً مما تظنين ، وعلى اننى اصرح فى اعمالى مما يتبادر الى ذهنك •

احمرت ناتاشا • وبدا لى ان فى جواب الامير شيئاً من الاستخفاف ، نوعا من الدعابة الوقحة • سألته ناتاشا وهى تنظر اليه نظرة تحد :

ـ أتريد ان تبرهن لى الليلة على انك مستقيم صادق ؟

ـ نعم •

ـ اذن عدنى بتحقيق ما سأطلبه منك •

ـ اعدك بذلك •

ـ ـ لا تُقلق أليوشا ، لا اليوم ولا غداً ، لا بكلمة عنى ولا باشارة الىّ • لا تظهر له شيئا من اللوم على انه نسينى • أريد أن أستقبله استقبالاً لا يُشعره بان شيئاً قد وقع بيننا ، حتى لا يلاحظ شيئاً • اننى فى حاجة الى هذا • هل تعدنى ؟

ـ بكل سرور • واسمحى لى ان اضيف الى ذلك اعترافى الصادق بأننى لم ألق ، الا نادراً ، آراء عاقلة واضحة فى شئون من هذا النوع ، كآرائك • هذا أليوشا قد وصل ، يخيل الىّ •

وسمعنا ، حقاً ، اصواتاً فى حجرة المدخل • فارتعشت ناتاشا ، وبدا كأنها تتهيأ لامر من الامور • كان الامير يظهر بمظهر الجد ، وينتظر ما سيقع : كانت عيناه لا تفارقان ناتاشا • وفُتح البـاب ، ودخل أليوشا كهبوب ريح •

الفصل الثاني

دخل أليوشا مشرق الوجه ، مرحاً فرحاً . كان واضحاً أنه رائق المزاج ، وأنه قضى هذه الأيام الاربعة في متعة جميلة . وكان كمن كتب على وجهه أن ثمة نبأ يريد أن يطلعنا عليه .

صرخ بصوت قوى :

ــ هأنذا وصلت ، أنا الذى كان ينبغى أن أصل أول من يصل . ولكنكم ستعرفون كل شيء ، كل شيء . لم يتسع الوقت منذ لحظة ، يا أبى، لان نتبادل كلمتين ، وكان هناك أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك (قال ذلك ثم قاطع نفسه متجهاً الىّ) : هو الذى يسمح لى فى لحظاته الرائعة بأن أخاطبه بصيغة المفرد . وأؤكد لك انه فى لحظات أخرى يمنعنى من ذلك ، وهذه خطته : يأخذ يخاطبنى بصيغة الجمع . ولكننى أريد بعد اليوم ألا يكون ثمة الا لحظات رائعة ، وسأعمل مايجب عمله لاوفر له ذلك . لقد تبدلت كثيراً خلال هذه الايام الاربعة ، تبدلت تبدلاً تاماً ، وسأقص عليكم كل شيء . هاهى ذى من جديد ! ناتاشا ! ثروتى ! سلاماً يا ملاكى !

قال ذلك وهو يجلس الى جانبها ، وتابع كلامه يقول :

ــ لشد ما اشتقت اليك خلال هــذه الأيام ! ولــكن ما حيلتى ! لم أستطع ، لم أستطع أن أفعل خيرا مما فعلت . عزيزتى ناتاشا ، كأنك قد نحلت ، انك شاحبة ممتقعة اللون ..

وأخذ ، وهو في غمرة الحماسة ، يغرق يديها بالقبلات ، ويلتهمها بنظراته التهاماً ، كأنه لا يشبع من النظر اليها • وألقيت نظرة على ناتاشا، فأدركت من وجهها أننا نفكر تفكيراً واحداً ، هو انه بريء كل البراءة • أي ذنب يمكن أن يقترفه هذا البريء ، ومتى يمكن أن يقترف ذنباً ! ونظرت مرة أخرى الى ناتاشا ، فرأيت حمرة قانية تزدحم في خديها الشاحبين ، كأن كل الدم الذي تجمع في قلبها صعد دفعة واحدة الى رأسها • وأخذت عيناها تلتمعان ، ورأيتها تنظر الى الأمير في كبرياء • سألت أليوشا بصوت حبيس متقطع :

ـ فأين •• كنت •• اذن •• خلال هذه الايام ؟

كان تنفسها بطيئاً متقطعاً • لشدما تحبه ! يا رب !

ـ قد يخيل الى المرء انني أذنبت ، ولكن هذا ظاهر الامر لا باطنه • صحيح انني مذنب ، أعرف ذلك ، لقد قالت لي كاتيا أمس واليوم ان المرأة لا يمكن أن تغتفر مثل هذا الاهمال (انها تعرف كل ماحدث هنا يوم الثلاثاء ، قصصته عليها غداة ذلك اليوم) • لقد تحدثت معها ، وذكرت لها ان هذه المرأة اسمها ناتاشا ، وان ليس في العالم كله الا امرأة واحدة تشبهها هي : كاتيا • لقد وصلت الى هنا وأنا أعرف أنني غير منهزم في المشاجرة • هل يمكن لملاك مثلك ألا يعفو ويصفح ؟ « اذا لم يجيء فلابد أن شيئاً من الاشياء قد حال دون مجيئه ، وليس معنى غيابه أنه أصبح لايحبني » هذا ما لابد أن تقوله ناتاشا لنفسها • وكيف يمكن أن أنسى حبك ؟ هل هذا ممكن ؟ لقد كان قلبي يحترق شوقاً اليك • ولكنني مع ذلك مذنب ! وحين تطلعين على كل شيء ، ستكونين أول من يبرئني ويغفر لي• سأقص عليكم كل شيء ، حالاً • انني فيحاجة الى أن أفضي بما فيقلبي اليكم جميعاً• ولهذا جئت• لقد أردت اليوم (حين أتيح لي نصف دقيقة من حرية) أن أطير اليك ، لأقبلك ، ولكنني لم أستطع : فقد

بعثت الى كاتيا ترجونى أن أذهب اليها لامر هام • كان ذلك قبل أن أراك يا أبى • وحين رأيتك كنت ذاهباً اليها بدعوة ثانية • هناك سعاة يحملون الرسائل بيننا طوال اليوم • ايفان بتروفتش ، لم أقرأ كلمتك الا أمس مساء ، وانت على حق تماماً • ولكن ماحيلتى ؟ كان هنالك استحالة مادية ! لذلك قلت : غداً مساء ، أبرىء نفسى أمامهم جميعاً• ذلك انه كان يستحيل ألا أجيء اليك هذا المساء يا ناتاشا •

ـ أية كلمة عنيت ؟

ـ لقد جاء الىّ ، فلم يجدنى طبعاً ، فترك لى رسالة يقرعنى فيها تقريعاً شديداً على اننى لا آتى اليك • وهو على حق تماماً • كان ذلك أمس •

فنظرت الىّ ناتاشا • وقال الأمير :

ـ ولكن اذا اتسع وقتك للبقاء من الصباح الى المساء عند كاترين فيدوروفنا ••

فقاطعه أليوشا يقول :

ـ أعرف ما ستقوله « اذا استطعت أن تذهب الى كاتيا ، فقد كان أولى بك أن تجيء الى هنا » • اننى أوافق كل الموافقة على ماتقول ، بل أضيف اليه ان مجيئى الى هنا أولى كثيراً ، كثيراً جداً • ولكن ، أولاً ، فى الحياة أحداث لايتوقعها المرء ، أحداث غريبة تشوش الامور ، وتقلب كل شيء رأساً على عقب • وقد طرأت علىّ أحداث من هذا النوع• وأقول لكم : اننى تغيرت كل التغير خلال هذه الايام التى انقضت ، تغيرت حتى الاظافر : ذلك ان أحداثا خطيرة قد وقعت •

فهتفت ناتاشا وهى تبتسم لحماسة أليوشا قائلة :

ـ فما الذى وقع اذن ؟ لا تشوّقنا كثيراً ، أرجوك !

الحق ان اليوشا كان يثير الضحك : كان يسرع في كلامه ، كانت الـكلمات تنطلق من فمه سريعة ، متعجلة ، بلا ترتيب ، كأنها صراخ لا معنى له . كان يحترق شوقاً الى الكلام ، الى أن يقول شيئا ما . وكان ، وهو يتحدث ، يمسك بيد ناتاشا ، ويرفعها الى شفتيه في كل لحظة ، كأنه لا يتعب من تقبيلها . واستأنف اليوشا يقول :

ـ اليكم ماحدث . آه يا أصدقائي ! يا لروعة ما رأيت وما عملت ومن لقيت من ناس ! .. أولاً يا ناتاشا ، يجب أن أقول انها الكمال نفسه . كنت حتى ذلك الحين لا أعرفها ، لا اعرفها أبداً . في يوم الثلاثاء ، حين حدثتك عنها ، كان في حديثي كثير من الحماسة ، كما تتذكرين ، ومع ذلك كنت يومئذ لا أكاد أعرفها . لقد اختبأت عني حتى هذه الايام الاخيرة . أما الآن فنحن متعارفان أتم التعارف ، حتى اننا نتخاطب بصيغة المفرد . ولكن يجب أن أبدأ من البداية : ليتك سمعت ما قالته عنك ، حين حكيت لها ، يوم الاربعاء ، ماجرى بيننا ! .. وبالمناسبة ، انني أتذكر الآن كيف كنت غبياً أحمق حين وصلت اليك في صباح يوم الاربعاء ! لقد استقبلتني انت في كثير من الحرارة باعتبار الوضع الجديد الذي صرنا اليه .. أردت أن تتحدثي معي عن هـذه الامور كلها .. وحزنت ، ولكنك ظللت تمازحينني .. اما أنا فقد مثلت دور الرجل الرصين ! ما كان أشد غباوتي ، ما كان أشد غباوتي ! أقسم لك انني أردت أن أصطنع دور الرجل الذي سيتزوج عما قريب ، دور الجد والرزانة . وأمام من أصطنع هذا الدور ؟ أمامك انت ! آه .. لابد انك سخرت مني كثيراً ، واني لاستحق ذلك .

كان الامير ملتزماً الصمت ، وكان ينظـر الى اليوشا ، ويبتسم ابتسامة الظفر والسخر .. كأنما يسره أن يظهر ابنه بمظهر فتى سخيف طائش يبعث على الهزء والضحك . لقد راقبته طوال ذلك المساء ، وأنعمت

النظر اليه ، فاقتنعت بأنه لا يحب ابنه ، رغم مايدعيه من انه يحبه حباً حاراً عنيفاً •

وتابع اليوشا كلامه يقول :

ـ حين تركتك ، ذهبت الى كاتيا • ذكرت منذ هنيهة اننا في ذلك الصباح انما عرف كل منا صاحبه معرفة تامة ، وقد حددت ذلك على نحو غريب •• لا أتذكر الآن كيف حدث •• ولكن ماهي الا بضع كلمات حارة ، وماهو الا التعبير الصادق عن بعض الآراء وبعض العواطف ، فاذا نحن نتحد الى الابد • يجب أن تعرفيها يا ناتاشا ، يجب أن تعرفيها • ما أكثر ما تحدثت عنك ، ما أكثر ماشرحت وضعك : لقد أفهمتني أي كنز انت لي ! وشيئاً فشيئاً ، أوضحت لي جميع أفكارها ، على طريقتها في فهم الحياة • ان نفسها تفيض جداً وحماسة ! حدثتني عن واجبنا ، عن رسالتنا ، عما يجب أن نقدمه للانسانية من خدمات • وماهي الا خمس ساعات أو ست ساعات من الحديث ، اذا نحن نجد أنفسنا على اتفاق تام في جميع الآراء ، فتعاهدنا على أن نظل صديقين الى الابد وأن نتعاون في عمل واحد طوال الحياة •

فسأله الأمير دهشاً :

ـ وما هو هذا العمل ؟

ـ لقد تغيرت كثيراً ، يا أبتاه ، ولابد أن يدهشك مني كل شيء بعد الآن ، بل انني لأتنبأ باعتراضاتك •

قال اليوشا ذلك بلهجة رصينة ، ثم أردف :

ـ انكم جميعاً أناس عمليـون ، لكم قواعدكم الصـارمة ، القاسية ، المجربة ، وتنظرون نظرة الشك والعداوة والسخر الى ماهو فتي جديد •

ولكنني لست الآن ذلك الشاب الذى كنت تعرفه منذ بضعة أيام • أنا الآن شخص آخر • أنا الآن أنظر الى جميع الاشياء والى جميع الناس فى هذا العالم نظرة جريئة • اذا عرفتُ ان قناعتي صادقة ، تابعتها الى آخر نتائجها ؛ واذا لم أضلّ أثناء الطريق كنت رجلاً شريفاً •• ولكن حسبي كلاماً عن نفسي •• لك ان تقول ماتشاء بعد ذلك ، غير انني واثق من نفسي •

قال الامير بلهجة ساخرة :

ـ عظيم ، عظيم !

كانت ناتاشا تنظر الينا قلقة ، كانت خائفة على اليوشا ، كانت تعرف انه كثيراً مايسترسل فى الحديث استرسالاً يعود عليه بالضرر • كانت تخشى أن يظهر أمامنا ، وخاصة أمام أبيه ، بمظهر شخص مضحك يثير الاستهزاء به • فقالت :

ـ ماذا تقول يا اليوشا ؟ هذه فلسفة ! هل أدخلوك تحت لواء عقيدة جديدة ؟ الأولى بك الآن أن تروى لنا ماحدث لك •

فهتف اليوشا قائلا :

ـ هـذا ما أفعله ! اسمعي يا ناتاشا • ان لكاتيا قريبين هما ليون وبوريس ، احدهما طالب ، والثانى شاب فحسب ، وكاتيا على صلة بهما ، وهما شابان من طراز فذ ! انهما لا يكادان يذهبان الى الكونتيسة ، وذلك عن عقيـدة ومبدأ • وحين تحـدثنا أنا وكاتيا عن رسالة الانسان وعن واجباته ، عن هذه الامور كلها ، كلمتني عنهما ، وحملتني رسالة اليهما ، فمضيت فوراً الى لقائهما ، فاذا نحن نتفاهم تفاهماً كاملاً منذ ذلك المساء نفسه • كان هناك اثنا عشر شخصاً من أنواع شتى : طلاب ، ضباط ،

فنانون ، وكان هناك كاتب أيضاً . وهم يعرفونك ، جميعاً ، يا ايفان بتروفتش ، اعنى انهم قرأوا كتبك ، وهم ينتظرون منك أشياء كثيرة فى المستقبل . قالوا لى ذلك هم أنفسهم . وذكرت لهم اننى أعرفك ، ووعدتهم بأن أقدمك اليهم ، ليتم التعارف بينك وبينهم . وقد استقبلونى جميعاً كما يستقبلون أخاً ، استقبلونى بكثير من الحرارة . ذكرت لهم اننى على وشك الزواج ، فعاملونى كما يعامل رجل متزوج . انهم يسكنون فى الدور الخامس ، تحت السقف ، ويعقدون اجتماعات كثيرة ، ويؤثرون أن يعقدوا هذه الاجتماعات يوم الأربعاء فى منزل ليون وبوريس. انهم شباب يفيضون نضارة ، ويحبون الانسانية حباً حاراً ، وقد دار حديثنا حول الحاضر ، والمستقبل ، والعلوم ، والادب ، وكان حديثاً جميلا يمتاز بكثير من الصراحة ، والبساطة . وهناك أيضاً طالب من طلاب المدارس الثانوية يشترك فى الاجتماعات . ما أعمق هذه الصلة التى تجمعهم ! ما أنبل قلوبهم ! لم أر فى حياتى أناساً كهؤلاء ! من هم أولئك الذين كنت أتردد اليهم حتى الآن ؟ ماذا رأيت ؟ ما هو الغذاء الذى اغتذيت به ؟ انت وحدك يا ناتاشا كنت تديرين معى أحاديث من هذا النوع . آه يا ناتاشا ! يجب حتما أن ترى هؤلاء الشباب . ان كاتيا تعرفهم ، وهم يتحدثون عنها باحترام يكاد يبلغ حد التقديس ، وقد قالت كاتيا لقريبيها ليون وبوريس انها حين ستملك حق التصرف فى ثروتها ستبادر فوراً الى وقف مليون منها على المصلحة العامة .

فسأله الامير قائلاً :

ـ لاشك ان ليون وبوريس وجماعتهما كلها ، هم الذين سيتصرفون فى هذا المليون .

ـ لا ، لا ، عيب ، يا ابت ، عيب أن نقول هذا الكلام . اننى أدرك

ماتفكر فيه • لقد تحدثنا فعلاً في أمر هذا المليون ، وتناقشنا طويلاً في وجوه انفاقه • وقررنا أخيراً ان نقفه قبل كل شيء على التعليم ••

قال الامير ، كمن يتحدث وحيداً وهو مايزال يبتسم ابتسامته الساخرة :

ـ صحيح ، صحيح • لم أكن أعرف كاترين فيدوروفنا الى الآن • كنت أتوقع منها أشياء كثيرة ، أما هذا ••

فقاطعه اليوشا قائلاً :

ـ ما الذي يبدو لك غريباً كل هذه الغرابة ؟ أأنها تبتعد قليلاً عن مبادئك ؟ أن أحداً لم يضحّ حتى الآن بمليون ، وأنها تفعل ذلك ؟ هذا مايدهشك ، أليس كذلك ؟ أنها لاتحب أن تعيش على حساب الآخرين ؟ أليست المعيشة من هذه الملايين معيشة على حساب الآخرين ؟ لقد عرفت الآن هذه الحقيقة • انها تريد أن تنفع وطنها وأن تنفع الناس وأن تعطي قرشها للمصلحة العامة • لقد حدثونا عن عطاء القرش في دفاتر الخط ، فهل اذا كان القرش مليوناً انقلب العطاء شراً ؟ وعلى أي أساس تستند تلك الحجة التي كنت أعتقد بها اعتقاداً جازماً ؟ لماذا تنظر اليّ هكذا يا أبي فكأن أمامك مهرجاً أو انساناً أبله ؟ ولماذا لا أكون أبله ؟ ليتك يا ناتاشا سمعت كاتيا تقول في هذا الموضوع : « ليس الذكاء هو الشيء الهام بل مايوجه الذكاء ، أي الطبع ، القلب ، النبل ، التقدم » • على ان ما هو أروع من كل ذلك ما عبّر عنه بزميجن • انه صديق ليون وبوريس ، ولا أكتمكم انه دماغ جبار ، أنه عبقري من العباقرة • لقد قال : « يكفي أن يشعر الأبله انه أبله حتى لايكون أبله » ما أصدق هذا الكلام ! انه في كل لحظة يقول عبارات من هذا النوع • انه يبذر الحقائق بذراً •

فقال الامير :

ـ عبقري حقاً •

ـ انت ماتزال تسخر .. الحق اننى لم أسمعك يوماً تقول كلاماً كهـذا الكلام ، لا انت ولا أى شخص من بيئتنا . انتم فى مجتمعكم تفعلون عكس ذلك ، تخفون دائماً كل شيء وتبخسون دائماً كل شيء ، وتريدون أن يتطور كل شيء اتفاقاً وعرضاً . كأن ذلك ليس أقرب الى الاستحالة ألف مرة مما نقوله نحن ونفكر فيه ! ثم تنعتوننا بأننا خياليون! ليتك سمعت ما قالوه لى بالامس .

قالت ناتاشا :

ـ ولكن ماذا تقولون وفيم تفكرون ؟ حدثنا عن هذا أليوشا . فانني لم أفهم عنك تماماً بعد .

ـ نحن نتكلم ، عامة ، عن كل مايقود الى التقدم ويؤدى الى المحبة. نتناقش فى هذا كله بصدد بعض مشكلات الساعة . نتحدث عن الدعاية ، عن الاصلاحات ، عن حب الانسـانية ، عن الرجال العاملين فى عصرنا هذا ، نحللهم ونقرأ مايكتبونه ولكننا قد تعاهدنا ، خاصة ، على أن يصدق بعضنا بعضاً ، وعلى أن نتصارح فى كل مايتصل بنا ، دون تردد أو وجل . فالصدق والصراحة هما مايمكن أن يوصلنا الى هدفنا. ويحرص بزميجين على هذا حرصاً خاصاً . وقد تحدثت الى كاتيا عنه ، فرأيت أنها تضمر له مودة كبيرة . لذلك تعاهدنا جميعاً ، باشراف بزميجين ، على أن نعمل باستقامة وشرف طوال حياتنا كلها ، وعلى ألا يصرفنا عن هدفنا شيء مهما يقل عنا الناس ، ومهما يروا فينا من رأى ، وعلى ألا نستحى مما نطمح الى تحقيقه ، ومما يتأجج فى قلوبنا من حماسة ومما قد نقع فيـه من أخطاء ، وانما نتابع طريقنا قُدُماً . اذا أردت أن تُحترم ، فاحترم نفسك أولاً ، هذا هو الشيء الأساسى . انك لاتسـتطيع أن تحمل الناس على احترامك الا اذا احترمت نفسك . ذلك ماقاله بزميجين . وكاتيا توافقه على هذا الرأى كل الموافقة . وعلى كل حال ، فقد رسخت عقيدتنا الآن ،

وقد عزمنا على أن يعنى كل منا بتثقيف نفسه ، وعلى أن ينتفع كل منا بثقافة الآخر .

صرخ الأمير فى قلق :

ـ ماهذا الهذر السخيف ! ومن هو بزميجين هذا ؟ لا ، لا ، يستحيل أن ندع الأمور تجرى على هذا النحو ..

فأجاب اليوشا :

ـ أى أمور يستحيل أن تدعوها تجرى على هـذا النحو ؟ اسمع يا أبى ، هل تعرف لماذا تحدثت عن هذا كله أمامك ؟ لأننى أريد وآمل أن أدخلك انت أيضاً فى حلقتنا . لقد تعهدت لهم بك . أتضحك ؟ لا بأس . كنت أقدّر انك ستضحك ! ولكن استمع الىّ حتى النهاية . انت رجل طيب القلب نبيل النفس : وستفهم ! انك لا تعرف هؤلاء الناس، لم ترهم يوماً ، ولا سمعت حديثهم . لنسلم بأنك سمعت عن هذا كله ، وأنك درست هذا كله . ذلك انك على جانب عظيم من الثقافة ، ولكنك لم ترهم هم أنفسهم ، لم تجتمع بهم . فكيف تستطيع أن ترى فيهم رأياً عادلا ؟ أنت تتخيل تخيلاً أنك تعرفهم . ولكن لا ؟ تعال اليهم ، واسمع كلامهم ، وأنا كفيل بأنك عندئذ ، ستنضم الينا ، ستكون واحداً منا ! وسأستعمل ، خاصةً ، جميع الوسائل لانتزعك من ذلك المجتمع الذى تحرص عليه كل الحرص ، وترتبط به كل الارتباط ، ولأحررك من اعتقاداتك .

أصغى الأمير الى هذا الكلام الاخير حتى النهاية ، دون أن ينبس بحرف . وكانت تعلو شفتيه ابتسامة مسمومة . كان الشر يُقرأ فى وجهه ، وكانت ناتاشا تنظر اليه باشمئزاز لاتحاول أن تخفيه ، وكان ينظر هو اليها ، ولكنه يتظاهر بأنه لا يلمح هذا الاشمئزاز . حتى اذا انهى

أليوشا كلامه ، انفجر الأمير ضاحكاً يقهقه ، بل انقلب الى وراء وأسند ظهره الى ظهر المقعد ، كأنه أصبح من فرط الضحك لا يقوى على الجلوس • ولكن كان واضحاً أنه يُكره نفسه على الضحك اكراها ، وكان جلياً انه لايضحك الا ليهين ابنه وليذله • وقد جرح أليوشا من ذلك حقاً ، فكان وجهه يعبر عن حزن شديد ، ولكنه لم يفعل شيئاً ، بل انتظر أباه الى آن انتهى من قهقهته ، فاستأنف عندئذ يقول فى شجن :

ـ لماذا تسخر منى يا أبت ! لقد جئت اليك صريحاً ، لا ألف ولا أدور • فاذا كنت ترى ان كلامى سخيف ، فبرهن لى على ذلك ، بدلا من أن تضحك منى • ومم أنت تسخر ؟ مما أراه الآن شيئاً نبيلا مقدساً ؟ قد أكون على ضلال ، قد يكون كل ماقلته خطأ ، قد أكون غبيا كما وصفتنى بذلك غيرَ مرة ، ولكننى ان ضللتِ سواء السبيل ، فانما أضل عن صدق واخلاص • اننى مافقدت نبلى ، واننى أتحمس لافكار سامية • فاذا كانت هذه الافكار خاطئة ، فالأساس الذى تقوم عليه أساس مقدس • قلت لك انك لم تُسمعنى فى يوم من الأيام كلاما يوجهنى ويقودنى ، لا انت ولا ذووك • فأبطل حججى اذا شئت وائتنى بخير منها أتبعك ، ولكن لاتسخر منى ، لان هذا يؤلمنى أشد الايلام •

قال أليوشا ذلك بكثير من النبل والكرامة والوقار • وكانت ناتاشا تنظر اليه نظرة حب ، وكان الامير يصغى الى ابنه دهشا ، ثم لم يلبث أن غير لهجته ، فقال :

ـ لم أشأ يا صديقى أن أجرحك ، وانما أنا أشفق عليك • انك على أبواب خطوة خطيرة فى حياة الانسان ، فما ينبغى أن تظل طفلا طائشا • هذا مافكرت فيه • ولئن ضحكت فقد ضحكت على غير ارادة منى ، ولم يكن فى نيتى أن أهينك أبداً •

فأجاب أليوشا بلهجة مرة :

ـ فلماذا تصورت أنا ذلك اذن ؟ لماذا أشعر منذ مدة طويلة بأنك تراقبني كمن يراقب عدواً ، وتسخر مني ، ولا تنظر الىَّ نظرة أب الى ابنه ؟ لماذا أتخيل أنني لو كنت في مكانك لما ضحكت من ابني هذا الضحك المهين ؟ اسمع يا أبي : يجب أن نتصارح حالا ، مرةً واحدة ، حتى لا يبقى هنالك شيء من سوء التفاهم و ... سأقول الحقيقة كلها : حين دخلت عليكم لاحظت ان ثمة غمغمة هنا أيضا . لم أكن أتوقع أن أجدكم على هذه الحال معا . فاذا صدق ظني ، ألا يكون من الخير أن يعبر كل منا عن عواطفه ؟ ما أكثر الشرور التي يمكن أن نتفاداها بالصراحة !

قال الامير :

ـ تكلم يا أليوشا ، تكلم . ان ماتقترحه علينا يتصف بكثير من الحكمة والذكاء .

ثم التفت الى ناتاشا وتابع يقول :

ـ ربما كان ينبغي لنا أن نبدأ من هنا .

قال أليوشا :

ـ فلا تلمني اذن اذا كنت صريحا كل الصراحة . انت ترغب في هذه الصراحة وانت تحضني عليها . اسمع . لقد وافقت على زواجي بناتاشا . لقد منحتنا هذه السعادة ، ولا شك انك قسوت على نفسك من أجل ذلك . كنت شهما ، وقد قدرنا لك جميعا هذا العمل النبيل . ولكن لماذا تحاول اذن أن تشعرني في كل لحظة بأنني مازلت طفلا سخيفا مضحكا ، وبأنني لا أقدر أن أكون زوجا ؟ لماذا تحاول ذلك وتشعر منه بنوع من الفرح ؟ لماذا تريد أن تجعلني أضحوكة وأن تذلني وأن تبهدلني حتى في نظر ناتاشا ؟ انك تحس بكثير من السرور حين تظهرني بمظهر

الانسان السخيف المضحك • لاحظت ذلك قبل اليوم• لكأنك تحاول أن تبرهن لنا على ان زواجنا خطأ ومستحيل ، وعلى ان أحدنا لايناسب الآخر• لكأنك ، حقا ، لا تؤمن بما تهيئنا له • لكأنك تعد الامر كله مهزلة ، تمثيلية مضحكة ، مسرحية مسلية •• لا أستنتج ذلك من الكلام الذى قلته الآن فحسب ، ففى يوم الثلاثاء ، حين عدت معك ، سمعت منك تعابير خاصة ، فاجأتنى وجرحتنى • وفى يوم الاربعاء ، حين سافرت ، أشرت أيضا الى وضعنا الراهن والى ناتاشا بكلام لا أقول انه يشتمل على اهانة بل أقول اننى كنت أنتظر أن أسمع منك غيره •• كان كلامك خفيفا مسرفا فى الخفة ، كان لايحتوى على شىء من العاطفة ، ولا يعبر عن شىء من الاحترام• يصعب علىّ أن أشرح لك ذلك ، ولكن اللهجة كانت واضحة : ان المرء يحس هذه الامور بقلبه • قل لى اننى على خطأ ، طمئنى ، و •• طمئنها هى أيضا ، لانك جرحتها • لقد أدركت ذلك منذ دخلت عليكم ••

كان أليوشا يتحدث بحرارة وحزم ، وكانت ناتاشا تصغى الى كلامه فى اجلال • كانت منفعلة أشد الانفعال ، وكان وجهها يحترق احتراقاً ، ودمدمت بينها وبين نفسها مرتين أو ثلاث مرات أثناء حديث أليوشا قائلة : « نعم ، نعم صحيح » • وكان الامير مضطرباً فأجاب :

ـ يا صديقى ، لا أستطيع طبعاً أن أتذكر كل ماقلته لك • ولكن من الغريب أن تحمل كلامى على هذا المعنى • اننى مستعد لأن أفعل كل مافى وسعى لأصحح خطأك • لئن ضحكت منذ لحظة ، لقد كان سبب هذا الضحك واضحاً • انما أردت بهذا الضحك أن أخفى مافى قلبى من مرارة • أصبحت أشعر الآن ، حين أتخيل أنك على وشك الزواج ، أن هذا الزواج مستحيل ، سخيف ، بل أحمق ، اغفر لى هذا الكلام • لقد لمتنى على ضحكى ، فاعلم اذن أن هذا كله كان بسببك ، وانى لاعترف بأننى مسئول أيضاً ، فلعلنى لم أحسن مراقبتك فى الآونة الاخيرة • اننى لم

أدرك ما أنت قادر عليه الا فى هذا المساء • اننى لأرتعش الآن خوفاً حين أفكر فى مستقبلك مع ناتاليا نيقولايفنا • لقد تعجلت • انى أدرك فى هذه اللحظة أنكما لا ينـــاسب أحدكما الآخـر • ان الحب ينقضى ، ويبقى الاختلاف • لست أتحدث عن مصيرك أنت ، ولكنى أسألك أن تتصـور (اذا كانت نواياك شريفة) أنك لا تضيِّع نفسك فحسب ، بل تضيِّع معك ناتاليا نيقولايفنا ، ولا يكون يومئذ سبيل الى اصلاح ما فسد • لقد تحدثت الينا الآن ، خلال ساعة برمتها ، عن حب الانسانية ، ونبل العقائد ، وعن أولئك الناس الرائعين الذى انعقدت بينك وبينهم أسباب التعارف • فاسأل ايفان بتروفتش عما قلته له منذ قليل ، حين بلغنا الدور الرابع ، على هذا السلم القذر ، فتوقفنا عند الباب نحمد الله على اننا لم تُدق أعناقنا ولا انقطعت أرجلنا • هل تعرف ما الذى خطر ببالى عندئذ على غير ارادة منى ؟ لقد تساءلت دهشاً : كيف تُطيق ، انت الذى تحب ناتاليا نيقولايفنا كل هذا الحب ، أن تسكنها فى بيت كهذا البيت ؟ كيف لم تشعر ، مادمت لا تملك الوسائل اللازمة للقيام بواجباتك ، بأنك لا تستحق أن تتزوج ، وبأنك لا تستحق أن تتحمل أى تبعة ؟ الحب يابنى لا يكفى : يجب أن تبرهن على الحب بأعمال • وحين تقول لها بينك وبين نفسك : « عيشى معى ، ولو كان عليك أن تتعذبى » لا تكون انسانياً ، ولا تكون على شىء من النبل • لست أفهم كيف تتحدث عن حب البشر ، وكيف تتحمس لقضايا انسانية ، ثم تقترف جرائم فى حق الحب ! لا تقاطعينى ، يا ناتاليا نيقولايفنا ، دعينى أكمل كلامى • ان هذا الامر ليؤلمنى كثيرا ، ويجب أن أفرغ كل ما فى صدرى • قلت لنا يا أليوشا انك فى هذه الايام الاخيرة قد أدركت كل ماهو نبيل وجميل وشريف ، وانت تنعى على بيئتنا انها لا تعرف مثل هذه الحماسة ، ولا تعرف الا صقيع العقل البارد • فانظر قليلاً : كيف تحب ماهو عظيم وجميل ، ثم تهمل ، خلال أربعة أيام ، بعد الذى جرى هنا

يوم الثلاثاء ، تلك التى ينبغى أن تكون أعزّ عليك من كل شيء في هذا العالم ؟ لقد اعترفت أنت نفسك بأنك تشاجرت مع كاترين فيدوروفنا حين ذكرت لها ان ناتاليا نيقولايفنا تحبك كل هذا الحب ، وانها كريمة كل هذا الكرم ، وانها ستغفر لك خطأك . ولكن بأى حق تعتمد على عفوها وتتخذه موضوع رهان ؟ هل فكرت مرة واحدة في أنواع العذاب، وألوان المرارة ، وضروب الشك التى عرضت لها ناتاليا نيقولايفنا في هذه الايام الاخيرة ؟ هل ظننت ان من حقك أن تهمل أول واجب من واجباتك ، لانك تحمست لافكار جديدة ؟ عفوك يا ناتاليا نيقولايفنا ، لقد أخلفت وعدى ، ولكن هذا الأمر أخطر شأناً عندى من الوعد ، ولا شك انك تفهمين ذلك. هل تعرف يا أليوشا انني وجدت ناتاليا نيقولايفنا فريسةً لألوان من العذاب ، ففهمت كيف انك أحلت هذه الايام الاربعة التى يجب أن تكون من أسعد أيام حياتها ، الى جحيم لا يُطاق . هذا انت : أعمال من هذا النوع من جهة ، ومن جهة أخرى كلام ، فكلام ، فكلام . ألست على حق ؟ ونجرؤ بعد ذلك على اتهامى ، وانت انت المذنب .

وتوقف الامير عن الكلام . لقدّ استرسل في فصاحته وبلاغته ، ولم يستطع أن يخفى عنا انتصاره . وحين سمع أليوشا أباه يتحدث عن الآلام التى عانتها ناتاشا ألقى عليها نظرة تفيض بالحـزن الموجع ، ولكن ناتاشا نصرته على أبيه قائلة :

ـ لا تحزن يا أليوشـا . ذنب غيرك أكبر . اجلس واسـتمع الى ما سأقوله لأبيك . لقد آن الأوان .

فقال الامير :

ـ قولى ماتريدين يا ناتاليا نيقولايفنـا .. قولى ماتريدين حالاً ،

أرجوك ، ها قد مضت ساعتان وانت تتحدثين بالغاز • ان هذا لا يُحتمل • واعترف لك بانني لم أكن أتوقع أن أستقبل هذا الاستقبال •

ـ ربما • وذلك لانك تظن ان سحر كلامك يمكن أن يخفي عنا حقيقة نياتك • ماذا يجب أن أقول ؟ انك تعرف كل شيء ، وتفهم كل شيء • اليوشا على حق • ان أعز رغبة في نفسك هي أن تفصل أحدنا عن الاخر • كنت تعرف ماسوف يحدث هنا بعد سهرة يوم الثلاثاء ، كنت تعـرف ذلك حق المعرفة ، لقـد حسبت كل شيء على أصابعك ان صـح التعبير • سبق أن قلت لك انك لا تنظر نظرة الجد ، لا اليّ ولا الى طلب الزواج الذي دبرته في ليـل • انت تتسلى ، انت تعبث بنا ، ولك هدف لايعرفه أحد غيرك • لا أشك أبداً في انك تلعب • ولقد كان أليوشا على حق حين أخذ عليك انك تعد الامر كله مسرحية هزلية • وكان ينبغي اذن أن تُسر لسلوك أليوشا لا أن تلومه وتقرعه ، فانه ، دون أن يدري ، لم يزد على أن نفذ مشيئتك ، ربما مع زيادة قليلة •

صُعقت من الدهشة • كنت أتوقع كارثة في ذلك المساء • ولكن هذه الصراحة القاسية التي عمدت اليها ناتاشا ، وهذا الازدراء الذي خاطبت به الامير دون أن تحاول اخفاءه ، كل ذلك قد شدهني الى أبعد الحدود • قلت في نفسي : لابد انها تعلم اذن شيئاً من الاشياء ، حتى قررت القطيعة بلا ابطاء • بل لعلها كانت تنتظر الامير بصبر فارغ ، كي تقول كل شيء دفعة واحدة أمام وجهه •• وامتقع لون الامير قليلا • وكان وجه أليوشا يعبر عن ذعر ساذج وعذاب قلق •

هتف الامير قائلاً :

ـ راجعي ماقلته ، وزني كلامك قليلا •• أنا لا أفهم ••

فقالت ناتاشا :

ـ ها •• انت لا تريد أن تفهم بكلمتين • حتى هو ، فهمك مثلما فهمتُك ، مع اننا لم نتفق على شيء ، ولا رأى أحدنا الآخر • هو نفسه أدرك انك تلعب بنا لعبة دنيئة مهينة ، مع انه يحبك ويؤمن بك ايمانه بالله • لم تر ان من المفيد أن تكون حذراً ، فمكرت بنا • قدرت انه لن يدرك ألاعيبك • ولكن له قلباً مرهفاً رقيقاً يتأثر ويفهم ، فانطبعت كلماتك ، انطبعت لهجتك ، على قلبه ، على حد تعبيره ••

فعاد الامير يقول ، وهو يلتفت الىّ مشدوهاً ، كأنما ليستشهدني :

ـ لا أفهم ، لا أفهم شيئاً البتة •

كان الأمير حانقاً أشدّ الحنق ، وتابع كلامه متجها الى ناتاشا :

ـ انت سيئة الظن قلقة • كل مافي الامر انك تغارين من كاترين فيدوروفنا • انك قادرة على أن تتهمي الدنيا بأسرها ، وان تتهميني في طليعة من تتهمين •• فاسمحي لي أن أقول ان موقفك هذا يحملني على أن أرى في طبعك رأياً غريباً • انني لم أتعود على فصول من هذا النوع • وما كان لي أن أبقى هنا دقيقة واحدة ، لولا ان مصلحة ابني تقضي بذلك • وهأنا ذا أنتظر ، فهل لك أن تتفضلي بشرح ما تريدين قوله ؟

ـ أتصر اذن على ألا تفهم بكلمتين، رغم انك تعرف الامر كله معرفة تامة • أتصر على أن أخاطبك دون لف أو دوران ؟

ـ لا أريد غير هذا •

ـ حسناً • اسمع اذن • سأقول لك كل شيء •

هتفت ناتاشا بذلك ، وقد اشتعلت عيناها غيظاً •

الفصل الثالث

نهضت ناتاشا ، وأخذت تتكلم واقفـة ، دون أن تلاحظ ذلك من شدة اضطرابها . وراح الأمير يصغى ، ونهض هو أيضا . وانقلب المشهد خطيراً مسرفاً فى الخطورة .

بدأت ناتاشا بقولها :

ـ هل تتذكر ما قلته يوم الثلاثاء ؟ لقد قلتَ « انك تريد مالاً ، وطرقاً ممهدة ، وشأناً نابهاً فى المجتمع . » هل تتذكر ؟

ـ نعم .

ـ حسناً . انك من أجل الحصول على هذا المال ، ومن أجـل الظفر بهذه الانواع من النجاح التى كانت تتسلل من بين يديك ، انما جئت الى هنا يوم الثلاثاء ، ولفقت تلك الخطبة ، معتمداً على ان هذا اللعب سيساعدك على تدارك ماكان يفوتك .

فصرخت قائلا :

ـ ناتاشا ، ماهذا الذى تقولين ؟

فكرر الامير يقول كمن جرحت كرامته :

ـ لعب ؟ حساب ؟

وكان أليوشا ، وقد هـده الحزن ، ينظر ولا يكاد يفهم . وتابعت ناتاشا كلامها تقول ، وقد بلغت غاية الغضب :

ـ نعم ، نعم ، لا تقاطعنى ، لقد حلفت لأقولنّ كل شىء • تتذكر أن أليوشا كان قد خرج على طاعتك ، وأصبح لاينقاد لك ، فقد جهدت خلال ستة أشهر أن تفصله عنى ، فلم تظفر بذلك • وفجأة لاحظت ان الزمن يسبقك ، فان تركت الفرصة تفلت ضيعت الخطيبة والمال ، وخاصة المال ، ثلاثة ملايين • فلم يبق أمامك الا وسيلة واحدة هى أن يحب أليوشا الفتاة التى تريد أن تخطبها له • لقد قدرت انه سيهجرنى اذا هو أحبها •

فصرخ أليوشا حزيناً يقول :

ـ ناتاشا ، ناتاشا ، ماهذا الذى تقولين ؟

وتابعت ناتاشا كلامها دون أن تعبأ بصرخة أليوشا :

ـ هذا مافعلته ، ولكن القصة القديمة تكررت • وكان يمكن أن يتم كل شىء لولا اننى أفسدت عليك خطتك مرة أخرى ! كان هناك أمر واحد يمكن أن يبعث فيك الأمل : لعلك كنت قد لاحظت ، بما لك من خبرة وتجربة ، انه كان يبدو على أليوشا فى بعض الاحيان انه سئم علاقته القديمة • لا شك انك رأيت انه أخذ يهملنى قليلاً ، وانه أخذ يضجر منى ، وانه صار يتغيب عنى فى بعض الأحيان خمسة أيام متتالية • فأملت أن يسأمنى تماماً وأن يهجرنى ، ولكن سلوكه يوم الثلاثاء الماضى عاد فقلب مشاريعك رأساً على عقب •• فتساءلت : ماعساك تفعل ؟

فهتف الامير قائلا :

ـ أرجوك ، هذه الواقعة ، بالعكس •

فقاطعته ناتاشا بحزم تقول :

ـ تساءلت فى ذلك المساء ما عساك تفعل ، وقررت أن توافق على زواجنا لا موافقة صادقة ، بل هكذا •• بالكلام ، لتهدّئه • قلت فى نفسك : اننى أستطيع أن أؤخر موعد الزواج ماشئت التأخير ، وفى أثناء

ذلك يكون قد نشأ حب جديد . لقد لاحظت انت نشوء ذلك الحب ، وعليه بنيت خطتك .

قال الامير بصوت منخفض ، كأنما يخاطب نفسه :

ـ كلام روايات ، كلام روايات . هـذا ما تفعله العزلة والأحلام وقراءة الروايات !

وعادت ناتاشا تقول ، دون أن تسمع كلام الامير ودون أن تنتبه اليه :

ـ نعم ، بنيت خطتك كلها على هذا الحب الجديد .

لقد استبدت بناتاشا حماسة محمومة ، وكانت تزداد اندفاعا شيئاً بعد شيء ، وتابعت كلامها تقول :

ـ وكان حظ هذا الحب من النماء حظاً كبيراً . كان قد نشا فى قلب أليوشا من قبل أن يكتشف جميع ماتتصف به تلك الفتاة من مزايا وحسنات، وفى اللحظة التى صرح لها ، ذلك المساء ، بأنه لايستطيع أن يحبها ، لان الواجب وحباً آخر يحولان بينه وبين ذلك ، أظهرت له من النبل ومن العطف عليه وعلى غريمتها ومن سمو النفس ماجعله رغم اعترافه قبل ذلك بجمالها ، يحس انه لم يدرك قبل الآن أنها جميلة كل هذا الجمال ، حتى اذا جاء الىّ لم يتحدث الا عنها ، فلقد أثرت فيه تأثيراً قوياً حتى ملكت عليه عقله . وشعر ، منـذ الغد ، بحاجة قاهرة الى رؤية تلك الانسـانة الرائعة ، من قبيل الاعتراف بالجميل فى أقل تقدير . ولمـاذا لا يذهب اليها ؟ ان الاخرى ، أعنى الاولى ، لا تتألم ، فقد تقرر مصيرها ، وسيهب لها حياته كلها ، وهو لايقضى هنا الا دقيقة واحدة ، ولسوف تكون ناتاشا تلك عاقة كثيراً اذا هى غارت من هذه الدقيقة ! وبدون أن يشعر ، يُنتزع من ناتاشا هذه ، لا دقيقةً واحدة ، بل يوماً ثانياً ، فيوماً ثالثاً ، وأثناء ذلك تبدو له الفتاة فى ضوء جديد لا عهد له به من قبل ، فهى نبيلة القلب ،

شديدة الحماسة ، وهى فى الوقت نفسه ساذجة كأنها طفلة ، وهى فى هذا تشبهه كثيراً ، فيتواعدان على أن يظلا صديقين مدى الحياة ، وعلى أن يكونا أخاً وأختاً لا يترك أحدهما الآخر ، وبعد خمس أو ست ساعات من الحديث تتفتح نفسه لمشاعر جديدة يستسلم لها قلبه كله ، وتقترب اللحظة الحاسمة . هذا مافكرتَ فيه : سوف يقارن عندئذ بين حبه القديم من جهة وبين حبه الجديد واحساساته الجديدة من جهة أخرى . أما فى الجهه الأولى فكل شىء معروف ، معتاد ، جاد : مطالب وغيرة ومشاجرات ودموع ، وهنالك لايمازحونه ولا يلاعبونه كما يمازح ويلاعَبُ ندٌ من الانداء ، بل طفل من الاطفال .. هنالك ، خاصة ، كل شىء قديم العهد ..

وخنقتها الدموع وسورة اليأس ، ولكنها سيطرت على نفسها وتابعت تقول :

ـ وبعد ذلك ؟ بعد ذلك يُترك الامر للزمن : ان الزواج بناتاشا لا يحدد فوراً ، ويأتى الزمن فيبدل كل شىء . وتستطيع أيضاً أن تؤثر بكلماتك وارشاداتك وبراهينك وبلاغتك .. تستطيع أن تقدح فى ناتاشا المزعجة وأن تذمها . تستطيع أن تصورها فى صورة قبيحة .. ولا يدرى أحد ما يكون بعد ذلك ، ولكن النصر يكون حليفك ! لا تؤاخذنى يا أليوشا ، يا صديقى . لا تقل اننى لا أفهم حبك ، واننى لا أقدره حق قدره . أنا أعلم أنك مازلت تحبنى ، وأنك قد لاتفهم فى هذه اللحظة ما أشتكى منه . وأنا أعلم أننى أسىء التصرف حين أقول هذا الكلام كله . ولكن ماحيلتى ، وأنا أرى ما أرى ، ماحيلتى وحبك فى قلبى يقوى يوماً بعد يوم ، ويصير الى مايشبه الجنون .

قالت ذلك ثم غطت وجهها بيديها ، وارتمت على مقعدها ، وأخذت تجهش فى البكاء كطفل . فصرخ أليوشا ، وأسرع اليها ، وكان لايستطيع أن يراها باكية دون أن يبكى .

استفاد الامير من هذا النحيب فائدة كبيرة • ان هذه الحماسة التى أظهرتها ناتاشا خلال حديثها الطويل ، وهذا الاندفاع فى هجومها الذى كان ينبغي أن يُظهر استياءه منه واستنكاره له وأن يعده اهانة لحقت به ، هذا كله أصبح يمكن أن يعتبر الآن نوبةً جنونية من نوبات الغيرة ، وأن يرجع الى شدة الحب الذى أهين ، بل الى المرض أيضاً • وكان من اللباقة من جانب الامير أن يظهر شيئاً من العطف ، فقال يواسيها :

ـ هدئى نفسك يا ناتاليا نيقولايفنا ، هدئى نفسك• هذا كله من فرط الحماسة والاحلام والعزلة • لقد اثار حفيظتك بخفته وسلوكه • ولكن ذلك كله لم يكن من جانبه الا طيشاً • ان أهم شيء أوضحت قيمته ، وهو ماحدث يوم الثلاثاء ، كان ينبغي أن يقنعك بعمق حبه لك وتعلقه بك ، ولكنك بدلا من ذلك أخذت تتخيلين •••

فقاطعته ناتاشا ، وهي تبكي بكاء مراً ، بقولها :

ـ آه ، لاتكلمنى ، لاتعذبنى ، دعني وشأنى فى هـذه اللحظة على الاقل • لقد قال قلبى ذلك كله منذ مدة طويلة • هل تظن اننى لا افهم ان حبه القديم قد انقضى وانتهى الامر ؟ •• هنا ، فى هذه الغرفة ، حين كان يتركنى ، حين كان ينسانى ، كنت أقبع وحيدة ••• أعيش هذا كله •• وأفكر فى هذا كله ، وأعيد التفكير فيه ••• ماذا كان فى وسعى أن أعمل؟ لا أتهمك يا أليوشا ، لماذا تحاول أن تخدعنى ؟ هل تظن اننى لم أحاول أن أخدع نفسى ؟ آه ، كم مرة ، كم مرة ، حاولت ذلك ! •• وكنت أتجسس على كل نبرة من نبراته ، وأرصد كل حركة من حركات وجهه وعينيه •• لقد تعلمت ان أقرأ فى وجهه وفى عينيه •• ضاع كل شيء ، مات كل شيء ••• ما أشقانى ! ••

كان اليوشا يبكى ، راكعاً أمامها ، وأخذ يردد من خلال النحيب :

ـ نعم نعم ، الذنب ذنبى ، الذنب ذنبى •••

ـ لا لست أتهمك يا اليوشا •• ليس الذنب ذنبك •• هناك آخرون •• أعداؤنا •• انهم هم •• هم •

فصرخ الامير ، بشيء من نفاد الصبر :

ـ ولكنني أستميحك العذر أخيراً : على أي أساس تسندين الي كل هذه الجرائم ؟ كلامك كله افتراضات لا برهان عليها •••

فصرخت ناتاشا تقول ، وقد نهضت عن مقعدها :

ـ تريد براهين أيها الرجل الماكر ؟ ماكنت تستطيع أن تفعل غير هذا حين جئت الي بعرضك ! كان لابد لك أن تهدىء ابنك ، وأن تنيم مايشعر به من عذاب الضمير ، حتى يستطيع أن يستسلم لكاتيا بمزيد من الحرية • وبدون ذلك ، كان لابد أن يتذكرني ، وكان لابد أن يتمرد ، وكان لا بد أن تضيق أنت ذرعاً بالانتظار • أليس هذا صحيحاً ؟

فأجاب الامير ، وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

ـ أعترف انني لو أردت أن أخدعك لقمت حقاً بهذا الحساب • انك تملكين كثيراً من نفاذ البصيرة : ولكن قبل أن توجهي الى الناس مثل هذه الملامات ، يجب أن تبرهني •••

ـ أبرهن ؟ فكيف تعلل اذن سلوكك السابق ، حين كنت تحاول أن تنتزعه مني • ان من يعلم ابنه أن يحتقر مثل هذه الواجبات ، وأن يعبث بها ، حباً بالظهور في المجتمع ، وطمعاً في المال ، انما يفسده ! ماذا قلت منذ لحظة عن السلم ، وعن هذا البيت الحقير ؟ الست انت الذي منعت عنه ماكنت تعطيه من مال ، وذلك كي تكرهنا بالبؤس والجوع على الانفصال ؟ انت انت السبب في هذا البيت وفي هذا السلم ، ثم تلومه بعد ذلك عليهما أيها المحتال ! ومن أين أتتك في ذلك المساء ، فجأة ، تلك الحماسة ، وتلك الاعتقادات التي لا عهد لمثلك بها ؟ ولماذا شعرت بتلك

الحاجة كلها الىّ ؟ اننى طوال الأيام الأربعة الماضية ، لم أزد على أن أذرع الغرفة جيئة وذهاباً : فكرت فى كل شىء ، ووزنت كل شىء ، أنعمت النظر فى كل كلمة من كلماتك وحللت كل تعبير من تعابير وجهك ، فانتهيت الى الاعتقاد بأن ذلك كله كان تصنعاً ، بأن ذلك كله لم يكن الا مزاحاً ، لم يكن الا مهزلة مهينة ، خبيثة ، حقيرة ... ذلك اننى أعرفك ، أعرفك منذ مدة طويلة . كنتُ كلما أتى الىّ اليوشا من عندك ، أقرأ فى وجهه كل ماقلتَه له ، وكل ما أوحيت به اليه . عرفت كل أساليبك فى التأثير فيه ! لا، لا، انت لا تستطيع أن تخدعنى ! قد تكون لك حسابات أخرى، وجائز اننى لم أضع يدى على الشىء الاساسى بعد ، ولكن لا قيمة لهذا .. الامر المهم هو انك كذبت علىّ ... هذا ما وجب أن أقوله لك صراحة بلا لف ولا دوران ! ..

ـ أهذا كل شىء ؟ أهذه هى براهينك كلها ؟ ولكن فكرى فى الامر بعد هذه الحماسة الشديدة : لو كان ماتم فى يوم الثلاثاء حيلةً كما تقولين، لكانت هذه الحيلة تورطنى كثيراً ، ولكان ذلك منى طيشاً أى طيش ! ..

ـ فيم كنت تورط نفسك ؟ هل لمخادعتى من قيمة فى نظرك ؟ هل لاهانة فتاة حقيرة من شأن عندك ؟ لست فى نظرك الا ابنة هاربة ، شقية، عزلاء ، نبذها أبوها ، فليس هناك من يدافع عنها . لست فى نظرك الا ابنة تجردت من الاخلاق ، ولوثت شرفها بارادتها .. فهل تستحق منك مثل هذه الفتاة أن تمتنع عن المزاح معها ، اذا كان هذا المزاح يعود عليك بأى نفع مهما يكن ضئيلاً ؟

ـ فى أية منزلة تنزلين نفسك يا ناتاليا نيقولايفنا ؟ فكرى فى الامر . انك تصرين على القول بأننى اهنتك . ولكن هذه الاهانة التى تتخيلينها فادحة مخزية مذلة .. لا افهم كيف تفترضين هذا ، وكيف تصرين عليه. لا بد فى الواقع ان يخرج المرء على اشياء كثيرة حتى يقبل ذلك بمثل هذه

السهولة ، عفوك اذا قلت هذا الكلام • ان من حقى ان اوجه اليك بعض اللوم ، لأنك تستعدين ابنى علىَّ • ولئن لم يناصبنى العداء فى هذه اللحظة دفاعاً عنك ، فلاشك انه يشعر نحوى بالعداوة •••

فصرخ اليوشا يقول :

ـ لا يا ابى ، لئن لم اناصبك العداء ، فلأننى اعتقد أنك لم تهنها ، ولاننى لا استطيع ان اصدق ان فى وسع انسان أن يهين احداً بهذه الطريقة !

فهتف الامير يسأل ناتاشا :

ـ هل تسمعين ؟

ـ ناتاشا ، الذنب كله ذنبى ، فلا تتهميه • انها خطيئة فظيعة •

فصرخت ناتاشا توجه الكلام الىَّ قائلة :

ـ هل ترى يافانيا ؟ هو ذا ضدى •

فقال الامير :

ـ كفى كفى • يجب ان ننهى هذا الفصل المؤلم • ان هذه الغيرة العمياء الخانقة ترسم لى صورة عن طبعك جديدة كل الجدة • لقد تعجلنا كثيراً ، نعم لقد تعجلنا كثيراً • انك لا تدركين مدى الجرح الذى احدثته فى نفسى ، ذلك ان هذا الجرح لا يهمُّك • لقد تعجلنا كثيراً ، لقد اسرفنا فى التعجل • صحيح ان عهدى الذى قطعته عهد مقدس ، ولكن ••• ولكننى اب ، واريد لابنى السعادة •

فصرخت ناتاشا ، وقد خرجت عن طورها :

ـ أتسحب اذن وعدك ؟ اذن فاعلموا اننى منذ يومين ، وانا وحيدة

هنا ، قد قررت ان ارد اليه وعده ، وهاءنا ذا أؤكد الآن ذلك امامكم جميعاً انني أرفض الزواج من اليوشا •

ـ ربما كان معنى ذلك انك تريدين ان تجددى فى نفسه كل انواع القلق التى كان يعانيها ، تريدين ان توقظى فى نفسه الشعور بالواجب ، تريدين ان تحيى فى قلبه ما كان يشعر به من «اضطراب بصدد واجباته» (كما عبرت عن ذلك بلسانك منذ هنيهة) ، وذلك من اجل أن تشديه اليك مرة اخرى ، كما شددته اليك فى الماضى • ان ما اقوله الآن ينحدر من نظريتك نفسها ، ولهذا أقوله • ولكن حسبنا هذا الآن، ولنترك الأمر للزمن • سأنتظر لحظة هادئة نتباسط فيها • آمل ان لا تكون علاقاتنا قد انقطعت انقطاعاً نهائياً • وآمل أيضاً أن يتغير رأيك لأنّ ، وأن تقدريني اكثر مما قدرتني الى الآن • كنت اريد اليوم ان اطلعك على مانويته بصدد اهلك •• ولكن حسبنا هذا الآن ••

ثم التفت اليّ وأضاف يقول ، وهو يقترب مني :

ـ يا ايفان بتروفتش ، يسرني الآن اكثر من اى وقت مضى ان نتعارف تعارفاً اعمق ، لست افصح بهذا عن رغبة تساورني منذ مدة طويلة فحسب ، ولكنني آمل انك ستفهمني • هل تسمح لى بزيارتك ذات يوم قريب ؟•

فانحنيت• كان يبدو لى انني لا أستطيع الآن أن أتحاشاه• فصافحني وحيّا ناتاشا صامتاً ، وخرج خروج من جرحت كرامته •

الفصل الرابع

ظللنا دقائق لا ننطق بحرف . كانت ناتاشا واجمة تفكر ، حزينة مهدمة ، فارقتها قواها كلها دفعة واحدة. كانت تنظر الى أمام دون أن ترى شيئاً، كأنها غائبة عن نفسها، وكانت ممسكة بيد أليوشا، وكان أليوشا يبكى بلا ضوضاء ، ويلقى على ناتاشا نظرة وجلة مستطلعة من حين الى حين .

وأخذ أخيراً يعزيها على خجل ، ويضرع اليها ألا تغضب ، ويتهم نفسه . كن واضحا انه يريد أن يبرىء أباه ، وأن ذلك كان يثقل عليه كثيراً . حاول عدة مرات أن يتحدث فى هذا الموضوع ، ولكنه لم يجرؤ أن يعبر عما فى نفسه تعبيراً واضحا ، مخافة أن يوقظ سخط ناتاشا ، فكان يحلف لها ان حبه حب أبدى لايتغير ، ويبرر علاقاته بكاتيا فى كثير من الحرارة ، ويردد بلا توقف انه لايحب كاتيا الا كما يحب أخ أخته الطيبة الرائعة التى لايستطيع أن يهجرها هجراً تاما ، وانه لو فعل لكان ذلك منه غلظة وقسوة . وكان يؤكد لناتاشا انها لو عرفت كاتيا لاصبحتا فوراً صديقتين لا تفترقان أبداً ، فما يبقى بعدئذ أى سوء تفاهم . وكانت هذه الفكرة تعجبه بين سائر الافكار . لقد كان المسكين صادقا كل الصدق ، وكان لايفهم مخاوف ناتاشا ، حتى ليمكن أن نقول انه لم يدرك ما قالته ناتاشا لابيه ، فكل ما أدركه هو ان أباه وناتاشا قد تشاجرا ، وكان ذلك هو مايحز فى نفسه خاصة .

سألته ناتاشا :

ـ هل تلومنى على ما بدر منى نحو أبيك ؟

فأجاب بمرارة :

ـ كيف ألومك وأنا سبب كل شيء ؟ كيف ألومك وأنا المذنب ؟ أنا الذى دفعتك الى الغضب ، حتى اذا استبد بك الغضب ، أخذت تتهمينه حتى تبرئينى • انك تبرئيننى دائماً ، وأنا لا أستحق ذلك • كان لابد من آن تلقى التبعة على أحد ، فألقيتها عليه •

واضاف أليوشا هاتفاً فى حرارة :

ـ ولكنه ليس هو المذنب • أمن أجل هذا جاء الى هنا ؟ أهذا ما كان يتوقعه ؟

ولكن أليوشا رأى ناتاشا تنظر اليه نظرة عتب حزين ، فسرعان ما فقد ثقته بنفسه ، وقال :

ـ لا ، لن اقول شيئاً ، انا سبب كل شيء !

فقالت ناتاشا فى جهد :

ـ نعم يا أليوشا ، لقد مرّ بيننا ، فهدّم أمننا الى الأبد • كنت تصدقنى دائما اكثر مما تصدق اى انسان آخر ، اما الآن فقد سكب فى قلبك الشك وسوء الظن : انك تخطّئنى • لقد سلبنى نصفَ قلبك • بيننا الآن ظل •

ـ لا تقولى هذا الكلام يا ناتاشا • لماذا تقولين ان بيننا ظلاً ؟

لقد جرحه التعبير •

واردفت ناتاشا تقول :

ـ لقد اجتذبك اليه بنبل مصطنع وكرم كاذب ، وسيستعديك علىّ بعد الآن مزيداً من الاستعداء •

فهتف اليوشا يقول بحرارة :

ـ اقسم لك ان لا •• ولئن قال « اننا تعجلنا كثيراً » ، لقد دفعه الى هذا القول انه كان مستاءً • سترين غداً ، او ذات يوم قريب ، أنه سيتراجع عن هذا الكلام • واذا بلغ به الغضب ان اصبح لا يوافق على زواجنا ، فلن اطيعه •• اقسم لك • ربما اقوى على هذا ••

ثم هتف فجأة ، وقد تحمس للفكرة التى راودته :

ـ هل تعرفين من الذى سيساعدنا فى الأمر ؟ انها كاتيا •• سترين، سترين نبل هذه الانسانة الرائعة • سترين هل تريد حقاً ان تنافسك وان تفرق بيننا ! لقد ظلمتنى كثيراً ، منذ قليل ، حين زعمت اننى من اولئك الذين يمكن ان يزول حبهم بعد الزواج بيوم • لشد ما آلمنى ان اسمع منك هذا الكلام ! لا ، لست كذلك • واذا كنت أذهب كثيراً الى كاتيا ••

ـ ارجوك يا أليوشا ، اذهب اليها ما شئت • ليس هذا ما أردت أن اقوله • انك لم تفهم ما اردت ان أقوله • كن سعيداً مع من تشاء • ولست استطيع على كل حال ، ان اطلب من قلبك اكثر مما يقدر ان يعطينى ••

ودخلت مافرا •

ـ هل اقدم لكم الشاى ؟ ان الماء يغلى فى السماور منذ ساعتين • شىء عظيم ! الساعة الان الحادية عشرة •

كانت مافرا تتكلم بفظاظة وغضب • كان واضحاً انها مستاءة ، وانها حانقة على ناتاشا • والحق انها خلال تلك الايام كلها ، منذ يوم الثلاثاء ، قد بلغت من شدة فرحها بأن سيدتها الشابة (التى تحمل لها حباً جماً) ستتزوج قريباً ، انها نشرت الخبر فى العمارة كلها ، ونقلته الى الجيران ، ورددته فى الدكاكين ، وابلغته للبواب• وقد اعتزت بذلك كثيراً ، فرددت

للناس في كثير من الخيلاء ، ان الأمير ، وهو رجل خطير الشأن ، واسع الغنى برتبة جنرال ، قد جاء بنفسه الى سيدتها ، يخطبها لابنه ويسألها ان توافق على زواجها به ، وانها ، اى مافرا ، قد سمعت ذلك كله بأذنيها . ثم ها هو هذا كله يذهب ادراج الرياح ، كالدخان . فلقد خرج الأمير غاضبا ، حتى ان الشاى لم تقدم اليه ، ولا شك ان الآنسة هى السبب فى هذا كله . لقد سمعتها مافرا تخاطب الامير بغير أدب .

أجابت ناتاشا :

ـ نعم هاتي الشاى .

ـ والمقبلات ايضا ؟

وأخذت ناتاشا تضحك . قالت مافرا :

ـ أهكذا ، بعد كل ما هيأناه ؟ لقد انهدت قواى من التعب ، حتى صرت لا أحس بساقيّ منذ أمس . لقد ركضت أشترى الخمر من شارع نفسكى ..

وخرجت ، واغلقت الباب بقوة من شدة الحنق .

فاحمرت ناتاشا ، والقت عليّ نظرة غريبة .

وجاءتنا مافرا بالشاى والمقبلات : بط ، وسمك ، وزجاجتان من اجود الخمر اشترتهما مافرا من عند اليسييف . وسألتنى مافرا قائلة :

ـ فيم اذن حضرنا هذا كله ؟

قالت ناتاشا ، وهى تقترب من المائدة ، خجلةً حتى امامى :

ـ هذا أنا يا فانيا . كنت أحس أن كل شيء سينتهى اليوم الى هذه النهاية ، ومع ذلك كنت آمل ان ينتهى الى غير هذه النهاية . كنت آمل ان يجيء أليوشا ، فيدخل الطمأنينة الى قلبى ، فنتصالح .. كنت آمل ان

اجد شكوكي في غير محلها ، وان اقتنع بأنني كنت واهمة •• ومن اجل ذلك حضرّت هذه المقبلات ، لانني قدرت ان حديثنا سيطول الى ساعة متأخرة ••

مسكينة ناتاشا • لقد احمرت احمراراً شديداً وهي تقول هذا الكلام • وثارت حماسة أليوشا فقال :

ـ هل ترين ياناتاشا ؟ انت نفسك ما كنت واثقة من هذه الشكوك التي روادتك •• منذ ساعتين كنت غير واثقة منها ! لا ، لا ، يجب ان نصلح الامر • انا المذنب • عليّ تقع تبعة كل ماوقع ، وعليّ يقع عبء اصلاح ما فسد • ناتاشا ، اسمحي لى ان امضي الى ابي فوراً • يجب ان اراه • لقد جُرح • لقد أهين • يجب ان أواسيه • سوف اشرح له كل شيء ، وسأتكلم باسمي وحدى ، لا أقحمك فى الموضوع • سأسوّى كل شيء • لا تؤاخذيني اذا تركتك الآن وذهبت اليه • ليس الموضوع انني اشفق عليه •سترين انه سيبرىء نفسه امامك ، سترين • سأكون هنا غداً ، منذ الفجر •• وسأبقى معك النهار كله ، لا اذهب الى كاتيا •

لم تمنعه ناتاشا من الخروج ، بل نصحته بأن يمضي • كانت تخشى أشد الخشية ان يبقى أليوشا الى جانبها مكرها ، فيسأمها • ولكنها طلبت اليه ان لا يتكلم باسمها ، وحاولت ان تبتسم له ابتسامة مرحة وهي تودعه • وكان يهم أن يخرج حين عاد اليها فجأة ، فتناول يديها ، وجلس الى جانبها ، واخذ ينظر اليها فى كثير من الرقة والعطف •

ـ ناتاشا ، صديقتى ، ملاكى ، لا تحنقى عليّ ، لن نختصم بعد اليوم أبدا • عدينى بأن تصدقيني دائماً فى كل شيء ، وسأصدقك انا ايضاً فى كل شيء • اسمعى ، سأقص عليك امراً • فى ذات يوم ، تشاجرنا ، لا أذكر الآن لماذا • كنت انا المذنب • وأصبحنا لا نتبادل الكلام • لم أشأ

أن اكون البادىء بطلب العفو ، وكنت حزيناً اشد الحزن . فجعلت أضرب في الشـوارع على غير هـدى ، ثم ذهبت الى بعض الاصدقاء ، وأنا اكاد أختنق من الحزن .. راودتني فكرة ، قلت في نفسي : ترى لو مرضت ناتاشـا ، فماتت ، ما عسى أن تصـير اليه حالتي ؟ فلما تصـورت هذا ، أصابني يأس شديد كأن الأمر وقع فعلاً ، واشتدت عليّ وطأة هــذه الافكار ، وازداد حـزني الرهيب ، ثم تخيلتني جاثيـاً على قبرك فاقـد الوعي ، احيطه بذراعي وقد هدني الألم ، ورأيتني اقبل القبر ، وأناديك، أسألك أن تخرجي اليّ ولو دقيقة واحـدة ، وأضرع الى الله أن يحقق معجـزة من معجـزاته ، فيبعثك أمامي لحظة ، فأرتمي عليـك ، وآلفك بذراعي ، وأعانقـك ، واقبلك .. وخيـل الى أنني سـأموت من فرط السعادة اذا استطعت أن أحيطك بذراعي مرة أخرى ، خلال ثانية ، كما كنت أفعل في الماضي . ثم قلت في نفسي وأنا أتخيل هـذا : أأضرع الى الله أن يردها اليّ لحظة واحدة ، ونحن نعيش معاً منذ ستة شهور ؟ ما أكثر ما اختصمنا خلال هذه الشهور السـتة ، وما أكثر الايام التي قضـيناها لا نتبادل الكلام !.. كنا نتشاجر أياماً بكاملها ، ونغفل عن سعادتنا .. ثم أسألك أن تخرجي اليّ من القبر ولو دقيقة واحــدة ، وأشـعر انني قادر على ان أدفع حياتي كلها ثمناً لهذه الدقيقة . حين تخيلت هذا كله ، لم أملك أن أقاوم ، فهرعت اليك فوراً ، فلما وصلت كنت تنتظرينني ، وأذكر أنني حين تعانقنا لنتصالح ضممتك الى صدري ضماً قوياً جداً ، كأنني كنت أوشك ان افقدك فعلاً . ناتاشـا ! يجب ان لا نختصم بعد الآن أبداً . ان هذا يؤلمني كثيراً .. رباه ! هل يمكن ان يخطر ببالي ان في وسعي ان أتركها !..

كانت ناتاشا تبكي . وتعانقا عناقاً شديداً . وحلف لها أليوشا مرة

أخرى أنه لن ينفصل عنها مدى الحياة . ثم أسرع يمضي الى أبيه . كان مقتنعاً اقتناعاً جازما بأنه سيرتب كل شيء .

قالت لي ناتاشا وهي تشد على يدي شداً يشبه أن يكون تشنجاً :

ـ انتهى كل شيء ، ضاع كل شيء . انه يحبني ، وسيظل يحبني ، الى الأبد . ولكنه يحب أيضا كاتيا ، وما هي الا فترة وجيزة حتى يحبها أكثر مما يحبني . ان هذا الأمير ، هذا الثعبان ، لن يغفل .. وعندئذ ..

ـ ناتاشا ، أنا أيضا اعتقد أن الامير يراوغ ، ولكن ..

ـ انت لا تعتقـد بكل ما قلته له ، رأيت ذلك في وجهك . ولكن انتظر ، فسترى من تلقاء نفسك أنني على حق . ذلك أنني لم أتحدث الا في أمور عامة ، ولا يعلم الا الله ماذا يبيت ايضا . انه رجل فظيع . خلال هذه الأيام الاربعة التي كنت أذرع فيها الغرفة جيئة وذهابا ، أدركت كل شيء . لقد أراد أن يحرر قلب أليوشا من الحـزن الذي يمنعه من أن يخفق ، أراد أن يخفف عنه وطأة الواجبات التي يشعر بها من حبه لي ، فلفق هذه الخطبة ، ليدسّ نفسه بيننا ، وليسحر أليوشا بنبله وكرمه . هذا صحيح ، يا فانيا . ذلك هو أليوشا . كان سيطمئن عليّ ، كان سيهدأ قلقة عليّ ، قائلا لنفسه : « انها الآن زوجتي ، وهي اذن معي الى الأبد »، وكان سيزداد التفاتاً الى كاتيا وعناية بها ، على غير ارادة منه ، ولا شك أن الأمير قد لقن كاتيا هذه الدرس ، وأدرك أنها تناسبه ، وانها تستطيع ان تجتذبه اكثر مني . وا أسـفاه يا فانيا . ان رجائي كله معقود عليك الآن . انه يريد ان يوثق علاقتـه بك فاستحلفـك بالله ان لا ترفض ، وافعل كل ما تسـتطيع فعله حتى تدخل الى بيت الكونتيسـة ؟ واعرف كاتيا ، وراقبها وقل لي من تكون . انا في حاجة الى ذهابك الى هناك . ما من أحد يمكن أن يفهم مثلك ، وستعرف ما عسى أن يفيدني . وراقب ايضا مدى صداقتهما ، وانظر ما بينهما ، واعـرف عم يتحدثان . وأنعم

النظر ، خاصة ، فى كاتيا .. برهن لى مرة أخرى على صداقتك ، يا صديقى العزيز اللطيف ، يا فانيا ، لم يبق لى أمل فى غيرك !

حين عدت الى بيتى كان الليل قد انتصف . وجاءت نللى تفتح لى الباب ، وقد ظهرت فى وجهها آثار النوم ، فابتسمت ونظرت الىّ نظرة فرحة . كانت المسكينة تلوم نفسها على أنها غفت . كانت تتمنى أن تنتظرنى الى ان اعود . وقالت ان شخصا جاء يسأل عنى ، وانه انتظرنى بعض الوقت ، ثم ترك لى رسالة على المنضدة . كانت الرسالة من ماسلوبويف . انه يطلب الىّ أن أذهب اليه غدا ، فى الساعة الواحدة . كنت أود لو أسأل نللى بعض الأسئلة ، ولكننى أرجأت ذلك الى غد ، وأصررت عليها أن تنام . كانت الطفلة المسكينة قد أخذ منها التعب كل مأخذ وهى تنتظرنى ، ولم تنم الا قبل وصولى بنصف ساعة .

الفصل الخامس

في صباح الغد ذكرت لى نللى تفاصيل غريبة عن زيارة البارحة . وكان من المستغرب أصلا أن يفكر ماسلوبويف فى زيارتى ، ذلك المساء . فقد كان يعرف أننى لن أكون فى البيت ، انبأته بذلك حين لقيته آخر مرة ، وكان يتذكره جيداً . قالت نللى انها فى أول الأمر لم تشأ أن تفتح له الباب ، لأنها خافت ، وكانت الساعة قد بلغت الثامنة من المساء ، ولكنه توسل اليها أن تفتح ، مدعياً أنه ان لم يترك لى رسالة ، فسيصيبنى غداً سوء . فلما سمحت له أن يدخل كتب الرسالة فوراً . ثم اقترب منها وجلس الى جانبها على الأريكة . قالت نللى :

« فنهضت من مكانى ولم أشأ أن أكلمه ، لأننى خفت منه خوفاً شديداً . فأخذ يحدثنى عن بوبنوفا ، وقال انها غضبت كثيراً ، ولكنها لا تجرؤ على المجىء الى هنا لتأخذنى ؛ ثم راح يثنى عليك ؛ فقال انك كنت من أعز أصدقائه وانه عرفك صبياً صغيراً . عندئذ رضيت أن أكلمه . فأخرج لى من جيبه حلوى ، وطلب الىّ أخذها ، ولكننى رفضت ، فأكد لى انه رجل شهم ، وانه يعرف أن يغنى وأن يرقص ، وقام رأساً فأخذ يرقص . وسررت بهذا . ثم قال انه سيمكث هنا بعض الوقت ، ينتظر عودتك ، وقال انك قد تعود ، وطلب الىّ أن لا أخاف منه ، وأن أجلس الى جانبه . فجلست ، ولكننى لم أشأ أن أكلمه ، فقال انه يعرف أمى وجدى ... فأخذت أتكلم ، ومكث مدة طويلة » .

ـ فيم تكلمتما ؟

ـ تكلمنــا عن امى •• وعن بوبنــوفا ••• وعن جدى • لقد لبث ما يقرب من ساعتين •

لاحظت ان نللى لاتريد أن تقصَّ علىَّ كل مادار بينهما من حديث، فلم أسألها عن شيء ، أملاً في أن أعــرف ذلك كله من ماسلوبويف • ولكننى اعتقدت ان ما سلوبويف قد تعمد ان يأتى اثنــاء غيــابى ، ليلقى نللى وحدها • فتساءلت تُرى لماذا تعمد ذلك ؟

وأرتنى نللى ثلاث قطع من الحلوى قدمهــا اليهــا •• انهــا سكاكر رديئة ملفوفة بورق أخضر وأحمر ، لاشك انه اشــتراها من عند احد البقالين • وضحكت نللى وهى ترينى قطع الحلوى • فسألتها :

ـ لماذا لا تأكلينها ؟

فأجابتنى وقد بدا فى وجهها الجد والعبوس :

ـ لا اريدها • ثم اننى لم آخذها • ولكنه تركها على الاريكة •

كان علىَّ فى ذلك اليوم ان اقوم بعدد من الجولات ، فودعت نللى ، وسألتها وانا اهم بالخروج :

ـ هل تتضايقين حين تبقين وحدك •

ـ نعم ولا • أتضايق حين تغيب مدة طويلة •

قالت ذلك وهى ترشقنى بنظرة تفيض حبــاً • وكانت طوال ذلك الصباح تنظر الىَّ نظرة رقيقة ودوداً ، وتبدو فرحةً كل الفرح• وكانت فى الوقت نفســه تلتزم موقف التحفظ بل والخجل ، كأنهــا تخشى ان تزعجنى وان تفقد صداقتى•• وكانت لا تسرف فى التبسط معى كأن ذلك عيب •

ـ وما الذى لا يضايقك ؟ لقد قلت « نعم ولا » .

طرحت عليها هذا السؤال ، وانا ابتسم رغم ارادتى . لقد اصبحت عزيزة عليّ كثيراً .

فقالت وهى تطلق ضحكة خفيفة :

ـ ما لا يضايقنى ، اعرفه كل المعرفة .

وعاد اليها الاضطراب مرة اخرى . كنا نتحدث عند العتبة ، وكان البـاب مفتوحاً . كانت نللى امامى خافضة العينين ، قد وضعت احـــدى يديها على كتفى وامسكت بالاخرى كمى . فسألتها :

ـ ماذا ؟ هل هو سر ؟

ـ لا .. ابداً .. لا شىء .. ولكننى .. لكننى ، بعـد ان ذهبت انت ، أخذت اقرأ كتابك .

قالت ذلك بصوت خفيض ، وهى تنظر اليّ نظرة رقيقـــة نافذة . واحمر وجهها احمراراً شديداً .

ـ ها .. صحيح ؟ هل يعجبك الكتاب ؟

طرحت عليها السؤال ، وانا ارتبك ارتباك الكاتب حين يُقرّظ فى حضوره . تمنيت من اعماق قلبى لو اقبّلها فى تلك اللحظة . ولكن ذلك كان يبدو لى مستحيلاً . وصمتت نللى . ثم سألتنى وقد لاح فى وجهها حزن عميق :

ـ لماذا ، لماذا يموت ؟

والقت عليّ نظرة سريعة ، ثم خفضت عينيها من جديد .

ـ من ؟

ـ الشاب المصدور الذى تتحدث عنه فى الكتاب .

ـ كان لا بد ان يموت يانللي •• ما العمل ؟

فأجابت بصوت يشبه أن يكون همساً قائلة :

ـ ابداً ••

واطرقت الى الارض حانقة •

انقضت على ذلك دقيقة • ثم دمدمت نللي تسألني ، وهي تشد كمى شداً أقوى :

ـ والفتاة والشيخ ! هل سيعيشان معاً ولا يضنيهما الفقر ؟

ـ بل تذهب الفتاة الى بعيد • تتزوج احد مالكى الاطيان ، ويبقى العجوز وحده ••

قلت لها ذلك على أسف ، فقد آلمنى حقاً ان لا استطيع ان اطمئنها بشىء آخر •

ـ ها •• نعم هكذا اذن انت ! لن استمر فى قراءة الكتاب !

ونبذت يدى غاضبة ، واشاحت عنى مهرولة ، وادارت وجهها الى احدى زوايا الغرفة خافضة العينين ، وقد احمر وجهها احمراراً شديدا ، واضطربت أنفاسها ، كأن حزناً اليما يخنقها خنقاً •

قلت وانا اقترب منها :

ـ كفى يا نللى ! لماذا تغضبين ؟ القصة من ابتكار الخيال وليست واقعاً ، فلا حاجة بك الى الغضب ! يالك من صبية مسرفة فى الاحساس !

فقالت خجلة ، وهى ترفع الىّ نظرة وضاءة محبة :

ـ لست غاضبة •

ثم امسكت يدى فجأة ، واسندت وجهها على صدرى ، واخذت تبكى •

ولكن في هذه اللحظة نفسـها انفجرت ضـاحكة ، فكانت تبكي وتضحك معاً ، وشعرت انا نفسي انني اضحك واتألم في آن واحد • وعبثا حاولت ان أنهض رأسها نحوي ، وحين حاولت ان ابعد وجهها عن كتفي، ازدادت تشبثاً به وهي تضحك •

وانتهى اخيراً هذا المشهد • فودعتها ، وحثثت الخطى ، فما هبطت بضع درجات من السـلم حتى رأيت نللي تجري ورائي ، وقد اصـطبغ وجهها بالحمرة ، وظهر عليها اضطراب الخجل ، والتمعت عيناها ، فطلبت اليّ ان لا اغيب كثيراً ، فوعدتها بأنني سأعود قطعاً في موعد العشاء •

ذهبت أولاً الى العجوزين ، فرأيتهما مريضين • كانت آنا آندريفنا تعاني آلاماً شديدة ، وكان نيقولا سرجتش قابعاً في غرفته • وقد أحس بوصولي ، ولكنني كنت اعرف انه لا يأتي اليّ قبل انقضاء ربع ساعة على مجيئي ، وذلك ليفسح لنا مجال الكلام على انفراد ، ولم أشأ ان ازعج آنا اندريفنا ، فلطفت قصة سهرة الأمس ما امكنني تلطيفها ، ولكنني ذكرت لها الحقيقة • فما كان اشد عجبي حين لاحظت ان العجوز لم تستقبل نبأ احتمال القطيعة بكثير من الدهشة ، رغم ان هذا النبأ قد آلمها •

قالت :

ـ نعم يا صديقي ، ذلك ما كنت أقدّر أن يقع • حين مضيتَ آخر مرة فكرتُ في الأمر طويلا ، وقلت في نفسي ان هذا لن يتم • لعل الله يرى اننا لا نستحق ذلك • وهذا الرجل سافل لايمكن أن يُنتظـر منه خير • ليس قليلا ذلك المبلغ الذي يسلبنا اياه ، عشرة آلاف روبل ، وهو يعلم حقّ العلم ان ليس له فيه أي حق • انه يسلبنا كسرة الخبز • يجب ان نبيع اخمينيفكا • ولقد كانت صغيرتي ناتاشا مسـتقيمة عاقلة حين لم تصدقه •

ثم اضافت وهي تخفض صوتها :

ــ ثم هل تعلم يا صديقي ان زوجي يعارض في هذا الزواج • لقد افصح عن رأيه ، فقال انه لا يريد هذا الزواج • ظننت اول الامر ان ذلك نزوة منه ، ولكنني عرفت بعدئذ انه كان جاداً لا يهزل• ما مصير حمامتي الصغيرة اذن ؟ سيظل ساخطاً عليها الى الابد • واليوشا ماذا يفعل ؟

ظلت تسائلني مدة طويلة ، وكانت على عادتها ، تردُّ على كل جواب من أجوبتي بتأوهات وتنهدات وزفرات • كنتُ قد لاحظت ان حالتها ساءت كثيراً في الايام الاخيرة ، وان كل نبأ من الانباء أصبح يهزها هزاً عنيفاً • كان الحزن الذي تسببه لها ناتاشا يحطم قلبها وصحتها تحطيماً •

ودخل العجوز ، مرتدياً مبذله ، منتعلا خفَّ المنزل • وشكا مما يعانيه من حمى ، لكنه نظر الى امرأته نظرة تفيض بالعطف والمودة ، وظل طوال المدة التي قضيتها بينهما يحيطها بألوان الرعاية ، كما ترعى المربية أطفالها • وكان ينظر الى عينيها ويبدو كأنه خَجِل منها • كان في نظراته كثير من الرقة والمحبة • كان يفزعه أن يراها مريضة ، كان يحس انه سيفقد كل شيء اذا فقدها •

لبثت معهما قرابة ساعة ، وحين ودعتهما ، صحبني حتى حجرة المدخل وحدثني عن نللي • كان يفكر تفكيراً جاداً في ضمها اليه ، في اتخاذها ابنة له • وسألني ماذا يجب أن يعمل حتى توافق آنا آندريفنا على ذلك • وطرح عليَّ أسئلة كثيرة عن نللي ، في كثير من حب الاستطلاع ، ثم سألني ألم أعرف شيئاً جديداً عنها ، فقصصت عليه ماعرفته قصاً سريعاً ، فتأثر مما رويته له تأثيراً واضحاً •

قال بلهجة حازمة :

ــ سنتحدث في هذا الامر مرة أخرى •• ثم انني سأجيء اليك ، متى أبللت من مرضي ، وعندئذ نعزم أمرنا ••

وفى الظهر تماما كنت عند ماسلوبويف فما كان أشد دهشتي حين دخلت عليه فرأيت عنده الاميرَ أولَ من رأيت • كان يرتدى معطفه فى حجرة المدخل ، وكان ماسلوبويف يعينه فى ذلك متعجلاً ، ويعيد اليه عصاه • لقد سبق أن قال لى انه يعرف الامير ، ولكن هذا اللقاء أدهشنى كثيراً •

ارتبك الامير حين رآنى ، ولكنه مالبث أن هتف بلهجة تظهر كثيراً من المودة :

ـ ها •• هذا انت ! أنظر كيف يتم اللقاء في بعض الاحيان ! •• لقد علمت منذ لحظة انك تعرف ماسلوبويف • سرتني رؤيتك ، سرتنى كثيراً ، كنت أفكر في الذهاب اليك ، وأرجو أن أفعل ذلك فى أقرب فرصة ؛ هل تسمح لى بذلك ؟ لى رجاء عندك : ساعدنى على توضيح الموقف • لا شك انك فهمت ما أردت أن أقوله أمس • انك هنالك صديق ، وقد تابعت تطور هذه القضية من أولها الى آخرها • وانك تستطيع أن تؤثر بعض التأثير •• يؤسفنى كثيراً اننى لا أستطيع أن ألقاك حالا •• كثرة الاعمال تمنعنى من ذلك • ولكنى أرجو أن نجتمع ذات يوم قريب ، قريب جداً • سيسرنى أن أجيء اليك • اما الآن ••

وصافحني بكثير من القوة ، وتبادل نظرة مع ماسلوبويف ، ثم خرج •

قلت وأنا أدخل الغرفة :

ـ ناشدتك الله الاّ قلت لى ••

فقاطعنى ماسلوبويف يقول وهو يتناول قبعته بسرعة ويتجه الى حجرة المدخل :

ـ لن أقول لك شيئا • تنتظرنى أعمال • لقد تأخرت ، أنا ذاهب !

ـ ألم تكتب الىّ انت نفسك أن أوافيك عند الظهر ؟

ـ صحيح . كتبت اليك أمس ، وكتبوا الىّ اليوم .. يكاد ينفجر رأسى . قصة فظيعة ! انهم ينتظروننى . عفوك يا فانيا . كل ما أستطيع أن أقدمه لك تعويضا عن تعبك هو أن أسمح لك بأن تصفعنى جزاء ماحملتك من عناء بدون طائل . فاذا أردت أن تقتص لنفسك ، فهيا افعل ، ولكن أرجوك أن تفعل بسرعة ، حتى لا تؤخرنى ، فانهم ينتظروننى .

ـ ولماذا أضربك ؟ أسرع مادام ينتظرك عمل . ان الانسان لا يستطيع أن يتنبأ بالطوارىء دائما . ولكن ...

فقاطعنى وهو يثب الى حجرة المدخل ويرتدى معطفه (وارتديت معطفى أنا أيضا) :

ـ لا ، لا ، دع « لكن » هذه لى أنا . يجب أن أحدثك فى قضية هامة جداً ، ومن أجل ذلك انما رجوتك أن تأتى الى . والقضية تتصل بك رأساً ، وتمس مصالحك . ولكننى لا أستطيع أن أحدثك فى هذا كله خلال دقيقة واحدة ، فعدنى ، ناشدتك الله ، أن تجىء الىّ هذا المساء ، فى الساعة السابعة تماماً . سأكون هنا ..

فقلت متردداً :

ـ هذا المساء ؟ ولكننى كنت أريد أن أذهب هذا المساء الى ..

ـ اذهب الآن الى حيث كنت تريد أن تذهب فى المساء ، ثم عد الىّ .. فانيا ، لا تستطيع أن تتخيل الأنباء التى سأقولها لك .

ـ ولكن أرجوك ، أرجوك ، ماهو هذا الامر ؟ انك تثير فىّ حب الاطلاع ، أعترف لك بذلك .

وفى أثناء ذلك كنا اجتزنا باب العمارة ، وبلغنا الرصيف . فقال فى الحاح :

ـ اذن ستجيء ؟

ـ سأجيء •

ـ لا ، لا ، عاهدني عهد الشرف •

ـ عجيب ! أعاهدك •

ـ طيب • من أين أنت ذاهب ؟

ـ من هنا •

قلت ذلك وأشرت الى اليمين • فقال وهو يشير الى الشمال :

ـ وأنا ذاهب من هنا • الى اللقاء يا فانيا ، لا تنس الموعد ، في الساعة السابعة •

قلت في نفسي وأنا أراه يبتعد : « غريب » •

كنت أريد أن أذهب الى ناتاشا في ذلك المساء ، ولكنني وعدت ماسلوبويف بأن أجيء اليه ، فقررت أن أمضي الى ناتاشا حالاً ، وكنت على ثقة بانني سأجد عندها أليوشا • وقد وجدته عندها فعلاً ، فسر برؤيتي سروراً كبيراً •

كان لطيفا جداً ، وكان رقيقاً مع ناتاشا بخاصة ، حتى انه فرح فرحا شديداً حين وصلت • وكانت ناتاشا تحاول أن تظهر بمظهر الفرحة ، ولكن كان واضحا ان ذلك فوق طاقتها • كانت شاحبة اللون ، وكان يبدو على وجهها انها تعاني آلاماً • انها لم تنم نوماً هادئاً • وكانت تظهر لاليوشا مزيداً من العاطفة •

كان أليوشا يتكلم كثيراً ، يريد أن يُفرح ناتاشا ، أن ينتزع ابتسامة ما من شفتيها المنقبضتين على غير ارادة منها ، ولكنه يتحاشى أن يذكر اسم كاتيا أو اسم أبيه • لا شك ان ماقام به أمس من مسعى للمصالحة قد أخفق •

وخرج أليوشا لحظة ليقول شيئاً لمافرا ، فدمدمت ناتاشا تسير الى قائلة :

ـ هل تعلم انه يتحرق شوقاً الى الذهاب ؟ نعم ، ولكنه لا يجرؤ . ولا أريد أن أطلب اليه أن يذهب ، خشية أن يتعمد عندئذ البقاء . انى أخاف أن يصيبه السأم ، وأن تبرد عاطفته نحوى تماما ! ما العمل ؟

ـ رباه ، ما هذا الوضع الذى تضعان نفسيكما فيه ؟ ماهذا الشك والحذر ؟ ماهذا التجسس والتربص ؟ لماذا لا تتصارحان فينتهى كل شيء ؟ أغلب ظنى ان هذا الوضع هو الذى سيدخل الى قلبه الملل !

فصرخت ناتاشا مذعورة تقول :

ـ فماذا أعمل اذن ؟

ـ اسمعى .. سأدبر كل شيء ..

قلت ذلك ، وذهبت الى المطبخ ، بحجة اننى أريد أن أطلب الى مافرا أن تمسح حذائى الذى امتلأ وحلاً .

فصرخت بى ناتاشا تقول :

ـ تأن يا فانيا !

فما ان دخلت المطبخ حتى أسرع أليوشا الى ، كأنه كان ينتظرنى.

ـ ايفان بتروفتش ، صديقى العزيز ، ماذا يجب أن أعمل . انصحنى . لقد وعدت كاتيا أمس بأن أذهب اليها فى هذه الساعة نفسها. ولا أستطيع أن أخلف الوعد . اننى أحب ناتاشا حبا يعجز لسانى عن وصفه ، اننى مستعد لان ألقى بنفسى الى النار فى سبيلها ، ولكنك توافقنى انت نفسك على اننى لا أستطيع أن أترك كل شيء هناك . فذلك لايليق .

ـ ماعليك الا أن تذهب .

ـ وناتاشا ؟ انها ستتألم يا ايفان بتروفتش ، ساعدنى على الخروج من هذا المأزق •

ـ رأيى أن تذهب • انت تعلم انهـا تحبك • فان بقيتَ شعرتْ طوال الوقت بأنك مللت المقام معها ، وانك تُكره نفسك على البقاء اكراها• أوثر أن تتصرف تصرفا طبيعيا • ثم اننى سأساعدك ، هيا بنا •

ـ عزيزى ايفان بتروفتش ، ما أنبل قلبك !

ودخلنا ، فما هى الا دقيقة واحدة حتى قلت له :

ـ رأيت أباك منذ قليل •

فصرخ مذعوراً :

ـ أين ؟

ـ فى الشارع ، مصادفةً • لم يبق معى الا دقيقة • ورجانى مرة أخرى أن نتعارف تعارفاً أكمل • وقد سألنى هل أعرف أين انت • انه فى حاجة ملحة الى رؤيتك ، يريد أن يقول لك شيئاً •

وفطنت ناتاشا الى الغـرض الذى أهدف اليه من هـــذا الكلام ، فساعدتنى تقول :

ـ اذن فاذهب اليه يا اليوشا ، اذهب اليه حالا •

ـ ولكن •• أين يمكن أن أجده ؟ هل هو فى البيت ؟

ـ قال انه سيكون عند الكونتيسة •

فنظر اليوشا الى ناتاشا بحزن ، وقال بسذاجة :

ـ فما العمل اذن ؟

قالت ناتاشا :

ـ مابك يا اليوشا ؟ ماينبغى أن تهجر هؤلاء الاصدقاء من أجل أن تهدئنى ، والا كنت تتصرف كاطفال . هذا أولاً مستحيل ، وهو ثانيا اخلال بواجب الأدب نحو كاتيا . انتما صديقان ، ولا يمكن أن يقطع المرء علاقاته بأصدقائه على هذا النحو الفظ . ثم انك تهيننى اذا اعتقدت اننى غيورة الى هذه الدرجة . اذهب الى هناك حالا ، أرجوك . وبذلك تطمئن أباك .

فهتف اليوشا فى حماسة وندامة :

ـ ناتاشا ، انت ملاك . أنا لا أساوى أصبعا من أصابعك الصغيرة ! ما أنبل قلبك يا ناتاشا .. وأنا .. أنا .. آه ، أؤثر أن تعرفى ! لقد سألت ايفان بتروفتش ، منذ قليل ، فى المطبخ ، أن يساعدنى على الذهاب، فاخترع هذه الطريقة . ولكن لا تسيئى بى الظن يا ناتاشا . فلست مذنبا تماما . اننى أحبك أكثر مما أحب أى شىء فى العالم ، أحبك ألف مرة أكثر مما أحب أى شىء فى العالم .. لذلك تراودنى الآن فكرة جديدة : أن أعترف لكاتيا بكل شىء ، أن أكشف لها عن وضعنا ، وأن أقص عليها كل ماجرى أمس . فلعلها تتخيل مخرجا ينقذنا ، انها مخلصة لنا كل الاخلاص .

فأجابته ناتاشا وهى تبتسم :

ـ اذن فاذهب اليها . وانى يا صديقى أحب كثيراً أن أتعرف الى كاتيا فكيف نهيىء ذلك ؟

فلما سمع اليوشا هذا الكلام تجاوز فرحه كل حد . واندفع يتخيل ألف مشروع ومشروع ، وقال ان ذلك أمــر سهل ، وان كاتيا ستجــد الحل . وبسط فكرته بحرارة وحماسة ، ووعد أن يعود بجواب كاتيا فى اليوم نفسه ، بعد ساعتين ، وعد أن يجىء الى ناتاشا فى المساء .

فسألته ناتاشا وهى تدفعه الى الخروج :

ـ هل تجيء حقا ؟

ـ أتشكين في ذلك ؟ الى اللقاء يا ناتاشا ، الى اللقاء يا حبيبتي ، انت حبيبتي الى الابد . الى اللقاء يا فانيا .. ها .. عفواً لقد خاطبتك بقولي يا فانيا دون أن أنتبه الى ذلك . ولكن اسمع يا ايفان بتروفتش ، لماذا لا نتخاطب بصيغة المفرد ونحن صديقان . فلنتخاطب بعد الآن بصيغة المفرد ..

ـ موافق .

ـ الحمد لله . لقد راودتني هذه الفكرة مائة مرة . ولكنني لم اجرؤ على « مفاتحتكم » فيها . هاءنا ذا « أخاطبكم » مرة أخرى بميم الجمع . ذلك ان الاقتصار على كاف الخطاب صعب جداً . لقد عبر تولستوى عن ذلك أجمل تعبير ، حين حدثنا عن شخصين تواعدا على أن يتخاطبا بصيغة المفرد ، ولكنهما لم يظفرا بذلك ، فأخذا يتحاشيان الجمل التي تشتمل على خطاب اصلا . آه ياناتاشا ! لسوف نعيد قراءة كتاب «الطفولة والمراهقة» معاً . انه كتاب رائع جداً * .

قالت ناتاشا تطرده وهي تضحك :

ـ هيا ، هيا ، اسرع . لقد نسى نفسه من شدة الفرح وهو يثرثر .

ـ الى اللقاء ، سأعود بعد ساعتين .

قال ذلك ، وقبّل يدها ، وخرج مسرعا .

قالت لي ناتاشا والدموع تهطل من عينيها :

ـ هل رأيت ، يا فانيا ، هل رأيت ؟

مكثت مع ناتاشا حوالي ساعتين ، أحاول أن أواسيها ، الى أن ظفرت باقناعها . لاشك ان لمخاوفها مايبررها . ولقد كان صدري ينقبض حين أفكر في وضعها . كنت أشفق عليها . ولكن ما العمل ؟

وكان يدهشني اليوشا أيضا : انه يحبها الآن مثلما كان يحبها من قبل • انه يحبها حبا أملأ بالعذاب ، لما يداخله من ندامة وعرفان بالجميل• الا ان حبا جديداً قد نبت في قلبه وترسخ • وكان يستحيل على المرء أن يتنبأ بالمصير الذى سيصير اليه هذا كله • كنت أنا نفسى أتشوق الى معرفة كاتيا • ووعدت ناتاشا بأن أهيىء لها فرصة التعرف اليها •

واستجابت ناتاشا ، آخرَ الامر ، لشيء من المرح • وحدثتها في جملة ما حدثتها عن نللى وماسلوبويف وبوبنوفا ، وعن لقائي مع الامير في منزل ماسلوبويف ، وعن الموعد الذى ضربته لماسلوبويف في الساعة السابعة •

فاهتمت لهذا الحديث كثيراً • وحدثتها قليلا عن أبويها ، ولكنى سكت عن زيارة أبيها ، وارجأت الكلام عليها الى أن يقع شيء جديد • كان يمكن أن ترعبها فكرة مبارزة بين أبيها وبين الامير • وقد استغربت أيضاً أن يكون الامير على صلة بماسلوبويف ، وأن يكون ماسلوبويف في شوق الى معرفتها ، رغم ان هذا كله يسهل تعليله بالظرف الراهن •

وعدت الى بيتي في نحو الساعة الثالثة ، فطالعتني نللى بوجهها العنيد الوضـاء •

الفصل السادس

في الساعة السابعة تمـاماً كنت عنـد ماسلوبويف . استقبلني بذراعين ممدودتين وصيحات كبـيرة . كان نصف سكران ، طبعـا ، ولكن الأمر الذي أدهشني خاصةً هو تلك الأشـياء الخارقة التي أعدها لاستقبالي . لقد كان واضحا انه ينتظر قدومي . كان هناك سماور من نحاس أصفر يغلي فيه الماء ، على مائدة مستديرة فـرشت بغطاء ثمين . وكانت الأطباق والاقداح من بلور وفضة وخزف ، تتلألأ . وعلى مائدة أخرى مفروشة بغطاء آخر لا يقل عن الأول جمالا ، كان هناك أصناف من جيد الحلوى ، والمربب ، وأشربة من كييف ، ومعقـــود ، وفاكهـة مسكّرة ، وعصير مجمد ، ومربيات فرنسية ، وبرتقال ، وتفاح ؛ وجوز ؛ ولوز ، وفستق .. كانت المائدة معرضَ فاكهة ، وعلى مائدة ثالثة مختبئة تحت غطاء نوصع البياض صُفت أنواع من المقبلات : الكافيار ، والجبن ، وفطائر اللحم ، والنقانق، والجامبون المدخّن ، والسمك ، وصُفَّ جيش عرمرم من زجاجات الخمر بأنواعه المختلفة وألوانه الجميلة : الأخضر ، والأصهب ، والأحمر ، والأصفر .

وفي ركن من الاركان ، على منضدة صغيرة مفروشة بغطاء أبيض ، وُضع اناءان فيهما ثلج وزجاجتان من الشمبانيا تبترداني ، وعلى المائدة أمام الاريكة تتبختر ثلاث زجاجات : زجاجة سوترن ، وزجاجة شاتولافيت ، وزجاجة كونياك ، وهي في الخمر مما غلا ثمنه ، يجيئون به من قبـو

اليسييف . كانت الكسندرا سيمينوفنا جالسة الى مائدة الشاى ، وقد عنت بزينتها على انها بسيطة ، فوفقت في ذلك كثيراً . كانت تعرف أن تصفيف شعرها على هذه الصورة يناسبها ، وكانت معتزة بذلك اعتزازاً واضحاً . فلما دخلتُ نهضت تستقبلنى بشىء من الاختيال . وكان الرضى والفرح يلمعان فى وجهها النضر . وكان ماسلوبويف جالساً ، وقد تدثر بثوب رائع تحتــه ملابس نضرة أنيقة ، وانتعـل خفين صينيين جميلين . كان قميصه مزخرفاً ، له أزرار مما يُرى فى أحدث الازياء . وقد صفّف شعره ، ودهنه ، وفرقه من جانب ، على ما كان رائجاً فى ذلك الحين . بُهت حين دخلت ، وبلغت من ذلك اننى جمدت فى وسط الغرفة بلا حراك ، أنظر تارة الى ماسلوبويف ، وتارة الى الكسندرا سيمينوفنا التى مضى بها الفرح الى حد النشوة .

وهتفت أخيرا فى قلق :

ـ ماهذا يا ماسلوبويف ؟ هل عندك سهرة ؟

فأجابنى بصوت فخم :

ـ لا ، لا ، اننا لا ننتظر أحداً غيرك .

ـ ولكن ، ما هذا ؟ (قلت ذلك وأنا أشير الى المآكل) ان هذا يكفى لاطعام فيلق بكامله .

فأضاف ماسلوبويف يقول :

ـ ولاشرابه خاصة . نسيت الشىء الاساسى .

ـ أكلُّ هذا من أجلى وحدى ؟

ـ ومن أجل الكسندرا سيمينوفنا أيضاً . هى التى أرادت أن ترتب هذا الترتيب .

فهتفت الكسندرا سيمينوفنا ، وقد احمر وجهها ، دون أن تفارقه معانى الرضى :

ـ ها ها •• كنت أتوقع هذا الكلام • ألا يمكن أن يستقبل المرء ضيفاً من لضيوف استقبالاً لائقاً ! لابد أن يجد فوراً ما يأخذه عليّ •

ـ تصور انها منذ الصباح ، منذ الصباح ، منذ علمت انك آت الينا هذا المساء ، أخذت تتحرك وتضطرب •

ـ انه يكذب • لم يقل لى ذلك فى هذا الصباح ، بل مساء أمس ؟ حين عدتَ أمس مساءً ذكرت انه سيأتى الينا يقضى السهرة معنا •

ـ لا بل انت سمعت خطأً •

ـ غير صحيح أبداً • لقد قلتُ الحقيقة وأنا لا أكذب • ثم ، لماذا لا نستقبل ضيفاً من الضيوف استقبالاً حسناً ؟ اننا نعيش هنا وحدنا ، لا يأتى الينا أحد ، مع ان عندنا كل مايجب • ينبغى ، على الاقل ، أن يعرف الناس اننا نعيش نحن أيضاً كما يعيش غيرنا •

ـ ويجب أن يعرفوا خاصةً انك ربة بيت من طراز ممتاز ، وانك سيدة منظمة من الطبقة الاولى • تصور يا عزيزى اننى أُقحمت فى هذا أنا أيضــاً ! ألبستنى قميصاً من فاخر حرير هولانده ، وزينت أكمامه بجميــل الازرار ، ودست فى قدمى خفين ، ودثرتنى بثــوب صينى ، وصففت شعرى ودهنته • ألا تشم رائحة الليمون ؟ لقد أرادت أن ترشنى بالعطر ، ولكننى لم أعد أحتمل ، فتمردت ، وأظهرت من السطوة مايظهره الزوج لزوجه •

فردت الكسندرا سيمينوفنا تقول وقد اصطبغ وجهها بحمرة شديدة :

ـ ليست الرائحة رائحة ليمون ، لقد دهنته بأطيب دهن فرنسى يباع فى احقاق صغيرة من مزخرف الخزف • أحكم بنفسك يا ايفان بتروفتش، انه لا يسمح لى أبدا بأن أذهب الى المسرح أو الى حفلة رقص • انه لايزيد على أن يهدى الىّ الأثواب ، فماذا أصنع بالأثواب ؟ اننى أرتديها، وأروح

أتنزه بها في الغرفة وحدي . وفي ذات يوم ، توسلت اليه أن يذهب بي الى المسرح ، وأكثرت من التوسل حتى وافق ، فلما هممنا أن نخرج ، رجعت أضع الحلية على صدري ، فانتهز هذه الفرصة ، فمضى الى الخزانة، فشرب قدحا ، ثم شرب قدحا آخر ، فاذا هو يسكر ، فاضطررنا أن نقبع في البيت . ما من أحد يزورنا ، ما من أحد ، الا أُناسا يأتون في الصباح لأعمال ، فادعهم يتحدثون ، وأنجو بنفسي . ومع ذلك عندنا سماور ، ومجموعة من أجمل الاقداح ، عندنا أشياء كثيرة ، جاءتنا كلها هدايا . والناس يهدون الينا كثيرا من المؤن أيضا ، فقلما نشتري زجاجة من الخمر ، وقلما نشتري زجاجة من العطر ، وقلما نشتري شيئا من المقبلات : لكننا اشترينا من أجلك الفطائر والحلوى وشرائح الجامبون . يجب أن يعرف واحد من الناس على الاقل كيف نعيش ! ظللت طوال السنة أقول لنفسي : حين يأتينا ضيف ، ضيف حقيقي ، فلسوف نريه كل هذا ، ولسوف نولم له وليمة ، ولسوف يهنئنا الناس ، ولسوف يسرنا ذلك أيضا . لماذا دهنت هذا الاحمق ؟ انه لا يستحق ! سيظل يرتدي ملابس قذرة . أنظر الى هذا الثوب الذي دثرته به ، لقد قُدم له هدية بين الهدايا . ألا ترى انه أجمل من أن يرتديه ؟ هذا رجل كل مايطلبه هو أن يسكر ؟ لسوف ترى انه سيقترح عليك الفودكا قبل الشاي .

ـ صحيح . فلنشرب قدحا من شراب الذهب ، فقدحا من شراب الفضة ، حتى اذا انتعشت عزيمتنا ، هجمنا على أشربة أخرى .

ـ ألم أقل لك ؟

ـ لا تقلقي يا بنتي العزيزة ، فسنشرب أيضا شيئا من الشاي مع الكونياك ، نخبَ صحتك .

فصرخت وهي تضرب يداً بأخرى :

ـ أنظر ، أنظر . شاي الملك ، ثمن الرطل منه ستة روبلات ،

أهداه اليه أحد التجار أول أمس ، يريد أن يشربه مع الكونياك ! لاتطاوعه يا ايفان بتروفتش ! سأصب لك الشاى ، وسترى أى شاى هو ••

قالت ذلك وقامت الى السماور تشغل نفسها به •

كان واضحا انهما يريدان أن يستبقيانى السهرة كلها • كانت الكسندرا سيمينوفنا تنتظر أن يزورها أحد منذ سنة بكاملها ، وكانت تتهيأ للاستمتاع بمثل هذه الزيارة فرحة كل الفرح • ولكن ذلك كان لايدخل فى حساب خططى • فقلت وأنا أجلس :

ـ اسمع يا ماسلوبويف ، أنا لم أجىء اليك زائراً • هناك أعمال تنتظرنى • لقد قلت انت نفسك ان هناك أموراً يجب أن تفضى بها الىّ •

ـ نعم ، نعم ، ولكن الاعمال شىء ، والحديث الصداقى شىء آخر •

ـ لا يا عزيزى ، لا تعتمد على هذا ، سأودّعك فى الساعة الثامنة والنصف • اننى مشغول • لقد وعدت •••

ـ لا أصدق شيئا مما تقول •• وكيف تتصرف معى هذا التصرف ؟ وكيف تتصرف هذا التصرف مع الكسندرا سيمينوفنا ؟ أنظر اليها ، ألا ترى انها صُعقت مما تقول ؟ فيم حمّلت نفسها عناء دهنى بالطيب اذا كنت ستتركنا ؟ وهلا تذكرت اننى أتحمل رائحة الليمون من أجل هذه الزيارة ؟

ـ كفاك مزاحا يا ماسلوبويف • وانى لأحلف لاسكندرا سيمينوفنا أننى سأجىء اليكم أتناول العشاء معكم فى الاسبوع المقبل ، بل يوم الجمعة اذا شئتم • اما اليوم ، أيها الاخ ، فقد قطعت على نفسى عهداً ، أو قل ببساطة ان علىّ أن أذهب الى مكان ما • فما هى الاشياء التى تريد أن تفضى بها الى ؟

فصرخت الكسندرا سيمينوفنا تقول بصوت حزين خجلان ، وهى تعد الىّ قدحا من شايها الرائع ، وتكاد تبكى :

ـ اذن لن تبقى الا الى الساعة الثامنة والنصف !

فأجاب ماسلوبويف بقوله :

ـ اطمئنى يا صغيرتى . هذا الكلام كله هراء . سيبقى . قل لى يا فانيا ، أين تذهب دائما ؟ ماذا وراءك ؟ هل يمكن أن أعرف ؟ اني أراك كل يوم تركض من هنا الى هناك ، أأنت لا تعمل ؟ ..

ـ ما شأنك انت فى هذا ؟ على اننى قد أشرح لك الامر ذات يوم . ولكن قل لى الآن : لماذا جئت الى بيتى أمس مع اننى ذكرت لك بنفسى ، وانت تتذكر ذلك ، اننى لن أكون فى البيت ؟

ـ تذكرت ذلك فيما بعد ، وكنت قد نسيته أمس . اننى أريد فعلاً أن أتحـدث اليك فى أمر من الامور ، ولكننى أحرص خاصة على أن أرضى الكسندرا سيمينوفنا . لقد قالت لى : « الآن وقد وجدت صديقا ، فلماذا لا تدعوه الى زيارتنا ؟ » . وظلت تصدع رأسى بك أربعة أيام برمتها . لا شك ان الله سيغفر لى جميع ما ارتكبت من آثام جزاء رائحة الليمون هذه التى أتحملها . قلت فى نفسى : اننا نستطيع أن نقضى معـا سهرة صداقية . فعمدت الى هذه الحيلة الحربية : كتبت لك أقول ان هناك أمراً خطيراً يستدعى أن تجيء الىّ ، فان لم تجيء لحقك ضرر كبير .

فرجوته ألا يعمد بعد الآن الى مثل هذه الحيل ، وأن يسلك معى سبيل الصراحة . على ان ما قاله لم يقنعنى كل الاقناع .

ـ ولماذا هربت منى اليوم ؟

ـ اليوم كان ينتظرنى عمل حقا . لم أكذب أبداً .

ـ مع الامير ؟

فسألتنى الكسندرا سيمينوفنا ، بصوت متلطف :

ـ هل أعجبك مذاق الشاى ؟

كانت تنتظر منذ خمس دقائق أن أثنى على شايها ، ولكننى لم أفطن الى ذلك ، فقلت :

ـ عظيم يا الكسندرا سيمينوفنا ، رائع . لم أذق فى حياتى مثل هذا الشاى طيبَ مذاق .

فاحمر وجهها سروراً ، وأسرعت تصب لى قدحا آخر .

صرخ ماسلوبويف يقول :

ـ الامير ؟ ان هذا الامير ، يا عزيزى ، قاذورة ، انه لص . اسمع، سأقول لك شيئاً : أنا أيضاً لص ، ولكننى أستحى أن أكون مثله ، أخجل أن أكون مثله . ولكن كفى ، كفى . ذلك كل ما أستطيع أن أقوله عنه .

ـ لكأننى تعمدت أن أجىء اليك لاسألك عنه ، بين ما أحب أن أسألك عنه . ولكننى أرجىء الآن ذلك الى وقت آخر . لماذا ذهبت أمس الى بيتى أثناء غيابى تحمل حلوى الى هيلين وترقص أمامها ؟ وعمَّ حدثتها أثناء ساعة ونصف ساعة ؟

فقال ماسلوبويف ، وهو يلتفت الى الكسندرا سيمينوفنا فجأة :

ـ هيلين صبية صغيرة فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها ، تسكن الآن عند ايفان بتروفتش .

ثم أضاف الى ذلك وهو يلوِّح باصبعه :

ـ انتبه يا فانيا ، انتبه ، ألم تر كيف اصطبغ وجهها بحمرة شديدة حين سمعتك تقول إننى حملت حلوى الى فتاة صغيرة لا تعرفها : لقد صار خداها بلون الجمر ، وأخذت ترتعش من شدة الاضطراب ، كأننا أطلقنا رصاصاً من مسدس . أنظر الى هاتين العينين الصغيرتين كيف تقدحان

شرراً • عبثاً تحاولين اخفاء هذه الحقيقة يا الكسندرا سيمينوفنا ، وهى انك غيورة شديدة الغيرة • لولا انني شرحت لها ان هيلين صبية فى الحادية عشرة من عمرها ، لشـدتني من شعرى فوراً ولما أنقذتني منها رائحة الليمون •

ـ ولن تنقذك !

قالت ذلك ووثبت وثبة واحدة فاذا هى أمامنا ، وقبل أن يتسع وقت ماسلوبويف لحماية نفسه أمسكت بشعره وأخذت تشده شداً قوياً •

ـ خذ ، خذ ، اياك أن تقول أمام ضيف انني غيورة ، اياك أن تقول هذا !

كان وجهها بلون الارجوان ، ورغم انها كانت تهزل ، فقد اهتز ماسلوبويف حقاً •

وأضافت تقول بلهجة الجد ، وهى تلتفت الىّ :

ـ انه يقول أنواعاً وأنواعاً من الكلام الوسخ •

ـ هل رأيت يا فانيا ؟ هذه حياتي •• لابد لنا ، حتماً ، من شيء من الفودكا •

قال ذلك بلهجة حازمة ، وهو يعيد ترتيب شعره ويسرع الى القنينة • ولكن الكسندرا سيمينوفنا سبقته ، فوثبت الى المائدة ، وصبت له بنفسها قدحاً صغيراً فمدّته اليه وهى تضرب خده ضرباً لطيفاً متودداً • فألقى علىّ ماسلوبويف نظرة سريعة تفيض بالخيلاء ، وطقطق بلسانه ، وأفرغ كأسه الصغير فى جوفه مزهواً •

ثم بدأ يقول ، وهو يجلس الى جانبي على الأريكة :

ـ اما الحلوى فيصعب شرح امرها • كنت اول امس سكران ،

فاشتريتها من عند احد البقالين ، لا ادرى لماذا ! قد يكون سبب ذلك انني اردت دعم الصناعة الوطنيــة والتجــارة الوطنيــة ، لا أعرف على وجه الضبط . ولكنني اتذكر انني كنت اسير في الشارع ، وانني سقطت في الوحل ، وانني اخذت اشد شعرى ، وأبكى ، لشعورى بأننى لا أصلح لشيء . وطبيعي انني نسيت الحلوى ، فبقيت في جيبي ، الى اللحظة التي جلست فيها على الاريكة في بيتك. واما الرقص فهو يرجع دائماً الى حالة السكر : لقد كنت امس ثملاً ، وحين أكون ثملاً ، يتفق لى ان ارقص ، اذا كنت راضياً عن حظى . هذا كل شيء ، اللهم الا ان تضيف اليه ان تلك اليتيمة قد ايقظت الشفقة في قلبي ، وانها لم تشأ ان تتكلم معى ، كأنها غاضبة ، فأخذت ارقص لاجعلها مرحة ، وأعطيتها الحلوى لأسليها.

ـ ألم تفعل ذلك رغبةً في شرائها ، رغبةً في ان تعرف منها شيئاً ؟ اعترف بذلك صراحة : لقد تعمــدت ان تأتى اثناء غيابى ، لتتحدث اليها في خلوة ، ولتعلم منها شيئا ، أليس كذلك ؟ انا اعرف انك بقيت معها ساعة ، وانك قلت لها انك تعرف امها ، واعرف انك طرحت عليها اسئلة كثيرة .

فغمز ماسلوبويف بعينه ، وضحك ضحكة صغيرة دنيئة . وقال :

ـ كان يمكن ان يكون ذلك فكرةً حسنة .. ولكن لا يافانيا ، ليس الأمر كذلك . وبالمناسبة ، لماذا لا اطلعك على الموضوع حقا ؟ ولكن ليس الامر كذلك . اسمع ايها الصديق القديم : رغم انني ثمل ، على عادتى ، فيجب ان تعرف ان فيليب فيليبتش لن يخدعك ابداً بقصد سيىء ، اقول ذلك واعنيه : ان فيليب فيليبتش لن يخدعك بقصد سيىء .

ـ وبدون قصد سيء ؟

ـ وبدون قصد سيىء ! ولكن مالنا ولهذا الكلام . فلنشرب أولا ، وبعد ذلك نعود الى الاعمال !

قال ذلك ثم أضاف بعد ان شرب :

ـ لم يكن لبوبنوفا تلك اى حق فى الاحتفاظ بهذه الطفلة • لقد تحريت الأمر • لم يكن ثمة تبنٍ ولا ما يشبه ذلك • كانت الأم مدينة لها بمال ، فأخذت الطفلة • وبوبنوفا ، رغم انها لصة ورغم انها حقيرة ، فهى غبية كسائر النساء • لقد كان للمتوفاة جواز سفر ، وكان كل شيء اذن واضحا • ويمكن ان تسكن هيلين عندك ، ولكن اذا جاء اناس طيبون كرماء ، يعيشون فى جو اسرة ، فضموها اليهم ، ليتعهدوا تربيتها ، كان فى ذلك خير لها • ولتبق معك بانتظار ذلك • هذا ممكن • سأدبر لك الامر كله • ولن تجرؤ بوبنوفا على ان تحرك ساكناً • لم استطع ان اعرف اشياء دقيقة عن الأم • كل ما عرفته انها كانت ارملة ، وان اسمها سالتسمان •

ـ صحيح • هذا ما قالته لى نللى •

ـ نعم • ذلك كل شيء •

قال ذلك ، ثم اضاف يقول بشيء من الابهة :

ـ لى رجاء اوجهه اليك ، وآمل ان تلبيه • حدثنى بمزيد من التفصيل عما تعمله : اين تذهب ؟ اين تقضى اياما بكاملها ؟ انا اعرف هذا بعض المعرفة ، ولكننى اريد مزيداً من الدقة •

ادهشتنى لهجة الابهة هذه ، بل اقلقتنى • فقلت :

ـ لماذا ؟ فيم يفيدك ذلك ؟ وما معنى لهجة الاحتفال والابهة هذه ؟

ـ اليك الموضوع بكلمتين : اننى اريد ان اخدمك • انظر يا صديقى ، لو اردت ان امكر بك ، لو اردت ان احتال عليك ، لعرفت كيف احملك على الكلام دون حذر • لماذا تظن اننى امكر بك ؟ لقد ادركت انك تظن بى ذلك من سؤالك عن الحلوى منذ قليل • اسمع ،

لئن اصطنعت لهجة الجد والأبهة ، فانني لم أفعل ذلك لأنني أفكر في مصالحي ، بل في مصالحك انت . فلا تشك في ، بل أجبني ، وقل لي الحقيقة ..

ـ في اي امر تريد ان تخدمني ؟ اسمع يا ماسلوبويف : لماذا لا تحدثني عن الامير ؟ انني في حاجة الى معرفة بعض التفاصيل . في هذا تستطيع ان تخدمني .

ـ عن الامير ، هم .. ليكن ذلك . سأكلمك بلا لف ولا دوران : انني بصدد الامير انما طرحت عليك تلك الاسئلة .

ـ كيف ؟

لقد لاحظت انه يهتم قليلاً بشئونك . سألني عنك ، بين ما سألني عنه من امور . اما كيف عرف انني اعرفك وانك تعرفني ، فذلك شيء لا يعنيك . المهم ان عليك ان تحذر منه . انه يهوذا الخائن ، بل هو اسوأ من ذلك . ولهذا ، حين لاحظت انه يريد ان يمد اليك شباكه ، ارتعشت من الخوف . على انني لا اعرف من الأمر شيئا . لذلك اطلب اليك ان تطلعني على الموضوع ، كي استطيع ان ارى رأيا .. ومن اجل هذا انما دعوتك اليوم .. هذا هو الامر الهام ، بسطته لك بصراحة ..

ـ قل لي على الاقل شيئا ، قل لي على الاقل لماذا يجب ان احذر من الامير ؟

ـ اسمع يا صديقي ، انني اتولى القيام ببعض الاعمال في بعض الاحيان ، وأدع لك ان تحكم في الامر بنفسك : لو كنت ثرثاراً أكان يثق الناس بي ؟ فكيف استطيع اذن ان اقص عليك كل شيء ؟ فلا تؤاخذني اذا انا تكلمت بوجه عام ، بوجه عام جداً ، لا لشيء الا لأبرهن لك على انه شخص دنيء . ولكن حدثني انت اولا .

فكرت فى الأمر فرأيت ان ليس هناك شيء أخفيه عن ماسلوبويف. ان قصة ناتاشا ليست سراً ، ثم ان من الممكن ان يفيدها ماسلوبويف فى شيء ، وقد كتمت طبعا بعض الامور ما امكنني الكتمان. فكان ماسلوبويف يصغي باهتمام خاص الى كل ما يتصل بالامير ، حتى انه استوقفني فى غير موضع ، ليطرح عليّ بعض الأسئلة ؟ وهكذا رويت له القصة بغير قليل من التفصيل ، متحدثا خلال نصف ساعة على وجه التقريب .

فلما انتهيت قال ماسلوبويف :

ـ هِمْ .. هذه فتاة ذكية . ولئن لم تكن تقديراتها صحيحة تماما فيما يتصل بالأمير ، لقد أحسنت حين ادركت منذ البداية من هو هذا الرجل ، وأحسنت حين قطعت كل علاقة . انها لفتاة باسلة ، ناتاليا نيقولايفنا هذه ! وهاءنا ذا اشرب نخب صحتها ! (قال ذلك وافرغ كأساً) . ليس يكفى المرء ان يكون ذكيّ العقل حتى لا يُخدع ، بل لا بد له ايضا من قلب حسّاس. وقد صدقها قلبها ، فلم تخطىء الحدس. ان قضيتها خاسرة طبعاً . فالأمير سيصمد ، وأليوشا سيهجرها . ولكن الشخص الوحيد الذى أشفق عليه هو اخمنيف الذى يدفع لهذا اللص الحقير عشرة آلاف روبل ! من ذا الذى اهتم بقضاياه ، من ذا الذى لاحق الدعوى ؟ أراهن انه تولى ذلك كله بنفسه ! هه .. يا لهؤلاء الناس الذين تفيض قلوبهم بالشهامة والحماسة . انهم جميعاً كذلك ! لا يصلحون لشيء ! ما هكذا يؤخذ الأمير ! لو علمت بالامر ، لدللته على واحد من أولئك المحامين الصغار .. هه ..

قال ذلك وضرب المائدة بيده أسفاً . فقلت :

ـ والآن حدثني عن الأمير .

فقال :

ـ انك لا تتكلم الا عن الأمير ! ماذا استطيع ان اقول عنه ؟ يؤسفني

أنني طرحت هـذا الامر على بسـاط البحث • ان كل ما أردته هو ان أحذرك من هذا النذل اللئيم ، أن أحررك من سلطانه ان صحّ التعبير • ان كل من يتصل به يصبح في خطر • فكن على حذر من أمرك • هذا كل شيء • أكنت تظن أنني سأكشف لك عن أسرار باريز ؟ انك لروائي حقاً ! ماذا اقول عن لص دنيء ؟ كل ما اسـتطيع ان اقوله هو انه لص دنيء ، لا اكثر من ذلك ولا اقل • اليك مثلاً هـذه القصـة من قصصه الصغيرة ، سأرويها لك طبعاً دون ان اذكر اسـماء البـلدان ، ولا اسماء الاشخاص ، ودون أن أحدد التواريخ تحديداً دقيقاً • انت تعلم ان هذا الامير ، في ايام شبابه ، حين كان مضطراً ان يعيش من راتب الوظيفة ، قد تزوج ابنة تاجر غني • فكان يسيء معاملة هذه المرأة •• وأحب ان ألفت نظرك يا صديقي ، رغم ان ذلك ليس مدار الحديث الآن ، الى ان هذا الامير قد ظل طوال حياته يقوم بأعمال من هذا النوع • اليك مثالاً آخر : لقد سافر الى الخارج ، وهناك •••

ـ انتظر يا ماسلوبويف ؟ عن اية سفرة من سفراته نتكلم ؟ في اية سنة ؟

ـ منذ تسعة وسبعين عاماً على وجه الضبط !•• وهناك ، اغرى فتاة أخرى من الفتيات ، فاختطفها من أبيها ، ومضى بها الى باريس • وانظر كيف جرت حوادث القصة • كان ابو الفتاة يملك مصنعا ، او يساهم في مشروع من هذا القبيل ، لا أدري على وجه الدقة•• فما أقصه عليك انما هو استنتاجات خاصة ، واستدلالات استمدها من معلومات اخرى• مكر الامير بالرجل ، فحشر نفسه في أعماله ، وخدعه خداعاً تاماً ، فاقترض منه مالاً ، لقاء اوراق تثبت عليـه هذا الدين • ولكن الامير كان يريد ان يقترض المال دون ان يرده ، كان يريد ان يسرق وكفى • وكان للرجل العجوز ابنة هي آية من آيات الجمال ، وكانت هذه الابنة تحب فتى مثالياً كأنه شيللر ،

فتى شاعراً يتعاطى التجارة في الوقت نفسه ، فتى حالماً ، او قل بكلمة واحدة فتى المانيا وكفى .. كان اسمه بيفر كوخن .

ــ بيفر كوخن ؟

ــ قد لا يكون اسمه كذلك ، ولكن دعنا منه الآن ، ليس مدار الحديث عليه . المهم ان الامير ما زال بالفتاة حتى وقعت فى غرامه وجنت حبا به . وكان هو يريد امرين : اولهما الفتاة ، وثانيهما الاوراق التى تثبت دين العجوز عليه . وكانت مفاتيح جميع صناديق العجوز فى عهدة الفتاة ، وكان العجوز يحب ابنته حب العبادة ، ولا يريد أن يزوجها ، ويغار من جميع من يتقدمون اليها ، ولا يتصور ان فى وسعه ان ينفصل عنها ؛ وكان قد طرد بيفر كوخن ، الفتى الانجليزى الطريف !

ــ الانجليزى ؟ ولكن اين وقع هذا ؟

ــ قلت انه انجليزى من قبيل التمويه ، وهاءنت ذا تمسك رأساً بتلابيبى . لقد وقع ذلك فى سانتافى دو بوجوتا ، اللهم الا ان يكون قد وقع فى كراكوفيا ، والارجح انه وقع فى امارة ناسو .. الا تعرف ناسو ؟ اننا نرى اسمها على زجاجات ماء سلتس .. نعم وقع ذلك فى ناسو . هل يكفيك هذا ؟ المهم ان الامير قد أغرى الفتاة ، فانتزعها من ابيها ، واضطرها بشدة الحاحه الى سرقة بعض الاوراق . هل ترى الى الحب اىّ مدى يبلغ يا فانيا ؟ كيف يمكن ، يارب ، ان نقول انها كانت فتاة شريفة نبيلة مهذبة ! ولكن لعلها كانت جاهلة بكل ما يتصل « بالورقيات من شئون » . وكانت لا تخشى الا شيئاً واحداً : هو أن يلعنها أبوها . فعرف الامير كيف يداورها في هذا الامر ايضا ، فوقع لها تعهدا قاطعاً شرعياً بأنه سيتزوجها ؛ وبذلك أوهمها بأنهما سيسافران فى نزهة الى حين ، حتى اذا هدأ غضب أبيها ، عادا زوجين ، وعاشوا هم الثلاثة معاً الى الأبد . فهربت الفتاة معه ، ولعنها أبوها ، ثم أفلس ، وهجر

فاورملك تجارته ، وهجر كل شيء ، ولحق بالفتاة الى باريز • لقد كان مولَّهـا بها الى حد الجنون •

ـ انتظر ، أي فاورملك تعني ؟

ـ أعني الرجل الآخـر ! ماذا سميناه منذ قليل ؟ فاورباخ •• أو بيفر كوخن ، كما تريد •• وطبيعي ان الامير كان لا يرغب أبداً في أن يتزوج الفتاة ، والا فما عساه يقول للكونتيسة ؟ وما عساه يقول للبارون بوموئيكين ؟ كان لا بد اذن ان يخدعها • وهذا ما فعله ، وقد فعله بوقاحة لا نظير لها : كان يكاد يضربها •• ودعا بيفركوخن الى زيارتهما عامدا ، فكان هذا يجيء اليهما من حين الى حين ، واصبح صديق المرأة ، فكانا يبكيان ليالي برمتها ، ويتوجعان مما آلا اليه من شقاء : كانا طفلين حقاً • لقد دبر الامير ذلك كله عامداً ، ففاجاءهما معا ذات يوم ، في ساعة متأخرة من المساء ، فادعى انهما على علاقة آثمة ، واخذ يشاجرهما ، وقال انه رآهما بعيني رأسه ، ثم طردهما كليهما شر طردة ، وسافر هو في رحلة الى لندن • كانت المرأة يومئذ توشك ان تلد ، فما انقضى على طردها الا زمن يسير ، حتى ولدت •• بنتا •• اقصد ابناً •• سمته فولوديا • وكان بيفر كوخن اشبينه • وسافرت مع بيفركوخن • ولم يكن الفتى يملك الا موارد ضئيلة • وطافت معه سويسرا ، وايطاليا ، وجميع البلاد الشعرية • وكانت لا تفتأ تبكي ، وكذلك هو ••• وانقضى على هذه الحال عدد من السنين • وكبر الصبي • أما الامير فكان يمكن أن تسير الامور كلها على ما يجب ، لولا نقطة سوداء هي انه لم يستطع أن يسترد من المرأة تلك الوثيقة التي يتعهد فيهـا بالزواج • لقد قالت له وهي تتركه : « لقـد سرقتني ، أيها الجبان ، ولوثت شرفي ، وهأنت ذا تهجرني ، وداعاً ! ولكنني لن أرد اليك تعهدك ؛ لا لأنني أرغب في أن أتزوجك أبداً ، بل لانك تخاف من هذه الوثيقة • سأحتفظ بها الى الابد • » الخلاصة انهـا

غضبت غضباً شديداً ، اما الامير فقد احتفظ بهدوئه • انه ليسعد هؤلاء الاوباش أن يكون خصومهم « أناساً شرفاء » • فان هؤلاء الشرفاء يسهل خداعهم ، حتى اذا اكتشفوا انهم خُدعوا ، اعتصموا بنوع من الاحتقار المتكبر ، بدلاً من أن يلجأوا الى القانون ، اذا كان ذلك فى الامكان • فهذه المرأة مثلاً لاذت بازدراء متغطرس ، وكان الامير يعلم ، رغم احتفاظها بالوثيقة ، انها تؤثر أن تشنق نفسها على أن تنتفع بهذه الوثيقة • فظل هادىء البال خلال مدة من الزمن • وقد بصقت هى فى وجهه ، ولكن فولوديا كان على ذراعيها ، فما عسى أن يصير اليه لو ماتت ؟ انها لم تفكر فى هذا الامر أبداً • وكان برودرشافت يشجعها ولا يفكر فى هذا الامر كذلك • وكانا يقرءان شيللر • وأخيراً ساءت حال برودرشافت ومات ••

ـ تقصد بيفركوخن ؟

ـ نعم ، الى جهنم ! •• أما هى •••

ـ انتظر ، كم استغرقت رحلتهم ؟

ـ مائتى سنة تماماً • أما هى فقد عادت الى كراكوفيا • فرفض أبوها أن يستقبلها ، ولعنها ، وماتت ، فرسم الامير على نفسه اشارة الصليب فرحاً • كنت هنالك ، وشربت هيدروميل ، فكان يسيل على شاربىّ ولا تدخل منه فى فمى قطرة •• فلنشرب أيها الأخ !

ـ أظن انك انت الذى تتولى الاهتمام بهذا الامر من أجله يا ماسلوبويف ؟

ـ هل تحرص على أن أتولاه حتماً ؟

ـ ولكننى لا أرى ماذا تستطيع أن تفعل !

ـ اسمع ، حين عادت الى مدريد ، بعد غياب عشر سنين ، وقد عادت باسم مستعار ، كان يجب الحصول على معلومات عن برودرشافت ،

وعن العجوز • كان يجب أن نعلم هل عادت حقاً ، أين هو الطفل ، هل ماتت ، هل تحمل وثائق الخ •• الى غير نهاية •• ثم هناك شيء آخر • يا له من رجل حقير ! حذار منه يا فانيا • اما ماسلوبويف ، فاليك مايجب أن ترى فيه من رأى : لايذهب بك الظن أبداً الى انه نذل ! وهبه نذلاً (وأنا أعتقد ان جميع الناس كذلك) ، فانه ليس عدوك • صحيح انني الآن سكران ، ولكن اسمع : اذا خطر ببالك في ذات يوم قريب أو بعيد ، اذا خطر ببالك الآن أو في السنة المقبلة ، ان ماسلوبويف قد مكر بك (أرجوك ، لا تنسى كلمة « مكر ») فاعلم ان ذلك يكون بغير سوء نية • ان ماسلوبويف يسهر عليك • فلا تدع للشكوك سبيلاً الى نفسك ، بل تعال اليه ، وابسط له أمرك بصراحة ، كأنه أخوك وكأنك أخوه • ألا تريد أن تشرب ؟

— لا •

— أتأكل شيئاً ؟

— لا ، أيها الأخ ، اعذرني •

— اذن فاذهب ، الساعة الآن هي التاسعة الا ربعاً • كفاك تكبراً • لقد آن أن تمضي •

— ماذا ؟ كيف ؟ انه يسكر ثم يطرد ضيوفه • انه دائماً كذلك • يا لك من وقح !

بهذا صرخت الكسندرا سيمينوفنا ، وهي تكاد تبكي •

— لا تخلطي المخلل بالمناشف ، يا ألكسندرا سيمينوفنا • سنبقى معاً ، وسنتغازل • اما هو ، فهو جنرال • يا فانيا ، لقد كذبت ، لست جنرالاً • اما أنا فوغد • أنظر الى حالتي الآن ! ما أنا اذا قورنت بك ؟ اعف عني يا فانيا ، لاتسيء الظن في ، واسمح لي ان ••

قال ذلك وتناولني بذراعيه وأخذ يبكي ، فنهضت لأخرج ، فقالت الكسندرا سيمينوفنا يائسة :

ـ وأنا الذي حضرت العشاء ! ولكنك ستجيء يوم الجمعة ، أليس كذلك ؟

ـ سأجيء يا الكسندرا سيمينوفنا ، أعدك بهذا .

ـ قد تشمئز من رؤيته سكران هكذا . ولكن لا تحتقره يا ايفان بتروفتش ، انه طيب القلب ، انه كما تعلم طيب القلب جداً .. وهو يحبك كثيراً . لقد أصبح لا يحدثني الا عنك ، ليل نهار . واشترى لي كتبك . لم أقرأها بعد . سأبدأ ذلك غداً . وكم يسرني أن تجيء الينا . انني لا أرى أحداً ، فليس يزورنا أحد . عندنا كل شيء ، ونبقى وحدنا . لقد استمعت اليوم الى كل ماقلته .. كان كلاماً جميلاً .. اذن .. الى يوم الجمعة .

الفصل السابع

أسرعت أعود الى بيتي • لقد أثر فيّ كلام ماسلوبويف تأثيراً شديدا •

خطرت ببالى خواطر كثيرة •• فلماوصلت الى البيت كان ينتظرنى هنالك ، كأنما على عمد ، حادث هزنى هزا عنيفا كصدمة كهربائية •

كان فى باب العمارة التى أسكنها مصباح ، فما ان دخلت الدهليز حتى وثب عليّ من تحت المصباح وجه غريب ، ما ان رأيته حتى صرخت جزعاً : وجه مخلوق جُن جنونه من الذعر فهو يرتعش ارتعاشا شديداً ، ويتعلق بى صارخا كأنه فاقد صوابه • انها نللى •

هتفت :

ــ مابك يا نللى ؟ ما الامر ؟

ــ انه هناك •• فوق •• فى بيتنا •

ــ من هو ؟ لنذهب اليه ، تعالى معى •

ــ لا ، لا أريد ، سأنتظر فى حجرة المدخل ، الى أن يخرج •• لا أريد أن أذهب اليه •

فصعدت الى غرفتى ، وأنا أتنبأ بشىء ، فلما فتحت الباب ، لمحت الامير •

كان جالسا الى المنضدة يقرأ ، أو قل على الاقل كان بيده كتاب مفتوح ، فلما رآنى هتف يقول بلهجة فرحة :

ـ ايفــان بتروفتش ، يسرنى جــداً انك عدت أخيراً • كنت على وشك أن أذهب • لقد تعهدت للكونتيسة اليوم أن أجىء بك اليها ، بعد أن ألحت علىّ فى ذلك الحاحا شديدا • لقد رجتنى فى ذلك رجاءً حاراً ، فهى فى شوق كبير الى معرفتك • فرأيت أن آتى اليك قبل أن تخرج ، وأن أدعوك ، مادمت قد وعدتنى بذلك • وما كان أشد خيبة أملى حين قالت لى خادمتك انك لست فى البيت • ولكننى كنت قد قطعت للكونتيسة وعدا بأن أصحبك اليها ، فقلت : انتظرك ربع ساعة ، وفتحت روايتك ، فاذا أنا أستغرق فى القراءة وقتا طويلاً • ماهذا يا ايفان بتروفتش ! شىء عظيم ! هل تعلم أنك أسلت من عينى الدموع ؟ نعم لقد بكيت ، مع اننى لا أبكى الا نادراً •

ـ تريد أن أذهب الى هناك ؟ ولكن يجب أن أعترف لك اننى فى هذه اللحظة •• رغم اننى لا أرجو أحسن من ذلك ••

ـ ناشدتك الله الا جئت ! ما عسى أن يكون موقفى اذا لم تجىء !

اننى أنتظرك هنا منذ ساعة ونصف ساعة ! •• ثم اننى فى حاجة ماسة ، ماسة جداً ، الى التحدث معك ، فى الموضوع الذى تعرفه •• انك تعرف هذا الموضوع كله أكثر مما أعرفه •• فلعلنا ننتهى الى قرار ، لعلنا نصل الى حل ، ما رأيك ؟ فكر فى هذا ؛ أرجوك ؛ لاترفض أن تجىء معى !

وفكرت فى الامر فوجدت ان علىّ أن أذهب الى هناك عاجلا أو آجلاً • صحيح ان ناتاشا تقبع الآن وحدها وانها فى حاجة الىّ ، ولـكن ألم ترجنى هى نفسها أن أتعرف الى كاتيا فى أقرب فرصة ممكنة ؟ ثم ان أليوشا قد يكون هنالك أيضا •• كنت أعرف ان ناتاشا لن يهدأ بالها ما لم آتها بأخبار كاتيا ، فقررت أن أذهب ، الا ان نللى هى التى كان يشغلنى أمرها •

قلت للامير وأنا أخرج الى السلم :

ـ انتظرني قليلاً .

كانت نللى هنالك ، لاطية بركن مظلم .

ـ لماذا لاتريدين أن تدخلى يا نللى ؟ ماصنع بك ؟ ما قال لك ؟

ـ لا شيء .. لا أريد .. لا أريد .. أنا خائفة .

عبثا حاولت أن أقنعها . فاتفقنا على أن تدخل هى الى الغرفة متى خرجت أنا مع الامير ، وعلى أن تقفل باب الغرفة بالمفتاح من داخل .

ـ ولا تسمحى لاحد بأن يدخل ، يا نللى ، مهما يقل لك .

ـ هل تذهب معه ؟

ـ نعم .

فارتعشت ، وتناولت يدى ، كأنها تود لو ترجونى ألا أذهب ، ولكنها لم تقل شيئا ، وقررت أن أسألها عن التفاصيل غداً .

وعدت الى الامير ، فاعتذرت اليه ، وأخذت أرتدى ثيابى . فأكد لى ألا حاجة بى الى الاسراف فى العناية بهندامى ، ولكنه بعد أن نظر الىّ من قمة الرأس الى اخمص القدم نظرة فاحصة قال :

ـ ومع ذلك لا بأس أن ترتدى ملابس أكثر جدة من هذه . أنت تعرف تلك السفاسف الاجتماعية .. يستحيل أن يتحرر الانسان منها تحرراً تاما .. ولن نرى هذا الكمال يتحقق فى مجتمعنا قريبا ..

قال جملته الاخيرة هذه بعد أن لاحظ راضيا ان عندى ملابس جديدة .

وخرجنا .. ولكننى تركته على السلم ، وعدت الى الغرفة ، وكانت نللى قد تسللت اليها ، فودعتها مرة أخرى . كانت مضطربة اضطرابا

فظيعا • كان وجهها ازرق من فرط الاضطراب • فشعرت بقلق عليها ، وحز في نفسي انني أتركها •

قال لى الامير وهو يهبط السلم :

ـ خادمتك غريبة الاطوار ! هل هذه البنت الصغيرة خادمتك ؟

ـ لا •• بل هي بنية تسكن عندى الآن •

ـ انها غريبة الاطوار • أظن انها مجنونة • تصور انها في اول الأمر أجابتني بكلام مناسب ، ولكنها ما ان نظرت الىّ ، حتى ارتمت علىّ ، وصرخت ، وأخذت ترتعش ، وأمسكت بتلابيبي •• كانت تريد أن تقول شيئا ، ولكنها لم تستطع ذلك • وأعترف لك بأنني خفت ، وأوشكت أن أهرب ، لولا انها سبقتني الى الهرب ، ولله الحمد • لقد شدهت • ولكن كيف تستطيع أن تحتملها ؟

ـ انها مصابة بالصرعة •

ـ ها •• اذن لا غرابة ••• ما دامت تجيئها نوبات •••

وخطر ببالى أن مجيء ماسلوبويف الى البيت أمس ، رغم علمه بأنني لست في البيت ، وزيارتي اليوم لماسلوبويف ، وما رواه لى على مضض وهو سكران ، وكونه دعاني الى المجيء اليه في الساعة السابعة ، وما قاله لى من انه لا يخادعني ولا يمكر بي ، وانتظار الامير هنا منذ ساعة ونصف ساعة مع انه ربما كان يعرف انني عند ماسلوبويف ، وكون نللي هربت الى الشارع منه ، خطر ببالى ان هذا كله يرتبط بعضه ببعض • ان هذه الامور كلها لتستحق التفكير •

كانت عربة الامير تنتظره عند الباب ، فصعدنا اليها ، ومضت بنا •

الفصل الثامن

لم يكن الطريق طـــويلاً ، فان البيت يقع عنـــد جسر « التجارة » • لزمنـا الصمت فى أول الأمر • وتساءلت : ترى كيف يبدأ الأمـير الحديث • وظننت انه سيمتحننى ، سيجربنى ، سـيحملنى على الكلام• ولكنه تناول الموضوع رأساً ، وبدأ يقول بلا لف ولا دوران:

ـ هناك شىء يقلقنى كثيراً يا ايفان بتروفتش ، فأريد أن أتحدث عنه قبل كل شىء ، وان أسألك فيه النصيحة • لقد قررت منذ مدة طويلة أن أتنـازل عن ربح الدعـــوى ، وان أرد الى اخمنيف آلافه العشرة من الروبلات • فكيف أعمل ؟

قلت فى نفسى : « يســتحيل أن تجهل كيف تعمـــل • أتريد أن تسخر منى ؟ » • ثم أجبته بسذاجة :

ـ لا أدرى أيها الامير •• أنا مستعد ، فيما يتصل بناتاليا نيقولايفنا ، أن أمدك بجميع المعلومات اللازمة ، اما فيما يتصل بهذا الموضوع فأنت أدرى منى ، حتماً ، بما يجب أن يُعمل •

ـ لا •• لا •• بالعكس • انك تعرفهم ، ولعل ناتاليا نيقولايفنا قد قالت لك رأيها فى هذا الموضوع غير مرة • وهذا مايمكن أن يوجهنى ويقود خطاى أكثر من أى شىء آخر • تستطيع أن تعاوننى كثيراً • ان القضية حرجة الى أبعد حدود الحرج • اننى مستعد لان أتنازل عن جميع حقوقى ، بل لقد عزمت على ذلك عزماً قاطعاً ، مهما تكن نتيجة الامور

الاخرى ، هل تفهمني ؟ ولكن المسالة هي : كيف ، في أية صورة ، على أي نحو أنفذ هذا التخلي ؟ ان العجوز رجل متغطرس عنيد • انه قادر على أن يحقرني جزاء ما أقدِّم له من يد ، وأن يقذف المال في وجهي ••

ـ ولكن قل لي من فضلك : هل تعد هذا المال مالك أم تعده ماله ؟

ـ أنا ربحت الدعوى ، فالمال اذن مالي •

ـ ومن ناحية ضميرك ؟

ـ طبعاً أعده مالي •

قال ذلك وكأن استهتاري به قد قرصه قليلاً • ثم أردف يقول :

ـ يبدو لي انك لا تعرف القضية معرفة عميقة • أنا لا أتهم العجوز بأنه خدعني عن سابق تصور وتصميم ، اعترف لك بذلك ؛ انني ما اتهمته بهذا قط • هو الذي أراد أن يعتقد انه أوذي في كرامته • كل ما في الامر انه اقترف جريمة الاهمال في أعمال عُهد بها اليه ، والاتفاق الذي تم بيننا ينص على انه مسئول • على أن هذا أيضاً ليس أهم ما في الامر • آخطر ما في الامر هو تلك المشاجرات التي قامت بيننا ، وتلك الاهانات التي تبادلناها ؛ أي ان كرامتنا قد جُرحت • ولولا ذلك لما التفت الى بضعة الآلاف التافهة تلك من الروبلات • ولكن لابد انك تعرف كيف بدأ هذا الامر كله • اعترف لك بأنني أسأت الظن ، وربما كان سوء ظني في غير محله (يومئذ) ، ولكنني لم أدرك ذلك ، فلم أشأ ، وقد استبد بي الغضب وأهانني العجوز بكلامه الفظ ، أن تفلت مني الفرصة ، فشرعت في اقامة الدعوى • قد يبدو لك ذلك عملاً غير نبيل مني • ولست في معرض تبرئة نفسي ، ولكنني أحب أن ألفت نظرك الى ان الغضب ، والدفاع عن الكرامة خاصة ، لا يدلان أيضاً على قلة النبل ، فهما أمران طبيعيان انسانيان • وأعود فأقول لك انني كنت لا أكاد أعرف

اخمنيف ، فاعتقدت اعتقاداً أعمى بجميع تلك الاشاعات التى تناولت ابنته وأليوشا ، لذلك أيضـاً ظننت انه سرقنى عامداً متعمداً •• على ان هـذه الامور تفاصيل لا حاجة بنا الى الدخول فيها الآن • الشيء الاساسى هو اننى لا أعرف ماذا يجب أن أعمل • أن أتنازل عن المال وأن أعد شكواى عادلة في الوقت نفسه ، فان معنى ذلك اننى أهدى اليه المال اهداء • أضف الى ذلك الموقف الحرج الذى نحن فيه بسبب نيقولايفنا •• ليس يخالجنى ريب فى انه سيقذف بالمال فى وجهى ••

ـ أنظر •• مادمت تقول هذا الكلام ، فمعنى ذلك انه تعده رجلا شريفاً• ويترتب على هذا ان فى وسعك أن تقتنع بأنه لم يسرقك • واذا كان الامر كذلك ، فلماذا لا تمضى اليه فتقول له صراحة انك تعد شكواك باطلة ؟ ان فعلت هذا كان نبلا منك •• ولن يزعج اخمنيف عندئذ أن يسترد ماله •

ـ هم •• ماله •• هذه هى الصعوبة • ماذا تريد أن أعمل ؟ ان أذهب اليه فاقول له اننى أعد شكواى باطلة ؟ ولكن ماعسى يقول الناس عندئذ؟ سيقولون لى : مادمت تعرف ان شكواك باطلة فلماذا قدمتها ؟ الواقع اننى لا أستحق أن يقول لى الناس هذا الكلام • ذلك اننى كنت على حق • أنا لم أقل لاحد ولا كتبت لاحد أن اخمنيف سرقنى ، ولكننى مازلت مقتنعاً بأنه أسرف فى الاهمال ، وبأنه لا يعرف كيف يسوس عملا من الأعمال • وذلك المال هو مالى حقاً ، لهذا يعز علىّ أن أتهم نفسى بأننى رفعت دعوى باطلة • الخلاصة ان العجوز أراد أن يرى انه أهين ، وانت تريد أن أستغفره عن هذه الاهانة ، وهذا كثير بعض الشيء !

ـ يخيل الى انه حين يريد شخصان أن يتصالحا ••

ـ هل تظن ان هذا سهل ؟

ـ نعم •

ـ هذا صعب جداً في بعض الاحيان ، خاصة و ...

ـ خاصة وان ظروفاً أخرى قد أضيفت الى المسألة . على هـذا أوافقك ، أيها الامير . فيجب آن تحل قضية ناتاليا نيقولايفنا وابنك ، من جميع النواحي التي تتصل بك ، حتى يرتاح العجوزان ، وعندئذ تستطيع أن تتفاهم تفاهماً صادقاً مع نيقولا سرجتش . اما وان شيئاً لم يقرر بعد في هذا الموضوع ، فليس ثمة الا سبيل واحـد ، هو أن نعترف ببطلان دعواك ، وأن تعترف بذلك صراحة ، وربما كان عليك أن تعلن ذلك على رءوس الاشهـاد ، أن تعلنه للنـاس عامة . ذلك هو رأيي ، أقوله لك صراحة ، لانك انت سألتني النصح ، ولا شك انك لا تريد أن أرواغ معك . وهذا يشجعني على أن أطرح عليك هذا السؤال : لماذا يهمك أن ترد هذا المال الى اخمنيف ؟ اذا كنت تعد دعواك عادلة فلماذا ترد المال ؟ اغفر لى فضولى ، ولكن لهذا صلة بظروف أخرى ..

ـ ولكن مارأيك ؟ هل انت على يقين من أن اخمنيف سيرفض هذه الآلاف العشرة من الروبلات ، اذا أنا رددتها اليه دون أن أشفعها بأى اعتذار و .. و .. أى تلطيف ؟

ـ أنا على يقين من ذلك .

قلت هذا وقد احمر وجهى وأخذت أرتجف من فرط الاستياء . كان لهذا السؤال الذى يحمل معنى الشك الوقح ، من التأثير فى نفسى مثلُ ما يمكن أن يكون لبصقة يبصقها الرجل فى وجهى. أضف الى هذه الاهانة اهانة أخرى ، هى هذه الطريقة الفظة التى قاطع بها كلامى ، دون أن يجيب على سؤالى ودون أن يحفل به ، على عادة أبناء طبقته الراقية ، يجيب على سؤالى ودون أن يحفل به ، على عادة أبناء طبقته الراقية ، كأنما كأنما أراد بذلك أن يُشعرنى بأننى أسرفت فى رفع الكلفة بينى وبينه، حين

طرحت عليه سؤالى على هذا النحو • كنت أبغض فى أبناء هذه الطبقة تلك الاساليب وأمقتها أشـــد المقت ، حتى لقد حاولت أن أحرر منهـا أليوشـا •

أجاب الأمير على اندفاعى ، بفتور ، قائلا :

ـ هِم •• انت مندفع شديد الاندفاع ، هناك أمور فى هذه الحياة تتم على غير النحو الذى تتصوره• ثم اننى أرى ان فى وسع ناتاليا نيقولايفنا أن تحل هذه المسألة بعض الحل ، فاشرحْ لها الامر ، عسى أن تسدى الينا بالنصح •

قلت بلهجة خشنة :

ـ مستحيل •• انك لم تتنازل فتصغى حتى النهاية الى مابدأت أقوله لك منذ قليل • ان ناتاليا نيقولايفنا ستعتقد ، اذا انت رددت المال الى أبيها دون صـدق ، ودون تلطيف على حـد تعبيرك ، ستعتقد انك تحاول أن ترضيهما بالمال ، ترضى أباها عن ابنته ، وترضيها هى عن أليوشا ، أى ستعتقد أنك تدفع لهما تعويضاً ••

ـ هِم •• أهكذا تفهمنى يا عزيزى ايفان بتروفتش ؟

قال ذلك وأخذ يضحك • لماذا أخذ يضحك ؟

ثم تابع يقول :

ـ عدا هذا ، هناك أشياء كثيرة يجب أن نتحدث فيها • ولكن الوقت لا يتسع لذلك الآن • غير اننى أسألك أن تفهم هذا الامر : ان هــذه القضية تتصل بناتاليا نيقولايفنا رأساً ، وان مستقبلها كله مرهون ، بعض الشيء ، بما سـوف نقرره أنا وانت • لذلك ، اذا كنت متعلقـاً بناتاشـا نيقولايفنا ، فانك لا تستطيع أن ترفض الحديث معى ، ولو كان شعورك نحوى لا يشتمل على كثير من الحب • هانحن أولاء وصلنا •• فلنرجىء الكلام الى وقت قريب •

الفصل التاسع

كان بيت الكونتيسة بيتاً جميلاً ، وكان في أثاث غرفة كثير من الرخاء والذوق ، على خلوه من أي ترف . ومع ذلك كان كل ما في البيت يدل على أن الاقامة فيه مؤقتة . فهو بيت مريح الى حين ، ولكنه لا يليق أن يكون المسكن الدائم الثابت لأسرة غنية ، لأنه خال من مظاهر الأبهة التي يحرص عليها السادة ، ويعدونها ضرورة لازمة حتى في أدق التفاصيل . وكان يروج أن الكونتيسة ستقضي فصل الصيف في أطيانها (المدمَّرة المثقلة بالديون) بسمبرسك ، وان الأمير سيصحبها . كنت قد سمعت ذلك ، فتساءلت قلقا : تُرى ما عسى يصنع اليوشا حين تسافر كاتيا . ولم أكن قد تحدثت في هذا الى ناتاشا ، فانني لم أجرؤ أن أفاتحها فيه ، ومع ذلك قدرت من بعض العلائم انها لا تجهله ، ولكنها تسكت عنه ، وتتألم صامتة ..

استقبلتني الكونتيسة استقبالا لطيفاً جدا ، ومدت اليَّ يدها برقة وهي تقول انها ترغب في رؤيتي بمنزلها منذ مدة طويلة . وصبت لي بنفسها قدحاً من الشاي ، من سماور من الفضة جلسنا قربه أنا والامير وسيد من الطبقة الراقية متقدم في السن ، متزين ، متصنع بعض التصنع ، يتصرف تصرف الدبلوماسيين . كان واضحاً انهم يولونه احتراما خاصا جداً . ان الكونتيسة ، بعد أن رجعت من الخارج ، لم يتسع وقتها بعد لأن تعقد هذا الشتاء في بطرسبرج علاقات كبيرة ، ولا أن توطد وضعها كما كانت تأمل.

لم يكن هناك ضيوف آخرون ، ولا جاء أحد طوال السهرة . ونظرت أبحث عن كاترين فيدوروفنا : لقد كانت مع اليوشا في الغرفة الأخرى ، ولكنها ما ان علمت بقدومنا حتى جاءت ، فقبّل الامير يدها في لطف وتحبب ، وقدمتني الاميرة اليهـا . وسرعان ما عـرّف الاميرُ أحـدنا بالآخر : فتاة شقراء في ثوب أبيض ، قصيرة القامة ، يعبر وجهها عن نعومة وهدوء ، عيناها زرقاوان صافيتان ، كما قال لنا اليوشا . ولكن ليس لها من الجمال الا نضارة الصبا . كنت أتوقع أن أرى فتاة جميلة رائعة الجمال ، ولكن لم يكن فيهـا شيء من ذلك . وجهها بيضـاوى رقيق ، وقسماتها دقيقة ، وشعرها كثيف وجميل حقا ، قد صففته تصفيفا بسيطا ؛ ونظرتها عذبة يقظة ، ولكنني لو رأيتها في أى مكان لمررت بها دون أوليها أى التفات خاص ، غير أن هذا هو النظرة الأولى فحسب ، وقد اتسـع وقتى في ذلك المساء لانعام النظر فيها أكثر من ذلك . مدّت الىّ يدها وهى تنظر فى عينى بالحاح ساذج ، دون أن تقول كلمة واحدة . ففاجأتنى هذه البادرة بغرابتها ، وابتسمت لها بالرغم منى . لقد شعرت على الفور اننى أمام انسانة صافية القلب . وكانت الكونتيسة تراقبها بكثير من اليقظة. وبعد أن صافحتنى كاتيا ، تركتنى مسرعة ، ومضت تجلس الى جانب اليوشا في الطرف الآخر من الغرفة . وحين حيانى اليوشا قال لى بصوت خافت : « لن أمكث هنا الا دقيقة واحدة وسأذهب حالاً الى هناك » .

كان الدبلوماسى (لست أعرف اسـمه وانما أطلق عليه اسـم الدبلوماسى لاسميه بطريقة من الطرق) يتحدث بهدوء ووقار وهو يشرح فكرة من الافكار . وكانت الكونتيسة تصغى اليه باهتمام . وكان الامير يبتسم ابتسامة الموافقة المتملقة . وكان المحدّث يتجه بالكلام فى أغلب الاحيان اليه ، ربما لانه يعده مستمعاً جديراً به . صبوا لى الشاى وتركونى وشأنى ، فسرنى ذلك كثيراً . كنت خلال ذلك الوقت ألاحظ الكونتيسة

وقد أعجبتني في أول الامــر ، بالرغم مني ان صــح التعبير . لعلها قد تجاوزت مرحلة الصبا ، ولكنني لم أقدّر لها أكثر من ثمانيــة وعشرين عاماً . كان وجهها مايزال نضراً ، ولا شك أنها كانت في الماضي جميلة جداً . كان شعرها الاشقر الاربد مايزال كثيفاً غزيراً ، وكانت لها نظرة حلوة يمازجها نوع من الطيش والمكر . غير أنها كانت في تلك اللحظة تسيطر على نفسها سيطرة واضحة. وكانت نظرتها تشف أيضاً عن ذكاء ، ولكنها تشف خاصة عن طيبة وفرح . وتراءى لي أن الملامح البارزة في طبعها هي الخفة ، والظمأ الى الملذات ، ونوع من أثرة الاطفال . وكانت واقعة تحت سـلطان الامير يؤثر فيها تأثيرا كبيرا . كنت أعــرف أن قد كانت بينهما علاقة ، وكنت سمعت انه لم يكن ذلك العشيق الغيور أثناء اقامتهما في الخارج ، ولكن يبدو لي (وما يزال يبدو لي حتى الآن) انه لابد أن قد كان بينهما علاقة أخرى مستمرة ، هي نوع من الاضطرار المتبادل الذي يقوم على حساب .. كنت اعلم أيضاً ان الامير قد سئمها ، ولكنه لم يقطع علاقته بها . ولعل مايهيئانه لكاتيا (ولا شك ان المبادهة قد جاءت من الامير) هو الشيء الذي لايزال يربط احدهما بالآخر . وعلى هذا الاساس انما بنى الامير رفضه للزواج من الكونتيسة التي لاشك انها طالبته بأن يتزوجها ، فأقنعها بأنه سيساعد على زواج اليوشا بابنتها الجميلة. هذا ، على الاقل ، مااستخرجه من الاقاصيص الساذجة التي قصها علي اليوشا ، بعد ان استطاع أن يلاحظ بعض الامور رغم كل شيء . وقد قدرت أيضاً ، بالاستناد الى أقاصيص اليوشا كذلك ، أن الامير كان يخشى الكونتيسة رغم سيطرته الكاملة عليها ، وأن هناك سبباً يدعوه الى الخشية منها . لقد أحس اليوشا نفسه بذلك . وعرفت فيما بعد ان الامير كان يرغب رغبة شديدة في تزويج الكونتيسة ، وأن هذا من جملة الاسباب التي

تحمله على ارسالها الى اطيانها بمنطقة سمبرنسك ، عسى ان يجد لها هنالك زوجا مناسبا •

كنت جالساً أصغى ، وأنا أتساءل كيف يمكنني أن أخلو الى كاترين فيدوروفنا فأكلمها على انفراد بلا ابطاء • كان الديبلوماسى يجيب على سؤال طرحته الكونتيسة ، سؤال يتناول الوضع الراهن ، والاصلاحات التى شرع فيها : أيجب أن نخشاها أم لا ؟ فتكلم كثيراً ، وتحدث حديثاً طويلا ، هادئاً ، كأنه رجل من رجال السلطة • كان يشرح فكرته شرحاً مرهفاً بارعاً ، ولكن فكرته هذه كانت مثيرة • كان يلح خاصة على أن روح الاصلاح سرعان ماستسفر عن بعض النتائج ، وأن الناس سيعودون الى صوابهم حين يرون تلك النتائج • ان روح الاصلاح هذه ستختفى من المجتمع (أعنى من قسم من المجتمع ، طبعاً) ، فسيدركون عند التطبيق أنهم اقترفوا خطأ ، وسيعودون الى النظام القديم بمزيد من القوة• وقال ان تجربة هذه الاصلاحات ستكون مفيدة على كل حال ، رغم أنها محزنة ، ذلك لأنها ستبين أن المحافظة على الوضع القديم واجبة ، ولانها ستأتى بمعلومات جديدة ، ولذلك يجب أن يتمنى المرء منذ الآن أن يمضو بها الى آخر حدود الطيش ، وختم كلامه بقوله : « انهم لا يستطيعون بدوننا أن يفعلوا شيئاً ، وما من مجتمع أمكن أن يبقى بدوننا • لن نخسر اذن شيئاً : بل سنربح كثيراً • سننجو ، سننجو ، ويجب أن يكون شعارنا فى هذه اللحظة : الافضل أن تسوء الحال • » فابتسم له الامير ابتسامة تودد بعثت فى نفسى الاشمئزاز • كان الخطيب راضياً عن نفسه كل الرضى • وكان يمكن أن أرتكب حماقة فأرد على كلامه ، ذلك أن قلبى كان يغلى حنقاً ، لولا نظرة مسمومة من الامير أوقفتنى : لقد اختلس الامير هذه النظرة الىّ اختلاساً من جانب ، فبدا لى أنه يتوقع أن أندفع اندفاعة غريبة طفولية وانه ربما كان يتمنى ذلك ، وانه يسره أن يرانى

أعرض نفسى للمخاطر . وكنت فى الوقت نفسه مقتنعاً كل الاقتناع بأن الدبلوماسى لن يلتفت الى ردى ، وانه قد لا يلتفت الى وجودى أصلا . وشعرت بانزعاج فظيع ، الا ان اليوشا أخرجنى من المأزق .

اقترب منى اليوشا بلا ضجة ، ولمس كتفى ، ورجانى أن أجىء ليقول لى كلمتين . فأدركت ان كاتيا هي التي أرسلته الىّ . فما هى الا دقيقة واحدة حتى كنت أجلس الى جانبها . شملتنى أول الامر بنظرة فاحصة ، وكأنها تقول بينها وبين نفسها : « أهذا انت اذن ؟ » ، ولم نعرف فى اللحظة الاولى ، لا أنا ولا هى ، كيف نبدأ الحديث . كنت مقتنعاً باننا متى بدأنا الكلام فلن نتوقف ، بل سنظل نتحدث الى الصباح . وتذكرت ما قاله لنا اليوشا عن « الساعات الخمس أو الست من الحديث » . كان اليوشا جالساً قربنا ينتظر أن نبدأ بالكلام بفارغ صبر . فقال أخيراً وهو ينظر الينا مبتسماً :

ـ لماذا لا تقولان شيئاً ؟ أنجمعكما ثم تصمتان ؟

فأجابت كاتيا :

ـ آه منك يا اليوشا .. سنتكلم حالا . ولكن هناك أشياء كثيرة نحب ، أنا وايفان بتروفتش ، أن نقولها .. فما ندرى بأيها نبدأ .. لقد تأخر تعارفنا كثيراً ، وكان يجب أن نلتقى منذ مدة طويلة ، ما كان أشد شوقى الى رؤيتك .. حتى لقد خطر لى أن أكتب اليك ..

فسألتها وأنا أبتسم بالرغم منى :

ـ فى أى موضوع ؟

فأجابتنى بقولها جادة :

ـ ليست الموضوعات هى مايعوزنا . كان يمكننى ، على الاقل ، ان أكتب اليك لاسألك هلا تشعر ناتاليا نيقولايفنا بأنه يسىء اليها حين يتركها

وحدها في مثل هذه اللحظة ؟ هل يجوز له أن يسلك هذا السلوك ؟ لماذا انت هنا يا أليوشا ؟ هل لك أن تقول لى لماذا انت هنا ؟

ـ سأذهب حالا •• قلت اننى لن أمكث الا دقيقة واحدة • أحب أن أرى أولاً كيف تبدءان الحديث ، ثم أذهب •

ـ هانحن معاً ••• هل رأيتنا ؟

قالت ذلك ثم أضافت تقول لى وهي تحمر احمراراً خفيفا وتشير اليه :

ـ انه دائماً هكذا •• يقول : « دقيقة واحدة فقط » ، ثم ، بدون أن نشعر ، يبقى الى نصف الليل ، فيكون الاوان قد فات • « لن تزعل ، انها طيبة جداً • » هكذا يفكر فى الامر ! هل يحسن ذلك ؟ هل فى هذا شىء من نبل ؟

فأجاب اليوشا بلهجة حزينة كئيبة :

ـ أنا ذاهب اذا كنت تصرين على ذهابى • ولكننى كنت أتمنى لو أبقى معكما ••

ـ لسنا فى حاجة اليك •• بالعكس •• هناك أمور كثيرة يجب أن نتحدث فيهـا منفردين •• هيا •• لا تزعل • هـذا شىء لابد منه •• أحْسِنْ فهمَ ذلك •

ـ اذا كان لابد من هذا ، فأنا ذاهب حالاً •• ليس ثمة ما يوجب الزعل • أريد أن أذهب الى ليون دقيقة واحدة ، ثم أمضى اليها فوراً •

قال ذلك ثم أردف وهو يتناول قبعته :

ـ بالمناسبة ، هل بلغك يا ايفان بتروفتش ان أبى يريد أن يتنازل عن المبلغ الذى ربحه فى دعواه ضد اخمنيف ؟

ـ نعم بلغنى ذلك •• قال لى •

ـ أنظر ما أنبل هذا العمل منه ! ان كاتيا لا تصدق انه سلك سلوكاً نبيلاً • حدثها في هذا الامر •• الى اللقاء يا كاتيا •• ورجائي اليك ألا تشكّي في صدق حبي لناتاشا • لماذا تفرضون عليّ هذه الشروط ، لماذا توجهون الى هذه الملامات ، لماذا ترصدون حركاتي وسكناتي •• كأنكم رقباء علي ! انها تعرف مدى ما أكنه لها من حب ، وهي واثقة بي ، أؤكد لكم ذلك • انني أحبها بصرف النظر عن جميع الظروف • أحبها ، لاأدري كيف ! أحبها وكفى ! لذلك يجب ألا تسائلوني كما يُسائل مجرم • هذا ايفان بتروفتش ، فاسأليه مادام هنا ، فيقول لك ان ناتاشا غيورة ، فهي تحبني ولكن حبها يشتمل على كثير من الاثرة ، انها لا تريد أن تضحي من أجلي بشيء •

فسألته دهشاً وأنا لا اكاد اصدق ما تسمعه اذناي :

ـ ماذا تقول ؟

وقالت له كاتيا في شبه صراخ ، وهي تضرب كفاً بكف :

ـ ماذا دهاك يا اليوشا ؟

ـ نعم • ما وجه الغرابة فيما اقول ؟ ان ايفان بتروفتش يعرف ذلك • انها تصرُّ على أن أبقى معها دائماً ، لا أقول انها تصرُّ على ذلك اصراراً ، ولكن المرء يرى انها تريده •

فقالت له كاتيا وقد اصطبغ وجهها بحمرة الغضب :

ـ الا تستحي ؟ الا تستحي ؟

ـ لماذا استحي ؟ انك لتضحكينني حقاً يا كاتيا ! انا احبها اكثر مما تظن هي ، ولو كانت تحبني مثلما احبها حقاً لضحت بلذتها من أجلي• صحيح انها هي التي تصرفني من عندها ، ولكنني ارى في وجهها انها تفعل ذلك على مضض ••• ولا فرق عندى بين ذلك وبين ان تمنعني من الخروج •

ـ لا ، لا .. هذا الكلام لست انت مصدره ! اعترف يا اليوشا ، اعترف حالا بأن أباك هو الذى لقنّك هذا الكلام ، اليوم . ولا تخادعنى، ارجوك ، فان مخادعتك لا تنطلى على . أليس ما قلته صحيحاً ؟

ـ نعم ، قال لى ذلك . وأى بأس فى هذا ؟ لقد حدثنى حديث صداقة وحب ، وظل يثنى عليها طوال الوقت . حتى لقد ادهشنى ذلك. أهانته اهانة شديدة ، ثم هو يثنى عليها !

فقلت له :

ـ وهل صدّقته ، انت يا من اعطتك ناتاشا كل ما تستطيع ان تعطى ؟ انها ، فى هذا اليوم نفسه ، ما كان يهمها الا امر واحد : ان تجنبك الملل ، ان لا تحرمك من فرصة الاجتماع بكاترين فيدوروفنا . لقد قالت لى ذلك هى نفسها . ثم أنت تمضى تصدق ما يقوله أبوك فى حقها تجنياً ! ألا تستحى ؟

قالت كاتيا وهى تشير اليه بيدها اشارتها الى رجل ضائع تماماً :

ـ هذا العاق ! لا يستحى ابداً من شىء .

واستأنف اليوشا يقول بلهجة شاكية :

ـ ولكن ماذا تريدين منى ؟ انت دائماً هكذا يا كاتيا : تظنين فىّ اسوأ الظنون . وكذلك ايفان بتروفتش .. انكما تعتقدان بأننى لا احب ناتاشا . ولكننى حين وصفتها بالأثرة ، انما اردت ان اقول انها تسرف فى حبى ، وان هذا افراط يؤذينا كلينا . اما ابى فلن يخدعنى ابداً ، ولو اراد ذلك . لن ادع له ان يخدعنى . انه لم يصفها بالأثرة من ناحية المعنى السىء الذى تدل عليه هذه الكلمة ، ولقد فهمت ما يريد ان يقوله حق الفهم . لقد قال ما ذكرته لكما منذ لحظة نصاً ، قال : انها تسرف فى حبى الى حيث يصبح هذا الحب اثرة ، وان ذلك يثقل علىّ ، وانه

سيسيء اليها في المستقبل اكثر مما يسيء الي •• وكلامه هذا حق ، قاله حبا بي ، لا رغبة في الاساءة الى ناتاشا • بالعكس ، هو يرى انها قادرة على حب عنيف لا حدود له ، حب يصل الى درجة المستحيل ••

فقاطعته كاتيا ولم تدع له ان يتم كلامه ، واخذت تقرعه تقريعاً شديداً ، وتبين له ان اباه لم يثن على ناتاشا الا ليخدعه بالتظاهر بطيبة القلب ، وانه لا يهدف من وراء ذلك الا الى قطع العلاقة بينه وبينها ، واثارة حفيظته عليها • وبرهنت له ، بحرارة وذكاء ، على ان ناتاشا تحبه حباً عميقا ، وعلى انه ما من حب يمكن ان يغتفر سلوكاً كسلوكه ، وعلى انه هو الأناني حقاً ، لا ناتاشا • وشيئاً فشيئاً تأدت به الى حزن شديد وندامة تامة •• كان يجلس الى جانبنا ، مطرقا الى الارض ، لا يجيب بشيء ، منهاراً تماماً ، ينم وجهه عن ألم شديد • ولكن كاتيا لم يشف غليلها •• كنت اراقبها بكثير من حب الاستطلاع • كنت اريد اعرف هذه الفتاة الغريبة بأقصى سرعة • انها لطفلة حقا ، ولكنها طفلة غريبة ، طفلة مؤمنة ، طفلة ذات مبادىء راسخة ، تحب الخير والعدالة بفطرتها حباً حاراً جارفا • واذا أمكن حقا أن توصف بانها طفلة فيجب أن تنمى الى طائفة الأطفال الحالمين الذين ما أكثرهم في أسرنا• كان واضحاً انها فكرت في الامر قبل ذلك كثيراً • ان المرء ليتمنى ان ينفذ بنظرة سريعة الى هذا الدماغ المفكر ، فيرى كيف تختلط فيه افكار وتصورات هي من الطفولة بملاحظات وافكار عاشها صاحبها (لان كاتيا قد عاشت هذه الملاحظات والافكار) وبأفكار اخرى لم تعشها ولا تزال تجهلها ، افكار مأخوذة من الكتب ، مجردة ، لعلها تظن انها اكتسبتها من التجربة • لقد عرفت كاتيا معرفة كافية ، في ذلك المساء وبعد ذلك المساء • ان لها قلبا عاتيا حساسا • كان يبدو ، في بعض المناسبات ، انها تحتقر فن سيطرة الانسان على نفسه جاعلة الحقيقة فوق كل شيء ، وقبل كل شيء • كانت ترى ان

كل اكراه فهو خطأ ، وكانت تزهو بهذا الرأى ، كما يتمق ذلك لكثير من ذوى الاهواء الجامحة ، حتى بعد ان يتجاوزوا ميعة الصبا • ولكن ذلك كان يضفى عليها سحراً خاصا • كانت تحب ان تفكر وان تبحث عن الحقيقة ، ولكنها كانت لا تتفيهق ، وكانت تندفع اندفاعات طفولية ، فما يملك المرء ، منذ النظرة الاولى ، الا ان يحب شذوذها وان يألفه • وتذكرت ليون وبوريس ، فلاح لى ذلك كله امراً طبيعياً • شىء غريب : ان وجهها الذى لم ألمح فيه أول الأمر شيئاً من جمال ، كان فى ذلك المساء يزداد فى نظرى جمالا وفتنة ، لحظة بعد لحظة • كان هذا الالتقاء الساذج بين الطفلة والمرأة العاقلة فيها ، كان ذلك الظمأ الطفولى الصادق الى الحقيقة والعدالة ، كان ذلك الايمان القوى بما تصبو اليه ، كان ذلك كله يضىء وجهها بنور جميل من الصدق ، ويضفى عليها جمالاً اسمى ، يضفى عليها جمالاً روحيا ••• واضح ان المرء لا يستطيع أن يستنفد بسرعة كل معانى هذا الجمال الذى لا ينكشف دفعة واحدة لنظرة غير مبالية • ولم استغرب ان يتوله بها اليوشا ، فهو لانه لا يستطيع ان يفكر ، لا بد ان يحب اولئك الذين يفكرون من اجله ، بل ويرغبون من اجله ، وقد احتضنت اليوشا واصبحت وصية عليه • كان القلب النبيل الذى يحمله هذا الفتى ينقاد لكل ما هو شريف نبيل جميل ، وكثيراً ما عبّرت كاتيا عن نفسها امامه بكل ما فى الطفولة من صدق ومحبة • كان اليوشا لا يملك شيئا من ارادة ، وكانت ارادتها حازمة حارة مثابرة • ان اليوشا لايستطيع ان يتعلق الا بأولئك الذين يمكن ان يسيطروا عليه وان يقودوا خطاه • وهذا عينه كان من جملة الاسباب التى ربطته بناتاشا فى اول العلاقة التى قامت بينهما ، ولكن كاتيا تمتاز على ناتاشا بميزة كبيرة ، هى انها ما تزال طفلة ، وتبدو كأنها ستظل طفلةً زمناً طويلاً • كان هذا الطبع الطفولى

وهذا الذهن الحادُّ وشيء من قلة التبصر ، كان هـذا كله يقـربها من اليوشا • وكان اليوشا يحس ذلك ، فيزداد ارتباطه بها يوما بعد يوم • وأغلب الظن عندى انهما حين كانا يتحـدثان منفردين ، كانا الى جانب المناقشات الحادة التى تثيرها كاتيا على سبيل « الدعابة » ، يتكلمان ايضا فى الالعاب • ورغم ان كاتيا كانت تؤنبه فى كثير من الاحيان وتسيطر عليه ، فلقد كان واضحا انه يرتاح الى وجوده معها • لقد كانا اكثر انسجاماً ، وهذا هو الشىء الجوهرى •

قال لها اليوشا وهو يمد اليها يده مودعاً :

ـ كفى كفى يا كاتيا • انت دائماً فى النهاية على حق • ذلك ان لك روحا اصفى من روحى • انا ماضٍ اليها الآن ، دون ان اذهب الى ليون •••

ـ لا شأن لك بليون الآن ، ما الطفك اذ تطاوعنى وتذهب •

قال اليوشا بلهجة حزينة :

ـ انت الطف من فى الارض طراً • يا ايفان بتروفتش ، اريد ان اقول لك كلمتين •

فابتعدنا بضع خطوات ، فقال لى بصوت خفيض :

ـ لقد سلكت اليوم سلوكا مخـزيا ، حقيراً ، دنيئا •• اجرمت فى حق العالم بأسره ، وأجرمت فى حقها خاصةً • فقد عرّفنى أبى ، بعد الغداء ، بالكسندرين، وهى امرأة فرنسية جميلة••فاستسلمت للاغراء ، وزلت بى القدم ••• ماذا أقول ؟ اننى لا أستحقهما ، الى اللقاء يا ايفان بتروفتش !

واسرعت كاتيا تقول حين عدت فجلست الى جانبها :

ـ انه طيب القلب نبيل النفس •• ولكن دعنا من الحديث عنه الآن،

فستتكلم عنه كثيراً فيما بعد • وانما يجب فى هذه اللحظة ان نوضح هذه النقطة : ما رأيك فى الامير ؟

ـ شخص كريه •

ـ هذا ما أراه أنا أيضا • ونحن اذن متفقان فى الرأى • وهذا ما يسهّل علينا الانتهاء الى شيء • فلنتحدث بعد عن ناتاليا نيقولايفنا •• انت تعلم يا ايفان بتروفيتش انني فى ظلمات ، ولقد كنت انتظرك انتظارى للنور يأتى فيقشع عنى هذه الظلمات • ستشرح لى كل هذه الامور ، لاننى فيما يتعلق بالنقطة الاساسية لا املك الا الحدس والتخمين على اساس ما يرويه لى اليوشا • وما كنت استطيع ان اسأل احداً فى هذا الموضوع • قل لى اولا ، وهذا هو الشيء الجوهرى : هل تعتقد ان اليوشا وناتاشا سعيدان معا ؟ هذا ما اريد ان اعرفه قبل كل شيء ، لانتهى الى نتيجة ، ولاعرف كيف ينبغى ان اسلك •

ـ هل يمكن ان يقول المرء شيئاً فى هذا الموضوع على وجه اليقين ؟

فقاطعتنى قائلة :

ـ على وجه اليقين ، طبعا لا ••• ولكن ما هو احساسك ؟ ذلك انك رجل ذكى جداً •

ـ اعتقد انهما لا يمكن ان يكونا سعيدين •

ـ لماذا ؟

ـ لأنهما لا يناسب احدهما الآخر •

ـ هذا ما كنت أقدّره •

قالت ذلك ثم شبكت ذراعيها وقد لاحت فى وجهها كآبة عميقة ، وأردفت :

ـ قصّ علىّ كل شيء تفصيلا • انت تعلم اننى اتحرق شوقا الى لقاء ناتاشا ، لان هناك اشياء كثيرة يجب ان اقولها لها ، ويبدو لى اننا سنجد

حلا لكل شيء . انني اتخيلها دائما : لا بد انها ذكية ذكاءً فذاً ، ولا شك أنها جادة ، مستقيمة ، وجميلة . هل هذا صحيح ؟

ـ نعم .

ـ كنت واثقة من ذلك. ولكن كيف استطاعت ، وهي على ماوصفنا، ان تحب مثل هذا الطفل اليوشا ؟ اشرح لي هذا الامر ، فانني افكر فيه اكثر الاحيان .

ـ يستحيل شرح ذلك يا كاترين فيدوروفنا . يصعب على المرء أن يتخيل لماذا وكيف يصبح الانسان عاشقاً ؟ صحيح انه طفل . ولكن ألا تعلمين الى أي حد يمكن أن يحب الانسان طفلاً ؟ (رأيت عينيها تتفرسان في ، بانتباه عميق جاد مستطلع ، فشعرت بحنان يستيقظ في قلبي ، وتابعت كلامي) وعلى قدر اختلاف روح ناتاشا عن روح الطفل ، على قدر ما فيها من جد ، سارعت الى الافتتان به . انه مستقيم ، صادق ، ساذج سذاجة هائلة ، سذاجة لطيفة أحياناً . ولعلها أحبته ... كيف أقول ؟ لعلها أحبته بنوع من الشفقة ... ان القلب الكريم يمكن أن يحب من قبيل الشفقة ... على أنني أشعر بأنني لا أستطيع أن أوضح لك هذا الامر ، ولكنني سأسألك سؤالا : أنت تحبينه ، أليس كذلك ؟

لقد طرحت هذا السؤال بجسارة ، وكنت أحسُّ ان التعجل الذى فيه لا يمكن أن يعكّر ما لهذه الروح الشفافة من نقاء طفولي ، فأجابت بصوت منخفض ، وهي تلقى عليَّ نظرة رصينة :

ـ يشهد الله انني لا اعرف ذلك بعد . يخيل اليَّ انني احبه كثيراً.

ـ أرأيت اذن ؟ هل تستطيعين أن تفسرى هذا الحب ؟

فأجابتني تقول بعد لحظة من تفكير :

ـ حين يتفرس في عيني وهو يقول لي شيئاً من الاشياء ، اشعر

بلذة •• اقول لك هذا الكلام ، يا ايفان بتروفتش ، وانا فتاة وانت رجل ، اليس فى سلوكى هذا ما يشين ؟

ـ اى ضير فيه ؟

ـ صحيح ، ولكن انظر الى هؤلاء (قالت ذلك وهي تشير بعينها الى الزمرة الجالسة قرب السماور) ، انهم لو علموا به لعدّوه شائناً من غير شك ، فهل هم على صواب ام هم على خطأ ؟

ـ على خطأ • فما دمت لا تشعرين فى اعماق قلبك بأن سلوكك معيب •••

فقاطعتنى تتعجل الكلام :

ـ هذا ما افعله دائماً • متى راودنى شك من الشكوك ، سألت قلبى، فاذا كان هادئاً ، هدأت انا ايضاً • هذا ما يجب على المرء ان يفعله دائماً• واذا كنت اخاطبك الآن بصدق كامل ، كأننى اخاطب نفسى ، فلانك رجل ممتاز ، ولاننى اعرف قصتك مع ناتاشا ، قبل ان تحب اليوشا • لقد بكيت حين قُصت علىّ هذه القصة •

ـ من قصّها عليك ؟

ـ اليوشا ، طبعا • وكان هو نفسه يبكى حين قصّها علىّ : كان ذلك جميلا منه ، أعجبنى منه ذلك كثيراً : يخيل الىّ انه يحبك اكثر مما تحبه يا ايفان بتروفتش • انه بمثل هـذه الامور يعجبنى • ثم اننى اذا كنت اخاطبك بمثل هذه الصراحة فلانك رجل ذكى جداً ، وفى وسعك ان تسدى الىّ بنصائح كثيرة ، وان تضىء لى الطريق •

ـ لماذا تظنين اننى املك من الذكاء ما يكفى لان اكون لك كالمعلم ؟

ـ انظروا ما هذا السؤال !

قالت ذلك ، وراحت تفكّر • ثم اردفت :

ـ على اننى قلت هذا كله عابرة ، فلنعد الى الشىء الجوهرى • قل

لى يا ايفان بتروفتش : انا اشعر الآن بأننى انافس ناتاشا ، انا اعرف ذلك، فماذا اعمل ؟ من اجل هذا سألتك هل هما سعيدان ؟ اننى افكر فى هذا الامر ليل نهار • ان وضع ناتاشا وضع فظيع ، فظيع ! لقد اصبح لايحبها، وحبه لى يزداد يوماً بعد يوم ، هذا هو الواقع • اليس كذلك ؟

ـ يخيل الىّ •

ـ لكنه مع ذلك لا يخدعها • فهو يجهل انه اصبح لا يحبها ••• اما هى فتعرف ذلك حتما • لا شك انها تتألم أشد الالم !

ـ ماذا تنوين ان تعملى يا كاترين فيدوروفنا ؟

فقالت جادة :

ـ فى رأسى مشاريع كثيرة أتخبط بينها • كنت أنتظرك بفارغ صبر، لتحلّ لى هذه الامور كلها • انت تعرف القضية كلها اكثر منى • انت اليوم لى كالاله • لقد قلت لنفسى فى اول الامر : اذا كانا متحابين ، فيجب ان يسعدا ويجب ان اضحى انا بنفسى ، ويجب ان اساعدهما • أؤكد لك ذلك •

ـ اعرف انك ضحيت بنفسك فعلا •

ـ نعم ، ولكننى بعد ذلك ، حين اخذ يتردد الىّ ويزداد تعلقاً بى يوماً بعد يوم ، فكرت فى الامر ، وما زلت الى اليوم اتساءل هل يجب ان اضحى بنفسى ام لا ؟ هذا لا يليق ، اليس كذلك ؟

ـ هذا طبيعى ، لا بد ان يكون الامر كذلك • لست آثمة •

ـ ليس هذا رأيى ، وأنت انما تقول ذلك لانك امرؤ طيب جداً • أنا أرى أننى لا أملك قلباً نقياً كل النقاء • ولو كنت أملك قلبا نقيا لعرفت ما الذى يجب اعزم عليه • ولكن دعنا من هذا •• لقد ازددت معرفة بعلاقاتهما ، حدثنى فى ذلك الامير وأمى واليوشا نفسه ، فأدركت انهما

لا يناسب احدهما الآخر ، كما أيدت ذلك انت منذ قليل .. ففكرت مرة اخرى فيما يجب عليّ ان اعمله .. ذلك انهما اذا كانا شقيين ، فالاولى ان ينفصلا ، فقررت ان اسألك عن كل هذا تفصيلاً ، وان اذهب بنفسي الى ناتاشا ، وان اتخذ قراراً معها .

ــ ولكن اى قرار ؟ هذا هو السؤال .

ــ سأقول لها : « انت تحبينه اكثر مما تحبين اى شيء فى العالم ، فيجب اذن ان تؤثرى سعادته على سعادتك . ويجب عليك اذن ان تنفصلى عنه » .

ــ ولكن على اى معنى ستحمل ناتاشا هذا الكلام ؟ هبى انها اتفقت معك فى الرأى ، فهل تملك القوة على تنفيذه ؟

ــ ذلك بعينه ما افكر فيه ليل نهار ، و ... و ...

قالت ذلك واخذت تبكى فجأة . ثم دمدمت تقول ، وشفتاها ترتجفان :

ــ لا تستطيع أن تصدّق كم أشفق على ناتاشا .

لم يكن ثمة ما يضاف الى هذا ، فلزمت الصمت ، وتأثرت تأثراً كبيراً ، حتى لقد شعرت بحاجة الى البكاء وانا اراها تبكى . يا لها من طفلة رائعة ! لم اسألها عن الاسباب التى تجعلها تظن انها قادرة على اسعاد اليوشا .

قالت بعد ان هدأت قليلا ، وما زالت تفكر بعد الدموع :

ــ تحب الموسيقى ، اليس كذلك !

فقلت بشيء من الدهشة :

ــ نعم .

ــ لو كان الوقت يتسع لعزفت لك السيمفونية الثالثة لبتهوفن . اننى اعزفها فى هذه الايام . انها تعبر عن جميع هذه العواطف . انها هى

ما اعانيه تماماً • ذلك شعورى • ولكننى سأعزفها لك فى مرة اخرى • اما الآن فيجب ان نتحدث •

تساءلنا كيف نهيىء لقـاءها بناتاشـا وكيف ندبر هذا الامر كله • قالت انهم يراقبونها ، وانهم لن يسمحوا لها ابداً بمعرفة ناتاليا نيقولايفنا• لذلك قررت ان تعمد الى الحيلة• انها تمضى الىَ النزهة فى الصباح احياناً . والكونتيسة تصحبها فى هذه النزهة دائماً على وجه التقريب • غير انهـا تمتنع فى بعض الاحيان عن مصاحبتها وتترك لهـا ان تخـرج مع مربية فرنسية هى الآن مريضة ، وذلك حين تكون الكونتيسة مصابة بصداع : فيجب اذن انتظار هذا الاحتمال • والى أن يحين ذلك تأخذ كاتيا بافناع الفرنسية (وهى امرأة عجوز تقوم بدور الوصيفة تقريباً) ، لأنها امرأة طيبة جداً • وقد ترتب على ذلك اننا لم نستطع ان نحـدد موعداً لزيارة ناتاشا •

قلت لها :

ـ لن تندمى على انك عرفت ناتاشا• انها ترغب هى نفسها فى لقائك، وهذا ضرورى ، على الاقل لتعرف الشخص الذى تعهد اليه بأليوشـا • لا تحزنى كثيراً لهذا الامر • فسيأتى الزمن بحل • أظن انك مسافرة الى الريف ، اليس كذلك ؟

ـ نعم ، قريباً ، بعد شهر فيما أظن • ان الامير يحرص على ذلك •

ـ هل تعتقدين ان اليوشا سيصحبكم ؟

ـ هذا بعينه ما كنت افكر فيه الآن • انه سيصحبنا •

قالت ذلك وهى تنظر الىّ بالحاح •

ـ نعم •••

ـ رباه ، انى لا اعرف ما عسى يخرج من هذا كله ! اسمع يا ايفان بتروفتش • سأكتب اليك كثيراً ، لاقصّ عليك كل شىء • وما دمت قد

بدأت تصدع رأسك بنا ، فهل توافق على ان تزورنا من حين الى حين ؟

ـ لا أدرى يا كاترين فيدوروفنا : ذلك رهن بالظروف • وقد لا أجيء اليكم البتة •

ـ لماذا ؟

ـ لأسباب كثيرة ••• ذلك يتوقف خاصة على علاقاتى بالامير •

ـ انه لرجل منحط •

قالت كاتيا ذلك بلهجة جازمة ، ثم اردفت تسألنى :

ـ ما رأيك في ان اذهب اليك انا ؟ هل يحسن هذا او لا يحسن ؟

ـ ما رأيك انت في ذلك ؟

ـ رأيى انهُ لا ضير فيه •

قالت ذلك ثم اضافت مبتسمة :

ـ يمكننى أن أزورك • أقول هذا لا لأننى أحترمك فحسب ، بل لاننى ايضاً احبك كثيراً ••• واستطيع ان اتعلم منك أشياء كثيرة •• اننى أشعر نحوك بعاطفة •• أليس عيبا أن أقول هذا كله ؟

ـ ابداً • وأنت غالية عندى كأنك قريبة لى •

ـ اذن هل تريد ان تكون صديقى ؟

ـ طبعاً •

قالت وهى تشير مرة اخرى الى الفئة القليلة التى تحيط بالمائدة :

ـ لا شك انهم سيعدون هذا عيباً ، انهم يرون ان الفتاة لا يليق بها ان تسلك هذا السلوك •

يجب ان اذكر هنا ان الامير قد ترك لنا هذه الخلوة عامداً من غير شك ، وذلك حتى نتحدث حديثاً حراً •

ومضت كاتيا تقول :

ـ اننى اعلم حق العلم ان الامير يطمع فى مالى • انهم يظنون اننى

طفلة تماما ، حتى انهم يقولون لي ذلك صراحة • لست أوافقهم على هذا الرأي • انا لم اعد طفلة • ما اغربهم من اناس ! انهم هم الاطفال • لماذا يضطربون هذا الاضطراب كله ؟

ـ نسيت ان اسألك ياكاترين فيدوروفنا : من هما ليون وبوريس هذان اللذان يذهب اليهما اليوشا في كثير من الاحيان ؟

ـ هما من اقربائي البعيدين • انهما ذكيان جداً ، شريفان جداً ، ولكنهما يتكلمان كثيراً ••

قالت ذلك وابتسمت •

ـ هل صحيح انك تنوين ان تعطيهما في المستقبل مليوناً ؟

ـ لقد ثرثروا في هذا الموضوع حتى اصبح لا يطاق • انني مستعدة حقاً لتقديم تضحيات في سبيل كل ما هو مفيد ، افعل ذلك راضيةً عنه فرحة به ، ولكن لماذا كل هذا المبلغ ؟ الا ترى انه مبلغ ضخم ؟ على كل حال ، لا ادري متى استطيع ان اقدم لهم المال • لقد اخذوا هنالك يقسمونه ، واخذوا يفكرون في افضل الوجوه لانفاقه ، واخذوا يتناقشون ، ويصرخون ••• بل انهم ليختصمون حول هذا الموضوع • امر غريب حقاً ! ••• انهم على عجلة من امرهم ••• ولكنهم ، رغم كل شيء ، اناس مخلصون جداً ، اذكياء جداً • انهم يدرسون • وحياتهم هذه خير من الحياة التي يعيشها غيرهم ، ألستَ من هذا الرأي ؟

تحدثنا مدة طويلة ايضاً • فقصت عليّ حياتها كلها تقريباً ، واصغت الى ما قلته لها ، حتى لقد كانت تلتهم كلامي بشراهة • وكانت تسألني طوال الوقت ان احدثها عن ناتاشا واليوشا • وحين جاء الى الامير يسمعني ان علينا ان ننسحب ، كان الليل قد انتصف • فاستأذنت بالانصراف •

فصافحتنى كاتيا بحرارة ، وألقت على نظرة معبرة ، ورجتنى الكونتيسة ان اعود الى زيارتها من حين الى حين • وخرجت مع الامير •

لا املك ان امنع نفسى عن ايراد هذه الملاحظة الخاصة التى قد لا يكون لها بقصتى صلة : لقد خرجت من هذا الحديث الذى دام بينى وبين كاتيا ثلاث ساعات ، بقناعة غريبة ولكنها عميقة ، وهى ان هـــذه الفتاة ماتزال طفلة ، حتى لتجهل كل الجهل العلاقات السرية التى تقوم بين الرجل والمرأة • كان هذا يضــفى طابعاً مضــحكاً على بعض آرائها ، وخاصــة على تلك اللهجة الجادة التى تصـــطنعها فى مواجهة كثير من الموضوعات الهامة جداً •

الفصل العاشر

قال الأمير وهو يجلس الى جانبي في عربته :

ـ راودتني فكرة • ما رأيك في أن نتعشى معاً ؟

فأجبت متردداً :

ـ لا أدري يا أمير ، ولكنني لا أتعشى أبداً •

فقال وهو ينظر الىَّ في مكر :

ـ وطبعا سنتحدث اثناء العشاء •

كيف لا أفهم ؟ انه يريد أن يشرح ما في نفسه ، وهذا بعينه ما أنا في حاجة اليه • فقبلت •

ـ اتفقنا ، خذنا الى مورسكايا ، مطعم ب ••

قال ذلك للحوذى فسألته مضطربا بعض الاضطراب :

ـ أتذهب الى مطعم ؟

ـ نعم ، ولم لا ؟ انا قلما اتعشى في البيت • اسمح لى ان ادعوك •

ـ ولكننى ذكرت لك انني لا أتعشى أبداً •

ـ تستطيع ان تخرج على عادتك مرة واحـدة • ثم انني انا الذى أدعوك •

بتعبير آخر « انا الذى سأدفع » • كنت مقتنعاً بأنه اضاف قوله هذا عامداً متعمداً • طاوعته• ولكنني عزمت عزماً قوياً على ان ادفع عن نفسى• ووصلنا • فحجز الامير حجرة خاصة ، واختار طبقين او ثلاثة من ألوان

الطعام بحكم خبرته • كانت هذه الاطباق غالية الثمن ، وكذلك زجاجة الخمر الجيد التى طلبها ، ولم يكن فى امكانى ان ادفع ثمن شيء من هذا كله ، فطلبت نصف دجاجة وقدحاً من خمر شاتولافيت ، فغضب الامير قائلاً :

ـ ألا تريد ان تتعشى معي ؟ هذا مضحك •• عفوك يا صديقى ، ولكن هذا السلوك يثير الحنق •• انه أردأ أشكال الكبرياء • أراهن أن فى سلوكك هذا شيئاً من التعصب الطبقي • أؤكد لك انك تهينني •

فصمت ولم اجب بكلمة •

ـ على كل حال ، لك ما تشاء • لا أريد ان اكرهك على ما لاتحب •• قل لى يا ايفان بتروفتش ، هل يمكن ان نتحدث حديث صديقين تماماً ؟

ـ طبعاً •

ـ اذن فأعلم ان هذا السلوك المسكين لا يمكن الا ان يسيء اليك• يخطيء مثلك اذا سلك مثل هذا السلوك • انت كاتب ، والكتّاب فى حاجة الى معرفة الطبقة الراقية ولكنك تعزل نفسك عن كل شيء • لا اتحدث الآن عن نصف الدجاجة التى طلبتها ، ولكننى الاحظ انك مستعد لقطع كل العلاقات ببيئتنا• وهذا خطأ• دعنا من كونك تفوّت بهذا السلوك كثيراً من الامور • انت فى حاجة الى ان تعرف بنفسك ما تضعه فى رواياتك : الامراء ، البارونات ، المخادع •• ولكن ماذا اقول ؟ لا ، لا ، انكم لا تتحدثون الآن الا عن البؤس ، والمعاطف الضائعة ، وناظرى المحطات ، والضباط الشرسين ، والموظفين ، والماضى ، وأخلاق المؤمنين القدماء • انا اعرف ذلك • انا اعرف ذلك*•

ـ انت مخطيء يا أمير • فاذا كنت لا اتردد الى ما تسميه « بالمجتمع

الراقى » فلأننى أولاً اشعر فيه بالضجر ، ولأننى ثانياً لا شـأن لى به ! ومع ذلك يتفق لى احياناً ان أختلف اليه !

ـ اعرف انك تذهب الى الامير ر .. مرة فى السنة ، فهناك انما التقيت بك . ولكنك فيما عدا ذلك اليوم من ايام السنة ، تظل مستنقعاً فى كبريائك الديموقراطية . وهكذا تذبلون فى أكواخكم .. على انكم ، والحق يقال، لاتسلكون جميعاً هذا السلوك . هناك مغامرون يبعثون فى النفس الغثيان .

ـ ارجوك ان تبدل الحديث ايها الامير ، وان تدع اكواخنا وشأنها.

ـ ها .. هاءنت ذا تظن اننى اهينك . ألم تسمح لى انت نفسك بأن نتحدث حديث اصدقاء . ولكن لا .. اننى لم افعل بعد شيئاً استحق من اجله صداقتك ! هذا الخمر من طيب الخمر . هل لك ان تذوقه ؟

قال ذلك وصب لى نصف قدح من الخمر .

ـ اسمع يا ايفان بتروفتش ، ليس من الحشمة ان يفرض الانسان صداقته على أحد فرضا ، أنا أعرف ذلك حق المعرفة . ولسنا جميعاً على قدر واحد من الفظاظة والوقاحة معك ، كما يخيل اليك . ولكننى اعرف ايضاً حق المعرفة انك ان جالستنى هذا المساء ، فلست تفعل ذلك لانك تحبنى وتستطيب صحبتى ، بل لأننى وعدتك بالتحدث اليك . أليس هذا صحيحاً ؟

قال ذلك واخذ يضحك ، ثم اضاف وهو يبتسم ابتسامة خبيثة :

ـ انك تسهر على مصالح شخص من الاشخاص ، فتحب أن تسمع ما سأقوله .

فقاطعته أقول وقد فرغ صبرى :

ـ لم تخطىء التقدير ايها الامير .

(لاحظت أنه من أولئك الذين اذا رأوا أحد الناس واقعا تحت سلطانهم أشعروه بذلك رأساً ، ولقد كنت واقعاً تحت سلطانه . كنت لا

استطيع ان اذهب قبل ان اسمع منه كل ما كان ينوى ان يقوله لى ، وكان هو يعرف ذلك حق المعرفة . فقد غير لهجته فجأة ، فكان يزداد وقاحة واستخفافاً وسخراً)

ـ لم تخطىء التقدير أيها الامير ، فمن أجل هذا انما جئت ، ولولاه لما لبثت هنا فى مثل هذا الوقت المتأخر .

كنت أريد ان أقول : لولاه لما لبثت معك على أى حال من الاحوال. ولكننى كبحت جماح نفسى ، وأدرت عبارتى على وجه آخر ، لا من قبيل الخوف ، بل من قبيل اللطف ، وبسبب ما اتصف به من ضعف مشئوم . وفى الواقع ، كيف يستطيع المرء أن يقول كلاماً فظاً لشخص من الاشخاص ، وجهاً لوجه ، ولو اشتهى ان يقوله وكان ذلك الشخص يستحق ان يقال له ؟

خيل الىّ أن الأمير قد قرأ هذا فى عينى ، وانه كان ينظر الىّ نظرة ساخرة بينما كنت أتم جملتى ، كأنه يتلذذ بجبنى ، وكأنه يريد بهذه النظرة أن يستفزنى قائلا : « اذن لم تجرؤ يا عزيزى ، فأدرت اللجام » ، ولا شك ان تقديرى هذا كان صحيحاً ، فما انهيت عبارتى حتى انفجر ضاحكاً ، وربت على ركبتى متلطفاً ، وقرأت فى نظراته قوله « أنت تضحكنى ، أيها الاخ » .

قلت لنفسى « انتظر قليلا » ..

وهتف الامير يقول :

ـ اننى اليوم مرح المزاج ، لا أعرف سبب ذلك حقاً . نعم ، نعم ، يا صديقى ، نعم . كنت أريد ان أكلمك عن ذلك الشخص . لابد ان نتكاشف مرة ، وأن نتفق على شىء ، أرجو أن تفهمنى هذه المرة حق الفهم . لقد حدثتك من قبل عن ذلك المال ، وعن ذلك الاب الابله ، ذلك

الطفل الذى عمره ستون عاماً . لقد قلت لك ذلك هكذا هأهأهأ ! .. انت كاتب ، ولاشك انك ادركت ..

نظرت اليه مشدوهاً . انه لم يكن مع ذلك ثملاً ..

واضاف يقول :

ـ نعم ، فيما يتصل بتلك الفتاة ، أؤكد لك اننى أقدّرها ، بل وأحبها . صحيح انها ذات نزوات ، ولكن « لاوردَ بدون شوك » ، كما كانوا يقولون منذ خمسين عاماً : ان الاشواك تخز ، ولكن ذلك يجعلها جذابة ؟ وقد عفوت عن ابنى اليوشا بعض العفو ، رغم انه أحمق ، وذلك لأنه صاحب ذوق . ان هاته البنات يعجبننى (قال ذلك ومص شفتيه مصاً واضح الدلالة) ، حتى ان لى رأياً فى ... ولكن دعنا من هذا الان .

فهتفت أقول :

ـ يا أمير ، أنا لا أفهم تبدلك المفاجىء هذا ، ولكننى .. أرجوك أن تغير الحديث .

ـ هأنت ذا تتحمس مرة أخرى ! سمعاً وطاعه .. أنتقل الى موضوع آخر ! ولكننى كنت أريد أن أسألك سؤالاً ، يا صديقى الطيب : هل تحمل انت لها كثيراً من التقدير والاحترام ؟

فقلت بلهجة من نفد صبره فجأة :

ـ حتماً .

ـ طيب .. وهل تحبها ؟

قال ذلك وهو يكشف عن أسنانه ويغمض عينيه نصف اغماض ، على صورة تثير الاشمئزاز .

فصرخت أقول :

ـ انت تنسى نفسك !

ـ طيب ، سأسكت ، سأسكت .. هدىء من روعك .. اننى أشعر

اليوم بفرح عجيب ! منذ مدة طويلة لم أحس بما أحس به الآن من مرح ليتنا نشرب شيئاً من الشمبانيا ، مارأيك يا شاعرى ؟

ـ لن أشرب ، لا أريد أن أشرب ٠

ـ بل يجب أن تشاركنى سهرتى ٠ اننى أشعر بسعادة رائعة ، حتى اننى أحس بميل الى العاطفية ، ولا يمكن أن أكون سعيداً وحدى ٠ من يدري؟ لعلنا اذا شربنا أخذنا نتخاطب بصيغة المفرد هأهأهأ٠٠ لا لاياصديقى الفتى ، انك لاتعرفنى بعد ! أنا واثق انك ستحبنى متى عرفتنى ٠ أريد أن تشاطرنى اليوم حزنى وفرحى ، ضحكى ودموعى ، رغم اننى أرجو ألا أبكى ، أنا على الاقل ٠ فما رأيك يا ايفان بتروفتش ؟ لاحظ اننى ، اذا لم تجر الأمور على ما أشتهى ، سيتخلى عنى الوحى ، سيختفى الهامى، سيتبخر ، فاذا وقع ذلك لم تستطع أن تعرف شيئاً ٠ انك لم تجىء معى الا لانك تريد أن تعرف شيئاً ، أليس كذلك ؟ فاختر مايحلو لك ٠

قال ذلك وهو يغمز مرة أخرى غمزة وقحة ٠

كان التهديد خطيراً ، فقبلت ٠ قلت فى نفسى « لعله يريد أن يسكرنى » ٠ وبالمناسبة ، يجب أن أذكر الآن هذه الشائعة التى تروج عن الامير ، والتى بلغتنى منذ مدة طويلة ، وهى انه ، على مايلتزم مع الناس من دقة وأناقة فى السلوك ، يحب أحياناً ، فى الليل ، أن يسكر كما يسكر حوذى ، وأن يندفع فى مجون حقير ٠٠ وقد رُويت لى عنه قصص فظيعة من هذا القبيل ٠ كان يقال ان ابنه اليوشا يعرف عن أبيه انه يشرب فى بعض الاحيان ، ولكنه يجهد فى اخفاء ذلك عن الناس ، وعن ناتاشا خاصة ٠ وفى ذات يوم ، زل لسانه أمامى ولكنه مالبث أن غير الحديث ، ولم يجب على ماطرحت عليه من أسئلة ٠ ثم اننى سمعت عن هذا الامر من غير اليوشا ، ويجب أن أعترف اننى لم أصدقه حتى ذلك اليوم ٠ وكنت أنتظر ماسيقع ٠

جاءونا بالشمبانيا ، فملأ الامير كأسين .

قال وهو يذوق الشمبانيا :

ـ بنت فاتنة ، فاتنة ، رغم أنها عنفت عليّ قليلاً : ولكن هاته البنات اللذيذات يزددن سحراً في مثل تلك اللحظات . لا شك أنها ظنت أنها أربكتني في ذلك المساء ، هل تتذكر ؟ وأنها فتنتني تفتيناً .. هأهأها ! . ما كان أروع حمرة وجهها ؟ هل أنت خبير في النساء ؟ ان الاحمرار المفاجيء يجمل الخدين الشاحبين ، هل لاحظت ذلك ؟ آه منك ، هأنت ذا تغضب مرة أخرى ...

قلت وقد أصبحت لا أستطيع أن أكبح جماحي :

ـ نعم ، ولا أريد أن تكلمني عن ناتاليا نيقولايفنا .. لاتكلمني عنها بهذه اللهجة على الاقل .. لا .. لا أسمح لك بذلك .

ـ طيب .. طيب .. سأغير موضوع الحديث ، ارضاءً لك .. أنا أمرؤ لين العريكة ، مرن كالعجين . سنتحدث عنك . انني أشعر نحوك بحب . ليتك تعرف ما أحمله لك من اهتمام الصديق بصديقه مخلصا .

فقاطعته قائلاً :

ـ أليس الأولى ، يا أمير ، أن نتحدث في الموضوع ؟

ـ تعني قضيتنا ؟ انني أفهمك من نصف كلمة ياصديقي . ولكنك لا تعلم يا صديقي أننا حين نتحدث عنك الآن ، نقترب كثيراً من الموضوع، فلا تقاطعني ، ودعني أتم كلامي . كنت أريد أن أقول لك ، أيها الصديق الغالي ، ان من يعيش مثلما تعيش يضيع نفسه لا محالة . اسمح لي أن ألامس هذه المسألة الدقيقة ، فانما أنا أفعل ذلك من باب الصداقة . انت رجل فقير، تتقاضى ثمن روايتك من الناشر سلفاً ، فتسدد ديونك الصغيرة ، وتنفق الباقي على تبلغك بالشاي وحدها ستةَ أشهر ، وتتقرقف من البرد

في غرفتك تحت السقف ، بانتظار طبع روايتك في مجلة الناشر . اليس ما أقوله صحيحاً ؟

ـ لنسلم بأنه صحيح ، ولكن ..

ـ هذا أشرف من أن تسرق ، وأن تتذلل ، وأن تسمسر ، وأن تحتال ، الخ الخ ، أنا أعرف ماكنت ستقوله . كل مايمكن أن تقوله قد كتب بحبر على ورق منذ زمان طويل جداً .

ـ دعك اذن من الحديث في شئوني . ليس عليّ أنا ، أيها الامير ، أن أعلمك الاناقة في معاملة الناس .

ـ طبعاً لا .. ولكن ماحيلتي ، اذا كان لابد لنا من ملامسة هـذا الوتر الحساس ؟ يستحيل بغير هذا . دعنا من الغرف التي تحت السقوف على كل حال .. أنا شخصياً لا أحبها كثيراً ، الا في بعض المناسبات (قال ذلك وانفجر يضحك ضحكة تثير الاشمئزاز) . ولكن هناك شيء يدهشني : أي لذة تجد في أن تمثل أدواراً ثانوية ؟ أعرف أن أحد كتابكم قال في كتاب له ، أذكر ذلك ، ان أكبر مأثرة من مآثر الانسان هي أن يعرف كيف يقتصر في الحياة على القيام بدور « كومبارس » ، قال ذلك أو قال شيئاً من هذا القبيل ، وقد سمعت أيضاً حديثاً يدور على هذه الفكرة . ولكن اسمع يا عزيزي : لقد انتزع اليوشا منك خطيبتك ، أعرف أنا ذلك ، ثم هأنت ذا ، يا شاعراً كشيللر ، تمزق نفسك أربع مزق من أجلهما ، تقدم لهما ضروباً من الخدمات ، وتكاد تكون بينهما كساعي البريد يوصل الرسائل . عفوك يا صديقي ، انني أعد عملك هذا نوعاً من الكرم الفاسد . كيف لا تسأم هـذا الوضع ؟ كيف لا تشعر بشيء من الخزي فيه ؟ لو كنت في مكانك ، لمت غيظاً .. خاصة وان هذا عار .. عار ..

فصرخت وقد خرجت عن طوري من فرط الحنق :

ـ أمير ، يخيل الى انك ماجئت بي الى هنا لتحقرني .

ـ لا يا صديقي ، لا • وانما أنا في هذه اللحظة رجل خبير يريد لك السعادة • اسمع ، انني أريد أن أدبر كل شيء • ولكن دعنا من هذه القصــة كلها الآن ، واصغ الى كلامي حتى النهاية ، محاولاً أن تمنع نفسك من الغضب ولو دقيقتين • مارأيك في أن تتزوج ؟ هأنت ذا ترى انني أتحدث في شيء آخر • لماذا تنظر الى دهشاً ؟

فأجبته وأنا أنظر اليه مشدوهاً حقاً :

ـ أنتظر أن تنهي كلامك •

ـ أنهيت كلامي •• أريد أن أعرف ماعسى أن تقول لو جاء صديق يريد لك السعادة مخلصاً ، فعرض لك فتاة جميلة ، واقترح عليك ان تتزوجها : الفتــاة جميلة ، ولكن لها تجربة ما • فتــاة من نوع ناتاليا نيقولايفنا مثلاً •• مع تعويض مناسب طبعاً • (لاحظ انني أتكلم في شيء آخر لا في موضوعنا) ماعساك أن تقول في هذا ؟

ـ أقول •• انك مجنون •

ـ هأ هأ هأ ••• يحسب من يراك أنك تهم أن تضربني !

لقد كنت مستعداً حقاً لان أهجم عليه • فلقد فقدت قدرتي على مزيد من الصبر • كنت أرى فيه حيواناً حقيراً ، حشرة ضخمة أرغب رغبــة جامحة في سحقها• كان يتلذذ بسحرياته ، ويعبث بي عبث القطة بالفأرة ، ويعتقد انني أســيره • أدركت أنه يستمتع ويتلذذ بالوقاحة والســفاهة والغطرسة التي سفر عنها أخيراً أمامي • كان يريد أن يتلذذ باندهاشي وذعري • كان يمحضني الاحتقار صرفاً ويهزأ بي •

لقد أحسست منــذ البداية ان كل هذا كان مقصوداً لهــدف من الأهداف • ولكن كان لابد لمن هو في وضعي من أن يصغي اليه حتى النهــاية مهما كلف الأمر • ان ذلك في مصلحة ناتاشا ، وينبغي لي أن

أتحمل كل شيء ، فربما انتهت القضية كلها ، في هذه اللحظة نفسها ، الى حل • ولكن كيف أستطيع أن أسمع هذه الامازيح الدنيئة الحقيرة في حقها ، كيف أستطيع أن أتحملها هادئاً ؟ أضف الى ذلك انه كان يدرك كل الادراك انني مضطر الى الاصغاء اليه حتى النهاية ، وكان هذا يفاقم الاهانة • قلت في نفسي : « على كل حال هو في حاجة الىّ أيضاً» فأخذت أرد عليه بلهجة قاطعة عنيفة • ففهم ذلك • فقال وهو ينظر الىّ جاداً :

ـ اسمع يا صديقي الشاب : اننا لا نستطيع أن نستمر على الكلام بهذه الطريقة • الأحسن أن نتفاهم : انني أنوى أن أشرح رأيي في عدد من الأمور ، ولكن يجب أن توافق مشكوراً على الاصغاء الىّ حتى النهاية ، مهما يكن كلامي • أريد أن أعبر عن فكرى على النحو الذى أحب ، وهذا أمر لابد منه في الظروف التى نحن فيها • فهل تصبر علىّ قليلاً يا صديقي الشاب ؟

سيطرت على نفسي وسكت ، رغم انه أزعجني بنظرته القارصة الساخرة التى كانت تريد أن تحضني على اعتراض عنيف • ولكنه فهم انني قبلت البقاء ، فتابع يقول :

ـ لا تزعل مني يا صديقي ! ما الذى تأخذه علىّ ؟ أليس هو هذا المظهر الذى اصطنعه فحسب ؟ ان معنى الكلام يظل واحداً ، سواء أخاطبتك بأدب معطر أم خاطبتك كما أخاطبك الآن • انت تحتقرني ، أليس كذلك ؟ فانظر ماتنطوى عليه نفسي من صفاء النية وصراحة اللسان وطيب القلب! انني أعترف لك حتى بنزواتي الطفولية• نعم ياعزيزى نعم، قليلاً من طيب القلب منك، فنتفق ونتفاهم أخيراً مرة واحدة• لاتدهش لما أقول••ان هذه البراءات وهذه الاندفاعات الشعرية من جانب اليوشا،هذه القصة الرومانسية كلها ، هذه المراتب التى نهضتْ اليها تلك العلاقة اللعينة بناتاشا ، (وهى فتاة ساحرة ، من جهة أخرى) ، هذا كله قد

اضجرني وأزعجني حتى صرت ، بالرغم مني ، مفتوناً بانتهاز الفرصة للعبث قليلاً بهذا الموضوع كله . وقد عرضت الفرصة ، فانتهزتها . زد على ذلك انني أحببت أن أفتح نفسي لك . هأ هأ هأ ..

ـ انك تدهشني أيها الامير ، أكاد انكرك ولا أعرفك . انك بهذه الصراحة غير المتوقعة أشبه بمهرِّج .

ـ هأ هأ هأ .. لست على خطأ تام ! تشبيه ظريف ! هأ هأ هأ ، انني في عيد ، يا صديقي ، انني في عيد . انني سعيد راض . وانت يا شاعري يجب أن توليني كل ماتقدر عليه من سماحة .

وأضاف يقول بلهجة جازمة ، وقد بدا عليه الرضى كله ، وصب قدحاً من الخمر :

ـ ولكن فلنشرب . اعلم يا صديقي ان تلك السهرة الغبية في بيت ناتاشا ـ هل تتذكر ؟ ـ قد دمرتني تدميراً . صحيح ان ناتاشا قد أظهرت كثيراً من اللطف ، ولكنني خرجت من تلك السهرة أحمل حقداً فظيعاً ، ولا أحب أن أنسى هذا الحقد ، لا أن أنساه ولا أن أخفيه .. سيأتي يوم قريب ، مافي ذلك شك ... ولكن دعنا من هذا الآن . كنت أريد أن أقول لك ، في جملة ما أريد أن أقوله : ان في طبعي خصلة ما تزال تجهلها : انني أمقت جميع تلك السذاجات التافهة الرخيصة ، أمقت جميع تلك الغراميات الشعرية .. وكان من أجمل متعي دائماً أن أسبق الى العزف على هذا الوتر ، وان أسرف في بذل الملاطفة والتشجيع لشخص عاطفي كشيللر ، يظل شاباً الى الابد ، ثم اذا أنا ، فجأة ، أحيِّره وأوقعه في الاضطراب ، اذ أخلع عن وجهي القناع ، فما يرى تحت القناع شوقاً ولا وجداً ولا نشوة ، بل كشرات ولساناً ممدوداً ، حيث لا يتوقع ذلك . ماذا ؟ ألا تفهم هذا ؟ هل يبدو لك هذا شيئاً سخيفاً دنيئاً ؟

ـ نعم .

ـ أنت رجل صريح • ولكن ما عساى أفعل لهم وهم يعذبوننى ؟ أنا ايضاً صريح بغباوة • ولكن هذا طبيعى ••• ثم اننى اريد ان اقص عليك اطرافاً من حياتى ، عسى أن تزداد فهماً لى ، وسيشوقك ذلك حتماً • نعم ، قد أكون أشبه بمهرج ، ولكن المهرج صريح ، أليس كذلك ؟

ـ اسمع يا أمير ، لقد تاخر الوقت ، وحقاً ••

ـ هوه ! ما أقل صبرك • فيم هذه العجلة ؟ دعنا نستمر فى حديثنا هذا ، على مودة وصدق واخلاص ، أمام قدح من الخمر ، نجوى صديقين• هل تظن اننى سكرت ؟ لك ان تظن ذلك ، وهذا افضل ايضاً• هأ هأ هأ ! حقاً •• ان هذه الاجتماعات التى تتم بين الاصدقاء تظل فى الذاكرة مدة طويلة لا تبرحها ، وان المرء ليجد كثيراً من اللذة فى تذكرها ؟ انت رجل شرير ، يا ايفان بتروفتش ، ليس لك عاطفة ، ليس لك احساس • ما قيمة ساعة او ساعتين تنفقهما من اجل صديق مثلى ! زد على ذلك ان هذا يتصل بموضوعنا ••• كيف لا تفهم ذلك ؟ كيف لا تفهمه ثم تدعى انك كاتب !•• يجب عليك ان تبارك هذه الفرصة التى سنحت لك • تستطيع ان تتخذنى نموذجاً •• هأ هأ هأ •• يارب ما أجملنى بهذه الصراحة اليوم !

كان واضحاً انه بدأ يسكر • لقد تغير وجهه ، فاكتسى طابع الكره والبغض • اذا نظرت اليه ادركت انه يريد ان يجرح ، ان يقرص ، ان يعض ، ان يسخر • قلت فى نفسى « من الافضل ان يسكر • فالسكران يقول دائماً اكثر مما يجب ان يقول » • ولكنه كان مالكاً زمام عقله •

اخذ يقول وهو ظاهر الاغتباط بنفسه :

ـ يا صديقى ، اعترفت لك منذ قليل ، وربما كان ذلك الاعتراف

فى غير محله ، اعترفت لك بأننى ارغب احيانا فى ان امدّ لسانى . فشبهتنى عندئذ ، لهذا الصدق الساذج البسيط ، شبهتنى بمهرج . وقد اطربنى هذا التشبيه صراحة . ولكنك اذا لمتنى الآن او اذا ادهشك اننى فظ غليظ معك فى هذه اللحظة ، او ربما قليل الادب ، كفلاح ، وذلك لان لهجتى قد تغيرت فجأة ، فانك تظلمنى كل الظلم . اولاً لان هذا يحلو لى ، وثانياً لاننى لست الآن فى بيتى ، بل انا الآن معك . اعنى اننا الآن نعيّد ، كما يعيّد صديقان ، وثالثاً لأنى أحب النزوات . هل تعلم اننى اشتغلت قديما فى الميتافيزيقا وفى أعمال البر ، لمجرد النزوة ، واننى كدت اعتنق عين ما تعتنقه انت من آراء ؟ على ان هذا قد وقع لى منذ مدة طويلة جداً ، فى ايام الشباب : ذهبت الى اطيانى احمل اهدافاً انسانية ، وكنت بطبيعة الحال فى سأم شديد ، ولن تصدقنى اذا رويت لك ما وقع لى عندئذ . لقد اخذت ، لسأمى ، اعاشر الفتيات الجميلات . لماذا تكشر ؟ يا صديقى نحن نتكلم الآن وحدنا ! والمرء حين يعيّد يفك ازراره . وانا امرؤ احمل طبعاً روسيا ، صريحا كل الصراحة ، انا وطنى ، أحب أن أحل أزرارى . ثم ان على الانسان أن يعرف كيف ينتهز فرصة التمتع بالحياة . لسوف نموت ، وماذا بعد الموت ؟ اذن لقد أخذت أغازل البنات . ما زلت أتذكر راعيةً كان زوجها فلاحاً شاباً جميلاً . لقد امرت بمعاقبته عقاباً صارماً ، ثم اردت أن ارسله الى الخدمة (هذه شيطنات قديمة يا شاعرى) ، ولكننى لم ارسله .. لأنه مات فى مستشفاى .. كنت قد بنيت مستشفى رائعاً يتسع لاثنى عشر سريراً ، مستشفى نظيفاً ، فرشت ارض غرفه ببلاط من خشب ، لقد هدمته منذ مدة طويلة ، ولكننى كنت ايامئذ اعتز به اعتزازاً شديداً : كنت من رجال البر والاحسان . اوشكت ان اميت الفلاح الصغير تحت السياط بسبب امرأته ، لماذا تقطب حاجبيك من جديد ؟ هل تشمئز من هذا ؟ هذه الأعمال تثير عواطفكم النبيلة؟ هدىء روعك ! ان ذلك كله مضى وانقضى .

لقد فعلتـه فى عهد ٍ كنت فيه رومانطيقياً ، فى عهد أردت فيه ان أكون محسناً الى الانسانية ، وان أؤسس جمعية للبر .. كنت قد سلكت هذه الطريق . كنت أيامئذ آمر بجلد النـاس . اما الآن فلا يمكن ان افعل ذلك . الآن يكفى ان اكشر ؟ اننا جميعاً نكشر ؟ هذا ما يريده العصر الراهن . ولكن الشيء الذى يضحكنى حقاً هو ذلك السخيف الخنيف. لا اشك فى انه عرف قصتى تلك كلها مع الفلاح ، ولكنه لطيب نفسه التى لعلهـا صنعت من سـكر ، ولانه كان فى ذلك الوقت متعلقـاً بى يتغنى بمدائحى ، قرر أن لا يصدق شيئاً من تلك القصة ، ثم لم يصدق منهـا شيئاً ، أى انه لم يصـدق الواقعة ، وظل يدافع عنى خلال اثنتى عشرة سنة ، الى ان جاء دوره هو . هأ هأ هأ .. ولكن هذا كله سخف .. فلنشرب يا صديقى العزيز . قل لى : هل تحب النساء ؟

لم أجب بشيء ، واكتفيت بالاصغاء اليه . كان قد بدأ زجاجة ثانية.

ـ اما انا فأحب ان اتحدث عن النساء اثناء العشاء . اريد ان اقدمك، بعد أن ننهض عن المائدة ، الى امرأة تسمى مدموازيل فيليبرت ، هه ؟ ما رأيك ؟ ولكن ما بك ؟ لماذا لا تريد حتى أن تنظر الىَّ ؟ هم ..

قال ذلك واطرق يفكر . وفجأة ، رفع رأسه ، والقى علىَّ نظرة معبرة واردف يقول :

ـ اسمع يا شاعرى . اريد ان اكشف لك سراً من أسرار طبيعتى التى يظهر انك تجهلها جهلا تاماً . انا واثق من انك تعدنى رجلا فاسقاً ، بل لعلك تعدنى رجلا وغداً ، شيطاناً من شـياطين الفسـاد والرذيلة . ولكننى سأقول لك شيئا ! لو أمكن أن يتوصل كل منا (وهذا مسـتحيل بحكم الطبيعة الانسانية) الى الكشف عن جميع افكاره ، الى الكشف عن جميع هذه الافكار دون ان يخشى انْ يظهر الناس لا على مالا يجرؤ ان يقوله وما لا يمكن ان يقوله لأحد ، فحسب ، ولا على مالا يجرؤ ان

يقوله لأعز اصدقائه فحسب ، بل أيضا على ما يخشى ان يعترف به احياناً نفسه ، لخرجت من الارض عفونة تبلغ من النتانة انها تخنقنا جميعا . ومن ثم تلاحظ ــ اقول هذا على سبيل الاستطراد ــ لماذا كانت مواضعاتنا الاجتماعية ذات قيمة ثمينة جداً . ان لهذه المواضعات معنى عميقا ، لا أقول اخلاقيا ، فلن اذهب بعيداً الى هذا الحد ، ولكن اقول انها تصون المجتمع وتحقق له الراحة ، وهذا افضل ، لأن الاخلاق ليست فى جوهرها شيئا آخر غير الراحة والرخاء ، اعنى انها اختُرعت لغرض واحد هو هذه الراحة وهذا الرخاء . ولكن دعنا من المواضعات الآن ، وسنعود الى الكلام عليها فى فرصة اخرى ، اننى استطرد وارجو ان تذكرنى بهذا الموضوع فيما بعد . وأوجز فأقول : انك تتهمنى بالرذيلة والفساد والفسق والخروج على الأخلاق ، مع اننى فى واقع الأمر قد لا يكون لى من ذنب الا اننى اصدق من الاخرين . هذا كل شيء ، فأنا اعترف بامور يخفيها الاخرون حتى عن انفسهم ، كما قلت لك منذ هنيهة . هذا يسيء اليّ ، ولكنه يطيب لى .

قال ذلك ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة ساخرة :

ــ على كل حال يجب ان لا تقلق كثيراً ، فلقد قلت اننى كنت «آثما» ولست استغفر عن اثمى البتة . لاحظ شيئا آخر ايضا : اننى لا اريد ان أحرجك . اننى لا أسألك هل عندك أسرار من هذا القبيل ، لأبرر نفسى بما تقص عليّ من أسرار. اننى أسلك سلوكا ، سلوكا نبيلا.. ان سلوكى دائما نبيل بوجه عام .

ــ انك تهذى ، هذا كل شيء .

قلت له ذلك وانا انظر اليه نظرة احتقار .

ــ أهذى ؟ هأ هأ هأ . هل تريد ان اقول لك فيم كنت تفكر فى

هذه اللحظة . كنت تتساءل لماذا اتيت بك الى هنا ، ولماذا فتحت لك قلبى فجأة بلا سبب . هل هذا صحيح ؟

ـ صحيح .

ـ ستعرف الجواب فيما بعد .

ـ كل ما فى الامر انك افرغت فى جوفك زجاجتين تقريبا و .. ثملت .

ـ تريد ان تقول : سكرت . هذا ممكن . « ثملت » ! هذه الكلمة اجمل من كلمة سكرت . الا ما ادمث اخلاقك ! ولكن يبدو لى اننا نستأنف التشاجر ، وكنا قد لامسنا موضوعا شائقا جداً ! نعم يا شاعرى ، اذا كان لا يزال فى هذا العالم الادنى شىء جميل لذيذ فهو النساء .

ـ قل لى يا أمير ، انا لم افهم حتى الان لماذا خطر ببالك ان تختارنى نجياً تفضى اليه بأسرارك .. وشهواتك .

ـ هم .. لقد وعدتك بأن تعرف الجواب فيما بعد . لاتقلق . وهبنى فعلت ذلك بدون اى سبب ! انك شاعر ، وتستطيع ان تفهمنى ، وقد سبق ان حدثتك عن هذا من قبل . انها للذة عظيمة أن يخلع المرء قناعه فجأة، وأن يسفر عن وجهه لشخص آخر حين يكون فى حالة لا يتنازل فيها حتى ان يشعر بالحياء امام ذلك الشخص الآخر . سأقص عليك هذه النكتة: يحكى انه كان في باريس موظف مجنون عهدوا به الى مستشفى للمجانين حين تأكدوا انه مجنون . اليك ما كان تخيله هذا الرجل تحقيقا للذته حين بدأ يفقد عقله : كان يجلس فى بيته عاريا كل العرى ، كأبينا آدم ، ولا يحتفظ الا بحذاء واحد فى احد قدميه ، ثم يلقى على جسمه معطفا واسعا يتهدل حتى كعبيه ، ويخرج الى الشارع رزين المظهر جاداً كل الجد . فاذا رآه راءٍ من بعيد لم يحسبه الا رجلا كسائر الرجال يتنزه بهدوء مرتديا معطفا واسعا على ما أحب له هواه . ولكنه

كان متى صادف احداً من الناس فى مكان منعزل ، حاذاه دون ان يقول شيئا ، وفى وجهه الجد والتفكير العميق ، ثم وقف فجأة امامه ، فأزاح معطفه عن جسمه ،وظهر عاريا تماما •• كان ذلك يدوم دقيقة ، ثم يتلفع الرجل بمعطفه مرة اخرى ، دون ان يقول كلمة واحدة ، ودون ان تهتز فى وجهه عضلة ويبتعد عن صاحبه المتسمّر فى الارض من الدهشة ، يبتعد عنه بخطى هينة سهلة ، كخطى الطيف فى مسرحية هملت ، وكان يفعل ذلك مع جميع الناس ، رجالا ونساء واطفالا • وكان هذا كل لذته• ان لذة من هذا النوع هى ما يجده المرء اذ يحيّر على حين غرة رجلا كشيللر ماداً له لسانه من حيث لا يتوقع ذلك • حيّر ؟ ما هذه الكلمة ؟ لقد قرأت عن هذا الموضوع فى ادبكم المعاصر !

ـ نعم ، ولكن ذلك الرجل مجنون ، اما انت ••

ـ فعاقل ؟

ـ نعم •

وأخذ الامير يضحك • ثم أضاف بلهجة ماجنة سفيهة :

ـ تفكيرك سليم يا عزيزى •

قلت وقد استثارتنى وقاحته :

ـ أمير ، انت تكرهنا ، أنا وغيرى • وانت فى هذه اللحظة تنتقم بى من كل الناس ، ومن كل شيء • ان سلوكك هذا ينبع من أنانية حقيرة • انت شرير ، انت شرير على صغار • لقد ضايقناك ، ربما منذ ذلك المساء خاصة ، ولا شيء كهذا الاحتقار الذى تعاملنى به يمكن أن يعوضك عن كرامتك التى أهدرت فى ذلك المساء • انك تحلل نفسك حتى من التهذيب العادى الذى يجب أن يعامل به المرء جميع الناس • تريد أن تظهر لى بوضوح انك لا تتنازل حتى أن تشعر بالحياء منى اذ تخلع أمامى

قناعك الدنىء بعنف ، وأن تبدو لى بهذا الاستهتار الذى يبلغ ذلك المبلغ من مجافاة الاخلاق •

سألنى الامير بلهجة مفاجئة ، وهو يلقى علىّ نظرة مبغضة :

ـ لماذا تقول لى هذا كله ؟ ألكى تُظهر نفاذ تفكيرك ؟

ـ بل لكى أبين لك اننى أفهمك ، ولكى أُشعرك بذلك •

فقال وهو يسترد لهجته المرحة الفرحة :

ـ يا لها من فكرة يا عزيزى ! كل ما فى الامر انك قطعت سلسلة أفكارى ، فلنشرب ، يا صديقى • هل تسمح لى بأن أملأ لك قدحاً ؟ كنت أريد أن أقص عليك مغامرة جميلة شائقة جداً • سأقصها عليك فى خطوطها الكبرى • عرفت فى الماضى سيدة تجاوزت الصبا الاول : فلقد كانت فى نحو السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين من عمرها ، ولكنها كانت جميلة رائعة الجمال ، قلّ أن يرى المرء مثلها بين النساء : أى جسم! أى مهابة ! أى اختيال ! كانت نظرتها كنظرة نسر ، وكانت قاسية دائماً • كانت متغطرسة ، متعالية ؟ اذا رآها الرائى قال انها باردة كالجليد ، وكانت تخيف جميع النـــاس بفضيلتها الرهيبة التى لا سبيل اليهــا •• فضيلتها الرهيبة خاصة •• لم يكن بين كل أفراد البيئة التى تحيط بها قاض أصرم منها حكما • كانت تستنكر استنكاراً لا هوادة فيه ، لا الرذائل التى تراها فى غيرها من النساء ، فحسب ، بل أيسر ألوان الضعف فى تلك النساء • كان الناس يجلونها اجلالاً كبيراً • وكانت أشد العجائز تزمتاً وتكبراً وادلالاً بفضيلتهن يسعين اليها ويخطبن ودها • وكانت تنظر الى جميع الناس نظرة قاسية باردة ، كراهبة من راهبات القرون الوسطى • وكانت الصبايا من النساء يرتعدن خوفاً من رأيها فيهن ، وأحكامها عليهن • كان يكفى منها ملاحظة واحدة أو غمزة فى حق احداهن حتى تفسد سمعتها•

فالى هـــذه الدرجة بلغ نفوذها بين الناس وتأثيرها فيهم • وكان الرجال أنفسهم يخشون بأسها • وخلاصة الامر انها قد اصطنعت فى حياتها نوعاً من الصوفية التأملية الهادئة المتكبرة • فهل تريد أن تعرف حقيقه هذه المرأة؟ اذن فاعلم انه ليس بين النساء امرأة تضارعها فسقاً ومجوناً •• لقد كان لى شرف الحظوة بثقتها كاملة • وأقول لك باختصار اننى كنت خليلها سراً ، وكنا ندبر خلواتنا ببراعة محكمة ، حتى ان أحدا من خدمها لم يمكن أن يراوده طيف من شك • ولم يكن ثمة الا وصيفة فرنسية تعرف أسرارها ولكن كان فى وسعنا أن نطمئن اليها كل الاطمئنان ، لأنها كانت شريكة • كيف أشرح لك الموضوع ؟ اسمع : ان هذه السيدة كانت من شدة الشبق بحيث ان المركيز ساد نفسه كان يمكن أن يأخذ عنها دروساً فى الفسق • ولكن أحدّ لذة وأعنف لذة فى هذه العلاقة كانت هى السر والخديعة الوقحة • ان هذه الطريقة فى الاستهزاء بما تمجده بين الناس من عفة سامية لا سبيل الى خدشها ولا يمكن التعدى عليها ؛ هذا الضحك الشيطانى الداخلى : هذا النوع من دوس كل ماهو مقدس لا يُمس ، دون قصد ولا اعتدال ، وعلى صورة تبلغ من الاغراق فى المضى الى أبعد الحدود ان أحداً ممن يملكون خيالاً ملتهباً جامحاً لايمكن أن يتصورها •• هذا كله كان لذتها الكبرى • نعم ، لقد كانت الشيطان نفسه •• ولكن كانت لها فتنة لا تقاوم ، كان لها اغراء لا سبيل الى الصمود أمامه • اننى ، حتى الآن ، لا أتذكرها الا وتسرى فى جسدى نشوة • وكانت وهى فى حمّى اللذة العنيفة الحارة ، تضحك فجأة كأن بها مساً ، فأفهم معنى ضحكها ، فأضحك أنا أيضا • اننى ، حتى اليوم ، حين أتذكر هذا الامر وحده ، تخرس أنفاسى فى صدرى • وبعد سنة ، أحلّت محلى شخصا آخر • ولو شئت لأسأت اليها • ولكن من ذا الذى كان يمكن أن يصدقنى ؟ من ؟ ماقولك فى هذا يا صديقى الشاب ؟

ــ حقارة قذرة •

قلت هذا ، وكنت أصغي الى اعترافاته مشمئزاً •

ـ لو أجبتَ بغير هذا الجواب لما كنت صديقي الشاب • كنت أعرف انك ستقول ذلك •• هأ هأ هأ •• انتظر يا صديقي ، ستعيش فتفهم •• اما الآن فأنت في حاجة الى حلوى •• والا لا تكون شاعراً • لقد كانت هذه المرأة تفهم الحياة وتعرف كيف تستمتع بها •

ـ ولكن لماذا الوصول الى هذه الحيوانية ؟

ـ أي حيوانية ؟

ـ الحيوانية التي بلغتها هذه المرأة وبلغتها انت معها ؟

ـ هل تسمي هذا حيوانية ؟ ذلك انك ما زلت طفلاً يجر بحبل•• على انني أعترف بأن استقلال المرء يمكن أن يتجلى في صورة أخرى مختلفة عن هذه كل الاختلاف •• ولكن فلنتكلم ببساطة يا صديقي ، اعترفْ بأن هذا كله باطل ••

ـ أي شيء ليس اذن بباطل ؟

ـ شخصيتي ، ذاتي ، أنا • كل شيء فهو لي ، ومن أجلي انما خُلق العالم • اسمع يا صديقي : انني مازلت أعتقد ان في وسع الانسان أن يحيا على الارض • وهذا خير الاعتقادات طراً ، اذ بدونه لا يستطيع الانسان أن يحيا حياة سيئة ، ولا يبقى له الا أن يسم نفسه • ويقال ان هذا مافعله أحد الحمقى : بلغ من اغراقه في الفلسفة ان وصل الى انكار كل شيء ، حتى الواجبات العادية البسيطة ، فلم يبق له شيء : ان مجموع مابقي له : صفر • وعندئذ أخذ يقول ان خير ما في الحياة حامض السياندريك • ستقول لي : ان هذا هو هاملت ، انه ذروة اليأس ، انه شيء كبير لانستطيع حتى أن نفكر فيه • ولكنك شاعر ، اما أنا فمخلوق فانٍ ، لذلك سأقول لك : يجب أن تنظر الى الامر نظرة عملية بسيطة •

أنا مثلاً ، قد تحررت ، منذ مدة طويلة ، من كل رابطة ومن كل واجب. فما أشعر بواجب الا حين يحمل الى هـــذا الواجب منفعه من المنافع . طبعا ، انت لا تستطيع أن تواجه الامور على هذا النحو ، لان هناك قيوداً تثقل قدميك . انك تحكم على الامور من ناحية المثل الاعلى ، من ناحية الفضيلة . وأنا مستعد لان أسلّم بكل ماتقول ، ولكن ماحيلتى وأنا مقتنع بأن الانانية العميقة هى أساس جميع الفضائل الانسانية ، وأن فضيلة عمل من الاعمال هى على قدر ماينطوى عليه من أنانية . أحب نفسك أيهـا الانسان ، تلك هى القاعدة الوحيدة التى اعترف بها . ان الحياة سوق : فلا تهدر مالك ، ولكن ادفع ثمن لذتك ان شئت ، وبذلك تحقق واجبك كله تجاه أخيك الانسان . هـــذه هى أخلاقى ، اذا كنت تحرص على معرفتها ، رغم اننى أعترف لك بأن الافضل فى رأيى ألا تدفع شيئاً البتة ، وأن تعرف كيف تحمل الناس على أن يعملوا لك ماتريد بلا ثمن . ليس لى مثل أعلى ، ولا أريد أن يكون لى مثل أعلى . اننى لم أشعر يوماً بالحنين الى مثل أعلى . ان المرء ليستطيع أن يعيش حياة فرحة ممتعة بدون مثل أعلى ... ثم انه ليسعدنى ، على الجملة ، اننى أستطيع الاستغناء عن حامض السياندريك . ولو كنت على قدر من الفضيلة ، لصعب علىّ أن أستغنى عنه ، كما صعب على ذلك الفيلسوف الغبى (لاشك انه ألمانى) . لا ، لا ، ان الحياة ماتزال تشتمل على أشياء جميلة ! اننى أحب الاعتبار ، والجاه ، والفنادق الخاصة ، والمقامرة الضخمة (اننى أعبد ورق اللعب عبادة) ، وأحب النساء خاصة ، أحب النساء بشتى جوانبهن ، أحب حتى الفجور المظلم ، المختفى ، الغريب ، الشاذ ، بل والقذر بعض القذارة ، من قبيل التغيير .. هأ هأ هأ ... اننى أقرأ فى وجهك ماتشعر به نحوى من احتقار شديد !

ـ صحيح !

ـ طيب .. لنسلم بأنك على حق . أليس ذلك خيراً من حامض السياندريك على كل حال .. ما رأيك ؟

ـ بل أفضل حامض السياندريك .

ـ سألتك هذا السؤال عن عمد ، وذلك لاتلذذ بجوابك . كنت أعرف الجواب قبل أن أطرح السؤال . لا ياصديقى ، اذا كنت حقاً تريد الخير للبشر فيجب أن تتمنى لجميع الأذكياء أن تكون أذواقهم كذوقى ، رغم ان ذوقى قذر بعض القذارة ، والا لم يبق لهم مايعملونه فى هـذا العالم ، فلا يبقى ثمة الا الأغبياء الحمقى . انهم بذلك يصبحون سعداء . هل تعلم ؟ ما من شيء أمتع للانسان من أن يعيش فى صحبة حمقى ، ومن أن يعزفِ على أوتارهم : انه يستفيد من ذلك ! لاتأخذ علىّ اننى أقيم وزناً لآراء المجتمع ، واننى أحرص على بعض المواضعات ، وأننى أنشد الاعتبار والجاه . أنا أعرف اننى أعيش فى مجتمع تافه : ولكننى حتى الآن أتحمس له ، وانعق مع الناعقين ؛ اننى أتظاهر بالدفاع عنه دفاعاً حاراً ، ومع ذلك فمن الممكن ، اذا اقتضى الأمر ، ان أهجره أول من يهجره . اننى أعرف جميع أفكارهم الجديدة ، رغم اننى لم أحفل بها يوماً . وعلام أحفل بها ؟ اننى لم أشعر يوماً بعذاب الضمير . اننى أقبل كل شيء ، متى كان لى فيه نفع . واضرابى كثير ، ونحن جميعاً فى أحسن حال حقاً . يمكن أن يفنى كل شيء على الارض ، وأن نظل نحن وحدنا لانفنى أبداً . اننا نوجد منذ وجد الوجود .. قد يغرق الكون كله ، ونبقى نحن نطفو على وجه الماء ، نطفو الى الأبد . أنظر ، بهذه المناسبة ، كم تطول حياة أمثالنا . اننا نعمر كثيراً ، ألم يلفت نظرك ذلك ؟ اننـا نعيش حتى الثمانين ، حتى التسعين . فالطبيعة نفسها تحمينا اذن .. هه هه .. أريد أن أبلغ التسـعين حتماً ، أنا لا أحب المـوت . سحقاً

للفلسفة . فلنشرب ، يا عزيزى . كنا نتحدث عن البنات الجميلات ..
لماذا تقوم ؟

ـ أنا ذاهب ، وقد آن أن تذهب أنت أيضاً .

ـ ماهذا ، ماهذا ؟ لقد فتحت لك قلبى كله ، وهأنت ذا تتنكر لهذا الدليل القاطع على ما أكنه لك من صداقة ! انك لا تعرف كيف تحب ، يا شاعرى . انتظر انتظر ، سوف أطلب زجاجة أخرى .

ـ ثالثة ؟

ـ نعم . اما فيما يتعلق بالفضيلة ، يا تلميذى الشاب (اسمح لى أن أطلق عليك هذا الاسم اللطيف ، فمن يدرى ، لعل تعاليمى تفيدك !) اما فيما يتعلق بالفضيلة فقد ذكرت لك منذ لحظة ان « فضيلة عمل من الاعمال هى على قدر مايشتمل عليه من أنانية » . أريد فى هذه المناسبة أن أقص عليك حكاية لطيفة . لقد أحببت ذات مرة فتاة ، أحببتها حباً صادقاً تقريباً ، حتى لقد ضحت فى سبيلى تضحيات ضخمة ..

ـ أهى تلك التى سرقتها ؟

قلت له ذلك بفظاظة، وقد عزمت على ألا أحتمل أكثر مما احتملت، فارتجف الأمير ، وتغير وجهه ، وحدق الىّ بعينين مشتعلتين . كانت نظرته تعبر عن الاضطراب والحنق فقال كمن يخاطب نفسه :

ـ انتظر ، انتظر ، دعني أفكر . لقد سكرت حقاً ، وأصبح عسيراً علىّ أن أستجمع شتات أفكارى ..

وسكت ، ونظر الىّ نظرة فاحصة شريرة ، وهو يمسك بيدى ، كأنه يخشى أن أذهب . لاشك انه فى تلك اللحظة أخذ يفكر متسائلاً : من أين عرفتُ هذه القصة التى يجهلها كل الناس تقريباً ، وهلاّ يحيق به خطر . وانقضى على ذلك دقيقة مالبث وجهه بعدها أن تغير فجأة ،

فعادت اليه مظـاهر السخر ، والتمع فى عينـه مرح السـكر ، وانفجر ضاحكا .

ـ هأ هأ هأ . تاليران ، لا اكثر ولا اقل . لقد غدوت امامها كمنبوذ من المنبوذين حقاً حين رشقت في وجهي اتهامها بأنني سرقتها ! ما أكثر ما عوت ونبحت ، ما اكثر ما طرزت من شتائم وسباب ! كانت كالمسعورة ، تلك المـرأة و ... بدون اى تحفظ . ولكنني اترك لك ان تحكم فى الموضوع بنفسك : اولا ، لم اسرقها كما قلتَ منذ لحظة ، بل هى التى اعطتني ذلك المال ، فكان المال اذن مالى . لنفرض مثلاً انك اهديت الىّ احسن رداء عندك (قال هذا وهو يلقي نظرة سريعة على ردائي الوحيد الذى كاد يبلى ، وكان قد خاطه لى منذ سنين خياط رديء) . ولنفرض انني شكرت لك هديتك ، وارتديتها . ولنفرض اننا اختصمنا بعد ذلك بسنة ، فاذا انت تطلب مني ان ارد لك رداءك بعد ان اهترأ .. فهل يكون فى عملك هذا شيء من نبل ؟ ثانياً ، رغم ان المال مالى ، فلقد وددت لو ارده حقاً ، ولكن انى لى ان اجد مبلغاً ضخماً كذلك المبلغ ؟ احكم فى الامر بنفسك . ولاحظ خاصة اننى لا احتمل الغزليات الرومانسية ولا احب المشكلات الغرامية عى طريقـة شيللر ، قلت لك ذلك منذ قليل ، ولقد كان هذا رأس البلاء فى كل شيء . انك لا تستطيع ان تصدق تلك المواقف التى كانت تقفها منى ، صارخة بأنها أهدت الىّ ذلك المال (مع انه كان مالى) فاسـتبد بى الغضب ، وفكرت فى الامر تفكيراً سليمـاً ، ذلك ان حضور الذهن لا يعوزنى ابداً ، فقلت فى نفسى : لو ارجعت اليها المال ، فلربما سببت لها بذلك شقاء ، لأننى أحرمها عندئذ من لذة الشعور بأننى كنت أنا سبب شقائها ، وأحرمها من لذة النقمة علىّ الى الابد . صدقنى ياصديقى . ان المرء ، حين ينتابه شقاء من هذا النوع ، ليشعر من احساسه بنبله وكماله ، ومن حقه فى ان يحتقر ذلك الذى اساء اليه وفى ان يعده وغدا ، ان المرء ليشعر من احساسه بذلك بنوع من النشوة . ان نشـوة

البغض هذه تلاحظ لدى الطبائع الشيللرية • لعل هذه المرأة لم تجد بعد ذلك ما تسد به رمقها ، ولكنى على يقين تام من انها كانت سعيدة • لم اشأ ان احرمها من هذه السعادة ، فلم ارد اليها المال • وهكذا تلاحظ ان مبدئى الذى اعلنته لك منذ هنيهة ، اعنى انه كلما كان كرم الانسان كبيراً صاخباً كان يشتمل على قدر من الأنانية السيئة أكبر • هكذا تلاحظ أن مبدئى ذلك يبرر تبريرا كاملا •• هل هذا كله واضح وضوحاً كافياً ؟ ولكن •• كنت تريد ان تستدرجنى ، هأ هأ هأ •• هيا اعترف بذلك ، كنت تريد أن تستدرجنى ؟ آه منك يا تاليران ! •

قلت له وانا انهض :

ـ وداعاً •

فصرخ وهو يتخلى عن لهجته السيئة ، ويتكلم بلهجة جادة :

ـ لحظة • هناك كلمتان نختم بهما الحديث ، ثمة شىء اخير : من كل ما قلته لك يخرج بوضوح (وأظن انك قد أدركت ذلك) اننى لن ادع منفعة من المنافع تفلت منى يوماً فى سبيل اى انسان ! اننى احب المال ، وانا الآن فى حاجة اليه ، وكاترين فيدوروفنا تملك مالاً كثيراً : كان ابوها تاجر خمور خلال عشر سنين • انها تملك ثلاثة ملايين ، وهذه الملايين الثلاثة ستسوى قضيتى على احسن صورة • واليوشا وكاتيا متناسبان كل التناسب ، فكلاهما غبى الى اقصى حدود الغباء • وهذا يفيدنى كثيراً • لذلك اريد ان يتم زواجهما حتماً ، بأقصى سرعة ممكنة : ستسافر الكونتيسة وكاتيا بعد خمسة عشر يوما او بعد ثلاثة اسابيع الى الريف • ويجب ان يصحبهما اليوشا • فأبلغ ناتاليا نيقولايفنا ذلك ، حتى لا نرى مشاهد مثيرة ولا درامات شيلرية ، وحتى لا يجىء أحد فيعارض فيما عقدت النية عليه • انا امرؤ حقود شديد الحقد اثأر لنفسى وانتقم من خصمى • انى اعرف كيف ادافع عن مصالحى • لست اخاف منها ، وسيتم

كل شيء وفق ارادتي ، ما في ذلك ريب . واذا كنت احذرها منذ الان ، فذلك من مصلحتها تقريبا . فلا تدعها ترتكب حماقات سخيفة ، واحملها على ان تلتزم في سلوكها سبيل العقل والحكمة ، والا احاق بها شرّ كبير. يجب عليها ان تحمد لي انني لم اعاملها حتى الآن كما كان ينبغي ان اعاملها وفقا للقانون . اعلم ، يا شاعري ، ان القوانين تحمي هدوء الأسر الآمنة : انها تضمن للأب خضوع ابنه له ، ولا تشجع أبدا أولئك الذين يصرفون الابناء عن القيام بواجباتهم المقدسة نحو آبائهم . واعلم بعد ذلك ان لي علاقات .. وان ليس لها مثل هذه العلاقات . يستحيل ان لا تدرك ما كان يمكنني ان اصنعه بها .. ولئن لم ألحق بها اذى حتى الآن فذلك لانها كانت الى الآن عاقلة . لا تخف : ان هناك عيونا حاذقة كانت ترصد كل حركة من حركاتها وكل سكنة من سكناتها خلال هذه الاشهر الستة ، وقد عرفت كل شيء حتى أدق التفــاصيل . لذلك انتظرت هادئاً أن يهجرها اليوشا من تلقاء نفسه : وهذه اللحظة تقترب ، فالى ان تجيء ، لا مانع أن يتلهى بها قليلاً . لقد ظللت في نظره أباً رؤوفا رحيما ، وأنا في حاجة الى أن يكون رأيه فيّ كذلك . هأ هأ هأ .. انني اتذكر كيف كدت احمد لها انها كانت من الكرم والاخلاص والتفاني بحيث لم تحمل اليوشا على الزواج بها .. كنت اريد ان اعرف ما عسى ان يكون احتمالها لهــذا الكلام . اما زيارتي يومئذ فلم يكن لها من غرض الا انهــاء هذه العلاقة . كان لا بد ان اتأكد من الامر بنفسي . هل يكفيك هذا الذي قلته الى الآن ؟ ام تراك تريد ايضا ان تعرف لماذا جئت بك الى هنا ، ولماذا عبثت كل هذا العبث أمامك ، ولماذا حدثتك بكل تلك الصراحة ، مع ان هذا الموضوع كله كان يمكن ان يُستغنى فيه عن البوح بالاسرار .. هل تريد ان تعرف ذلك ؟

ــ نعم .

لقد كظمت غيظي ، وكنت أصغى اليه ، ولم يكن ثمة ما أجيب به على كلامه غير هذه الكلمة .

ـ فعلت ذلك كله بسبب واحد ، هو انني رأيت فيك من حسن الفهم وحسن التبصر بالامور اكثر مما ارى في ذينك الأبلهين الصغيرين. لعلك قد عرفتني قبل الآن ، لعلك قد حزرت من انا قبل الآن بالظن والتخمين . فأردت ان أظهرك على حقيقة الشخص الذى تتعامل معه . رب معرفة صادقة تجنب كثيراً من المتاعب . فافهمني اذن ، يا صديقي . هاءنت ذا تعرف الآن من هو الشخص الذى امامك . انك تحب هذه الفتاة فآمل ان تستعمل كل ما لك عليها من نفوذ وتأثير (وانا اعرف ان لك عليها نفوذا وتأثيراً) لكى توقيها بعض المتاعب ، والا تعبت كثيراً ، واؤكد لك ان الأمر لن يكون مزاحا والسبب الثالث في صراحتي معك هو انني .. (ولاشك انك ادركت ذلك يا عزيزى) هو انني كنت اشتهى ان ابصق قليلا على هذه القصة كلها ، وكنت اشتهى ان افعل ذلك امامك انت بالذات ..

قلت له وانا ارتجف حنقا :

ـ لقد بلغت غايتك . أسلم لك بأنه ما من طريقة أفضل من هذه الطريقة تعبر بها عما تحمله من بغض واحتقار لنا جميعا . لقد افضيت الى بهذه الأمور كلها لا لأنك لا تخشى أن يعرضك ذلك لخطر من الأخطار فحسب ، بل لأنك أيضاً لم تشعر حتى بالخجل أمامي ، فكشفت عن عورتك ، كذلك المجنون صاحب المعطف . انك لم تعتبرني انساناً .

قال وهو ينهض :

ـ ذلك هو الواقع قد حزرته يا صديقي الشاب .. لقد حزرت كل

شيء . ما انت كاتب عن عبث . آمل ان ننفصل على صداقة . وليتنا نشرب قدحاً على صحتنا كلينا ؟

ـ انت سكران . وهذا هو السبب الوحيد الذى من اجله لا ارد عليك كما ينبغى ان ارد .

ـ اى انك لجمت لسانك ولم تطلقه فيما كان ينبغى ان تطلقه به من كلام . هأ هأ هأ .. هل تسمح لى بأن ادفع عنك ؟

ـ لا تحمل نفسك هذا العناء . سأدفع عن نفسى .

ـ كنت واثقا من ذلك . فهل أوصلك الى بيتك .

ـ لا .

ـ وداعا يا شاعرى . ارجو ان تكون قد فهمتنى .

وخرج بخطى مترنحة ، دون ان يلتفت الى . واركبه خادمه العربة . ومضيت فى طريقى . كانت الساعة قد تجاوزت الثانية ، وكان المطر يهطل ، وكان الليل مظلما ..

الجزء الرابع

الفصل الأول

لن أصف ماكنت أشعر به من حنق ، رغم انني كنت أتوقع كل شيء فقد فوجئت بهـــذه الدمامة التي سفر عنها ، على انني أتذكر الآن أن مشـاعري كانت يومئذ مختلطة : كنت أشعر بأنني مهـــدم محطم ، وكان يخنق قلبي غم قاتم اسود ، وكنت أرتعد خوفا على ناتاشا ، كنت أحس انها ستعانى كثيرا من الآلام أيضا ، وكنت أبحث ، في قلق ، عن وسيلة توقيها هذه الآلام ، وتهوّن عليها اللحظات الاخيرة التي ستسبق الخاتمة ، كانت الخاتمة آتية لا ريب فيها : تقترب شيئاً بعد شيء ، وكنت أعرف ما هي !

وصلت الى بيتي دون أن أشعر ، رغم المطـر الذى لم ينقطـع عن الهطول لحظة واحدة ، كانت الساعة تقترب من الثالثة ، وقبل أن أطرق الباب سمعت أنيناً ، ورأيت الباب يفتح بسرعة ، كأن نللى كانت تنتظرني في العتبة ، كانت الشـمعة مشـتعلة ، فلما نظرت الى نللى ذعـرت ذعراً شديداً : كان وجهها لا يكاد يُعرف ، وكانت عيناها تلتمعان بلهيب حمى ، وكانت نظرتها الىّ غريبة ، حتى لكأنها لا تتعرفني ، كانت تعانى حمى شديدة ،

سألتها وانا انحنى عليها واحيطها بذراعىّ :

ــ ما بك يا نللى ؟ هل انت مريضة ؟

فشدت جسمها الىّ وهي ترتعش ، كأنها خائفـة ، واخذت تتكلم

كلاماً متقطعاً متعجلاً ، كأنها كانت تنتظرني لتقول لي هذا الكلام بسرعة. كانت كلماتها مفككة غريبة ، فلم افهم شيئاً : كانت تهذي •

قدتها فوراً الى سريرها ، ولكنها ما تنفك تلقي نفسها عليّ ، وتتشبث بي تشبثاً قوياً كأنها خائفة ، وتتوسل اليّ ان احميها من شخص ما • وحين استلقت على سريرها ظلت متمسكة بيدي تمسكاً قوياً مخافة ان اترك البيت واذهب مرة اخرى • وكنت قد بلغت من فرط الاضطراب العصبي انني اخذت أبكي حين رأيتها • لقد كنت مريضاً انا ايضاً • فلما لاحظت دموعي ألقت عليّ نظرة ثابتة طويلة ، بانتباه متوتر ، كأنها تحاول أن تفهم شيئاً وأن تفكر • وكان واضحاً انها تقاسي من أجل ذلك كثيراً من العناء • واخيراً التمع وجهها بشيء يشبه ان يكون فكرة : انها بعد نوبة عنيفة من نوبات الصرعة ، تظل في العادة بعض الوقت لا تستطيع ان تستجمع شتات افكارها ولا ان تنطق بكلام واضح متميز • وتلك كانت حالتها في هذه اللحظة : لقد بذلت جهداً كبيراً وهي تحاول ان تكلمني ، فلما ادركت انني لا افهمها ، مدّت اليّ يدها الصغيرة واخذت تجفف دموعي ، ثم احاطت عنقي بذراعها ، وجذبتني اليها وقبلتني •

كان الأمر واضحاً : لقد انتابتها نوبة اثناء غيابي ، وقد وقع لها ذلك لحظةَ كانت واقفة قرب الباب • فلما مضت النوبة ظلت مدة طويلة لا تستطيع أن تعود الى وعيها • والهذيان في مثل تلك اللحظات يختلط بالواقع • فلا شك أن أخيلة مخيفة رهيبة قد راودتها عندئذ • وكانت في الوقت نفسه تشعر شعوراً مختلطاً بأنني سأعود وبأنني سأطرق الباب ، لذلك كانت ، وهي متمددة على الأرض قرب العتبة ، تترقب عودتي ، فنهضت في اللحظة التي هممت فيها أن أطرق الباب •

ولكن لماذا كانت وراء الباب تماماً ؟ ذلك ما تساءلت عنه • ثم لاحظت فجأة ، على دهشة مني ، انها كانت مرتدية معطفها الصغير (كنت

قد اشتريت لها هذا المعطف من امرأة عجوز تبيع ثيابا قديمة ، وكنت اعرف هذه العجوز ، فكانت تجيئني الى البيت وتبيعني بضائعها ديناً فى بعض الاحيان) • لاشك ان نللى كانت تتهيأ اذن للخروج ، ولاشك انها كانت قد فتحت الباب حين وافتها النوبة فألقتها ارضاً • فأين كانت تريد ان تذهب ؟ هل كانت فى حالة هذيان قبل ان توافيها النوبة ؟

لم تهبط حرارتها ، وعادت الى الهذيان ، وفقدت وعيها من جديد• لقد انتابتها نوبتان منذ اقامت معى ، ولكن ذلك كان ينتهى بخير ، اما الآن فيبدو انها فريسة حمى حارة• ظللت جالساً الى جانبها أسهر عليها قرابة نصف ساعة ، ثم ألصقت بالأريكة عدداً من الكراسى ، وتمددت الى جانبها دون أن أخلع ملابسى ، بغية أن أستيقظ حالما تنادينى • ولم أطفىء الشمعة • ونظرت اليها عدة مرات قبل ان اغفو • كانت شاحبة • وكان على شفتيها اللتين جففتهما الحمى آثار دماء لا شك انها ترجع الى سقوطها. وكان وجهها ما يزال يحتفظ بمعانى الرعب ، ويعكس خوفاً معذَّباً يظهر انه كان يلاحقها حتى أثناء النوم • وقررت أن أمضى فى الغد مبكراً لآتيها بطبيب اذا تفاقمت حالتها • كنت اخشى ان تكون مريضة حقاً •

قلت فى نفسى وأنا أرتعش : «ان الأمير هو الذى أرعبها» ، وتذكرت قصته عن المرأة التى رشقت المال فى وجهه •

الفصل الثاني

انقضى على ذلك خمسة عشر يوماً .. كانت نللي تسترد عافيتها . كان مرضها خطيراً ، ولكنه لم يكن هو الحمّى الحارة . ونهضت من فراش المرض في آخر نيسان ، ذات يوم صاح مضيء . وكنا يومئذ في « الأسبوع المقدس » .

ما كان أتعس تلك المخلوقة ! انني لا أستطيع أن أتابع سرد قصتي مرتبةً منظمة . لقد انقضى وقت طويل بين ذلك الحين وبين هذه اللحظة التي أتناول فيها القلم وأقص ذلك الماضي كله . ولكنني ما زلت الى الآن أشعر بحزن عميق كاوٍ حين أتذكر وجهها النحيل الشاحب ، وعينيها السوداوين اللتين تنظران اليّ نظرات طويلة ملحة حين نكون وحدنا ، كأنما لتدعوني ان أفهم ما في ذهنها ، حتى اذا أدركت انني لا أفهم ، وانني ما زلت على غير يقين ، ابتسمت ابتسامةً عذبة ، كأنها تبتسم لنفسها لا لي ، ثم مدت اليّ فجأة ، بحركة ناعمة ، يدها المحترقة ذات الاصابع الضاوية .. كل هذا بعيد الآن عني ، وأنا أعرف الآن كل شيء ، ولكنني لم أنفذ بعد الى جميع أسرار ذلك القلب المريض المهان الذي هدمه العذاب .

أحس انني بهذا الكلام أخرج عن قصتي ، ولكنني في هذه اللحظة لا أريد أن أفكر الا في نللي . أمر غريب : الآن وأنا متمدد في سريرٍ بمستشفى ، وحيداً مهجوراً من جميع الذين طالما احببتهم ، يتفق لي في بعض الاحيان ان تنبثق في ذهني ، على حين فجأة ، ذكرى حادثة جزئية

من حوادث تلك الفترة ، فأنظر فيها على انفراد ، فاذا هى تكتسى معنى جديداً على حين غرة ، وتفسر لى ما لم أكن قد فهمته بعد .

قلقنا أشدّ القلق ، أنا والطبيب ، فى الأيام الأربعة الأولى ، ولكن الطبيب قادنى فى اليوم الخامس الى المطبخ ، وقال لى ان الخطر قد زال ، وان الصبية ستسترد عافيتها حتماً . انه ذلك الطبيب نفسه الذى اعرفه منذ مدة طويلة (عجوز عازب ، شهم ، متفرد) والذى اتيت به الى نللى يوم مرضها الأول فلفت نظرها صليب سناسلاس الضخم الذى كان يحمله فى عنقه .

فهتفت اسأله فرحاً :

ـ لا خوف عليها بعد الآن ؟

ـ لا ، ستشفى هذه المرة ، ولكنها لن تعيش طويلاً .

ـ كيف ؟ لماذا ؟

هتفت بذلك وقد دهشت من كلامه اشد الدهشة :

ـ نعم ، ستموت قريباً ، ما فى ذلك شك . ان فى قلبها آفة عضوية ، وستعود الى سرير المرض عند اول فرصة سيئة ، وقد تسترد يومئذ صحتها ، ولكنها لن تلبث ان تمرض مرة اخرى ، الى ان تموت .

ـ وليس ثمة وسيلة لانقاذها ؟ لا ، لا ، هذا مستحيل !

ـ هذا ما سيقع . على انها اذا وُقّيت كل حادث سيء ، وعاشت حياة رخية ناعمة هادئة ، وتوافر لها مزيد من المسرات ، يمكن ان يطول عمرها ، يمكن ان يتأخر اجلها .. بل ان هناك حالات غير متوقعة ، حالات غريبة ، شاذة .. الخلاصة ان المريضة يمكن انقاذها بتعاون ظروف حسنة ، أما ان تشفى تماما ، فذلك مستحيل .

ـ رباه ! فما العمل اذن ؟

ـ تتبع نصائحى ، وتواظب على تناول السفوف بانتظام. لقد لاحظت ان البنت ذات نزوات ، وانها مهيأة لقفزات فى المزاج ، وانها ساخرة ايضا . انها تكره ان تتناول الدواء بانتظام ، حتى لقد رفضت تناوله رفضا قاطعا منذ لحظة .

ـ صحيح . انها حقا غريبة الأطوار . ولكننى أرد ذلك كله الى اهتياج مرضى . لقد كانت امس طيعة جداً . واليوم ، حين جئتها بالدواء ، صدمت الملعقة كأنما بصدفة ، فاندلق الدواء . فلما اردت ان املأ لها ملعقة جديدة ، انتزعت العلبة من بين يدى ، والقتها على الارض، واخذت تبكى .

قلت ذلك ثم اضفت بعد لحظة من تفكير :

ـ لا شك انها لم تبك لاننا نحملها على تجرع الدواء فحسب !

ـ طبعا لا .. وانما يرجع ذلك الى الاهتياج ايضا . ان انواع الشقاء التى عانتها فى الماضى (كنت قد قصصت على الطبيب جزءاً كبيراً من حياة نللى بالتفصيل ، فأثرت فيه قصتى تأثيراً شديداً) ، ما تزال تفعل فيها فعلها ، وهذا هو السبب فى مرضها . الدواء الوحيد على كل حال انما هو السفوف : يجب أن تتناول هذا السفوف . سأحاول مرة أخرى أن أقنعها باتباع نصائح الطبيب ، و ... بأن تتجرع دواءها ... طبعا سأكلمها كلاما عاماً ..

وخرجنا من المطبخ الذى دار فيه هذا الحديث ، واقترب الطبيب من سرير نللى . ولكن يظهر ان نللى قد سمعتنا : كانت على الاقل قد انهضت رأسها عن المخدة ، والتفتت نحو الجهة التى كنا فيها ، وظلت طوال الوقت تسترق السمع الى ما نقول . لاحظتُ ذلك من خلال شق الباب . فلما

عدنا اليها عادت الخبيثة فاندست تحت الغطاء ونظرت الينا وهى تبتسم ابتسامة ماكرة • لقد اشتد هزال الطفلة المسكينة كثيراً خلال هذه الايام الاربعة من المرض : غارت عيناها ، وكانت لا تزال تعانى من الحمى • وكانت معانى وجهها الماكر ونظراتها البراقة العدوانية التى ادهشت الطبيب كل الدهشة (وهو خير الالمان ببطرسبرج) قد ازدادت من ذلك غرابة•

شرح لها الطبيب بلهجة جادة وصوت متودد متحبب حاول ان يلطفه ما امكنه ذلك ، شرح لها ان تناول السفوف امر لا بد منه ، وانه مفيد ، وان على جميع المرضى ان يتجرعوه •

كانت نللى تنهض رأسها حين صدمت الملعقة فجأة بحركة من يدها لم تكن متوقعة ابداً ، فسفح الدواء كله على الارض • وايقنت انها فعلت ذلك عامدة •

فقال العجوز بهدوء :

ـ هذه غلطة مؤسفة • اظن انك فعلت ذلك عن قصد ، وهذا شيء غير محمود • ولكن يمكن تدارك الأمر بملء ملعقة جديدة •

فضحكت نللى أمام أنفه •

فهز الدكتور رأسه وقال وهو يملأ ملعقة جديدة :

ـ سلوكك هذا سيء ، غير محمود ابداً •

فأجابت نللى وهى تبذل جهوداً عقيمة حتى لا تنفجر ضاحكة من جديد :

ـ لا تزعل ، سأتجرع الدواء قطعاً • ولكن هل تحبنى ؟

ـ اذا حسّنت سلوكك ، سأحبك كثيراً •

ـ كثيراً •

ـ نعم •
ـ والآن ، ألا تحبنى ؟
ـ بلى •
ـ وهل تقبّلنى اذا أردت انا ذلك ؟
ـ نعم اذا كنت تستحقين •

عندئذ لم تستطع نللى ان تحبس نفسها عن الضحك ، فضحكت مرة أخرى •

همس الطبيب يقول لى بلهجة جادة :

ـ انها مرحة الآن ، ولكن ليس ذلك الا اعصاباً ونزوات •

صرخت نللى تقول بصوتها الضعيف :
ـ سآخذ الدواء ، ولكن هل تتزوجنى حين أكبر ؟

كان واضحاً ان هذه الشيطنة تسليها كثيراً ، فكانت عيناها تلتمعان ، وكان الضحك يهز شفتيها ، وهى تنتظر جواب الطبيب الذى تحير قليلاً .

قال الطبيب وهو يبتسم لهذه النزوة الجديدة بالرغم منه :

ـ نعم •• اذا وافقت على ان تكونى طيبة ، مؤدبة ، مطيعة ، واذا وافقت على •••

ـ تناول الدواء ؟
ـ نعم على تناول الدواء •
قال ذلك وهمس فى اذنى يضيف :

ـ انها ابنة طيبة ، طيبة وذكية ، ولكن لماذا •• تريد أن تتزوجنى •• ما هذه النزوة !

وقدم لها الجـرعة . ولكنها فى هذه المرة لم تعمد الى الحيلة ، بل ضربت الملعقة بيدها ضربة صغيرة ، فاندلق محلول السفوف على قميص العجوز المسكين وعلى وجهـه . واخـذت نللى تضحك ضحكا صاخباً ، ولكنه لم يكن في هذه المرة ضحكاً صريحاً فرحا . وطاف بوجهها شعاع قاس شرير . كانت خلال ذلك الوقت كله تتحاشى النظر الىَّ ، ولا تنظر الا الى الطبيب ، وكانت تنظر اليه نظرة ساخرة تنم مع ذلك عن قلق . كانت تنتظر ما سيعمله العجوز الصغير « المضحك » .

قال الطبيب وهو يجفف وجهه وقميصه بمنديله :

ـ ها .. ايضاً ؟.. هذه مصيبة .. ولكن يمكن ان نحلَّ ملعقـة أخرى .

فوجئت نللى بهذا . فلقد كانت تتوقع أن نغضب ، كانت تظن أننا سنؤنبها ، ونقرعها ، ولعلها كانت ترغب فى ذلك على غير شعور منها ، لكى تتخذ منه حجة للبكاء والنحيب كما في نوبة هسترية ، ولدلق الدواء مرة أخرى ، بل ولكسر شيء من الأشياء أيضاً ، تهدئةً لقلبها الضعيف المحطم ذى النزوات . ليست نللى وحدها ، ولا المرضى وحدهم يشعرون بنزوات من هذا النوع . ما اكثر ما اتفق لى ان كنت اذهب واجيء فى غرفتى وانا أشتهى ، على غير شعور ، أن يعترضنى أحد الناس فوراً وأن يتهجم على وان يقـول لى كلاماً يمكن ان يعد شتما ، لكى أسـتطيع ان اخفف عن نفسى . ان النساء حين « يخففن » عن انفسهن بهذه الطريقة يبدأن بذرف دموع غزيرة ، حتى ان اكثرهن حساسية يمضين فى هذا الى حد النوبة الهسترية . تلك ظاهرة بسيطة شائعة كل الشيوع ، وهى تقع خاصة حين يكون ثمة حزن آخر يحـز في القلب ، حـزن يجهله جميع النـاس ، ولا يريد الانسان ان يفضى به الى احد ولا يستطيع ان يفضى به الى احد.

ولكن نللى ، وقد فوجئت بهذه الطيبة الملائكية من الطبيب العجوز

الذى اساءت اليه ، وبهـذا الصبر الذى اظهره اذ اخذ يسـكب جـرعة جديدة من الدواء ، دون ان يوجه اليها اى لوم ، هدأت فجأة ، فاختفت ابتسامتها الساخرة ، واحمر وجهها ، وتبللت عيناها ، ونظرت الىّ نظرة سريعـة ما لبثت بعـدها ان تحـولت عنى . وقدم اليها الطبيب الدواء ، فتجرعته طائعة ، وتناولت يد العجوز الحمراء المنتفخة ، وحدقت فى عينيه.

ـ انت زعلت .. لأننى شريرة ..

قالت ذلك ، ولكنها لم تتم كلامها ، بل دست رأسها تحت الغطاء ، وانفجرت تبكى بكاء منتحباً صاخباً هستريا .

ـ أوه .. لا تبك يا بنيتى .. لا تبك .. الأمر يسير ... هذا من العصبية . اشربى قليلاً من الماء .

ولكن نللى لم تصغ اليه .

وتابع الطبيب يقول ، وهو يهم ان يبكى ، لأنه امرؤ حساس :

ـ هدئى نفسك يابنيتى .. لاتزعلى .. اننى اغفر لك ، وسأتزوجك اذا سلكت سلوكاً حسناً ، واذا ..

ـ تناولت دواءك

بهذا اكملت نللى كلام العجوز ، من تحت الغطاء ، وشفعته بضحكة اعرفها منها حق المعرفة ، ضحكة عصبية ضعيفة ، تشـبه ان تكون صوت جرس ، ضحكة يتخللها نحيب .

فقال الطبيب بلهجة فخمة ، وهو يكاد يبكى :

ـ يا لك من بنية طيبة تعترف بالجميل .. أيتها الطفلة البائسة .

ومنذ ذلك الحين قامت بينه وبين نللى مودة غريبة . أما أنا فقد أخذ سـلوك نللى معى يزداد عداوة وعصبية واهتياجاً . ولم أعرف السبب فى

ذلك ، خاصة وأن هذا التغير قد طرأ فجأة • كانت خلال الايام الاولى من مرضها تظهر لى كثيراً من المودة والحنان والعاطفة كأنها لا تشبع من النظر الىّ : كانت لا تدعنى أبتعد عنها ، بل تمسك يدى بيدها المحترقة ، وتجلسنى الى جانبها ، فاذا لاحظت أننى قاتم المزاج أو قلق حاولت أن تفرحني، فأخذت تمازحنى وتلاعبني وتبتسم لى• ويكون واضحاً أثناء ذلك أنها تخنق آلامها الخاصة• كانت لاتريد أن أعمل فى الليل، ولا أن أسهر عليهـا ، وكان يحـزنها ان لا أطيعها في ذلك • وكنت اراها فى بعض الأحيان مغمومة مهمومة • وكانت في هذه الأحيان تسألنى لماذا أنا حزين، وفيم أنا افكر • والأمر الغـريب انهـا كانت ، حين اتحـدث عرضاً عن ناتاشا ، تصمت فجـأة ، وتتكلم فى شيء آخـر • كان يبدو أنها تتحاشى الكلام على ناتاشا وقد أدهشنى ذلك • وكانت تشعر بسعادة كبـيرة حين أعود الى البيت • حتى اذا تناولت قبعتي وهممت أن أخرج نظـرت الىّ نظرة غريبة حزينة مفعمة باللوم •

فى اليوم الرابع من مرضها ، قضيت السهرة كلها عند ناتاشا ، وبقيت هنالك الى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل • كان ثمة اشياء كثيرة يجب ان نتحـدث فيها • وكنت حين تركت نللى وعدتها بأن لا اغيب كثيراً ، وكنت ازمع ذلك فعلا ، ولكننى كنت مطمئناً عليها ، رغم اننى بقيت عند ناتاشا أكثر مما كنت أقدر ، ذلك انها لم تكن وحـدها • فان الكسندرا سـيمينوفنا ، حين علمت من ماسلوبويف الذى جـاءنى ذات مرة ، ان الصـغيرة مريضـة ، وان اعمالى كثيرة ، واننى وحدى فى البيت ، جاءت فزارت المريضة • ما اكثر ما حمّلت الكسندرا سيمينوفنا نفسها من عناء !

قالت لماسلوبوزيف حين ابلغها ذلك :

ـ ألن يأتى للعشاء ! آه يا رب ! انه وحيد هذا المسكين ! يجب ان نبرهن له على اخلاصنا • يجب ان لا نفوت هذه الفرصة •

ولم تلبث ان وصلت على عربة ، وهى تحمل حزمة مليئة بالهدايا. وأعلنت انها ستمكث هنا بعض الوقت ، وانهـا جاءت لمساعدتى • وفضت حزمتها ، فكانت تحتوى على أشربة ومربيـات للمريضـة ، وعلى دجاج تطعمها اياه حين تدخل فترة النقاهة ، وعلى تفاح يطهى فى الفـــرن وعلى برتقـال وعلى انواع من معقـود الفاكهة من كييف (اذا سـمح الطبيب بذلك) ، وعلى ثياب ، وأغطية ، ومناشف ، وقمصان، وعصائب ، ولفائف، مما يمكن ان يجهز به مستشفى بكامله • قالت لى وهى تلفظ كل كلمة بسرعة :

ـ عندنا كل شيء • وانت رجل عـازب ، ليس عندك هذا كله • لذلك ارجو ان تسمح لى •• على ان فيليب فيليبتش هو الذى امرنى بهذا والآن هيا بسرعة ، بسرعة • ماذا يجب علىّ ان اعمـل ؟ كيف حالهـا الآن ؟ هل هى صاحية ؟ آ •• هذا لا يجـوز ••• يجب ان نرتب لهـا مخدتها بحيث ينخفض رأسـها عن ذلك • قل لى : أليس الافضـل ان تسند رأسها الى مخـدة من جلد ؟ ان الجلد اطرى • آه ما اغبـانى ! لم اتذكر ان اجىء بمخدة من جلد • سأذهب باحثة عن مخدة من جلد • هل يجب ان نشعل ناراً ؟ سأرسل اليك خادمة عجوزاً أعرفها ، اذ ليس عندك خـادمة •• ولكن ماذا يجب ان نعمـل الآن ؟ ما هذا ؟ نوع من العشب ؟ هل الطبيب هو الذى وصف لها هذا النوع من العشب ؟ يُغلى ويشرب طبعاً ، أليس كذلك ؟ سأشعل النار حالاً •

ولكننى هدأتها ، فلما رأت ان ليس هنالك اعمال كثيرة يجب ان تقوم بها ، ادهشـها ذلك بل احزنهـا • على ان هذا لم يثبط عزيمتها • وسرعان ما انعقدت اواصر الصداقة بينها وبين نللى ، وما اكثر ما قدمت لى من خدمات طوال مدة مرض الصبية • كانت تزورها كل يوم تقريباً ، وكانت تصل دائماً متعجلة كأنها تريد ان تتدارك شيئاً فات ، وكانت تقول

دائمـاً ان فيليب فيليبتش هو الذى امـرها بالمجىء • وقد اعجبت بنللى كثيراً ، وأحبت كل منها الاخرى كأنهما اختـان • اعتقـد ان الكسـندرا سيمينوفنا لا تقل عن نللى طفولة من نواح كثيرة • كانت تقص لها حكايات طريفة ، وتضحكها • وكانت نللى تشـعر بكثير من السآمة حين تنصرف الكسندرا سيمينوفنا الى بيتها • حين جاءت الكسندرا سيمينوفنا اول مرة ، دُهشت مريضتي ، ولكنها سرعان ما ادركت السبب الذى من اجله جاءت هذه الزائرة التى لم تكن فى الحسبان ، فتجهم وجهها ، ولزمت صـــمتاً عدائياً • حتى اذا ذهبت الكسـندرا سيمينوفنا ، سألتنى نللى مستاءة :

ــ لماذا جاءت ؟

ــ جاءت لتساعدك يانللى ، جاءت لتعنى بك ؟

ــ لماذا ؟ اننى لم أحسن اليها يوماً !

ــ الناس الطيبون لا ينتظرون ان يحسن احد اليهم حتى يحسنوا اليه ، انهم يحبون من تلقاء انفسهم خدمة من هم فى حاجة الى هـــذه الخدمة • ان هناك اناساً طيبين كثيرين • وانما المصيبة انك لم تلقى هؤلاء الناس حين كان يجب ان تلقيهم •

سكتت نللى • وابتعدتُ انا عنها • ولكنها نادتنى بعد ربع ســـاعة بصوتها الضعيف ، وطلبت الى ان اسقيها جرعة ماء ، ثم احاطتنى بذراعيها فجأة ، واسندت رأسها الى صدرى ، وظلت على هذه الحالة مدة طويلة • وحين جاءت الكسندرا اسيمينوفنا فى الغد ، استقبلتها نللى فرحة ، ولكن كان يبدو عليها انها ماتزال تخجل منها •

الفصل الثالث

في ذلك اليوم انما قضيت السهرة كلها عند ناتاشا ، وعدت الى البيت في ســـاعة متأخرة • كانى نللى نائمة • وكانت الكســـندرا ســيمينوفنا نعسة هي أيضا • ولكنها تنتظرنى جالسةً قرب المريضة • فلما وصلت أخذت تقص على ، بسرعة ، وبصوت منخفض ، أن نللى كانت مرحة فى أول الأمر ، حتى أنها ضحكت كثيرا ، ولـكن الحـزن بان في وجهها بعد ذلك ، حين لاحظت انني تأخرت ، فصمتت وأصبحت واجمــة ثم شكت من صداع فى رأسها ، وأخذت تبكى وتنتحب • قالت ألكسندرا سيمينوفنا : تحيرت فما أعرف ماذا أعمل • وقد راحت تكلمنى عن ناتاليا نيقولايفنا ، ولكننى لم أجبها بشيء ، فانقطعت عن مساءلتى ، وظلت طوال الوقت بعد ذلك تبكى الى أن نامت أخيرا • الى اللقاء يا ايفان بتروفتش • أظن أن حالتها ستتحسن مع ذلك ، يجب أن أذهب ، لقد أوصانى فيليب فيليبتش بأن لا أتأخر • وأعترف لك بأنه لم يسمح لى بالتغيب أكثـر من ساعتين ، لقد بقيت هنا من تلقاء نفسى • على كل حال ، لا بأس ، لا تقلق من أجـلى • انه لا يجـرؤ أن يغضب • الا أن يكون •• آه ، يا ايفان بتروفتش ، ماذا أستطيع أن أفعل ؟ سيعود الآن ثملا ! انه مشغول جدا فى هذه الأيام ، أصبح لا يكلمنى ، هناك شيء يقلقه ، ويثقل على نفسه ، اننى ألاحظ ذلك واضحا • وهو يسكر فى المساء مع ذلك •• كنت أقول لنفسى طوال الوقت : ترُى لو عاد فى هذه اللحظة ، فمن يهيئه للنوم ؟ ولكننى

ذاهبة ، الى اللقاء يا ايفان بتروفتش • لقد نظرت فى كتبك • عندك كتب كثيرة ، ولا بد انها كتب ذكية •• اما انا ، الغبية ، فانني لم أقرأ فى حياتى شيئاً •• هيا ، الى الغد •• » •

استيقظت نللى فى الغد حزينة مكتئبة ، فكانت تجيب عن أسئلتى على مضض • وكانت لا توجه الى من تلقاء نفسها كلمة واحدة ، كأنها حانقة علىّ • ولكننى لاحظت انها كانت تلقى علىّ نظرات تختلسها اختلاساً من حين الى حين • وكنت اقرأ فى هذه النظرات حزناً دفيناً ، ولكننى كنت اقرأ فيها فى الوقت نفسه محبة وحناناً لا ألاحظهما حين تنظر الىّ وجهاً لوجه • وفى ذلك اليوم انما وقع المشهد الذى جرى مع الطبيب• كنت لا أعرف ماذا أقول فى تعليل ذلك •

ولكن نللى غيرت موقفها منى تغييراً حاسماً بعد ذلك • فاستمرت فى أعمالها الشاذة ونزواتها الغريبة وفى مشاعر الكره نحوى أحياناً الى ان جاء ذلك اليوم الذى اصبحت فيه لا تعيش معى ، الى ان حلت تلك الكارثة التى ختمت قصتنا • ولكننا سنعود الى هذا فيما بعد •

على انها كانت فى بعض الاحيان تسترد عاطفتها نحوى ساعةً او ساعتين ، فكان يبدو عندئذ انها تضاعف ملاطفاتها ، وكانت فى اغلب الاحيان تبكى بكاء مراً • غير ان هذه الساعات تنقضى بسرعة ، فاذا هى تعود الى كآبتها ، وتعود تنظر الىّ نظرة عداوة • حتى اذا لاحظت أحيانا أن شيطنة من شيطناتها الجديدة لا تعجبنى أخذت تضحك ثم تضحك ، وكان ذلك ينتهى بذرف الدموع دائما على وجه التقريب •

حتى لقد تشاجرت مرة مع الكسندرا سيمينوفنا ، واعلنت انها لا تريدها ، فلما أنبتها على ذلك امام الكسندرا سيمينوفنا ، غضبت غضباً شديداً ، وأجابتنى بخشونة ، كأنها تفيض حقداً • ثم صمتت فجأة يومين كاملين تقريباً فلم تتوجه الىّ بكلمة واحدة ، ولا رضيت ان تتجرع

دواءها ، ولا أن تشرب ولا أن تأكل • ولم يستطع أحد غير الطبيب العجوز ان يردها الى مشاعر طيبة •

سبق ان ذكرت ان مودة غريبة قد قامت بينها وبين الطبيب منذ ذلك اليوم الذى جرعها فيه الدواء • فأصبحت نللى تحبه كثيراً ، وتستقبله دائماً بابتسامة متألقة ، كأن لم يكن بها ظل من حزن قبل وصوله • وقد اخذ العجوز يجيء اليها كل يوم ، فلقد بلغ من الافتتان بها انه اصبح لا يستطيع ان يقضى يوماً واحداً من ايامه دون ان يسمع ضحكتها ودون أن يسمع أمازيحها التى كثيراً ما كانت مسلية جداً • وقد حمل اليها كتبا من كتب الصور المثقّفة ، ومن بين هذه الكتب كتاب اشتراه لها خصيصاً • وحمل اليها بعد ذلك حلوى وعلباً جميلة من علب السكاكر • فكان فى الايام التى يحمل فيها الهدايا الى نللى يصل رافع الرأس كأن اليوم يوم عيد ، وكانت نللى تحزر فوراً انه يحمل هدية • ولكنه كان لا يظهر هديته ، بل يضحك ضحكة متخابثة ، ويجلس الى جانب نللى ، ويقول لها ان الفتاة حين تسلك سلوكاً حسناً فتستحق التقدير ، يجب ان تكافأ على ذلك ، وكان وهو يقول لها هذا الكلام ينظر نظرة تبلغ من البساطة والطيبة ان نللى تأخذ تضحك من أعماق قلبها ، وتدل نظراتها التى عادت اليها البشاشة على عاطفة رقيقة صادقة ، وكان العجوز ينهض اخيراً بفخامة وجلال ، ويخرج علبة السكاكر ، ويقدمها الى نللى ، مردداً هذه العبارة نفسها فى كل مرة : « الى عروستى اللطيفة » • ولاشك ابداً أنه يكون فى تلك اللحظة أسعد من نللى •

ثم يأخذان يتحدثان ، وكان يحضها كل مرة ، فى جد وبلاغة ، على العناية بصحتها ، ويسدى اليها نصائح مجرب • كان يقول لها بلهجة مؤمنة :

ـ يجب على المرء ان يعنى بصحته قبل كل شيء : اولاً وخاصة ليبقى على قيد الحياة ، وثانياً ليكون موفور العافية فيحقق بذلك السعادة •

اما الاحزان ، يا بنيتي العزيزة ، فحاولي ان تنسيها او حاولي ان لا تفكري فيها ، واذا لم تخامرك الاحزان ، فلا تفكري في الاحزان ايضاً ، وحاولي ان تفكري فيما يسر ، حاولي ان تفكري في امور مفرحة مسلية .

فسألته نللي مرةً :

ـ ولكن في اي شيء يجب أن أفكر ؟

فتحير الطبيب ، ولم يعرف بم يجيب ، ثم قال :

ـ مثلاً ، في لعبة بريئة ، تناسب سنك ، أو في شيء من هذا القبيل.

ـ لا أريد ان العب ، لا احب اللعب ، افضل الاثواب الجديدة .

ـ الاثـــواب الجديدة ! هم .. لا .. يجب ان يعرف المرء كيف يكتفي بأشياء بسيطة . على كل حال .. يمكن ان يحب الانسان ايضا الاثواب الجديدة .

ـ هل تنوي ان تشتري لي اثواباً كثيرة حين تتزوجني ؟

ـ ما هذه الفكرة !

ذلك ما قاله الطبيب ، ثم قطب ما بين حاجبيه على غير ارادة منه . وكانت نللي تبتسم ابتسامة دلال ، حتى انهـا نسيت نفســـها فنظرت اليَّ مبتسمة .

واضاف الطبيب يقول :

ـ على كل حال سأشتري لك ثوباً اذا استحققت ذلك بسلوكك .

ـ هل يجب أن أستمر على تجرع الدواء حين أكون زوجتك ؟

ـ قد لا يجب ذلك ، قد لا يجب ذلك دائماً .

قال الطبيب هذا ، وأخذ يبتسم .

وقطعت نللي الحديث بضحكة صاخبة ، وكان العجوز يضحك ايضاً ، وهو ينظر اليها نظرة تفيض بالعاطفة •

قال وهو يلتفت نحوى :

ـ ان لها نفساً مرحة • ولكنها مازالت تحتفظ بمزاج كثير النزوات والتهاويل ، ومازالت تحتفظ بشيء من فرط الاهتياج •

نعم ، ان الطبيب على حق • انني اجهل كل الجهل ما الذى انتابها حتى صارت لا تريد ان تكلمني ، كأنني اذنبت في حقها • ولقد آلمني ذلك ، حتى انني تجهمت انا ايضاً ، وظللت يوماً بكامله لا اتوجه اليها بكلمة واحدة ، ولكنني خجلت من ذلك في الغد • كانت تبكي في كثير من الاحيان ، وكنت لا اعرف كيف اواسيها • على انها قطعت الصمت ذات يوم •

كنت قد عدت الى البيت قبيل الغسق ، فلمحتها توارى كتاباً تحت مخدتها بسرعة • كان هذا الكتاب هو روايتي اخذتها من على المنضدة وجعلت تقرأ فيها اثناء غيابي • لماذا تخفي الكتاب كأنها تستحي من قراءته ؟ ذلك هو السؤال الذى طرحته على نفسي عندئذ ،ولكنني تظاهرت بأنني لم ألاحظ شيئاً • وبعد ربع ساعة ذهبت الى المطبخ لأمر من الأمور، فاذا هي تقفز من سريرها بسرعة ، وترد الكتاب الى مكانه ، فلما عدت رأيته على المنضدة • وما هي الا لحظة حتى نادتني ، وكان صوتها يدل على انفعال • كان قد انقضى اربعة ايام لم اكد اكلمها خلالها • سألتني بصوت متقطع :

ـ هل •• تذهب اليوم الى ناتاشا ؟

ـ نعم يا نللي ، يجب ان أراها اليوم حتماً •

ـ هل •• تحبها •• كثيراً ؟

ـ نعم كثيراً يا نللى

ـ أنا ايضاً احبها .

قالت ذلك بصوت خافت ، ثم خيم الصمت مرة أخـــرى . وقالت بعد قليل وهى تلقى على نظرة خجلى :

ـ اريد ان اذهب اليها وان اعيش معها .

فقلت دهشاً :

ـ هذا مستحيل يا نللى .. أأنت متضايقة فى بيتك هنا ؟

قالت وقد اصطبغ وجهها بحمرة شديدة :

ـ لماذا مستحيل ؟ انت تنصحنى ان اذهب الى ابيها ، ولكننى أوثر ان اذهب اليها . هل عندها خادمة ؟

ـ نعم .

ـ اذن تصرف الخادمة ، واتولى انا خدمتها . سأعمل لها كل شيء ، وسأرفض ان اتقاضى منها اى اجر . سأحبها ، وســـأطبخ لها . قل لها اليوم هذا .

ـ ولكن لماذا يا نللى ؟ ما هذه الفكرة ؟ أى رأى قد استقر فى ذهنك عنها ؟ هل تظنين انها تقبل أن تتخذك طبّاخة ؟ انها اذا ضمتك اليها ، فانما تضمك قرينة ، أختاً صغيرة .

ـ لا ، لا اريد ان تأخذنى اليها قرينة ، لا ، لا .

ـ لماذا ؟

صمتت نللى ، وارتعشت شفتاها .. انها تريد ان تبكى .

وقالت أخيراً :

ـ ولكن الشخص الذى تحبه سيذهب وسيتركها وحيدة .

ُشدهت حين سمعتها تقول هذا الكلام ، فسألتها :

ـ كيف عرفت هذا يا نللي ؟

ـ قلته لي انت ، وصباح اول امس ، حين جاء زوج الكسندرا سيمينوفنا سألته فقص على كل شيء •

ـ هل جاء ماسلوبويف الى هنا ذات صباح ؟

قالت وهي تغض طرفها :

ـ نعم •

ـ لماذا لم تخبريني بذلك ؟

ـ هكذا •

وأطرقتُ افكر ، لماذا يحوم حولها ماسلوبويف على هذا النحو الخفي ؟ ماذا يريد ؟ كان يجب ان أراه • وسألت نللي :

ـ ولكن ماذا يعنيك أن يتركها أو أن لا يتركها ؟

فأجابتني تقول دون أن ترفع رأسها :

ـ انت تحبها كثيراً ، أليس كذلك ؟ واذا كنت تحبها ، فستتزوجها متى تركها الآخر ؟

ـ لا يا نللي ، انها لا تحبني كما احبها ، وانا •• لا لن يكون هذا يا نللي •

قالت بما يشبه الهمس ، دون ان تنظر الى :

ـ سأخدمكما معاً ، وستكونان سعيدين •

قلت في نفسي مضطرباً أشد الاضطراب : « ماذا بها ، ماذا دهاها ؟» وصمتت نللي ، فما عادت تقول شيئاً • ولكنها انفجرت باكية حين خرجت، وظلت تبكي طوال الليل كله ، كما أُخبرتني بذلك الكسندرا سيمينوفنا،

ونامت تبكى ، حتى انها ظلت اثناء الليـــل ، وهى نائمة ، تبكى وتتكلم هاذية .

ومنذ ذلك اليوم اصبحت اشد كآبة وصمتاً ، واصبحت لا تكلمنى أبداً . صـحيح انني لمحتها تختلس النظـر الىّ مرتين أو ثلاث مرات ، وصحيح ان نظرتها كانت تفيض عاطفة ، ولكن هذه العاطفة كانت تنقضى في لحظة واحدة ، وكانت نللى تزداد عبوساً من ساعة الى ساعة ، كأنما لتقاوم وثبة العاطفة تلك ، وأصـــبحت تعبس هـذا العبوس نفسه حتى للطبيب ، الذى دُهش من هـذا التغير الطارىء . وأثنـاء ذلك كانت قد استردت صحتها تقريباً ، وسمح لها الطبيب أخيراً أن تخرج للنزهة فى الهواء الطلق لحظات قصاراً . كان الجو صحواً دافئاً . وكنا في الاسبوع المقدس الذى جاء متأخراً فى تلك السنة . وخرجتُ فى ذات صباح ، اذ كان لابد من الذهاب حتماً الى ناتاشا ، ولكننى عاهدت نفسى أن أعود الى البيت مبكراً ، وان اصـحب نللى فى نزهة قصيرة . كنت الى ذلك الحين اتركها وحدها .

لا اسـتطيع ان اصف الضربة الصـاعقة التى كانت تنتظرنى فى البيت . كنت أسرع الخطى عائداً . فلما وصلت وجدت المفتاح فى ظاهر الباب . ودخلت ، فلم أجد احداً . شعرت بانهيار . ونظرت ، فرأيت على المنضدة ورقة كتب عليها بقلم الرصـاص ، بخط ضـخم متفاوت ، ما يلى :

« ذهبت من عندك ، ولن اعود ابداً ، ولكننى احبك كثيراً . »

المخلصة لك

نللى

أطلقت صرخة مذعورة ، وخرجت من البيت .

الفصل السابع

لم أكن قد خرجت الى الشارع ، ولا كان اتسع وقتى للتفكير فيما سأفعله ، حين رأيت فجأة عربة تقف أمام باب العمارة ، فتنزل منها ألكسندرا سيمينوفنا ممسكة بيد نللى • كانت تقبض على يدها بقوة كأنها تخاف أن تهرب مرة أخرى ، فهرعت اليها ، وهتفت أقول :

ـ ماذا دهاك يا نللى ؟ الى أين ذهبت ؟ لماذا ؟

فقالت الكسندرا سيمينوفنا :

ـ انتظر ، لا تستعجل • لنصعد الى بيتك أولاً • ستعرف كل شيء•

وهمست تقول لى بسرعة اثناء الطريق :

ـ ما سأقصه عليك لا يصدق • ستعرف حالاً •

كان واضحاً فى وجهها انها تحمل انباء خطيرة كل الخطورة •

فلما وصلنا الى الغرفة اتجهت بالكلام الى نللى تقول لها :

ـ هيا استلقى قليلاً يا نللى • انت تعبة • ان السير تلك المسافة كلها ليس بالأمر الهيّن ، وخاصة بعد المرض • انه مرهق • هيا استلقى يا عزيزتى •

قالت ذلك لنللى ثم اتجهت الىّ تقول :

ـ سنمضي نحن حتى لا نزعجها •

واشارت الى جهة المطبخ بغمزة •

ولكن نللي لم تمض الى السرير ، بل جلست على الأريكة ، وغطت وجهها بيديها •

خرجنا ، وراحت الكسندرا سيمينوفنا تقص عليّ ما تعرفه بسرعة، وقد اطلعت بعد ذلك على تفاصيل اخرى • وهذا ما وقع :

بعد ان خرجت نللي من عندي تاركة رسالتها تلك ، اى قبل ان اعود الى البيت بنحو ساعتين ، هرعت قبل كل شيء الى منزل الطبيب العجوز • كانت قد حصلت على عنوانه قبل ذلك ، وقد حدثني الطبيب عن مجيئها اليه فقال انه كاد يقع مغشياً عليه حين رآها في بيته ، وانه ظل طوال مدة بقائها عنده « لايصدق عينيه » ، وأضاف الى ذلك قوله : انني حتى الآن لا اصدق هذا الامر ، ولن اصدقه في حياتي يوماً • لقد جاءت اليه نللي مع ذلك • كان جالساً على مقعده في حجرته ، هادىء البال ، مرتدياً ثوب المنزل ، يحتسي قهوته ، حين دخلت راكضة ، وارتمت على عنقه قبل أن يفيء الى نفسه . كانت تبكي وتشده الى صدرها بذراعيها ، وتقبله ، وتقبل يديه ، وترجوه ملحةً ، بكلمات متقطعة ، أن يأخذها اليه • قالت له انها اصبحت لا تريد ان تعيش عندي ، ولا تطيق ان تعيش عندي ، وانها من اجل هذا تركت بيتي وجاءت اليه ، وانها كانت متضايقة في منزلي ، وانها لن تسخر منه بعد اليوم ابداً ، ولن تكلمه عن الاثواب الجديدة ، وانها ستحسن سلوكها ، وستتعلم غسل قمصانه وكيّها (لاشك انها هيأت خطابها هذا كله اثناء الطريق ، وربما قبل ذلك) ، وانها ستكون طيعة فتتجرع مايشاء من دواء ، كل يوم اذا اقتضى الامر ، وانها ماتحدثت عن زواجها به الا من قبيل المزاح ، وانها لم تفكر في هذا أبداً ولا خطر لها ببال • ولقد بلغ الالماني العجوز من شدة الانشداه والانصعاق انه ظل

طوال الوقت فاغراً فاه ، تاركاً سيكاره ينطفيء في الهواء ، وقال لها اخيراً حين استطاع ان يحرك لسانه على نحو ما من الانحاء :

ـ يا آنسة ، اذا كنت قد فهمتك ، فأنت تطلبين مني ان آخذك الىّ . ولكن هذا مستحيل . انك ترين انني أعيش حياة ضيقة ، وان مواردي ضئيلة . ثم انك ، كما أرى ، قد هربت من منزلك . وهذا أمر تلامين عليه كل اللوم ، هذا شيء مستحيل تماماً . ثم انني لم أسمح لك بالخروج الا لحظة قصيرة للنزهة ، حين يكون الجو صحواً جميلاً ، وذلك تحت رقابة وليّ نعمتك .. وهاءنت ذي تتركين وليّ نعمتك ، وتهرعين الىّ ، بينما يجب عليك ان تسهري على صحتك .. و .. و .. أن تتجرعي دواءك .. انني لا أفهم ..

لم تترك له نللي ان يتم كلامه ، بل عادت تبكي ، وتتوسل اليه من جديد . ولكن ذلك كله لم يُجدها شيئاً . فان العجوز كان يزداد انشداهه ويقل فهمه لحظة بعد لحظة . واخيراً تركته نللي هاربة وهي تصرخ : « آه يارب » . قال لي الطبيب وهو يختم كلامه : « وظللت مريضاً طوال ذلك اليوم ، واضطررت الى تناول مغليّ بعض الأعشاب حتى أنام » .

بعدئذ أسرعت نللي تسعى الى منزل ماسلوبويف . وكانت قد حصلت على عنوانه ، فاهتدت الى البيت بعد عناء . وكان ماسلوبويف في البيت . فلما رجتهما أن يضماها اليهما رفعت الكسندرا سيمينوفنا يديها الى السماء . وسألاها لماذا خطرت لها هذه الفكرة ، وهل هي غير مرتاحة في بيتي ، فلم تجب بشيء ، بل ارتمت على احد الكراسي تنتحب . قالت لي الكسندرا سيمينوفنا : « كانت تبكي بكاءً عنيفاً ، حتى خيل اليّ انها ستموت من فرط البكاء » . وتوسلت نللي اليهما ان يأخذاها ولو خادمة او طباخة ، وقالت انها ستمسح الارض وتغسل الغسيل . (كانت تعقد على غسل

الغسيل هذا آمالاً خاصة ، وتعتقد ان ذلك خير وسيلة لاغراء الناس بأخذها) • وقد أرادت الكسندرا سيمينوفنا ان تحتفظ بها مدة من الوقت لتحصل منها على مزيد من الايضاح ، وأن تبلغنى ذلك ، ولكن فيليب فيليبتش عارضها فى هذا معارضة قاطعة ، وأمرها بأن تعود بالهاربة الىّ ، وقد عانقتها الكسندرا سيمينوفنا اثناء الطريق وقبلتها ، فاشتد بكاء نللى ، فاخذت الكسندرا سيمينوفنا تبكى هى ايضاً ، حتى انهما ظلتا تبكيان طوال الوقت • قالت لها الكسندرا سيمينوفنا اثناء الطريق ، وهى تبكى :

ـ ولكن لماذا ، لماذا لا تريدين أن تعيشى عنده ؟ هل يسيىء معاملتك ؟

ـ لا •

ـ اذن لماذا ؟

ـ هكذا •• لا أريد ان أعيش عنده ، لا أريد ، اننى دائما شريرة معه • وهو •• هو طيب جداً • أما عندكم فلن أكون شريرة ؟ عندكم ، سأعمل •

قالت ذلك وهى تجهش باكية كانها فى نوبة هسترية •

ـ ولكن لماذا أنت شريرة معه يانللى ؟

ـ هكذا •

وختمت الكسندرا سيمينوفنا حديثها لى وهى تجفف دموعها قائلة : « لم استطع ان احصل منها على غير كلمة « هكذا » • تُرى لِمَ هى شقية كل هذا الشقاء ؟ هل تظن ان ذلك يرجع الى مرضها ؟ ما رأيك يا ايفان بتروفتش ؟ » •

وعدنا • كانت نللى مستلقية ، وقد دسّت وجهها بين المخدات تبكى • فركعت أمامها على ركبتى ، وتناولت يديها ، واخذت أقبلهما ،

فسحبت يديها ، وازداد نحيبها قوة وعنفاً • كنت لا أعرف ماذا اقول • وفى هذه اللحظة دخل العجوز اخمنيف •

ــ صباح الخير يا ايفان ، جئت اليك لعمل من الاعمال •

قال ذلك وهو ينظر الينــا كلينــا ويســتغرب ان يرانى راكعاً على ركبتى • لقد كان العجوز مريضاً جداً فى هذه الايام الاخيرة ، كان شاحباً نحيلاً ؛ ولكنه كان يحتقر مرضه، كأنما ليستخف بشخص من الأشخاص، ويرفض ان يتبع نصائح آنا اندرييفنا : فهو ينهض من فراشه ، ويمضى يسعى وراء اعماله •

قالت الكسندرا سيمينوفنا وهى تنظر الى العجوز بالحاح :

ــ الى اللقاء يا ايفــان بتروفتش ، الى الغــد • لقد اوصانى فيليب فيليبتش ان اعود باقصى سرعة ، هناك اعمال يجب ان نقوم بها ، ولكننى سأرجع هذا المساء ، لابقى ساعة او ساعتين •

سألنى العجوز بصــوت خافت ، وكان واضحاً انه يفــكر فى شىء آخر :

ــ من هذه ؟

فشرحت له الامر •

ــ هِمْ •• لقد جئت لأمر من الأمور ، يا ايفان •

كنت أعرف ما هو ذلك الامر ، وكنت أنتظر زيارة العجوز • لقد أتى ليتحدث الىّ والى نللى ، وليطالبنى بها • فقد وافقت آنا آندريفنا أخيراً على اخذ اليتيمة الى بيتها • وكانت هذه الموافقة ثمرة محادثات سرية قامت بينى وبينها ، فأقنعتُها ؛ قلت لها ان رؤية هذه اليتيمة التى لعن أبوها أمها يمكن ان ترد قلب العجوز الى عواطف اخرى • وقد بلغت من الوضوح

في عرض خطتي أنهـا أصبحت هي التي تحث زوجهـا الآن على المجيء بالطفلة • وبادر العجوز الى تنفيـذ الامر بسرعة ، وكان يريد قبل كل شيء أن يحظى باعجاب نللي ، وكان يبيّت أمراً • ولكنني سأعود الى هذا تفصيلاً •

سبق ان ذكرت ان نللي شعرت بالكره نحو العجوز منذ زيارته الاولى • وقد لاحظتُ بعد ذلك نوعاً من البغض والحقد يظهر في وجهها حين يُذكر أمامها اسم اخمينف • ودخل العجوز في الموضـوع رأسـاً بلا تمهيد • فمضى قدماً الى نللي التي كانت لا تزال مستلقية مخبئة وجهها تحت الوسائد ، فتناول يدها وسألها آلا تريد ان تجيء معه الى بيته ، وأن تكون بمثابة ابنته • وختم العجوز كلامه لها بقوله :

ـ كان لي ابنة ، وكنت أحبها أكثر مما أحب نفسي ، ولكنها لاتعيش معي ، لقد ماتت ، فهل تريدين أن تحلي محلّها في بيتي و •• في قلبي ؟

قال ذلك وترقرق الدمع في عينيه اللتين جففتهما وألهبتهما الحمى • فأجابته نللي دون ان ترفع رأسها :

ـ لا ، لا أريد •

ـ لماذا يا بنيتي ؟ ليس لك أحد • ان ايفان لا يستطيع أن يحتفظ بك في بيته الى الابد ، وستعيشين عندنا في جو اسرة •

ـ لا أريد ، لانكَ رجل شرير •

قالت ذلك ثم رفعت رأسـها وجلست على السرير أمام العجـوز ، وأضافت تقول :

ـ نعم ، أنت شرير • وأنا أيضاً شريرة ، شريرة جداً ، ولكنك شرير أكثر مني •

قالت نللي ذلك وامتقع لونها ، والتمعت عينـاها ، واصفرت شفتاها

المرتعشتان وتصعرتا بتأثير الانفعال العنيف • وكان العجوز ينظر اليها مرتبكا •

ـ نعم ، أنت شرير أكثر مني ، لأنك لا تريد أن تعفو عن ابنتك• انك تريد ان تنساها نسياناً تاماً ، وأن تتخذ لك ابنة أخرى • هل يمكن أن ينسى الانسان طفله ؟ هل يمكن أن تحبني في المستقبل ؟ انك متى نظرت الىَّ ، ستذكر أنني غريبة ، وأن لك ابنة أردت أن تنساها من فرط قسوتك• انا لا أريد أن اعيش عند اناسٍ قساة ، لا اريد ، لااريد•

واصطبغ وجه نللي بحمرة شديدة ، والقت عليَّ نظرة سريعة ، واضافت تقول للعجوز :

ـ بعد غدٍ عيد الفصح•• بعد غد سيتعانق الناس ويتصالحون ويغفر بعضهم لبعض •• اعرف ذلك •• الا انت •• انت وحدك ! انك رجل قاس ، اذهب عني •

واخذت تذرف دموعاً غزيرة • لا شك انها هيأت هذا الخطاب منذ مدة طويلة ، وحفظته على ظهر القلب ، لتوجهه الى العجوز متى جاء يدعوها الى الذهاب معه • وتأثر اخمنيف تأثراً شديداً ، فامتقع لونه ، وارتسمت على وجهه معاني الألم •

وصرخت نللي فجأة وهي خانقة اشد الخنق :

ـ ولماذا ، لماذا يهتم بي جميع الناس هذا الاهتمام كلّه ؟ لا اريد ، لا اريد ، سأمضي اطلب الصدقات •

فهتفت على غير ارادة مني اقول :

ـ نللي ، ماذا دهاك ؟ نيللي ، بنتي !

ولكن صرختي لم تزد على ان صبت فوق النار زيتاً ، اذ صرخت نللي منتحبة تقول :

ـ نعم أفضل أن امضى فى الشوارع أطلب الصدقة • لن أبقى هنا• لقد كانت أمى أيضاً تتسول ، وحين ماتت قالت لى : « ظلى فقيرة ، ولأن تتسولى خير من أن •• » ليس عاراً ان يتسول الانسان • ان المتسول لا يطلب الصدقة من واحد ، بل من جميع الناس ، وجميع الناس ليسوا واحداً • من العار أن أطلب الصداقة من واحد، أما من جميع الناس فلا•• هذا ما قالته لى متسولة • أنا صغيرة ، وليس لى مخرج آخر • سأطلب الصدقة من جميع الناس • لا أريد ، لا أريد ، أنا شريرة ، أكثر من أى انسان : أنظروا كم أنا شريرة •

قالت كلمتها الأخيرة هذه ، وهى تتناول فنجاناً كان على المنضدة ، وترميه على الارض • ثم قالت وهى تنظر الىّ نظرة تحد ظافر :

ـ ها قد انكسر •

ثم أضافت :

ـ ليس عندك الا فنجانان • وسأكسر الفنجان الآخر• فكيف تشرب الشاى بعد الآن ؟

كانت كمن مسّه جن ، وكان واضحاً أنها تجد فى هذه السورة من الغضب لذة عنيفة : كانت تحس بأن ما تفعله شر وعيب ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه كأنما تحض نفسها على اقتراف شذوذ جديد •

قال العجوز :

ـ انها مريضة •• أو انها •• أنا لا أفهم هذه الطفلة ! الى اللقاء •

وتناول قبعته ، وصافحنى • كان مهدماً • لقد جرحته نللى جرحاً بالغاً • وكنت حانقاً أشد الحنق • فصرخت اقول لنللى حين اصبحنا وحدنا :

ـ كيف لم تشفقي عليه ؟ كيف لم ترحميه ؟ الا تستحين من ذلك ؟ لا ، لا ، أنت لست طيبة ، أنت شريرة حقاً !

قلت ذلك وهرعت وراء العجوز عاري الرأس ، أريد ان أشيعه الى باب العمارة ، وان أواسيه ببضع كلمات . وخيل الى وأنا أهبط السلم بسرعة انني ما زلت ارى وجه نللي متجهماً بتأثير ما وجهت اليها من لوم. وما لبث ان ادركت صديقي العجوز . قال لي وهو يبتسم ابتسامة مرة :

ـ ان الطفلة المسكينة تشعر بأنها مهانة .. ان لها احزانها ، صدقني يا ايفان . وقد اخذت اقص عليها احـــزاني ، فنكأت جرحهـا . المثل يقول : الخلي لا يسمع الشجي ، واني لأضيف الى ذلك ان الشجي نفسه لا يفهم الشجي دائماً . هيَّا . الى اللقاء .

اردت ان اكلمه في شيء آخر ، ولكنه اشار بيده اشـارة يائسة ، وقال في نوع من الهياج :

ـ لا تحاول ان تواسيني . الافضل ان تسهر على ان لا تهرب من بيتك . لقد قرأت هذه الرغبة في وجهها .

قال ذلك ثم ابتعـد بخطى سريعـة وهو يؤرجح ذراعـه ويضرب الرصيف بعصاه . انه لا يتصور انه بكلامه هذا كان نبياً .

ذلك انني حين عـدت الى الغـرفة وجدتها خالية مرة اخـرى . لا استطيع ان اصف ما تملكني عندئذ من رعب ! اسرعت الى المدخل ، وبحثت عن نللي على السـلم ، وناديتها ، حتى لقد طرقت ابواب الجيران اسألهم هل رأوها . لم استطع ان اصدق ولا اردت ان اصدق انها هربت ثانية . كيف استطاعت ان تهرب ؟ ليس للعمارة الا باب واحد ، فلعلها مرت اذن امامنا بينما كنا نتحدث انا والعجوز . ولكنني ما لبثت ان قدرت، على اسف وحزن ، انها لا شك قد اختبـأت اولا على السلم ، وتربصت

هنالك الى ان صعدت ، فهربت • وبذلك لم يستطع احد ان يراها • قلت فى نفسى : انها لم تبتعد كثيراً على كل حال •

واسرعت ابحث عنها وقد استبد بى قلق رهيب •• تاركاً البـاب مفتوحاً •

ذهبت اولا الى بيت ماسلوبويف ، فلم اجده ولا وجدت الكسندرا سيمينوفنا • فتركت لهما بطاقة ابلغهما فيها المصيبة الجـديدة ، وارجوهما ان يخبرانى عن وصـــول نللى اليهمـا اذا وصلت ، ثم ذهبت الى منزل الطبيب ، فلم أجده هو أيضاً ، وقالت لى خادمته ان نللى لم تزرهما غـير تلك الزيارة الاولى • ماذا اعمل ؟ ذهبت الى بيت بوبنوفا فعرفت من امرأة صانع التوابيت ان الساكنة قد اقتيدت الى القسم منذ امس ، وان احداً لم ير نللى منذ ذلك اليوم • وهرعت ثانية الى منزل ماسلوبويف وقد هدنى التعب والاعياء ، فكان الجواب هو نفسه : لم يجىء هو نفسه ، لم يجىء احد ، ولا عادا هما بعد •• وكانت بطاقتى ماتزال على المنضدة • لم اعرف ماذا اعمل •

واتخذت سبيلى الى البيت ، فى ساعة متأخرة من المساء ، وقد استبد بى قلق خانق قاتل • كان يجب على ان اذهب أيضـــاً الى ناتاشا ، فقد استدعتنى اليها منذ الصباح • ولم اكن قد تناولت شيئاً من الطعام النهارَ كله • وكان التفكير فى نللى يعذبنى اشد العذاب •

تساءلت : ما معنى هذا ؟ أهو نتيجة لمرضها ؟ أهى مجنونة ، أو بسبيل ان تصبح مجنونة ؟ ولكن أين هى الآن يارب ، أين يمكن ان اجدها ؟ فما ان صرخت بهذا الكلام حتى لمحتها فجأة ، على خطوات منى، فوق جسر ف ••• كانت واقفه قرب فانوس ، ولم تلمحنى • فتساءلت دهشاً : « ما عساها تفعل هنا » • وقررت ، وأنا واثق من أنها لن تفلت منى ، قررت ان انتظر وان الاحظها • وانقضى على ذلك عشر دقائق •

لقد ظلت خلال ذلك واقفة في مكانها تنظر الى المارة • وأخيراً ظهر رجل عجوز قصير ، حسن الهندام ، فاقتربت نللي منه ، فأخرج من جيبه شيئا ، ومده اليها دون ان يتوقف فانحنت له تشكره • لا اســـتطيع ان أصف ما شعرت به في تلك اللحظة • لقد انقبض صدرى انقباضاً اليما • تراءى لى ان شيئاً كان عزيزاً على نفسى ، شيئاً كنت أحبه ، وأدلله ، وألاطفه ، واداعبه ، يتسخ في هذه اللحظة ، ويتلوث شرفه ، ولكن الدموع هطلت من عينى فى الوقت نفسه •

نعم ، بكيت على صغيرتى نللى ، رغم اننى شعرت فى الوقت نفسه باستياء شديد • انها لا تستجدى عن حاجة ، انها لم تقذف الى الشارع ، ولا هجرت • انها لم تهرب من اناس قســاة اضــطهدوها ، بل من بيت اصدقاء احبوها ودللوها • لكأنها كانت تريد بسلوكها ان تدهش وان تخيف • كان يبدو انها تريد ان تتحدى احداً • ألا ان شيئا خفياً عجيباً كان يتخمر فى نفسها • صدق العجوز • لقد أهينت ، ولم يمكن أن يلتئم جرحها ، فكانت تحاول ان تغطيه بهذه التصرفات العجيبة ، بهذا الشك فينا جميعاً ، وهذا الحذر منا جميعاً • كانت تتلذذ بهذا الالم ، كانت تتلذذ بأنانية العذاب هذه ، ان صح التعبير• اننى أفهم هذه الحاجة الى اذكاء هذا العذاب وهذه اللذة : ان هذا شأن كثير من المذلين المهانين الذين اضطهدهم القدر ووعوا ما أحاق بهم من ظلم • ولكن ما هو الظلم الذى اوقعناه نحن فى نللى ؟ لكأنها تريد ان تدهشنا وان تخيفنا بأعمالها ونزواتها وشذوذها الغريب ، زهواً وتباهياً • ولكن لا ، ليس الامر كذلك ! انها الآن وحيدة، وما من أحد منا يراها تستجدى • يستحيل ان تجد فى ذلك لذة ؟ لــماذا تطلب الصدقات ؟ ما حاجتها الى المال ؟

تركت نللى الجسر ، حين تلقت ذلك الدريهم ، واقتربت من نوافذ مخــزن من المخازن تضيئه أنوار ساطعة • وأخذت هنالك تعد غنائمهــا • وقفتُ على بعد عشر خطوات منها • كان فى يدها مبلغ • كان واضحاً

انها ظلت تستجدى طوال اليوم • وعادت فقبضت يدها ثم اجتازت الشارع، ودخلت الى احدى الدكاكين • فاسرعت واقتربت من الباب الذى كان مفتوحاً على مصراعيه ، واخذت اراقبها لارى ما عساها تصنع •

فرأيتها تناول البـــائع درهمها ، ورأيت البائع يخرج لها فنجاناً للشاى ، فنجاناً بسيطاً كالذى كسرته اليوم لتبرهن لنا ، انا واخمنيف ، على انها شريرة جدا • ان ثمن هذا الفنجان نحو من خمسة عشرة كوبيكاً، أو يقل ، لفه البائع لها بورقة وحزمه بخيط ، وقدمه اليها ، فأسرعت تخرج من الدكان وقد بدا على وجهها كثير من الرضا • فلما وصلت الى حيث كنت اقف صرخت بها :

ــ نللى !

فارتعشت ونظرت الىّ وافلت الفنجان من يديها فسقط على الأرض وانكسر • كانت شاحبة الوجه ، ولكنها حين نظرت الىّ وأدركت اننى رأيت كل شيء وعرفت كل شيء ، احمر وجهها فجأة • ان هذا الاحمرار يكشف عن شعور بالعار قوى اليم • فأمسكت بيدها ، وقدتها الى البيت • لم نبس اثناء الطريق بكلمة واحدة • فلما وصلنا ، جلست ، وظلت نللى واقفة امامى ، واجمة مضطربة • كان الشحوب قد عاد الى وجهها ، وكانت غاضة طرفها ، لا تقوى على النظر الى •

ــ نللى ، كنت تستجدين ؟

ــ نعم •

ــ هل لمتك على كسر الفنجان ؟ هل انبتك ؟هل تدركين ما فى عملك هذا من شر ، هل تدركين ما فيه من شر متكبر ؟ أحسن ما تفعلينه ؟ الا تشعرين بالعار ؟ الا ••

فدمدمت تقول بصوت لا يكادُ يسمع ، ودمعة تجرى على خدها :

ـ اشعر بالعار !

ـ تشعرين بالعار يا نللى ؟ نللى ، بنيتى الغالية ، اذا كنت قد أسأت اليك ، اذا كنت قد اذنبت فى حقك ، فاغفرى لى ، ولنتصالح !

نظرت نللى الى ، وتفجرت من عينها الدموع ، وألقت بوجهها على صدرى •

وفى هذه اللحظة دخلت الكسندرا سيمينوفنا كأنها الريح •

ـ آه •• رجعت ؟ مرة اخرى يا نللى ؟ ، نللى ، ماذا اصابك ؟ الحمدلله على انها رجعت على كل حال ! أين وجدتها يا ايفان بتروفتش ؟

فغمزت الكسندرا سيمينوفنا أطلب اليها أن لا تطرح علىّ هذه الاسئلة ،ففهمت عنى ما اريد • وودعت نللى وداعاً رقيقاً ، وكانت ما تزال تبكى بكاء مراً ، ورجوت الكسندرا سيمينوفنا الطيبة ان تبقى معها الى أن اعود • واسرعت اذهب الى ناتاشا • كنت قد تأخرت عنها ، فحثثت الخطى •

كان مصيرنا يقرر فى ذلك المساء ، كان هناك أشياء كثيرة يجب أن يقولها احدنا للآخر ، انا وناتاشا ، ومع ذلك حدثتها عن نللى ، وقصصت عليها كل ما حدث تفصيلا • فاهتمت ناتاشا بقصتى كثيراً ، بل تأثرت اشد التأثر ، وقالت لى بعد أن فكرت لحظة :

ـ يخيل الى يا فانيا أنها تحبك ؟

فأجبتها مدهوشاً ؟

ـ كيف ؟ ماذا ؟

ـ نعم ، هذا بداية حب ، حب امرأة •

ـ ماذا تقولين يا ناتاشا ؟ أنت تحلمين ؟ انها طفلة !

ـ طفلة سيكون عمرها بعد قليل أربعة عشر عاماً • ان هذا الحنق يرجع الى انك لا تفهم حبها ، والى انها ربما كانت لا تفهم هى ايضـــاً نفسها • لئن كان هياجها طفولياً من كثير من النواحى ، فانه مع ذلك هياج حاد قاس • انها تغار منى ، خاصة • انك من شدة حبك لى لا تكاد تحدثها الا عنى ، دون ان تلتفت اليها • وقد لاحظت هى ذلك ، فآذاها • لعلها تريد ان تكلمك ، لعلها تشعر بالحاجة الى ان تفتح لك قلبها ، ولكنها لا تعرف ، ولكنها تخجل ،وهى لا تفهم نفسها ، وهى تنتظر فرصة من الفرص ، وانت ، بدلاً من ان تعجل هذه الفرصة ، تبتعد ، وتهرب الى • حتى فى ايام مرضها كنت تتركها وحيدة اياما برمتها • انها لهذا تبكى : انها فى حاجة اليك ، وأنت لا تلاحظ ذلك ، وهذا ما يحز فى نفســـها اكثر من اى شىء آخر • أنظر : لقد تركتها وحدها حتى فى هذه اللحظة من اجلى أنا ، ستكون غداً مريضة بسبب ذلك • كيف امكنك ان تتركها وحدها ؟ ارجع اليها حالا ••

ـ ما كنت لأتركها لولا ••

ـ نعم انا استدعيتك ، والآن فاذهب •

ـ سأذهب ، ولكننى لا أصدق شيئاً مما قلته طبعاً •

ـ الأنها لا تشبه غيرها ؟ تذكر ماضيها ، فكر فى كل ذلك ، فتصدق ما قلته لك • لم تكن طفولتها كما كانت طفولتنا نحن ••

مع ذلك عدت فى ساعة متأخرة • فروت لى الكسندرا سيمينوفنا ان نللى قد بكت كثيراً ، وانها نامت وهى تبكى ، كما حدث فى المســـاء السابق •

ـ والآن يجب ان اذهب يا ايفان بتروفتش • لقد امرنى فيليب فيليبش بذلك • وهو ينتظرنى •

فشكرت لها صنيعها وجلست أسهر على نللى • لقد حــزّ فى نفسى اننى تركتها فى لحظة كهذه • وبقيت قربها الى ساعة متأخرة من الليل ، غارقا فى احلامى •• يالذلك العهد ما كان أشقاه !

ولكن يجب أن أقص ما قد جرى خلال هذه الايام الخمسة عشر •

الفصل الخامس

بعد تلك السهرة الخالدة التى قضيتها مع الأمير فى المطعم ، ظللت عدة أيام خائفاً على ناتاشا . « بم يهدِّدها هذا الأمير النذل ، وكيف سينتقم منها؟» هذا هو السؤال الذى كنت أطرحه على نفسى كل لحظة ، وأمضى أحدس وأظن وأخمن ... ثم انتهيت أخيرا الى الاعتقاد بأن هذه التهديدات ليست مزاحاً ولا فيشاً ، وأن الأمير يمكن أن يسبب لناتاشا كثيرا من المتاعب ما ظلت تعيش مع اليوشا . انه رجل حقير ، منتقم ، خبيث ، حيسوب . ويُستغرب من مثله أن ينسى اهانة ، وأن لا ينتهز فرصة من الفرص ليثأر .

على كل حال ، هناك نقطة من هذه النقط كلها حدثنى فيها صراحةً وهى انه يصر اصراراً حاسماً على القطيعة بين اليوشا وناتاشا ، وينتظر منى أن أهيىء ناتاشا لانفصال قريب ، فما يكون ثمة « مشاهد مثيرة ولا درامات شيلرية » . طبيعى ان همه الأول هو أن يظل اليوشا راضياً عنه ، وان يظل يعده أباً رءوفاً : انه فى حاجة الى هذا ، حتى يستطيع الاستيلاء بعد ذلك على ثروة كاتيا بأيسر الطرق . كان علىّ اذن أن أعد ناتاشا لقطيعة قريبة . وكنت قد لاحظت فيها تغيراً كبيراً . لم يبق فى سلوكها معى شىء من ذلك الانطلاق ، حتى لقد أصبح يبدو أنها ترتاب فىّ وتحذر منى . أصبح يزعجها ما أقوله لها من كلام على سبيل المواساة ، واصبحت تضيق ذرعاً بما أطرح عليها من أسئلة ، بل لقد اصبحت

أسئلتي تغضبها وتثير حنقها • كنت أظل جالساً انظر اليها وهي تذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، وقد شبكت ذراعيها ، وأطرقت برأسها ، وامتقع لونها ، وبدت كأنها غائبة ، كأنها نسيت أنني معها الى جانبها ، فاذا وقع نظرها عليّ (وكانت تتحاشى نظراتي) ظهر في وجهها شيء من الهياج ونفاذ الصبر ، وتحولت عني بسرعة • قدرت انها تفكر في خطة لنفسها من أجل القطيعة الوشيكة ، وهل يمكن أن تفكر في هذا دون ألم ودون مرارة ؟ كنت مقتنعاً بأنها قررت القطيعة • ولكن هذا اليأس المظلم كان يعذبني ويخيفني • حتى لقد كنت في بعض الأحيان لا أجرؤ أن أوجه اليها كلمة واحدة على سبيل المواساة ، وكنت انتظر الخاتمة مذعوراً •

وقد أقلقني موقف التعالي والفتور ، الذي وقفته مني ، ولكني كنت واثقاً من قلب صديقتي ناتاشا • كنت أرى أنها تتألم كثيراً ، وانها عزلاء تماماً • فكل تدخل من قبل شخص آخر لا يثير فيها الا الحقد والعداوة • والحق ان الانسان يزعجه في مثل هذه الاحوال تدخل احد من أصدقائه الخلص الواقفين على اسراره • ولكنني كنت أعلم حق العلم ان ناتاشا ستعود اليّ في الدقيقة الأخيرة تبحث في قلبي عما تنشده من عزاء وسلوى •

كتمت عنها حديثي مع الامير طبعاً : ولو قصصته عليها لما زادها الا اضطراباً وانهياراً • ولكنني ذكرت لها انني ذهبت مع الأمير الى الكونتيسة وأنني ايقنت ان هذا الأمير حقير حقارة رهيبة • فلم تسألني عن شيء بصدده ، وسرني منها ذلك • غير انها اصغت بشراهة الى كل ماورويته لها عن لقائي بكاتيا • فلما انتهيت من حديثي ، لم تضف شيئاً ، ولكن اصطبغ وجهها الشاحب بحمرة شديدة ، ثم ظلت مضطربة طوال اليوم كله تقريباً • لم اخف عنها شيئاً مما رأيته في كاتيا ، حتى لقد اعترفت لها صراحة بأن الفتاة قد خلفت في نفسي انا ايضاً اروع صورة • وفيم

الاخفاء ؟ لو قد أخفيت للاحظت ناتاشا انني أخفي عنهـا شيئاً ، ولزعلت مني • لذلك تعمدت ان اقص عليها كل شيء تفصـــيلا ، وحرصت على التنبؤ بجميع اسئلتها التي يسوءها ان تطرحها وهي في حالتها تلك • هل من السهل على فتاة ان تستخبر عن فضائل غريمتها هادئة البال ؟

وكنت اظن انها ماتزال تجهل ان اليوشا سيصحب الكونتيسة وكاتيا الى الريف ، نزولاً على أوامر ابيه ، وكنت اتســاءل قلقا كيف ابلغها النبأ على نحو يلطف الضربة اذا امكن التطليف • ولكن ما كان اشـــد دهشتي حين استوقفتني بعد بضع كلمات ،وقالت انه لا داعي الى مواساتها، فهي تعرف الامر منذ خمسة ايام ، فهتفت اسألها :

ـ من الذي انبأك بذلك ؟

ـ اليوشا !

ـ اليوشا ؟ قال لك ذلك ؟

ـ نعم • وانا مستعدة لكل شيء يا فانيا •

قالت ذلك ، وقد بدا على وجهها التململ وظهر انها تؤثر أن يقف الحديث هنا •

كان اليوشا يأتي الى ناتاشا احيانا كثيرة ، ولكنه لا يمكث عندها الا لحظة قصيرة • وفي مرة واحدة بقي معها بضع ساعات ، وكان ذلك في غيابي • كان يدخل اليها حزين الوجه ، وينظر اليها نظرة خجل رقيقة • ولكن ناتاشا كانت تظهر له من العاطفة ما ينسيه كل شيء فوراً ، فاذا هو يمرح ويضحك • وكان يأتي الى في كثير من الاحيان أيضا ، كل يوم تقريباً • كان يتألم ألمـاً صادقاً ، وكان لا يستطيع أن يخلو الى حزنه دقيقة واحدة ، فكان يأتي الى نشدانا للسلوى •

ماذا كنت اســـتطيع ان اقول له ؟ كان يلومني على فتوري نحوه ،

وعلى انني أضمر له العداوة . فكان يتفجع ويبكى ، ثم يذهب الى كاتيا فيجد في قربها عزاء .

ويوم ذكرت لى ناتاشا انها واقفة على أمر سفره (كان ذلك بعد حديثي مع الامير بأسبوع) ، هرع اليّ يائسا ، فعانقني ، والقى برأسه على صدرى ، واخذ يبكى منتحباً كأنه طفل . فسكت انتظر ما سيقوله . وبدأ يقول :

ــ انني رجل سيء فاسد يافانيا ، انقذني من نفسى . لست ابكى لأنني فاسد وسيء ، بل لأن ناتاشا ستشقى بسببى . انني اتركها لشقائها ... قل لى يا فانيا ، يا صاحبي ، قل لى : من منهما أحب اكثر من الاخرى: أكاتيا أم ناتاشا ؟

ــ لا استطيع ان اقطع برأى في هذا الموضوع يا اليوشا ، انت أدرى منى ...

ــ لا يا فانيا ، ليس الامر كذلك . لستُ من الغباوة بحيث اطرح مثل هذا السؤال . ولكن الواقع انني لا أعرف ... انني أسأل نفسى ، فما اجد جواباً . وانت ترى الامر من بُعد ، فقد تكون أدرى منى ... وهبك لا تعرف ... قل لى : ما الذى يتراءى لك ؟

ــ أظن أنك تحب كاتيا أكثر من ناتاشا ؟

ــ تظن ذلك ! لا ، لا ، هذا خطأ ، خطأ تماماً . انني احب ناتاشا حبا لا حدّ له . ولن أستطيع تركها يوماً . لقد قلت ذلك لكاتيا ، وهي توافقني على رأيى . لماذا لا تقول شيئاً ؟ لماذا تبتسم ؟ آه منك يافانيا، انك واسيتني يوماً حين كان يستبد بى الحزن كما يستبد بى فى هذه اللحظة .

وخرج مسرعاً ، وكانت نللى تسمع حديثنا صامتة ، فدهشت أشد

الدهشة من هذا الرجل العجيب .. كانت لاتزال يومئذ مريضـــة ، لم تبارح سريرها ، وكانت تتناول أدويتها . وكان اليوشا اذا جاء لا يخاطبها بكلمة ، ولا يكاد ينتبه اليها .

وعاد بعد ساعتين ، فدُهشت مما يشيع في وجهه من فرح ، وارتمى مرة اخرى على عنقى يقبلنى .

ـ انتهينا . انحلت مشكلاتنا كلها . لقد ذهبت الى ناتاشا رأسا حين خرجت من هنا . كنت محطماً ، لا أستطيع ان استغنى عن لقائها . فلما دخلت عليها ، ركعت امامها على ركبتي ، وقبلت قدميها : كنت فى حاجة الى تقبيل قدميها ، كنت اشتهى ان اقبل قدميها : ولو لم اقبل قدميها لمت حزناً . فقبلتنى ناتاشا دون ان تقول شـــيئاً ، واخذت تبكى . عندئذ صارحتها بلا لف ولا دوران بأننى احب كاتيا اكثر منها .

ـ وماذا قالت ؟

ـ لم تجب بشىء ، بل اخذت تلاطفنى وتواسينى .. انا الذى قلت لها ذلك الكـــلام .. انها تعرف كيف تواسى يا ايفان بتروفتش . آه يا فانيا ، شكوت لها كل ما اعانى من شقاء ، بسطت لها كل شىء .. قلت لها صراحة انى احب كاتيا كثيراً ، ولكننى مهما يكن حبى لكاتيا ، لا استطيع ان اعيش بدونها هى ، واننى اوثر ان اموت على أن أتركها . لذلك اتفقنا على ان نتزوج بلا ابطاء . ولما كان يستحيل علينا ان نتزوج قبل سفرى ، لاننا فى فترة الصوم الكبير ، والزواج حرام فى هذه الفترة، فقد أرجأنا ذلك الى حين أعود فى أوائل حزيران (يونيه) . ولاشك أن ابى سيوافق على زواجنا . اما كاتيا . ماذا تريد ؟ اننى لا استطيع ان اعيش بدون ناتاشا ! ثم نمضى نلحق بكاتيا ..

مسكينة ناتاشا ! لابد أنها قاست كثيراً من الألم لتواسى هذا الصبى ،

ولتعنى به ولتصغى الى اعترافه ، ولتتخيل خرافة الزواج تلك حرصا على طمأنينة ذلك الانانى الغرّ • وهدأ اليوشا حقاً خلال بضعة ايام • كان لا يسرع الى ناتاشا الا لأن قلبه الضعيف لا يقوى على احتمال الحزن وحيداً • ولكن ما ان اقتربت لحظة الفراق حتى عاد الى القلق والدموع ، وحتى استأنف مجيئه الىّ نادياً حظه متوجعاً من شقائه • لقد بلغ فى الايام الاخيرة من شدة التعلق بناتاشا انه كان يقول انه لا يستطيع ان يتركها يوماً واحداً فكيف بستة أسابيع • وظل من جهة اخرى مقتنعاً الى آخر لحظة بأنه لن يفارقها الا ستة اسابيع ، وان الزواج سيتم عند عودته• اما ناتاشا فقد ادركت كل الادراك ان مصيرها سيتغير ، وان اليوشا لن يعود اليها ابداً فى هذه المرة ، وان الامر يجب ان يكون كذلك •

وجاء يوم الفراق • كانت ناتاشا مريضة • كانت ، وقد شحب لونها ، والتهبت نظرتها ، وجفت شفتاها ، تتحدث الى نفسها تارة ، وتلقى علىّ نظرة حادة نافذة تارة اخرى • كانت لا تبكى ، ولا تجيب على اسئلتى • فلما دوى صوت اليوشا اخذت ترتعش ارتعاش ورقة فى مهب الريح • واحمر وجهها حتى صار بلون الارجوان ، ووثبت اليه ، فأخذ يعانقها عناقاً قوياً ، ويقبلها ، ويضحك •• كان ينعم النظر فيها ويسألها من حين الى حين عن صمتها ويواسيها بقوله ان غيابه لن يطول وان الزواج سيتم عند عودته • وكانت ناتاشا تبذل جهوداً واضحة من اجل ان تملك نفسها وتحبس دموعها ، فلم تبك امامه •

وقال لها فى لحظة من اللحظات انه سيترك لها مالاً يكفيها طوال مدة غيابه ، فما يجب ان تقلق لهذا الأمر ، لان اباه قد وعده بمبلغ ضخم للرحلة • فقطبت ناتاشا ما بين حاجبيها •

وكنت قد قلت لها حين كنا وحدنا ان هناك مئة وخمسين روبلاً وضعت معى تحت تصرفها للطوارىء • فلم تسألنى عن مصدر هذا المال•

كان ذلك قبل سفر اليوشا بيومين ، وقبل اللقاء الاول والاخير الذى تم بين ناتاشا وكاتيا ، بيوم واحد • كانت كاتيا قد حمَّلت اليوشا رسالة الى ناتاشا ترجوها فيها ان تسمح لها بزيارتها غداً ، كما كتبت الىَّ رسالة اخرى ترجونى فيها ان اشهد هذا اللقاء •

فقررت ان اذهب الى ناتاشا حتما عند الظهر (وهى الساعة التى حددتها كاتيا) رغم جميع العوائق ، وكانت هذه العوائق كثيرة : فهناك نللى وهناك العجوزان اخمنيف اللذان يسببان لى كثيراً من الهموم منذ بعض الوقت •

كانت قد بدأت هذه الهموم قبل اسبوع • استدعتنى آنا آندريفنا ذات صباح ، راجية ان ادع كل شيء وان أوافيها حالا ، لأمر خطير لا يحتمل أى ابطاء • فذهبت اليها ، فوجدتها وحدها تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً فى حمى من الاضطراب والقلق والخوف ، منتظرة عودة نيقولا سرجتش • وكالعادة ، لبثتُ مدة طويلة لا استطيع ان افهم منها الموضوع ولا ان اعرف ماتخشاه كل هذه الخشية ، رغم ان كل دقيقة كانت ثمينة • واخيراً ، بعد عتب عنيف ولوم شديد ، كقولها : « لماذا لا آتى اليهما ، لماذا اهجرهما يتيمين وحيدين مع الشقاء رغم ان هناك اشياء كثيرة تحدث فى غيابى ، لا يعلم بها الا الله ؟ » •• قالت لى ان نيقولا سرجتش كان منذ ثلاثة ايام فى « حالة من الاضطراب لا يمكن وصفها » ، واستطردت تقول :

ـ انك اذا رأيته أنكرته ولم تعرفه ، انه ينهض من فراشه فى الليل ، وهو فى غمرة الحمى ، فيركع أمام صورة العذراء ، ويأخذ يصلى وهو يهذى أثناء النوم ، ويكاد يكون فى اليقظة كالمجنون : أمس تعشينا حساءً ، فكان لا يهتدى الى ملعقته • تسأله عن شيء ، فيجيبك عن شيء آخر وهو يخرج من البيت فى كل لحظة ،مدعياً انه يخرج لبعض الاعمال،

وانه في حاجة الى مقابلة محاميه • واخيراً ، في هذا الصباح ، حبس نفسه في غرفته قائلاً ان عليه ان يحرر ورقة ضرورية للدعوى • « اية ورقة تستطيع ان تحرر وانت لا تهتدي الى ملعقتك قرب صـــحنك ؟ » ذلك ماقلته بيني وبين نفسي • وراقبته من ثقب الباب.: كان جالساً يكتب والدموع تتدفق من عينيه تدفق الماء من الينبوع • تساءلت: ماعسى أن تكون هذه الورقة ؟ أهو يتحسر على ضياع ارضه اخمينيفكا ؟ ذلك ان ارضنا قد ضاعت يا عزيزي • واني لافكر في هذا ، اذا هو ينهض فجأة ، ويرمي القلم • كان وجهه أحمر ، وكان في عينيه شرر وتنـاول قبعتـه ، وجاء الي يقول : « ســـأعود بعد قليل يا آنا آندريفنا • » وخرج • فمضيت رأســاً الى مكتبـه • كان هنـاك اكداس من الاوراق تتصــل بالدعوى ، ولا يسمح لي بلمسها • ما اكثر ما سبق أن قلت له « دعني ارتب لك هذه الاوراق مرة واحدة على الاقل حتى استطيع نفض الغبار » ، فكان يصرخ ويلوح بيديه • لقد أصبح في بطرسبرج نافد الصــبر كثير الصراخ • اقتربت من المكتب ، وبحثت عن الورقة التي كان يكتبها • كنت اعرف انه لم يأخذها معه ، فلقد دسها بين اوراق اخــرى حين نهض • واليك ما وجدته ، يا صديقي ، انظر قليلاً •

قالت ذلك ومدت الي ورقة من الاوراق التي تكتب عليها الرسائل، كانت الكتابة تملأ نصف الصفحة تقريباً ، ولكنها كانت من الامتلاء بالشطب بحيث ان بعض الفقرات لا تمكن قراءتها •

مســكين هذا العجـوز ! ان المرء يعرف منذ قراءة الاسطر الاولى الموضوع الذي تدور عليه الكتابة ، والشخص الذي توجه اليه الرسالة : انها رسالة الى ناتاشا ، الى حبيبته ناتاشا • انه يبدأ خطابه الى ابنته بلهجة حارة رقيقة ، يغفر لها ويعفو عنها ، ويدعوها ان تعود اليه • كان من الصعب ان تقرأ الرسالة كلها ، فقد كتبت بخط مضطرب مشوش متنافر

وشُطب كثير من كلماتها . ولكن القارىء يلاحظ ان العاطفة الدافقة التى املت عليه ان يمسك القلم وان يكتب الاسطر الاولى التى تفيض بالمحبة تتبدل فجأة . فاذا العجوز يمضى يقرع ابنته ويصف لها فداحة جريمتها ، ويذكرها بعنادها مستاءً مستنكراً ، ويتهمها بأنها ليس لها قلب وبأنها لعلها لم تفكر مرة واحدة فيما صنعته بأبويها ، ويهددها بالعقاب واللعن الى الابد جزاء كبريائها وصلفها . ويختم رسالته بقوله ان عليها ان تعود الى البيت خاضعة طائعة ، حتى اذا « رجعت الى اسرتها » فعاشت بين احضانها حياة جديدة مستسلمة كان يمكن ان يفكرا عندئذ فى العفو عنها . كان واضحاً انه بعد ان كتب بضعة اسطر عدّ عاطفته السمحة الكريمة الاولى ضعفاً ، فخجل من هذا الضعف وشعر بما يشعر به المهان من غضب الكبرياء ، ثم انتهى الى الحنق والسخط والتهديد . كانت العجوز واقفة امامى وقد كتفت ذراعيها تنتظر على قلق ما سأقوله بعد قراءة الرسالة .

فقلت لها ما أراه صراحة ، وهو ان العجوز اصبح لا يقوى على ان يعيش بدون ناتاشا واننا نستطيع ان نعتقد جازمين بان الصلح القريب اصبح امراً لا بد منه . ولكن كل شىء رهن بالظروف . قلت لها ان خسران القضية قد هزّ العجوز وصعقه، عدا مالحقه من اذى فى كرامته من انتصار الامير عليه ، وعدا ما اثاره فيه مثل ذلك الحل من استياء واستنكار. والنفس فى مثل هذه اللحظات تبحث عن مظاهر العطف بحثاً لا سبيل الى قهره . فعندئذ تذكّر العجوز اكثر من اى وقت مضى تلك التى يحبها حباً فوق كل حب . ومن الممكن ايضاً (ما دام واقفاً على ما يحدث هنالك عند ناتاشا) ان يكون قد سمع ان اليوشا سيهجر ابنته قريباً فقدّر ماتقاسيه من آلام فى هذه اللحظة وعرف مدى حاجتها الى المواساة . ولكنه لم يستطع ان يسيطر على نفسه ، لانه يرى ان ابنته قد اهانته واذلته . ولعله

تقدر انها لن تكون البادئة بالمجيء اليه ، وانها ربما كانت لا تفكر فيه اصلاً ، ولا تشعر بالحاجة الى الصلح ، لذلك كله لم يتم رسالته . ومن يدرى ؟ فلقد تخرج من هذا كله اهانات جديدة يحسها العجوز اقوى من احساسه بالاهانات الاولى ، فاذا الصلح يرجأ مدة طويلة ايضاً .

كانت العجوز تصغى الىّ باكية . فلما قلت لها ان علىّ ان اذهب حقاً الى ناتاشا واننى تأخرت عنها هزّت رأسها وقالت : انها نسيت الشيء الاساسى .. فانها حين اخرجت الرسالة من بين اكداس الاوراق ، قلبت دواة الحبر من قلة الاحتياط والحذر . وقد لاحظتُ فعلاً ان ركناً بكامله من ورقة الرسالة كان اسود من اندلاق الحبر عليه . كانت آنا آندريفنا تخشى خشية رهيبة ان يفطن العجوز الى ان اوراقه قد نُبشت اثناء غيابه ، والى ان امرأته قد قرأت رسالته الى ناتاشا . ولقد كان خوفها فى محله ، اذ يكفى ان يعرف العجوز اننا وقفنا على سره حتى يضاعف حفيظته على ناتاشا خجلاً وحنقاً ، وحتى يصر على ان لا يعفو عنها كبرياء وصلفاً .

ولكننى بعد ان فكرت فى الامر اقنعت العجوز بان لا تقلق ، فان زوجها حين كتب رسالته كان فى حالة من الاضطراب لا يستطيع معها أن يتذكر جميع التفاصيل . فقد يظن انه هو الذى لطّخ الورقة ونسى ذلك الآن . فلما طمأنتها بهذه الطريقة قمنا كلانا فأعدنا الرسالة الى مكانها فى كثير من الاحتياط والحذر . وحين هممت ان اذهب بدا لى ان احدث العجوز فى امر نللى . كان يتراءى لى ان اليتيمة المسكينة المهجورة التى كان جدها قد لعن أمها هى الأخرى يمكن ان تؤثر فى قلب العجوز بقصة حياتها الحزينة الاليمة ، وأن تحرك فيه عاطفة الكرم والسماحة . لقد كان قلبه مهيأ لهذا ، فان الحزن الذى يسببه له غياب ابنته قد اخذ يتغلب على صلفه ، واخذ ينتصر على كبريائه الجريحة . وليس يعوزه الآن الا اندفاعة واحدة - الا فرصة مواتية - وهذه هى الفرصة المواتية يمكن ان

تأتي بها نللي • قلت ذلك للعجوز فكانت تصغي الى كلامي باهتمام كبير ، وانتعش وجهها بالامل والحماسة • ثم راحت تلومني على اني لم اذكر لها ذلك منذ مدة طويلة • واخذت تسألني عن نللي السؤال تلو السؤال • وختمت كلامها بأن قطعت على نفسها عهداً أن تتولى هي نفسها مطالبة زوجها بضمّ الطفلة اليهما • لقد كانت تحب نللي حباً صادقاً ، وكان يحزنها ان نللي مريضة وكانت تسألني عنها • حتى انها في ذات مرة حملتني اليها آنية مملوءة بمربب الفاكهة أسرعت تأتي بها من دولاب الطعام •• كما جاءتني بخمسة روبلات فضية لانها قدرت انني قد لا املك ما ادفعه اجراً للطبيب ، فلما رفضتُ ذلك غضبت غضباً شديداً ، ولم تهدأ بعض الهدوء الا حين علمت ان نللي في حاجة الى ملابس داخلية وانها تستطيع اذن ان تخدمها بطريقة اخرى ، فأسرعت الى صندوقها تنفض اثوابها واحداً واحداً لتنتقي منها ما يمكن ان تقدمه لليتيمة •

ذهبت الى ناتاشا • فلما كنت اصعد سلم الدور الاخير الذي كان سلماً حلزونياً كما ذكرت ذلك من قبل ، لمحت امام الباب رجلاً كان يهم أن يطرقه ولكنه أحجم حين سمع وقع خطواتي • وأخيراً ، ربما بعد لحظة من تردد ، عدل عن طرق الباب وقفل راجعاً . التقيت به عند الدرجة الاخيرة ، فما كان اشد دهشتي حين نظرت اليه فاذا هو الخنيف• ان السلم مظلم حتى عند الظهيرة • لطا الرجل بالحائط كي يتيح لي ان امرّ • ما ازال اذكر البريق الغريب الذي كان في عينيه وهو يحدق فيّ بالحاح ! وخيل اليّ أن وجهه اصطبغ بالحمرة ، وقد بدا عليه كثير من الاضطراب والحيرة على كل حال • قال بصوت متعثر :

ـ ها •• هذا انت يا فانيا ؟ لقد جئت الى هنا لمقابلة كاتب من كتاب العرائض من اجل القضية نفسها •• سكن هنا منذ مدة قريبة ، ولكن اظن في غير هذه العمارة • لقد اخطأت • الى اللقاء ••

وهبط السلم بسرعة •

قررت ان لا اذكر شيئاً لناتاشا عن هذا اللقاء الآن ، على ان اتحدث اليها عنه متى سافر اليوشا وبقيت وحدها • انها الآن مهدمة ، فهبها فهمت كل ما يشتمل عليه هذا الحادث من معنى فانها لن تستطيع ان تستقبله وان تحسّه كما يمكن ان تستقبله وان تحسّه متى تغلبت على حزنها ويأسها• ليس هذا الحين حينَ التحدث فى ذلك •

كان يمكنني ان اعود الى اخنيف بعد خروجي من عند ناتاشا • وكنت ارغب فى ذلك رغبة شديدة • ولكن بدا لى ان العجوز قد يسوءه ان يرانى ، حتى لقد يظن انني اسرعت اليه عامداً على اثر لقائنا اليوم • لذلك لم اذهب اليهما الا بعد غد • فرأيت العجوز حزينا ، ولكنه استقبلنى استقبالاً سهلاً ، ولم يتحدث اليَّ الا فى شئون اعماله • سألنى فجأة :

ــ قل لي اين كنت ذاهباً ذلك اليوم ؟ يوم التقينا ، ألا تتذكر ؟ متى كان ذلك يا ترى ؟ كان ذلك اول امس فيما اعتقد ، أليس كذلك ؟

قال هذا بلهجة من يصطنع عدم المبالاة ، ولكنه حوّل نظره عنى ، فأجبته وانا احول نظرى عنه ايضاً :

ــ كنت ذاهباً الى صديق يقطن فى ذلك البيت •

ــ ها ••• وانا كنت ذاهباً الى واحد من كتاب العرائض يقال له آستافيف • ذكروا لى انه يسكن ذلك البيت ، ولكننى اخطأت • كنت أحدثك عن الدعوى : نعم •• لقد قرروا فى مجلس الشيوخ •• الخ الخ

واحمر وجهه حين استأنف الكلام على قضيته •

قصصت فى ذلك اليوم كل شيء على آنا آندريفنا لادخل السرور الى قلبها • ولكنني توسلت اليها ان لا تنظر اليه نظرة خاصة وان لا تشير اية اشارة من شأنها ان تشعره بانها واقفة على محاولته الاخيرة مهما يكن

الامر • وقد بلغت من الدهشه والفرح انها لم تصدقنى فى اول الامر • وذكرت لى من جهتها انها اشارت الى موضـوع نللي • ولكنه ظل صامتاً لا يجيب بشيء ، مع انه هو الذى كان يصر فى الماضى على ضم الطفـلة الى البيت • وقررنا ان نطرح عليه السـؤال فى غـد واضحاً بلا مقدمات ولا مداورات ، ولكننا اصبحنا فى الغد على حالة رهيبة من القلق •

ذلك ان اخمنيف التقى فى الصـباح بموظف كان يعنى بقضيته ، فأخبره هذا الموظف بأنه التقي بالامير واعلمه انه على احتفاظه باخمينيفكا قد قرر بسبب بعض الظروف العـائلية ان يعوض العجـوز برد العشرة آلاف روبل اليه • فلما سـمع العجوز هذا الكلام جن جنـونه اضطراباً وجاء الىّ فوراً : كانت عيناه تلتمعان بشرر من الحنق • قادنى الى السلم، لا يعلم الا الله لماذا ، وأمرنى أن أذهب حالاً الى الأمير وأن ادعوه الى مبارزته • فبلغت من الانشداه اننى لم أستطع ان اجمع شتات افكارى • وحاولت ان ارده الى صوابه، ولكنه كان فى طور من الهياج لا يجدى فيه كلام ، حتى ان صحته كانت من ذلك فى حالة سيئة ، فأسرعت اجيئه بكأس من الماء ، فلما عدت لم اجده •

وذهبت اليه فى الغد ، ولكنه كان قد خرج • ثم اختفى مدة ثلاثة أيام •

ولم نعرف الامر كله الا بعد غد • لقد هرع العجوز من عندى الى بيت الامير ، فلم يجده ، فترك له بطاقة يذكر فيها ان الموظف قد نقل اليه كلامه ، وانه يعد هذا الكلام اهانة قاتلة ، وانه يعد الامير رجلاً جباناً ، وانه لهذا كله يدعوه الى منازلته ، وانه ينصحه بأن لا يرفض هذه الدعوة ، اذا كان لا يريد ان يتلطخ شرفه امام الناس •

وذكرت لى آنا آندريفنـا انه حين عاد كان فى حالة شـديدة من الاضطراب والاختلاط والتشوش ، فكان لا بد ان يرقد فى سريره • قالت

العجوز : وقد اظهر لى كثيراً من العطف ، ولكنه لم يكن يجيب على اسئلتى • كان واضحاً انه ينتظر شيئاً من الاشياء بصبر نافد محموم • وفى صباح غد ، وصلت اليه رسالة بالبريد • فلما قرأها صرخ صرخة مدوية وأمسك رأسه بيديه • وذعرت آنا آندريفنا • وما لبث العجوز ان تناول قبعته ، وحمل عصاه ، وخرج مسرعاً •

كانت الرسالة من الامير ، وفيها ينهى الى اخمنيف ، بعبارات جافة موجزة مهذبة ، أنه غير ملزم بأن يشرح لأحد ما قاله للموظف ؟ وأنه ، على كونه يرثى لحال اخمنيف من خسران القضية ، يؤسفه انه لا يستطيع ان يرى ان من حق الخاسر ان يدعو خصمه للمبارزة انتقاماً • اما مايهدده به من « تلطخ شرفه » امام الناس ، فهو يرجوه ان لا يقلقه ذلك ، اذ لن يلطخ شرفه امام الناس ، ولا يمكن ان يقع شىء من ذلك ، وانه سيسلم رسالته فوراً الى المراجع المختصة ، وان الشرطة المكلفة بحماية الامن ستتخذ التدابير اللازمة محافظةً على النظام •

هرع اخمنيف فوراً الى الامير ، وهو يحمل الرسالة بيده ، فلم يجده فى بيته ، ولكنه علم من خادمه ان الامير لابد ان يكون الآن عند الكونت ن ، فمضى العجوز الى الكونت دون ان يفكر فى الامر • فاستوقفه البواب بينما كان يجتاز السلم ، فلم يتورع العجوز عن ضربه بعصاه من شدة الغضب ، فألقى القبض عليه فوراً ، وجُر جراً الى القسم ، واقتيد من هناك الى مفوض الشرطة • وأبلغ الكونت النبأ ، وكان الامير عنده ، فشرح الامير للعجوز الفاسق ان اخمنيف المقبوض عليه هو اخمنيف نفسه ابو ناتاليا نيقولايفنا (لقد سبق للامير غير مرة ان قدم خدمات من هذا النوع للكونت) ، فلم يزد هذا السيد العظيم على ان ضحك ، فانتقل من سورة الغضب الى الشعور بالرأفة ، وامر باطلاق سراح اخمنيف ،

ولكنهم لم يطلقوا سراحه الا بعد يومين قائلين له (ولا شك ان ذلك كان بأمر الامير) ان الامير نفسه هو الذى تشفع له عند الكونت •

عاد العجوز الى بيته كالمجنون ، فارتمى على سريره ، ومكث راقداً ســـاعة بكاملها لا يقوم بأية حركة ، ثم نهض ، واتجه الى آنا آندريفنا المذعورة ، فأعلن لها رافعاً رأسه انه يلعن ابنته الى الابد ، وينزع عنها بركته الأبوية •

كانت آنا آندريفنا مرتاعة أشد الارتياع ، وكان لابد من مســاعدة العجوز : وقد ظلت النهارَ كله والليل كله تحيطه بانواع الرعاية والعناية، على غير وعى تقريباً ، تبلل صــدغيه بالخل ، وتضــع على جبينه كمادات الثلج • لقد كان فى حمى شديدة ، وكان يهذى • ولم اتركها الا عند الساعة الثالثة من الصباح • ومع ذلك نهض اخمنيف فى الضحى ، وجاء الىّ يطلب نللى • سبق أن قصصت ما دار بينـــه وبين نللى ، وذكرت أن هذا الذى دار بينه وبينها قد حطمــه تحطيماً ، فلما عاد الى بيته رقد فى سريره • حدث هذا كله يوم الجمعة المقدسة ، وهو اليوم الذى ضُرب موعداً للقاء كاتيا وناتاشا ، قبل سفر أليوشا بيوم واحد • وقد حضرت ذلك اللقاء الذى تم فى ساعة مبكرة من الصباح ، قبل وصول العجوز الىّ، وقبل هرب نللى أول مرة •

الفصل السادس

وصل اليوشا قبل كاتيا بساعة ، ليبلغ ناتاشا ان كاتيـــا قادمة • أما أنا فوصلت لحظة كانت عربة كاتيـا تقف أمام الباب• كانت كاتيا مع وصيفتهاالفرنسية العجوز التى وافقت بعد كثـــير من التضرع من جانب كاتيا وبعد كثير من التردد من جانبها هي ، على آن تصحب كاتيا الى بيت ناتاشا ، وعلى أن تتركها عندها ، بشرط أن يتم ذلك بحضور أليوشا• نادتنى كاتيا ، ورجتنى ، دون آن تنزل من عربتها ، أن أدعو اليها أليوشا• فصعدت فوجدت ناتاشا تبكى ، ووجدت آليوشا يبكى هو أيضـاً • فلما علمت ناتاشا أن كاتيا وصلت ، نهضت وجففت دموعهـــا ، ثم وقفت أمام الباب مضطربة أشد الاضطراب • كانت فى ذلك الصـــباح ترتدى ثوبا أبيض ، وقد صقلت شعرها الكستنائى وربطته عند النقرة بعقدة كبيرة • كنت أحب هذه التسريحة كثيرا • وحين رأت ناتاشـــا اننى بقيت معها ، رجتنى أن أنزل أنا للقاء الضيوف •

قالت كاتيا ، وهى تصعد السلم :

ـ لم أسـتطع أن أجىء قبـل الآن • كانوا يتجسســون علىّ بغـير انقطاع ، هذا شىء فظيع • ظللت اداور مدام ألبير خمسة عشر يوماً حتى قبلت • وانت يا ايفان بتروفتش ، لم تزرنى مرة واحدة طوال هذه المدة ! كنت من جهتى لا استطيع ان اكتب اليك ، وكنت لا أريد أيضاً ان اكتب

اليك ، لان المرء لا يستطيع ان يفصح بالرسائل عن شيء • ولقد كنت في حاجة شديدة الى رؤيتك • ما لقلبي يدق ! ••

ـ السلم متعب

ـ نعم ، ربما كان السلم سبباً أيضا •• ولكن ما رأيك ؟ ألن تحنق على ناتاشا؟

ـ لماذا تحنق عليك ؟

ـ صحيح ، لماذا تحنق علي ؟ سنرى على كل حال •• فلا حاجة الى هذا السؤال ••

ومددت اليها ذراعي • كانت شاحبة جداً ، كأنها خائفة • ووقفت عند المنعطف الاخير تتنفس ، ولكنها القت علي نظرة ، ثم اخذت تصعد بخطى حازمة •

وتوقفت مرة اخيرة عند الباب ، فقالت لي هامسة :

ـ سأدخل ببساطة ، وسأقول لها ان لي من ثقتي بها ما جعلني اجيء اليها بلا خوف •• ولكن فيم اقول هذا الكلام ؟ انني على يقين من ان ناتاشا انبل مخلوقة على وجه الارض • أليس هذا صحيحاً ؟

قالت ذلك ثم دخلت خجلى ، كأنها مجرمة ، وألقت على ناتاشا نظرة نافذة ، فابتسمت لها ناتاشا ،فتقدمت عندئذ نحوها بحرارة ، وامسكت يديها ، وأطبقت شفتيها النضرتين على شفتي ناتاشا • وقبل ان تقول لناتاشا كلمة واحدة ، التفتت نحو اليوشا عابسة ،ورجته ان يتركنا وحدنا نصف ساعة • ثم أضافت تقول :

ـ لا تزعل يا أليوشا •• سأتحدث مع ناتاشا في أمور خطيرة يجب ان لا تسمعها • كن عاقلاً ، ودعنا وحدنا • اما انت يا ايفان بتروفتش فابق معنا • يجب ان تسمع حديثنا كله •

وقالت لناتاشا حين خرج أليوشا :

ـ فلنجلس • سأجلس هنا أمامك • يجب أولا أن أنظر اليك •

قالت ذلك وجلست امام ناتاشا وانعمت النظر اليها خلال لحظات •

كانت ناتاشا تبتسم ابتسامة مكرهة •

قالت كاتيا :

ـ سبق ان رأيت صورتك •• ارانيها اليوشا •

ـ فهل اشبه صورتى ؟

ـ بل انت اجمل منها ، وكنت اقدر ان تكونى اجمل منها •

قالت ذلك بلهجة جادة جازمة •

ـ صحيح ؟ ما اجملك انت !

ـ ماذا تقولين ؟ أنا ••

قالت ذلك ، ثم اضافت وهى تمسك يد ناتاشا :

ـ صديقتى ! ••

وصمتتا كلتاهما مرة أخرى ، تنظر كل منهما فى صاحبتها •

واستأنفت كاتيا تقول :

ـ اسمعى يا ملاكى ، ليس امامنا الا نصف ساعة نقضيها معاً ، بل ان مدام ألبير لم توافق على هذه المدة الا فى كثير من العناء • وهناك اشياء كثيرة يجب ان نقولها •• اريد •• يجب •• سأسألك بكل بساطة هذا السؤال : انت تحبين اليوشا كثيراً ، أليس كذلك ؟

ـ نعم كثيراً •

ـ اذا كان الامر كذلك ، اذا كنت تحبينه كثيراً ، فيجب ان تريدى له السعادة ••

قالت كاتيا ذلك خجلى بصوت منخفض • فأجابتها ناتاشا :

ـ نعم اننى اتمنى له السعادة •

ـ نعم •• ولكن هذا هو السؤال : هل احقق انا له السعادة ؟ اذا كنت ترين ، وهذا ما سنبت فيه الآن ، انك تسعدينه اكثر مني ••

أجابت ناتاشا بصوت خافت وهى تطرق برأسها :

ـ لقد ُبتّ فى الموضوع وانتهى الامر •• انك لترين انت نفسك ان قد ُبتّ فى الموضوع •

كان واضحاً ان متابعة هذا الحديث تشق كثيراً على ناتاشا •

لاشك ان كاتيا كانت تنتظر مناقشة طويلة حول المسـألة التالية : أيتهما تضمن السعادة لأليوشا أكثر من الأخرى ، وأيتهما ينبغى لها تبعاً لذلك ان تضحى بنفسها ؟ ولكنها فهمت بعد جواب ناتاشا ان الامر قد بت فيه منذ مدة طويلة ، وان الكلام فى هذا الموضوع لا طائل تحته بعد الآن فأخذت تتأمل ناتاشا حزينـة حيرى ، وظلت ممسـكة بيدها ، وشـفتاها الجميلتان فاغرتان •

سألتها ناتاشا فجأة :

ـ وانت ، هل تحبينه كثيراً ؟

ـ نعم • كنت أريد أن أسألك أيضاً ، ومن أجل هذا جئت : لماذا تحبينه ؟

فأجابت ناتاشا بلهجة يحس فيها المرء نوعاً مراً من نفاد الصبر :

ـ لا ادرى •

ـ هل تجدينه ذكيا ؟

ـ لا ، اننى احبه هكذا ، احبه وكفى •

ـ وانا ايضاً ، انني اشفق عليه .

ـ انا ايضاً .

هتفت كاتيا :

ـ وما العمل الآن ؟ كيف امكنه ان يتركك من اجلي ؟ انني لا افهم ذلك بعد ان رأيتك !

لم تجب ناتاشا ، وكانت ماتزال مطرقة الى الارض . وصمتت كاتيا، ثم نهضت فجأة ، ولفت ناتاشا بذراعيها دون ان تقول كلمة واحدة . واخذت الاثنتان تبكيان ، وقد تشبثت احداهما بالاخرى . وجلست كاتيا على ذراع المقعد الذي تجلس عليه ناتاشا ، وهي تشد ناتاشا الى صدرها ، واخذت تقبل يديها ، وقالت وهي تبكي :

ـ ليتك تعلمين كم احبك ياناتاشا.. لسوف نكون اختين ، ولسوف نتراسل .. سأظل احبك الى الابد ، سأحبك كثيراً ، كثيراً .

فسألتها ناتاشا :

ـ هل حدثك عن زواجنا في شهر حزيران (يونيه) ؟

ـ نعم ، وقال انك موافقة . كان ذلك لمواساته ، أليس كذلك ؟

ـ طبعاً .

ـ لقد فهمت ذلك . سأحبه كثيراً يا ناتاشا . وسأكتب اليك عن كل شيء . لا شك انه سيكون قريباً زوجي ، فنحن سائران في هذا الطريق. وانهم ليقولون ذلك جميعاً . عزيزتي ناتاشا ، والآن ستعودين الى بيت اهلك ، أليس كذلك ؟

فلم تجبها ناتاشا ، ولكنها قبلتها بحرارة دون أن تقول كلمة ، ثم قالت :

ـ أتمنى لك السعادة !

ـ وأنا أتمنى لك السعادة •

وفى هذه اللحظة فُتح الباب ، ودخل اليوشا • انه لم يستطع أن ينتظر نصف ساعة • فلما رآهما متعانقتين تبكيان ، ركع على ركبتيه أمام المرأتين الشابتين مهدود القوى يبكى ، فقالت له ناتاشا :

ـ لماذا تبكى ؟ ألأنك تفارقنى ؟ ولكن فراقنا لن يطول ، وستعود فى شهر حزيران •

وأسرعت كاتيا تقول من خلال دموعها لتواسى اليوشا :

ـ وستتزوجان •

ـ ولكننى لا أستطيع ••• لا أستطيع أن أتركك يوماً واحداً يا ناتاشا • بدونك أموت •• أنت لا تعرفين كم أحبك الآن ياناتاشا ، الآن خاصة !

فقالت له ناتاشا :

ـ اذن اسمع ما تصنعه يا اليوشا : لا شك أن الكونتيسة ستتوقف بعض الوقت فى موسكو ، أليس كذلك ؟

فقالت كاتيا تؤيد كلامها :

ـ نعم ثمانية أيام •

ـ ثمانية أيام • عظيم : تصحبها غداً الى موسكو ، ولن يستغرق هذا الا يوماً واحداً ، ومن هناك تعود الى هنا فوراً • حتى اذا قررتا مغادرة موسكو لحقت بهما ، على أن تعود بعد شهر •

فهتفت كاتيا بحماسة ، وهى تتبادل وناتاشا نظرة مثقلة بالمعانى :

ـ نعم ، وبذلك تقضيان معاً عدداً آخر من الأيام •

لا أستطيع أن أصف الحماسة التى تأججت فى أليوشا عند سماع هذا الاقتراح • لقد هدأت نفسه فجأة ، وأشرق وجهه بالفرح ، وقبَّل ناتاشا ، وقبل يد كاتيا ، ثم قبلتى • كانت ناتاشا تنظر اليه وهى تبتسم ابتسامة مُرة ، أما كاتيا فلم تستطع أن تحتمل ، فرشقتنى بنظرة ملتمعة ، وقبلت ناتاشا ، ونهضت لتذهب • وفى هذه اللحظة نفسها دخل خادم يقول على لسان المربية الفرنسية ان نصف الساعة قد انقضى ، فهى لذلك ترجو انهاء المقابلة •

نهضت ناتاشا • ووقفت كل منهما أمام الاخرى ، كأنهما تريدان أن تتناقلا بالنظرات كل ما تجمع فى القلب :

ـ لن نلتقى بعد اليوم أبداً يا ناتاشا •

ـ نعم لن نلتقى أبداً يا كاتيا •

ـ وداعاً اذن يا ناتاشا •

وتعانقتا وقبلت كل منهما الأخرى •• وقالت كاتيا بصوت منخفض جداً :

ـ لا تلعنينى يا ناتاشا •• وانا •• الى الأبد •• ثقى .. بأنه سيكون سعيداً ..

ثم قالت لأليوشا بسرعة وهى تتناول ذراعه :

ـ هيا بنا يا أليوشا ، أنزلنى •

فلما خرجت قالت لى ناتاشا وقد هدَّها الانفعال والتعب :

ـ فانيا ، اذهب معهما •• و •• لا تعد • سيبقى اليوشا معى حتى الساعة الثامنة ، وبعدها يذهب • وسأبقى وحدى •• تعال فى نحو الساعة التاسعة ، أرجوك !

وحين وصلت الى ناتاشا فى الساعة التاسعة (بعد حادثة كسر الفنجان) تاركاً نللى مع الكسندرا سيمينوفنا ، كانت ناتاشا وحدها ، وكانت تنتظرنى بصبر ذاهب • وحملت مافرا الينا السماور ، فصبت لى ناتاشا الشاى ، وجلستْ على الأريكة ، وأجلستنى قربها •

قالت وهى تحدق فىَّ (لن أنسى نظرتها تلك ما حييت) :

ـ انتهى كل شىء • انتهى حبنا •

ثم أضافت وهى تشد على يدى بيدها الملتهبة :

ـ فى ستة أشهر ، والى الابد ••

فنصحت لها بأن ترتدى ثياباً دافئة وأن تنام •

ـ سأفعل ذلك حالاً ، يا فانيا ، حالاً ، يا صديقى الطيب • ولكن دعنى الآن أتكلم ، دعنى أتذكر قليلاً •• اننى الآن كالمحطمة •• غداً ، فى الساعة العاشرة ، سأراه آخر مرة •• آخر مرة •

ـ ناتاشا ، ان بك حمى ••• وستنتابك الرعدة بعد قليل • دارى نفسك ••

ـ ماذا تقول يا فانيا ؟ اننى انتظرك منذ نصف ساعة ، منذ ذهب • هل تعرف فى أى موضوع كنت أفكر خلال هذه المدة ، هل تعرف عن أى شىء كنت أتساءل ؟ كنت أسأل نفسى هل أحببته أولا ، وماذا كان هذا الحب ! قد ترى من المضحك أننى لم أطرح على نفسى هذا السؤال الا الآن !

ـ هدئى نفسك يا ناتاشا •

ـ هل تعرف يا فانيا ؟ لقد أدركت أننى لم أكن أحبه حب الندّ للندّ ، كما تحب امرأة رجلاً فى العادة • لقد أحببته•• تقريباً كما تحب أم ابنها • ويخيل الىَّ انه ليس على وجه الأرض حب بين ندّين • ما رأيك فى هذا ؟

نظرت اليها قلقاً ، وأنا أخشى أن تكون قد انتابتها نوبة شديدة من الحمى . كان يبدو أنها فقدت سلطانها على نفسها : كانت تشعر بحاجة الى الكلام ، فكانت تقول من حين الى حين كلاماً لا روابط تربطه ، بل كانت تقول فى بعض الاحيان كلاماً لا تحسن النطق به . وشعرت أنا بكثير من الغم والقلق . وتابعت ناتاشا تقول :

ـ لقد كان لى . اننى منذ لقيتــه أول مرة تقريباً ، شــعرت بحاجة لا تقاوم الى أن يكون لى ، الى أن لا يرى أحداً غيرى ، الى أن لا يعرف أحداً غيرى ، غيرى أنا ...

ان كاتيا على حق فى رأيها : كنت أحبه حبَّ اشفاق عليه .. كنت دائماً اتمنى بعنف وحرارة ان يكون سعيداً كل السَّعادة الى الابد (كان هذا ما يعذبنى حين ابقى وحدى) . لم استطع فى حياتى يوماً ان انظر الى وجهه بهدوء وطمأنينة (انت تعرف تعبير وجهه) : لا يمكن لأحــد أن يكون له هذا التعبير فى الوجه .. وكنت اذا ضحك اتجمد ، وارتعش.. نعم ! ..

ـ اسمعى يا ناتاشا ...

ـ كانوا يقولون ، وكنت انت تقول ايضاً ، انه لا ارادة له ... وان عقله ليس انمى من عقل طفل .. نعم ، وهذا بعينه هو ما كنت احبه فيه ، هل تصدق ذلك ؟ ولكننى لا ادرى هل كنت احب فيه هذا وحده ... لقد كنت احبه كله وكفى .. ولو قد اختلف قليلاً عمَّا كان ، لو قد كان ذا ارادة وذا ذكاء اذن لكان يمكن ان لا احبه ذلك الحب كله . سأعترف لك بشىء يا فانيا : انك تذكر اننا تشاجرنا مرة منذ ثلاثة اشهر حين كان يختلف الى تلك المرأة ، ماذا كان اسمها ؟ نعم الى تلك المرأة التى كان اسمها مينا .. كنت اعرف أنه يذهب اليها ، فقد كلفت احداً بمراقبته ، وكنت اتألم ألماً رهيباً لا يُطاق .. ولكننى فى الوقت نفسه كنت اشــعر

بشيء من السرور •• لا ادرى لماذا ؟ كنت اذا تصورت أنه يستمتع •• لا •• لا •• ليس هذا هو الامر •• كنت اذا تصورت انه يغازل البنات هو ايضاً ، وانه ذهب الى مينا ، كشاب كبير مع غيره من الشباب الكبار ، اشعر بلذة عظيمة • آه ما كان اشد سروری بتلك المشاجرة ، وبالعفو عنه بعد ذلك • يا حبيبى يا اليوشا !

قالت ناتاشا ذلك ونظرت الىّ وجهاً لوجه ، وضحكت ضحكة غريبة ، ثم راحت تفكر •• كان يبدو انها تستعيد ذكرياتها • وظلت على هذه الحال مدة طويلة ، غارقة في الماضى ، والابتسامة في شفتيها • ثم استأنفت تقول :

ـ كنت ، يافانيا ، احب ان اغفر له ، كنت اجد في العفو عنه سعادة كبيرة • كنت حين يتركنى وحدى ، اظل امشى فى الغرفة مهتاجة باكية•• وكنت فى الوقت نفسه اقول لنفسى : « كلما اذنب فى حقى ، كان ذلك احسن » نعم •• وكنت اتخيله دائماً صبياً صغيراً : يلقى رأسه على ركبتى وانا جالسة ، ويغط فى نوم عميق ، وأداعب انا شعره •• على هذه الصورة كنت اتخيله دائماً ، حين لا يكون معى ••

وفجأة قالت :

ـ اسمع يا فانيا ، ما هذه الفتاة الساحرة ، كاتيا !

خيل الىّ أنها تنكأ جرحها عامدة ، وتشعر بحاجة الى مزيد من اليأس والعذاب• ان هذا ليقع كثيراً لمن اصيب قلبه بخسارة فادحة لا طاقة له على احتمالها • وتابعت ناتاشا كلامها تقول :

ـ أعتقد ان كاتيا تستطيع ان تسعده • ان لها ارادة قوية • يدل كلامها على ثقتها بنفسها • انها معه جادة صارمة • وهى تحدثه فى أمور

ذكية كأنها شخص كبير ، مع أنها ليست الا طفلة . ما أعذبها ! أرجو لها السعادة ، نعم ، أتمنى ان يسعد كل منهما بالآخر .

قالت ذلك واخذت الدموع تهطل من عينيها ، ثم أفلت النحيب فجأة يخرج من اعماق قلبها . وظلت على هذه الحال نصف ساعة ، لا تستطيع ان تثوب الى رشدها ، ولا ان تهدىء روعها .

يا لها من ملاك ، ناتاشا هذه . لقد استطاعت منذ ذلك المساء ، رغم ما بها من حزن ولوعة ، أن تشاركني همومي ، حين لاحظت أنها هدأت قليلاً او تعبت ، فأردت ان اسليها ، فحدثتها عن نللى .. وقد تركتها ذلك المساء في ساعة متأخرة . انتظرت ان تنام . فلما انصرفت رجوت مافرا ان لا تدع سيدتها المريضة طوال الليل .

ــ آه ... اما لهذه الآلام من آخر ! ألا فلتنته على أى نحو من الانحاء ، شريطة ان تنتهى بسرعة !

بهذا الكلام هتفت حين وصلت الى بيتى .

وفى الساعة التاسعة تماماً من الغد كنت عند ناتاشا . ووصل آليوشا فى الوقت نفسه ليودعها . لن اتحدث عن هذا المشهد ، لا أريد ان اتذكر هذا المشهد . لا شك ان ناتاشا كانت قد قطعت على نفسها عهداً ان تسيطر على مشاعرها ، وان تبدو مرحة لا تبالى . ولكنها لم تقو على ذلك . عانقت أليوشا عناقاً قوياً ، ولم تكلمه الا قليلاً ، بيد انها تأملته طويلاً بالحاح . كانت نظرتها معذبة تائهة . كانت تلتهم بشراهة كل كلمة ينطق بها ، وكان يبدو انها لا تفهم شيئاً مما يقول .. اذكر انه سألها ان تغفر له ، ان تغفر له هذا الحب ، وان تغفر له ما سببه لها من آلام ، وان تغفر له خياناته ، وان تغفر له حبه لكاتيا ، وان تغفر له سفره .. كان يسوق كلامه متقطعاً تخنقه الدموع . وفجأة اخذ يواسيها ، فيقول لها انه لا يتركها الا شهراً واحداً او خمسة اسابيع فى اكثر تقدير ، وانه سيعود

فى اول الصيف ، وانهما سيتزوجان ، وان أباه سيوافق على هذا الزواج ، وانه خاصة ، سيعود من موسكو بعد غد ، فيقضيان معاً اربعة ايام اخرى، وانهما لا يفترقان الآن اذن الا يوماً واحداً .

الشيء الغريب انه كان مقتنعاً كل الاقتناع بأنه يقول الحق ، وبانه سيعود حتماً بعد غد .. فلماذا كان يبكى اذن ، ولماذا كان حزيناً هذا الحزن كله ؟

ودقت الساعة الحادية عشرة . فأقنعته بأن يذهب بعد كثير من العناء ، ذلك ان قطار موسكو يتحرك فى الثانية عشرة ، فلم يبق له الا ساعة واحدة . وقد ذكرت لى ناتاشا فيما بعد انها لا تذكر النظرة الأخيرة التى ألقتها عليه . لقد رسمت عليه اشارة الصليب وقبلته ، ثم غطت وجهها بيديها واسرعت تعود الى غرفتها . واضطررت ان اقود أليوشا الى عربته، والا لرجع ادراجه حتماً ، ولما استطاع ان يهبط السلّم . قال لى وهو ينزل :

ـ أملى كله فيك يا فانيا . انا مذنب فى حقك ، ولم استحق صداقتك يوماً ، ولكن كن أخاً لى حتى النهاية ، أحبّها ، لا تتركها ، اكتب الىّ عن كل شيء ، بكل ما يمكن من تفاصيل ... سأعود بعد غد حتماً ، ولكن اكتب الىّ بعد ان اسافر .

واجلسته فى عربته .

وهتف يقول لى وقد سارت العربة .

ـ الى غداة غد ، حتما .

وعدت اصعد الى ناتاشا مهدّم القلب . كانت واقفة فى وسط الغرفة مكتفة يديها ، تنظر الىّ نظرة حائرة كأنها لا تعرفنى . كان شعرها المنفوش متهدلاً الى جانب . وكانت تائهة النظرة . وكانت مافرا تقف

عند الباب طائشة العقل ، تنظر اليها ملتاعة مذعورة . وفجأة التمعت عينا ناتاشا ، وصرخت تقول :

ـ ها .. هذا أنت .. انت . لم يبق لى غيرك الآن . لقد كنت تكرهه . انك لم تستطع يوماً ان تغفر له حبه اياى .. وهأنت ذا قربى مرة اخرى تريد ان تواسينى ، وان تحضنى على العودة الى ابى الذى هجرنى ولعننى .. عرفت ذلك منذ امس ، بل اننى اعرفه منذ شهرين ! لا ، لا اريد ، انا ايضاً ألعنهما .. اذهب ، لا استطيع ان اراك ، اذهب عنى ، اذهب عنى !

ادركت انها تهذى ، وان رؤيتى قد ايقظت فى نفسها حنقاً مجنوناً! كان ذلك امراً لابد منه ، ورأيت ان علىّ ان ابتعد . فخرجت وجلست على الدرجة الاولى من السلم ، وكنت انهض من حين الى حين فأفتح الباب وانادى مافرا ، واسألها . كانت مافرا تبكى .

وقضيت على هذه الحال نصف ساعة . لا استطيع ان اصف ما كنت أشعر به أثناء ذلك . كان قلبى ينهار ، كان يطحنه عذاب لا نهاية له . وفجأة ُفتح الباب ، فرأيت ناتاشا تخرج مرتدية اجمل ثيابها ، واضعة قبعتها على رأسها ، وتسرع تهبط السلم . كانت كالغائبة عن وعيها . وقد ذكرت لى هى نفسها فيما بعد انها لاتكاد تذكر تلك اللحظة ، وانها كانت لا تعرف اين تذهب ، ولا لماذا تخرج !

ماكدت انهض لاختبىء حتى لمحتنى فجأة ، فوقفت امامى بلا حراك كأن صاعقة ألمت بها .

وقد قالت لى فيما بعد : « تذكرت فجأة انى طردتك ، انت يا من كنت صديقى ، واخى ، ومنقذى .. ما كان افدح جنونى وما كان اشد قسوتى ! فلما لمحتك ، شقياً جريحَ الكبرياء ، تنتظر على سلمى ان

اناديك .. آه .. يارب .. ليتك تعرف يافانيا ما الذى شعرت به عندئذ .. لقد أحسست بقلبى يطعن .. »

هتفت وهى تمد الىّ يدها :

ـ فانيا ، فانيا ، أنت هنا ؟

والقت بنفسها على ذراعىّ .

فأمسكت بها ، وحملتها الى غرفتها . كانت مغشياً عليها . تساءلت : ما العمل ؟ لاشك ان نوبة شديدة من الحمى ستنتابها .

وقررت ان اهرع الى الطبيب استدعيه . يجب خنق المرض قبل تفاقمه . وكان فى وسعى ان افعل ذلك بسرعة : ان صاحبى العجوز الألمانى يبقى فى بيته عادة حتى الساعة الثانية ، فمضيت اليه بعد أن توسلت الى مافرا ان لا تترك ناتاشا لا دقيقة ولا ثانية ، وان لاتدعها تذهب الى أى مكان . وقد رأف بى الله ، فلو اننى تأخرت قليلاً لما وجدت صاحبى العجوز . لقد التقيت به فى الشارع خارجاً من بيته . وماهى الا طرفة عين حتى اركبته عربتى ، وعدنا الى ناتاشا قبل ان يفيء الرجل الى نفسه .

نعم ، لقد رأف بى الله . فقد وقع اثناء غيابى حادث كان يمكن ان يجهز على ناتاشا لولا اننا وصلنا انا والطبيب فى اللحظة المناسبة . ان الأمير قد جاء اليها بعد ذهابى بربع ساعة ، وكان عائداً من المحطة حيث ودّع المسافرين . لا شك أنه قد بيّت هذه الزيارة منذ مدة طويلة وقد روت لى ناتاشا فيما بعد انها لم تدهش فى اول الأمر لرؤية الامير . « كان فكرى فى حالة اضطراب واختلاط » هذا ما قالته لى .

جلس الامير امامها ينظر اليها بتودد وعطف . ثم قال لها وهو يتنهد :

ـ انني افهم حزنك يا بنيتي العزيزة • كنت اعرف ان هذه اللحظة ستشق عليك كثيراً ، لذلك رأيت من واجبي ان ازوك • ليكنْ عزاؤك ، اذا استطعت الى العزاء سبيلاً ، انك بالعدول عن اليوشا تحققين له السعادة وانت تعرفين هذا خيراً مني ، مادمت قد اقدمت على هذا العمل البطولي •

قالت لي ناتاشا : « كنت جالسةً أصغي اليه ، ولكنني في أول الأمر كنت لا افهم ما يقول • انني اتذكر الآن انه كان ينظر اليَّ بلا انقطاع ثم تناول يدي وشدَّ عليها ، وكان يبدو عليه ان ذلك يسره كثيراً • وقد بلغت من شدة الذهول انني لم يخطر ببالي ان اسحب يدي من يده » •

وتابع الامير يقول لناتاشا :

ـ لقد ادركت انك اذا تزوجت اليوشا فقد توقظين في نفسه شعور الكره نحوك ، وكان لك من نبل الكبرياء ماجعلك تدركين ذلك وتقررين ان •• ولكنني لم اجيء الى هنا لاثني عليك ، وانما اردت ان ابلغك انني سأكون لك خير صديق • انني اشاطرك حزنك ، واشفق عليك ، وارثي لحالك ، لقد اسهمت بالرغم مني في هذا الموضوع كله •• ولكنني بذلك قد قمت بواجبي •• ان لك من نبل القلب ما يجعلك تفهمين هذا الامر ، وما يحملك على المغفرة لي والعفو عني ••لقد تألمت اكثر منك ،صدقيني •

فقالت له ناتاشا :

ـ كفى يا امير ، دعني وشأني •

فأجابها بقوله :

ـ انا ذاهب طبعاً • ولكني احبك كما يحب الاب ابنته • فاسمحي لي ان ازورك من حين الى حين • عديني كأبيك • عديني كأبيك بعد الآن ، واذا استطعت ان افيدك في امر من الامور ••

فقاطعته ناتاشا مرة اخرى قائلة له :

ـ لست في حاجة الى شيء •

ـ اعرف كبرياءك ، ولكنني أكلمك الآن مخلصاً من أعماق قلبي • ما الذي تنوين أن تعمليه الآن ؟ هل تنوين أن تصالحي أهلك ؟ ان ذلك يمكن أن يكون حلاً سعيداً جداً • ولكن اباك ظالم ، متكبر ، مستبد • اغفري لي هذا الكلام • ولكن تلك هي الحقيقة • لن تجدي الآن في بيت ابيك الا اللـــوم والتقريع وآلاماً جديدة •• يجب اذن ان تظـلي الآن مســتقلة ، ومن واجبي انا ، من اقدس واجباتي انا ، ان أعنى بك وان اساعدك • وقد ضرع الي أليوشا ان لا اتركك وان اكون لك الصديق الوفي • وهناك اشخاص آخرون يضمرون لك أعمق الاخلاص • آمل ان تسمحي لي بأن اقدم لك الكونت ن •• ان له قلباً نبيلاً رائعاً ، وهو من اقاربنا ، بل استطيع ان اقول انه المحسن الى الاسرة كلها • لقد خـدم أليوشا كثيراً • وأليوشا يحترمه ويحبه • انه رجل واسع السلطان ، كثير النفوذ •• وهو عجوز جداً ، فلا حرج في ان تسـتقبله فتـاة في بيتها • سبق ان حدثته عنك • وهو يستطيع ان يوظفك ، بل يستطيع ان يجد لك عملاً ممتازاً لدى أحد اقاربه • لقد بسطت له قضيتنا كلها منذ مدة طويلة ، بسـطتها له بصراحة ، فاستجـابت عواطفـه الطيبـة النبيلة كل الاستجابة ، حتى انه طلب الي هو نفسه ان اقدمك اليه في اقرب فرصة •• انه رجل يحب كل ما هو نبيل جميل ، صدقيني ، انه شيخ محترم كريم ، يعرف كيف يقدر النـاس حق قدرهم • حتى انه ، منـذ مدة وجيزة جداً ، تصرف انبل التصرف ، اثناء حادثة وقعت لابيك •

فنهضت ناتاشـا كأنما لسـعتها افعى • انها تفهم الآن ماذا يريد ، وصاحت به :

ـ دعني ، اذهب عني ، حالاً •

ـ ولكن لا تنسي يا عزيزتي ان الكونت يمكن ان يفيد اباك ايضا •

ـ أبى لن يقبل منكم شيئاً . هل لك ان تذهب ؟

بهذا صاحت ناتاشا مرة اخرى ، فقال الامير ، وهو ينظر حوله بشيء من القلق :

ـ كم انت ربابة حذرة قليلة الصبر !

واضاف يقول ، وهو يخرج من جيبه حزمة كبيرة :

ـ على كل حال ، هل تسمحين لى بأن اترك لك هذا الدليل على ما أكنه لك من عاطفة ، وخاصة على ما يكنه لك الكونت من عاطفة ... انه هو الذى حضنى على القيام بهذا المسعى .. ان هذه الحزمه تضم عشرة آلاف روبل .

فلما رأى ناتاشا تنهض غاضبة حانقة استأنف يقول :

ـ انتظرى يا صديقتى ، اصبرى على كلامى حتى اتمه : انت تعرفين ان اباك قد خسر دعواه : وهذه الآلاف العشرة من الروبلات هى التعويض عن ...

ـ اذهب ، اذهب انت وروبلاتك . اننى اعرفك .. انت حقير ، حقير ، حقير !

ونهض الامير وقد امتقع لونه من شدة السخط .

لقد جاء الامير الى ناتاشا مستكشفاً يريد ان يعرف وضعها وان يجس نبضها .. وكان يعتمد اعتماداً كبيراً على ما قد تحدثه هذه الآلاف العشرة من الروبلات من أثر بعد ان هجرها جميع الناس وأصبحت بلامورد .. لقد سبق لهذا المخلوق القذر أن أدى للكونت ن ... العجوز الشهوانى ، خدمات كثيرة فى شئون من هذا النوع ، ولكنه كان يبغض ناتاشا ، فلما رأى الصفقة لم تتم ، غير لهجته فجأة ، واسرع يهينها ، وهو فرح بذلك فرحاً خبيثاً ، على الاقل حتى لا يخرج صفر اليدين .

قال بصوت يرتجف قليلاً من رغبته الجامحة فى ان يرى اثر اهانته بأقصى سرعة :

ـ لا يحسن ان تغضبى ياطفلتى ، لا يحسن ان تغضبى ابداً . أنقدم لك الحمـاية ، ثم تشمخين بأنفك ؟ ألا تدرين ان عليك ان تشكرينى ؟ لقد كان فى وسعى ان اسوقك الى السجن منذ مدة طويلة ، كأب أفسدت اخلاق ابنه الشاب وسرقت ماله .. ومع ذلك لم افعل شيئاً من هذا .. هىء هىء هىء .

ولكننا كنا فى هذه اللحظة ندخل البيت . كنت قد سمعت صوته ونحن عند المطبخ ، فاستوقفت الطبيب لحظة ، واصغيت الى الجملة الاخيرة التى قالها . سمعت ضحكةً شنيعة تدوى فى الغرفة ، وسمعت ناتاشا فى الوقت نفسه تصرخ يائسة « يا رب ! » . ففتحت البـاب ، وهجمت على الامير ، فبصقت فى وجهه ، وأخذت أصـــفعه بكل ما أوتيت من قوة . وقد أراد أن يهجم علىَّ ، لكنه رأى اننا اثنان ، فهرب بعد أن تناول حزمة الروبلات من على المنضدة . نعم ، لقد فعل ذلك ، رأيته بعينى رأسى . فاندفعت وراءه حاملاً شوبقاً تناولته من على مائدة المطبخ ... فلما عدت الى الغرفة ، كان الطبيب يمسك بناتاشا التى كانت تصارعه مهتاجة وتحاول ان تفلت منه . ولم نستطع ان نهدىء روعها الا بعد مدة طويلة ، واستطعنا اخيراً ان نمددها على سريرها . كانت تهذى .

سألت الطبيب وأنا أكاد أموت ذعراً .

ـ ما الذى بها يا دكتور ؟

فأجابنى بقوله :

ـ انتظر ! يجب ان الاحظها مزيداً من الملاحظة ، وان افكر ...

ولكن الأمر خطير قد ينتهي الى نوبة حمى حارة • على كل حال سنتخذ الاحتياطات اللازمة •

الا ان فكرة اخرى كانت قد استولت عليّ • فتوسلت الى الطبيب ان يمكث عند ناتاشا ساعتين او ثلاث ساعات ايضاً ، وناشدته ان لا يتركها لحظة واحدة ، فوعد بذلك ، واسرعت الى بيتي •

كانت نللي جالسةً في ركن من اركان الغرفة ، قاتمة مضطربة ، فلما رأتني نظرت اليّ نظرة غريبة • لا شك ان منظري انا كان غريباً ايضا •

فتناولت يدها ، وجلست على الاريكة ، وأجلستها على ركبتيها الى جانبي ، وقبلتها قبلة فيها رقة وحنان • فاصطبغ وجهها بحمرة قانية • قلت لها :

ـ نللي ، ملاكي ، هل لك ان تنقذينا ؟ هل لك ان تنقذينا جميعاً ؟

فنظرت اليّ مرتبكة مشوشة . واردفتُ اقول :

ـ نللي ، املنا كله فيك • هناك أب ، أب رأيته وتعرفينه ، هذا الاب قد لعن ابنته ، وجاء امس يريد ان يضمك اليه بدلاً من ابنته ؟ ابنته تلك، ناتاشا (التي قلت انك تحبينها) قد هجرها الآن ذلك الذي كانت تحبه ، والذي من اجله تركت أباها • انه ابن ذلك الأمير الذي جاء ذات مساء الى هنا ، تتذكرين ذلك ، فوجدك وحدك في البيت ، فهربت حتى لا تريه ، ومرضت بعد ذلك ، هل تعرفينه ؟ انه انسان شرير خبيث !

ـ أعرف •

قالت ذلك ، وارتعدت وامتقع لونها •

ـ نعم انه انسان خبيث شرير ، يكره ناتاشا ، لان ابنه اليوشا كان يريد ان يتزوجها ، لقد سافر اليوشا ، وبعد ساعة جاء ابوه الى ناتاشا ،

فأهانها ، وهددها بزجها فى السجن ، وهزىء بها ، هل تفهمينني يا نللى ؟

التمعت عينا نللى ، ولكنها خفضتهما ، وقالت بصوت لا يكاد يسمع:

ــ أفهم .

ــ وناتاشا ، الآن ، وحيدة ، مريضة ، تركتها مع صاحبنا الطبيب ، واسرعت اليك . اسمعى يا نللى : لنذهب الى والد ناتاشا ، انت لاتحبينه ، وقد رفضت أن تذهبى اليه ، ولكن فلنذهب اليه الآن معاً ، سأقول له حين ندخل عليه انك تقبلين ان تجيئى اليه ، وان تكونى بمثـابة ابنتـه . ان العجوز مريض ، لانه لعن ناتاشا ، ولأن والد اليوشا قد أهانه فى هذه الايام الاخيرة اهانة قاتلة . انه الآن لا يريد ان يسمع احداً يحدثه عن ابنته ، ولكنه يحبها ، يحبها يا نللى ، ويتمنى ان يصالحهـا ، اننى اعرف ذلك ، ولا أشك فيه ، هل تسمعيننى يا نللى ؟

فقالت نيللى بصوت مايزال منخفضاً :

ــ نعم !

كنت وانا اكلمها اذرف دموعاً غزاراً . وكانت تلقى علىّ نظرات خجلى .

ــ هل تصدقين ما أقوله لك ؟

ــ نعم .

ــ اذن سنذهب . سأذهب بك اليهما ، وسوف يستقبلانك احسن استقبال ، وسـوف يغمـرانك بملاطفاتهمـا . وسيطرحان عليك اسـئلة كثيرة . سأتولى انا ادارة الحديث بحيث يسألانك عن ماضيك ، وعن امك، وعن جدك . فقصى عليهما كل شيء كما قصصته على .

قولى لهم كل شيء ، ببساطة ، لا تخفى عنهم شيئاً . ستذكرين لهم

كيف ان رجلاً شريراً قد هجر امك ، وكيف انهـا ماتت فى قبو عند بوبنوفا • وكيف كنتما تتجولان فى الشوارع انت وامك تطلبان الصدقات من الناس • واذكرى لهم ما قالتـه لك امك وهى تحتضر ، وما طلبتـه اليك • حدثيهم ايضاً عن جدك • قولى انه كان لايريد ان يعفو عن امك، وانها ارسلتك اليه قبل ان تموت ليجيء اليها وليغفر لها ، فرفض ••• وانهـا ماتت •• قولى لهم كل شيء ، كل شيء • واثنـاء ذلك ، سيحس العجوز كل ما تقصينه عليه ، سيحسه فى اعماق قلبه • فهو يعلم ان اليوشا قد ترك ابنته اليوم ، وانها الآن مذلة ، مهانة ، لا سـند لهـا ولا عون ، ولا من يحميها أو يدافع عنها ، وانها معرضة لاهانات خصمه • انه يعرف كل ذلك • نللى ! انقدى ناتاشا • تعالى معى • هل تريدين ؟

– نعم •

كانت تتنفس بكثير من العناء ، وألقت علىّ نظرة غريبة ، طـويلة ، فاحصة • كان فى نظرتها شيء يشـبه ان يكون لوماً ، احسست بهذا فى اعماق نفسى •

ولكننى كنت لا استطيع ان اترك مشروعى • كنت أؤمن به ايماناً قوياً •

فأمسكت بيد نللى ، وخرجنا • كانت الساعة قد جاوزت الثانية بعد الظهر ، وكانت السماء متلبدة بالغيوم • ان الجو فى هذه الايام الاخيرة حار خانق • كانت تُسمع من بعيد اولى همهمات رعد الربيع • وكانت الريح تهب على الارض ، فتثير غبار الشوارع •

ركبنا عربة • وظلت نللى ملتزمة الصمت طوال الطريق • وكانت من حين الى حين تلقى علىّ تلك النظرة نفسها ، الغـريبة ، التى كأنها لغز • كان صدرها يعلو ويهبط ، وكنت احتضنها ، فأحس قلبها الصغير يخفق بيدى كأنه يريد ان يخرج •

الفصل السابع

بدا لي الطريق طويلاً لا ينتهى • ووصلنا أخيراً ، فدخلت الى صديقى العجوزين خائر القلب • كنت لا أعرف كيف سأخرج من هذا البيت ، ولكننى كنت أعرف أن علىّ ، مهما كلف الأمر ، أن أخرج منه بالعفو عن ناتاشا ، والصلح معها •

كانت الساعة قد بلغت الرابعة ، وكان العجوزان وحدهما على عادتهما • كان نيقولا سرجتش متعباً مريضاً ، كان يستريح على كرسيه الطويل ، شاحب الوجه ، ضعيفاً ، على رأسه منديل • وكانت آنا آندريفنا جالسة قربه ، تبلل صدغيه بالخل من حين الى حين ، ولا تنقطع عن النظر اليه متسائلة حزينة • وكان يبدو ان ذلك يقلق الشيخ ويزعجه • كان مصراً على الصمت ، وكانت لا تجرؤ ان تقطع عليه هذا الصمت • وقد فوجئا كلاهما بوصولنا • حتى لقد خافت آنا آندريفنا حين رأتنى ادخل مع نللى ، وظلت خلال الدقائق الاولى تنظر الينا وكأنها شعرت فجأة بانها مذنبة •

قلت لها وانا ادخل :

ـ اتيتكما بنللى • لقد فكرت نللى فى الامر ، فرأت من تلقاء نفسها ان تجىء اليكما • فاستقبلاها واحباها •

نظر الىّ الشيخ نظرة ارتياب • وفهمت من هذه النظرة وحدها انه

كان يعرف كل شيء ، أنه كان يعرف أن ناتاشا هي الآن وحيدة ، مهجورة وربما مهانة • كان يشعر برغبة قوية في اكتناه سر مجيئنا : فكان ينظر الينا نظرة متسائلة • وكانت نللي ترتعش ، ممسكة يدي ، مطرقة الى الارض ، وكانت من حين الى حين تلقي على ما حولها نظرات خائفة ، كحيوان وقع في الفخ • ولكن آنا آندريفنا ما لبثت ان فاءت الى نفسها ، فاندفعت نحو نللي ، فقبلتها وداعبتها ، واخذت تبكي ، وأجلستها الى جانبها في كثير من الحنان ، دون ان تترك يدها • فكانت نللي تنظر اليها من جانب ، بفضول تمازجه دهشة •

ولكن العجوز الطيبة ، بعد أن داعبت نللي وأجلستها الى جانبها ، لم تعرف ماذا تصنع ، فأخذت تنظر الي نظرة انتظار ساذج • وقطّب نيقولا سرجتش ما بين حاجبيه • انه لم يكن بعيداً عن ادراك السبب الذي من اجله جئت بنللي • فلما رأى انني ألاحظ ما في وجهه من استياء ، وما في جبينه من هم وقلق ، وضع يده على رأسه وقال فجأة :

ــ بي صداع يا فانيا •

كنا لا نزال صامتين • وكنت لا اعرف من اين ابدأ • ان الغرفة مظلمة • ان سحابة كبيرة تجري في السماء ، وها نحن نسمع صوت الرعد مرة اخرى من بعيد • قال العجوز :

ــ لقد بكّر الرعد في هذه السنة • اذكر انه بكر اكثر من ذلك سنة سبع وثلاثين •

وتنهدت آنا آندريفنا • وسألت تقترح :

ــ هل اشعل السماور •

ولكن احداً لم يجبها ، فالتفتت نحو نللي تسألها :

ـ ما اسمك يا حلوة ؟

فذكرت لها نللى اسمها بصوت منخفض ، وازدادت اطراقاً • كان العجوز يتفرس فيها •

فاستأنفت العجوز تقول وقد اشرقت نفسها قليلاً :

ـ هيلين ، أليس كذلك ؟

ـ نعم •

وساد الصمت مرة اخرى خلال دقيقة • ثم قال نيقولا سرجتش :

ـ كان لاختى براسكو فى آندريفنا ابنة اسمها هيلين ، وكانوا ينادونها نللى ايضاً •

وعادت آنا آندريفنا فسألتها :

ـ اذن ، يا صغيرتى ، ليس لك أب ولا أم ولا أقارب ؟

فدمدمت نللى تقول بسرعة ، بصوت وجل :

ـ لا •

ـ هذا ما قيل لى • هل ماتت امك منذ مدة طويلة ؟

ـ بل منذ مدة غير طويلة •

عادت العجوز تقول وهى تنظر اليها نظرة عطف :

ـ مسكينة ايتها الطفلة الحبيبة ، مسكينة ايتها اليتيمة الصغيرة !

وكان نيقولا سرجتش ضيق الذرع نافد الصبر ، ينقر المائدة بأصابعه • واستمرت العجوز تطرح اسئلتها الخجلى •

ـ هل كانت امك اجنبية ؟ أهذا ما ذكرته لى يا ايفان بتروفتش ؟

فنظرت الىّ نللى بعينيها السوداوين نظرة سريعة كأنما لتدعونى الى نجدتها • كان تنفسها ثقيلاً متفاوتاً ، فقلت :

ـ كانت امها انجليزية الاب ، روسية الام ، والاجدر اذن ان نعدها روسية • وقد ولدت نللى فى خارج روسيا •

ـ اذن لقد سافرت امها مع زوجها الى الخارج ؟

قالت العجوز ذلك ، فاذا بنللى يحمر وجهها احمراراً شديداً على حين فجأة ، فما لبثت آنا آندريفنا ان ادركت ان لسانها زل ، فارتعشت من النظرة الغاضبة التى رشقها بها زوجها • لقد حدق اليها بنظرة قاسية ، وتحول نحو النافذة ثم قال وهو يلتفت فجأة الى آنا آندريفنا :

ان رجلاً شريراً جباناً قد غرر بأمها ، فتركت بيت ابويها وسافرت مع عشيقها الى الخارج وعهدت اليه بمال ابيها • وقد اغتصب العشيق ذلك المال بالحيلة : مضى بالفتاة الى الخارج ، وهنـاك سرقها وهجرها • وكان هناك فتى شهم بقى الى جانبها ، وساعدها الى ان مات • فلما مات ، منذ سنتين ، عادت الى ابيها ، أليس هذا ما قصصته على يا فانيا ؟

طرح العجوز علىّ هذا السؤال بلهجة قاطعة ، وكانت نللى قد بلغت غاية الاضطراب ، فنهضت وهمت ان تتجه الى الباب ، فقال لها العجوز وهو يمد يده اليها اخيراً :

ـ تعالى الى هنا يا نللى ، اجلسى هنا ، الى جانبى •

وانحنى فقبلها فى جبينها ، وداعب رأسـها برفق • واخـذت نللى ترتعش ، ولكنها سيطرت على نفسها • وكانت آنا آندريفنا تنظر الى نيقولا سرجتش يلاطف اليتيمة ، وقد امتلأت نفسـها حنـاناً ، وفاضت بالامل المشرق • قال العجوز منفعلاً ، وهو مايزال يدغدغ رأس نللى ، ولايتردد عن قذفنا بهذا التحدى :

ـ انا اعرف يا نللى ان ذلك الرجل الشرير الذى لا خلاق له قد ضيع امك ، واعرف ايضاً ان امك كانت تحب اباها وتحترمه ••

قال ذلك وصعدت الى خديه الشاحبين حمرة خفيفة• وكان يتحاشى ان ينظر الينا •

فقالت نللى خجلة ، ولكن على حزم ، وهى تحاول ان لاترى احداً :

ـ كانت امى تحب جدى اكثر مما كان جدى يحبها •

فسألها العجوز بخشونة ، وقد اصبح لا يسيطر على نفسه اكثر من طفل ، وكان كأنه يشعر بخجل من نفاد صبره :

ـ كيف عرفت ذلك ؟

فقالت نللى بلهجة مفاجئة :

ـ انا اعرف ذلك • لقد رفض ان يستقبل امى ، و •• طردها •

لاحظت ان نيقولا سرجتش كان يريد ان يقول شيئاً ، ان يجيب مثلاً بأن العجوز اذا رفض استقبال ابنته فانما تدفعه الى ذلك اسباب هامة. ولكنه نظر الينا وسكت •

وسألتها آنا آندريفنا التى اصرت فجأة على الاستمرار فى الحديث فى هذا الاتجاه :

ـ واين سكنتما حين رفض جدك ان يراكما ؟

فقالت نللى :

ـ حين وصلنا اخذنا نبحث عن جدى فى كل مكان ، ولكننا لم نعثر عليه • وقد قالت لى امى ان جدى كان فى الماضى غنياً جداً ، وانه كان يريد ان يبنى مصنعاً • ولكنه اصبح الآن فقيراً• لان الرجل الذى سافرت معه امى قد اخذ من جدى ماله كله ولم يرده اليه • ان امى نفسها هى التى قالت لى ذلك •

ـ هم •••

هذا كل ما دمدم به العجـوز . وتابعت نللى كلامها تقـول ، وقد اخذت تتحمس شيئاً فشـيئاً ، وبدا عليها انهـا تريد ان تردّ على نيقولا سرجتش مع انها تتوجه بكلامها الى آنا آندريفنا ، تابعت كلامها تقول :

ـ وقالت لى أمى أيضاً ان جدى كان غاضباً عليها اشـدّ الغضب ، وانها مذنبة فى حقه ، وانها ليس لها فى الدنيا سواه . وكانت تبكى وهى تقول لى ذلك . قالت لى قبل ان نصل : « انه لن يغفر لى انا ، ولكن قد يحبـك حين يراك ، فيغفر لى من اجلك » . كانت امى تحبنى كثيراً ، وكانت تقبلنى وهى تقـول لى هذا الكلام ، وكانت تخـاف جداً من انها ستراه . وقد علمتنى ان اصلى من اجله ، وكانت تصـلى من اجله هى ايضاً . وقصت علىّ كيف كانت تعيش فى الماضى مع جدى ، وكيف كان يحبها كثيراً ، اكثر من اى شىء فى الحياة . كانت فى المساء تعزف له على البيانو ، او تقرأ له ، وكان يقبلها ويقدم اليها الهدايا ، حتى انهما تخاصما ذات يوم ، وهو يوم عيد ميلاد امى ، لان جدى كان يظن ان امى لا تعرف الهدية التى سيقدمها لها ، فى حين ان امى كانت تعرفها منذ مدة طويلة : كانت امى تريد ان تكون الهدية قرطين ، ولكن جدى تعمد ان يوهمها بأن هديته اليها ستكون حلية مما يزين به الصدر ، فلما جاءها يوم العيد بالقرطين ، فلاحظ انها كانت تعرف ذلك ، زعل منها ، وظل لا يكلمهـا نصف يوم بكامله . ولكنه جاء بعد ذلك من تلقاء نفسـه ، فقبلها وطلب منها ان تسامحه .

انساقت نللى فى رواية قصتها ، وصعدت الى خديها الشاحبين حمرة .

كان واضحاً اذن ان الام قد حدثت ابنتها غير مرة عن ايامها الخوالى السعيدة . كانت ، وهى جالسة من ركن من قبوها ، تعانق ابنتها الصغيرة وتقبلها (وهذه هى السلوى الوحيدة التى بقيت لها) وتبكى عليها لا تقدر

الاصداء القــوية التى تثيرها قصصها فى هذا القلب الحســاس الى درجة المرض ، الناضج قبل الاوان ، قلب طفلتها ..

ولكن نللى التى استسلمت لذكرياتها استسلاماً تاماً فاءت الى نفسها فجأة ، فألقت حولها نظرة حذرة ، وتوقفت عن الكلام . وقطب العجوز ما بين حاجبيه ، وعاد ينقر المائدة بأصابعه ، وترقرقت دمعة صغيرة فى عين آنا آندريفنا ، فجففتها بمنديلها فى صمت .

واستأنف نللى تقول بصوت أصم :

ـ كانت أمى مريضة جداً حين وصلنا الى هنا . كانت مصدورة . وظللنا نبحث عن جدى مدة طويلة ، فلم نســتطع ان نعثر له على اثر . وكنا قد استأجرنا ركناً فى قبو .

فهتفت آنا آندريفنا :

ـ تعيش فى ركن من قبو ، وهى مريضة بهذا المرض !

فأجابت نللى :

ـ نعم . فقد كانت أمى فقيرة .

ثم أضافت بحماسة :

ـ وكانت أمى تقول لى ان الفقر ليس خطيئــة ، وانما الخطيئــة ان يكون المرء غنياً فيهين الآخرين .. وان الله يعاقبها على ما جنت يداها .

ـ سكنتما فى فاسيلى أوستروف ، عند بوبنوفا ، أليس كذلك ؟

طرح العجوز هذا السؤال ، وهو يلتفت نحوى ويحاول ان يتكلم بلهجة لا تدل على شيء من الاهتمــام . طرح هذا الســؤال كما لو كان يزعجه ان يظل جالساً معنا دون ان ينطق بكلمة .

فأجابته نللى بقولها :

ـ بل سكنا اول الامر فى متشكانسكايا .

ثم استأنفت تقول بعد ان صمتت لحظة :

ـ كان المكان مظلماً رطباً ، فاشتدت وطأة المرض على أمي ، ولكنها كانت لا تزال تنهض من فراشها • كنت اغسل لها غسيلها • وكانت تبكي • وكان يسكن معنا امرأة عجوز هي ارملة ضابط فى الجيش ، وموظفٌ محال على المعاش يعود الى البيت ثملاً فيصرخ ويملأ البيت ضجيجاً كل ليلة •• كنت اخاف منه ، فكانت امي تأخذني الى سريرها ، وتضمني اليها ، وكانت هي نفسها ترتعد خوفاً حين يعود ذلك الموظف فيأخذ يصرخ ويشتم • وقد اراد ذات يوم ان يضرب أرملة الضابط التى كانت عجوزاً هرمة تتوكأ على عصا ، فأشفقت امي عليها ، ودافعت عنها ، فضرب الرجل امي ، فهجمت أنا عليه ••

هنا توقفت نللى عن الكلام •• ان هذه الذكرى تهزها هزاً قوياً • واخذت عيناها تلتمعان •

صرخت آنا آندريفنا وقد اسرتها هذه القصة وكانت لا تتحول ببصرها عن نللى التى كانت تتوجه بالكلام اليها خاصة ، صرخت تقول :

ـ يا رب يا رب !••

وتابعت نللى كلامها :

ـ عندئذ خرجت امى من البيت واخذتنى معها • كان ذلك اثناء النهار • فظللنا نمشى فى الشارع حتى المساء • كانت امى لا تنقطع عن البكاء ، وكانت تمسك بيدى • ظلت طوال الوقت تحدث نفسها وتقول لى : « يجب ان تبقى فقيرة يا نللى ، اياك ان تصغى بعد موتى الى احد ، اياك ان تصدقى بعد موتى شيئاً • لا تذهبى الى احد ، ظلى وحيدة ، فقيرة، واعملى ، فان لم تجدى عملاً ، فتسولى •• ولكن لا تذهبى اليهم ابداً »• وفيما نحن نجتاز احد الشوارع عند هبوط الليل ، صرخت امى فجأة : « آزور ، آزور » ، فاذا بكلب كبير أمعط يجرى نحو امى نابحاً ، ويرتمى

عليها . اصفرت امي اصفراراً شديداً ، وصرخت ، وركعت على ركبتيها امام شيخ طويل كان يسير متوكئاً على عصاه وهو ينظر في الارض . كان ذلك الشيخ هو جدي. كان نحيلا نحولاً شديداً ، وكان يرتدي اسمالاً خلقة بالية . هذه هي المرة الاولى التي رأيته فيها . وقد ذعر هو ايضاً ، وامتقع وجهه ، فلما رأى أمي راكعة أمامه تُعانق ساقيه ، خلّص ساقيه منها ، ودفعها ، وضرب بعصاه الرصيف ، وابتعد مسرعاً . وبقي آزور. وكان آزور يئن ويلعق وجه امي . ثم ركض وراء جدي ، وامسكه من طرف ردائه وشده الى وراء ، ولكن جدي ضربه بعصاه . وعاد الينا آزور مرة اخرى ، ولكن جدي ناداه ، فمضى اليه وهو ما يزال يئن . ظلت امي على الارض ، كأنها ميتة . والتف الناس حولنا ، وجاء رجال الشرطة . كنت انا ابكي واحاول ان انهض امي . ونهضت امي اخيراً ، فألقت من حولها نظرة ، ثم سارت تتبعني ، فقدتها الى البيت . ولقد ظل الناس مدة طويلة ينظرون الينا وهم يهزون رءوسهم .

توقفت نللي عن الكلام لتتنفس وتسترد قواها . كانت شاحبة شديدة الشحوب ، ولكن عينيها تلتمعان بعزم قوي. كان واضحاً انها قررت اخيراً ان تقول كل شيء . بل لقد كان فيها عندئذ شيء من التحدي .

قال نيقولا سرجتش بصوت متعثر مكفهر :

ــ لقد اهانت امك اباك ، وكان من حقه ان يدفعها .

فأجابت نللي بلهجة نافذة :

ــ ذلك ما قالته امي .. كانت تقول لي ونحن عائدتان الى البيت : « هذا هو جدك يا نللي .. لقد اجرمت في حقه ، فلعنني ، والله يعاقبني الآن على ما اقترفت يداي من اثم » . وظلت امي تردد هذا الكلام طوال ذلك المساء ، وطوال الايام التي اعقبته ، ظلت تردده في كل لحظة . كان يخيل الى المرء حين يسمعها تتكلم انها فقدت عقلها .

كان العجوز صامتاً لا يقول شيئاً •

وسألتها آنا آندريفنا التي ما فتئت تبكي بكاء صامتاً :

ــ وبعد ذلك غيرتما المسكن ؟

ــ في تلك الليلة اشتدت وطأة المرض على امي • ووجدت لها امرأة الضابط مسكناً عند بوبنوفا ، ذهبنا اليه لنقيم فيه بعد يومين • فلما وصلناه رقدت امي في فراشها ثلاثة اسابيع ، وكنت انا اعنى بها ، ولم يبق معنا شيء من مال ، فساعدتها امرأة الضابط ، وساعدنا ايفان السكندرتش •

اضفت موضحا :

ــ صانع التوابيت •

ــ وحين نهضت امي من فراشها وبدأت تسير على قدميها ، حدثتني عن آزور •

وقطعت نللي كلامها • لقد سر العجوز ان ينصرف الحديث الى آزور • فسألها وهو يزيد استلقاءه على مقعده كأنه يريد ان يخفي عنا وجهه :

ــ ماذا قالت لك عن آزور ؟

فأجابت نللي :

ــ كانت لا تنفك تحدثني عن جدي • كانت وهي مريضة لا تزيد على ان تكلمني عنه ، وكذلك اثناء الهذيان • ولما اخذت تتحسن صحتها ، عادت فقصت عليّ كيف كانت تعيش في الماضي •• وروت لي قصة آزور فقالت : ذات يوم ، في القرية ، رأت عدداً من الصبية يجرون هذا الكلب بحبل ليلقوه في النهر • فأعطتهم بعض المال تفتديه • وحين رأى جدي آزور ضحك كثيراً • ولكن آزور هرب • فأخذت أمي تبكي • وخاف عليها جدي ، فقال انه سيدفع مائة روبل لمن يعيد اليه آزور • وعادوا اليه

بعد يومين بالكلب ، فدفع جدى مائة روبل ، ومنذ ذلك اليوم اخذ يحب آزور • وكانت امى تحب آزور حباً شديداً ، حتى انها كانت تضمه اليها فى سريرها• وقد قصت عليّ امى ان آزور كان فى الماضى يطوف الشوارع مع ممثلين هزليين ، وانه كان يعرف كيف يشهر السلاح ، وكيف يحمل على ظهره قرداً ، وكيف يقلب بندقية ، وكيف يقوم بأشياء كثيرة اخرى• وحين تركت امى جدى ، احتفظ جدى بآزور ، فكان يجره معه حيثما ذهب ، لذلك حين رأت امى آزور فى الشارع ايقنت فوراً ان جدى معه•

كان العجوز يأمل ان يكون الكلام على آزور فرصــه للابتعاد عن الموضوع ، فلما رأى ان ذلك لم يتحقق ، ازداد جمودا ولم يطرح بعد ذلك سؤالاً •

سألتها أنا آندريفنا :

ــ ألم ترى جدك بعد ذلك ؟

ــ بل رأيته • رأيته مرة اخرى حين اخذت تتحسن صحة امى • كنت ذاهبة لشراء شىء من الخبز ، فرأيت رجلاً يســير مع آزور ، فلما نظرت اليه عرفت انه جدى • فلطوت بالحائط لأدع له ان يمرّ • فنظر اليّ طويلاً ، طويلاً ، وخفت منه ، ثم مضى • وقد عرفنى آزور ، فاخذ يقفز من حولى ، ويلحس أصابعى • واشتريت الخبز ، وقفلت راجعه الى البيت ، وفيما أنا التفت الى وراء ، رأيت جدى يدخل دكان الخباز ، فقلت فى نفسى : لا شك انه دخل اليه ليطرح عليــه بعض الأسئلة ، فازداد خوفى • وحين وصلت الى البيت لم احدث امى بشىء مما وقع ، مخافة ان تمرض مرة اخرى • ولم اذهب فى الغد الى دكان الخبــاز • بل ادعيت اننى مصــابة بصداع • وحين ذهبت اليه بعد غد ، لم اصادف احــداً ، ولكننى كنت خائفة جداً • حتى لقد كنت اركض باقصى سرعة • ذهبت الى الخباز فى اليوم الذى بعده • ففيما انا انعطف عند الناصية ، رأيت جدى

وآزور امامی • فهربت • ومضیت فی شارع آخر • ودخلت الی الخباز من باب غیر الباب الاول • ولکننی اصطدمت به مرة ثانیة علی حین فجأة • فبلغت من شدة الخوف اننی تسمرت فی مکانی لا استطیع حراکاً • فنظر الیّ طویلاً کالمرة الماضیة ، ثم داعب رأسی ، وتناول یدی ، وسار بی • وتبعنا آزور یحرك ذنبه • لاحظت عندئذ ان جدی کان لا یقوی علی الانتصاب بقامته • فکان یتکیء علی عصا ، وکانت یداه ترتعشان ••• وقادنی الی بائع فی الناصیة یبیع فی الشارع حلوی وتفاحاً ، فاشتری لی حلوی فی شکل دیك وسمکة ، واشتری تفاحة• وحین مد یده الی محفظته لیخرج منها النقود کانت ترتجف ارتجافاً شدیداً ، حتی لقد سقطت من بین اصابعه قطعة خمس کوبیکات • فتناولتها من الارض ، ومددتها الیه ، ولکنه اعطانیها مع الحلوی ، ولاعب شعری •• کل ذلك دون ان یقول کلمة واحدة • ثم مضی ••

فعدت الی البیت ، فقصصت علی امی کل شیء ، وقلت لها اننی خفت من جدی فی اول الامر ، واننی کنت اختبیء حین اراه • فلم تصدقنی امی بادیء ذی بدء ، ثم بلغت بعد ذلك من فرط السرور انها ظلت طوال ذلك المساء تطرح علی السؤال تلو السؤال ، وهی تعانقنی وتبکی ، ولما فرغتُ من قص کل شیء علیها ، قالت ان علیّ ان لا اخاف من جدی ابداً بعد الآن ، فانه یحبنی ، ما دام قد جاء عامداً لیرانی • وطلبت الیّ ان اکون لطیفة معه ، وان اکلمه • وفی صباح الغد ارسلتنی عدة مرات ، رغم اننی قلت لها ان جدی لا یأتی الا فی المساء • وکانت تسیر ورائی ، وتختبیء عند ناصیة الشارع • وفی الیوم الذی بعده لم یأت جدی ایضاً • وکانت السماء تمطر فی تلك الایام ، فأصاب امی برد لخروجها معی ، واضطرت أن تلزم فراشها من جدید •

وجاء جدی بعد ثمانیة ایام • فاشتری لی سمکة وتفاحة ایضاً ،

ولكنه لم يكلمنى ابداً • فلما مضى ، تبعته دون ضجة ، لاننى قررت ان اعرف اين يسكن ، لاقول ذلك لامى ، سرت فى اثره على الطرف الآخر من الشارع ، حتى لا يرانى • كان يسكن فى مكان بعيد ، لا فى ذلك المكان الذى انتقل اليه بعد ذلك ومات فيه ، بل فى شارع اشجار البطم ، في الدور الرابع من بيت كبير • وعدت الى البيت متأخرة • فوجدت امي قلقة اشد القلق ، لأنها لا تعرف اين كنت • فلما قلت لهـا اين كنت ، عادت ففرحت كثيراً ، وقررت ان تذهب اليه فى الغد • ولكنها فكرت غداً فى الامر ، فخافت ان تذهب اليه ، وظلت تتردد ثلاثة ايام ، نادتنى بعدها وقالت لى : « اسمعى يا نللى ، انا الآن مريضة ، ولا اريد ان اخرج من البيت ، ولكننى كتبت رسالة الى جدك ، فاذهبى اليه ، وأعطيه الرسالة • وراقبيه وهو يقرأ الرسالة ، وانتبهى الى ماسيقوله وما سيفعله • ثم اركعى على ركبتيك ، وقبليه ، واسأليه ان يغفر لأمك •• » • كانت امى تبكى كثيراً وهى تقبلنى ، ورسمت عليّ اشارة الصليب قبل ان اذهب ، وصلت، واركعتنى على ركبتى امام الايقونة معها ، ثم شيعتنى الى باب المنزل رغم مرضها ، وحين التفت الى وراء ، وجدتها ما تزال عنـــد الباب تشيعنى بنظراتها •

وصلت الى بيت جدى ، وفتحت الباب • كان المزلاج مرفوعـاً • فرأيت جدى جالساً الى مائدته يأكل خبزاً وقليلاً من البطاطس ، ورأيت آزور الى جانبه ينظر اليه ويحرك ذيله • فى ذلك المنزل ايضاً ، كانت النوافذ ضيقة مظلمة ، ولم يكن ثمة الا مائدة وكرسى واحد • كان جدى يعيش وحيداً • ودخلت • فبلغ جدى من فرط الخوف ان وجهه اصفر اصفراراً شديداً ، وأخذ يرتعش • أما أنا ، فلم أقل شيئاً ، وانما اقتربت من المائدة ، ووضعت عليها الرسالة • فلما رأى جدى الرسالة ، غضب

غضباً شديداً ، ونهض فجأة ، فتناول عصاه وهزها فوق رأسى ، ولكنه لم يضربنى • ثم جرّنى الى المدخل ، ودفعنى الى خارج ، فما كدت أهبط بضع درجات من السلم حتى رأيته يفتح الباب ، ويقذف الىّ بالرسالة غير مفضوضة •

عدت الى البيت • وقصصت على امى كل شيء • فلزمت فراشها من جديد •

الفصل الثامن

في تلك اللحظة دوى رعد شديد ، وتساقطت على زجاج النوافذ قطرات من المطر ، وغرقت الغرفة في الظلام • فرسمت العجوز على نفسها اشارة الصليب كأنها خائفة ، ونهضنا جميعاً على حين فجأة • قال العجوز وهو يلقي نظرة على النوافذ :

ـ سينقضي الرعد بعد قليل •

ثم نهض وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً • كانت نللي تتابعه ببصرها • وكانت في حالة من الاضطراب الشديد • لاحظت عليها ذلك• ولكنها كانت تتحاشى ان تنظر الي •

سألها العجوز وهو يعود فيجلس على مقعده :

ـ وبعد ؟

فألقت نللي حولها نظرة خائفة •

ـ ألم ترى جدك بعد ذلك ؟

ـ بلى ، رأيته •

اكملي حديثك يا حلوتي ، نعم نعم ، اكمليه •

فاستأنفت نللي سرد قصتها :

ـ خلال ثلاثة اسابيع لم ار جدي ، الى ان جاء الشتاء • جاء الشتاء ،

وهطل الثلج • وحين لقيت جدي مرة اخـرى في ذلك المكان نفسـه ، سررت كثيراً •• لان امي حزنت اشد الحزن لانقطاعه عن المجيء • فلما رأيته تعمدت ان انتقل الى الرصيف الآخر ، ليظن انني اهـرب منـه • والتفت ورائي فرأيته يحث الخطى ليلحق بي ، ثم اخذ يركض صارخاً : « نللي نللي »• وكان آزور يركض ايضاً وراءه • فرق قلبي لهذا المشهد ، ووقفت • اقترب جدي وتناول يدي ، وسار بي ، فلما لاحظ انني ابكي ، توقف ، ونظر الى وانحنى على يقبلني• فلاحظ عندئذ أن حذائي باليان، فسألني أليس عندي غير هذين الحذاءين • فأسرعت اقول له ان امي ليس معها نقود البتة ، وان سكان البيت الذي نحن فيه يتصدقون علينا بطعامنا شفقة ورحمة • فلم يقل جدي شيئاً ، ولكنه قادني الى السوق ، فاشترى لي حـذاءين ، وامرني ان انتعلهما فوراً ، ثم اخذني الى بيته في شـارع اشجار البطم • وقد دخل قبل ذلك الى دكان من الدكاكين فاشـترى لي فطيرة وقطعتين من الحلوى ، فلمـا وصلنـا الى البيت ، امرني بان آكل الفطيرة ، واخذ ينظر الى وأنا آكلها ، حتى اذا فرغت منها ، اعطاني قطعتي الحلوى • وقد وضع آزور قائمته على المائدة يريد ان يأكل من الفطيرة ، فأعطيته لقمة ؛ فضحك جدي ، ثم جذبني اليه ، وداعب رأسي • وسألني هل تعلمت شيئاً ، وما الذي اعرفه ، فذكرت له ما اعرفه • فأمرني ان آتي اليه في الساعة الثالثة من كل يوم ، ليعطيني دروسـاً • ثم طلب مني ان انظر من خلال النافذة ، الى ان يأمرني بالالتفات ، ففعلت ، ولكنني التفت اثناء ذلك خلسة فرأيته يفتق زاوية وسادته ويخرج منها اربعة روبلات من الفضة • ثم جاء بها الى وقال : « هـذه لك وحدك » • وهممت أن آخذها ، ولكنني فكرت في الامر ، فقلت له : « اذا كانت لي وحدي ، فلن آخذها » • فاذا هو يغضب فجأة ، ويصرخ بي : « كما تريدين ، خذيها واذهبي » • ولم يقبلني قبل ان اذهب •

فلما وصلت الى البيت قصصت على امي كل شيء • ولكن صحة أمي كانت تسوء شيئاً فشيئاً • وكان ثمة طالب من طلاب الطب يتردد الى صانع التوابيت ، فكان يعالج امي ، ويجرعها بعض الادوية •

وصرت اذهب الى جدي احياناً كثيرة : فلقد امرتني امي بذلك • واشترى جدي نسخة من الانجيل وكتاباً في الجغرافيا • واخذ يعطيني دروساً • كان يعدد لي بلاد الدنيا • ويحدثني عن سكانها • ويذكر لي أسماء البحار • ويقص عليّ أحداث التاريخ • ويروي لي كيف غفر لنا المسيح جميعاً • وكان يفرح حين ألقي عليه بعض الأسئلة • فأخذت اطرح عليه اسئلة كثيرة • فكان يروي لي كل شيء ، وكان يكلمني في كثير من الاحيان عن الله • وكنا في بعض الاحيان نلاعب آزور بدلا من ان ندرس • وكان آزور قد اخذ يحبني كثيراً • حتى لقد علمته كيف يقفز فوق عصا ، فكان جدي يضحك ويلاعب شمري • كان جدي لا يضحك الا نادراً • وكان في بعض الايام يتكلم كثيراً • ثم يصمت فجأة ، ويظل جالساً كأنه نائم ، مع بقاء عينيه مفتوحتين • وكان يبقى على هذه الحال حتى المساء • وكان وجهه يتبدل في المساء تبدلاً غريباً ، فيصبح مخيفاً ، ويظهر فيه هرم شديد • وكنت اصل في بعض الاحيان فأراه جالساً على كرسيه يفكر ، ولا يسمع شيئاً ، وقد رقد آزور قربه • فكنت انتظر وانتظر ، ثم اسعل ، فما ينظر اليّ • فانصرف عائدة ، وكانت امي تنتظرني في البيت على سريرها • وكنت اقص عليها كل شيء فاظل اقص عليها الى ان يهبط الليل • وتظل هي تصغي الى ما أرويه لها عن جدي : ما فعله في ذلك اليوم ، الحكايات التي حكاها لي ، الدرس الذي اعطانيه• وحين كنت اذكر لها انني جعلت آزور يثب فوق العصا ، وان جدي ضحك ، كانت تأخذ تضحك هي ايضاً ، وتظل تضحك مدة طويلة ، فرحة كل الفرح ، حتى لقد كانت تستعيدني ما قلت • ثم تأخذ تصلي • وكنت أتساءل دائماً : « كيف يمكن ان تحب امي جدي ، وان

لا يحبها هو » • وحين ذهبت الى جدى فى المرة التالية ذكرت له كيف ان امى تحبه كثيراً • فأصغى الى كلامى حتى النهاية ، غاضباً مقطباً ، دون ان يقول شيئاً • ثم سألته لماذا تحبه امى كل هذا الحب ، ولماذا تسألنى دائماً عنه ، فى حين انه لا يسألنى هو عنها ابداً ، فغضب جدى ، وطردنى ، فلبثت لحظة وراء الباب ، فاذا الباب يفتح ثانية ، واذا جدى ينادينى اليه ، ولكنه ظل غاضباً لا يقول شيئاً • فلما اخذنا نقرأ فى الانجيل ، عدت أسأله مرة اخرى لماذا لا يريد ان يعفو عن امى مع أن المسيح يقول : « احبوا بعضكم بعضاً ، واغفروا الاساءات » • فنهض فجأة ، واخذ يصرخ قائلاً ان امى هى التى علمتنى ان اقول هذا الكلام ، ثم دفعنى خارج الغرفة مرة ثانية وهو يأمرنى ان لا اعود اليه بعد اليوم ابداً • فقلت له اننى انا ايضاً لا احب ان اعود اليه ، ومضيت ••• وفى اليوم التالى ترك جدى مسكنه وانتقل الى مسكن آخر •

قال نيقولا سرجتش وهو يلتفت نحو النافذة :

ـ ألم أقل ان المطر سينقطع ؟ هو ذا انقطع ، وها هى ذى الشمس تظهر ، هل ترى يا فانيا ؟

فنظرت اليه آنا آندريفنا نظرة مترددة ، ثم التمع الاستياء فجأة فى عين العجوز الطيبة ، وكانت الى ذلك الحين ناعمة • وتناولت يدى نللى دون أن تنبس بكلمة وأجلست الفتاة الصغيرة على ركبتيها •

ثم قالت لها :

ـ تكلمى يا ملاكى ، قصى على ، سأصغى اليك • اما الذين قست قلوبهم ••

ولم تكمل جملتها ، بل أخذت تبكى • فألقت الى نللى نظرة سائلة ، وبدت حائرة مذعورة • ونظر الى العجوز هازاً كيفيه ، ثم تحول عنى فوراً •

ـ ما قيمـة المعطف فى مثل ذلك الجو البـارد ! ما اكثر ما تحملت يا صغيرتى التعيسة ! ثم ماذا فعل جدك ؟

اخذت شفتا نللى ترتعشان • ولكنها بذلت جهداً جباراً من اجل ان تسيطر على نفسها • واردفت تقول :

ـ عاد فى المساء بعد ان سـاد الظلام • فلما هم ان يدخل بيتـه ، اصطدم بى • فصرخ قائلاً : « من هنا ؟ » فأجبته « انا » • كان يعتقد انني انصرفت منذ مدة طويلة • فلما رأى اننى مازلت واقفة ، دهش كثيراً ، وظل واقفاً امامى زمناً • وفجأة ضرب السلم بعصاه • واسرع يفتح الباب • ثم عاد بعد دقيقة يحمل نقوداً من نحاس كانت كلها قطعاً من ذات الخمس كوبيكات ، فألقاها على السلم ، وهو يقولى لى : « خذى ! هذا كل ما بقى لى • وقولى لأمك اننى العنها • » ثم اغلق البـاب • تدحرجت قطع النقود على السلم ، فأخذت ابحث عنها فى الظلام ، ولاشك ان جـدى ادرك ان النقـود قد تبعثرت واننى اتكلف كثيراً من العناء لالتقاطها ، ففتح الباب وجاءنى بشمعة فوجدت النقود بسهولة ، وساعدنى جدى فى التقاطها ، وقال لى ان مجموعها يجب ان يكون سبعين كوبك ، ثم مضى • فلما عدت الى البيت اعطيت أمى النقود ، وحكيت لها كل شيء ، فازدادت صحتها سوءاً ، ومرضت انا ايضاً طوال الليل ، وانتابتنى الحمى فى الغد ، ولكننى كنت لا افكر الا فى شيء واحد ، لأننى كنت حانقة على جدى ، فلما نامت امى خـرجت ، وسرت فى طريقى الى بيت جدى • ولكننى توقفت عند الجسر • وفى تلك اللحظة انما مر ذلك الرجل •

قلت :

ـ هو أرشيبوف • سبق ان حدثتك عنه يا نيقولا سرجتش : ذلك الذى كان مع البائع عند بوبنوفا ، وكيلت له الضربات • كانت تلك اول مرة تلقاه فيها نللى •

واستأنفت نللي تقص حكايتها :

ـ فاستوقفته ، وسألته ان يعطيني روبل فضة ، فنظر الى وسألني : « روبل فضة ؟ » فقلت : « نعم » ، فأخذ يضحك وقال لي : « تعالى معي » لم اكن اعرف أيجب ان اذهب معه أم لا ، وفجأة اقترب عجوز قصير يضع على عينيه نظارتين ذهبيتين ، وكان قد سمع انني اطلب روبل فضة ، فانحنى عليّ وسألني لماذا أطلب هذا المبلغ ، فقلت له ان أمي مريضة ، وانها في حاجة الى هذا المبلغ لتشتري دواء ، فسألني اين تسكن ، وسجل العنوان ، واعطاني ورقة روبل ، اما الآخر ، فانه حين رأى العجوز القصير ، مضى في سبيله ، ولم يطلب مني بعد ذلك ان اذهب معه ، فدخلت احدى الدكاكين ، وابدلت الروبل قطعاً نحاسية ، لففت ثلاثين كوبك منها بورقة ، محتفظةً بها لامي ، وتركت السبعين الاخرى بيدي، وذهبت الى جدي ، فلما وصلت فتحت الباب ، ووقفت في العتبة وهززت يدي ، ورميت له النقود ، فتدحرجت على أرض الغرفة ، ثم قلت له : « هذه نقودك ، ان امي ليست في حاجة اليها ما دمت تلعنها » ، ثم صفقت الباب ووليت هاربة ،

كانت عينا نللي تلتمعان ، ورشقت العجوز بنظرة متحدية ،

قالت آنا آندريفنا ، دون ان تنظر الى نيقولا سرجتش ، وهي تشد نللي الى صدرها :

ـ ذلك ما كان يجب ان تفعليه ،، ذلك ما كان يجب ان تفعليه : لقد كان جدك امرءاً شريراً قاسياً ،

همهم نيقولا سرجتش :

ـ هم ،،

وسألتها آنا آندريفنا ، نافداً صبرها :

ـ وبعد ذلك • وبعد ذلك ؟

ـ بعد ذلك لم اذهب الى جدى ولا جاء هو ليرانى •

ـ وما الذى حدث لكما انت وامك ؟ آه يا رب •• ما أشقاهما !

ـ كانت صحة أمي تزداد سوءاً • واصبحت لا تنهض من فراشها الا نادراً •

قالت نللى ذلك واخذ صوتها يرتعش ، ويتكسر ، ثم تابعت حديثها:

ـ لم يبق فى ايدينا نقود ، فأخذت اتسول مع امرأة الضابط • كانت تمضى من بيت الى بيت ، وتستوقف الناس فى الشارع ، تسألهم صدقة • هكذا كانت تعيش • وكانت تقول لى انها ليست شحاذة ، وان فى يديها اوراقاً ذكرت فيها رتبة زوجها وذكر فيها انها فقيرة ، فكانت تبرز هذه الاوراق للناس ، فيتصدقون عليها • وكانت تقول لى ايضاً انه ليس عاراً ان يستجدى المرء جميع الناس • كنت اذن اذهب معها ، وكان النـاس يتصدقون علينا ، وهكذا كنا نعيش • وقد علمت امى بذلك ، لان السكان عيّروها بانها شحاذة ، ولان بوبنوفا جاءت تقـول لها ان من الافضل ان ترسلنى اليها بدلا من ان اتسول • كانت قد جاءت قبل ذلك تحمل الى امى بعض المـال ، ولكن امى رفضت المـال ، فاسـتغربت بوبنـوفا هذه الكبرياء ، وأرسلت الى أمى طعاماً ، حتى اذا حدثتها عنى بذلك فى هـذه المرة اخذت امى تبكى وخافت خوفاً شديداً ، فأخذت بوبنوفا تكيل لهـا الشتائم • كانت سكرانة • قالت لامى ان ابنتك شحاذة ، انها تتسول مع امرأة الضابط • وفى ذلك المساء نفسه طردت بوبنوفا امرأة الضابط • واخذت امى تبكى حين علمت بكل ذلك • ثم نهضت فارتدت ملابسها ، وامسكت بيدى ، وسارت بى • وحاول ايفان الكسندرتش ان يمنعها من الخروج ، فلم تطعه ، وخرجنا • كانت امى لا تكاد تقوى على السير ، فكانت تقعد فى كل لحظة ، وكنت أسندها • وطلبت الىّ أن أمضى بها الى

بيت جدى . كان الظلام قد خيم منذ مدة طويلة . ووصلنا فجأة الى شارع كبير . كانت عربات تتوقف امام بيت جميل ، فينزل منها الناس . وكانت نوافذ البيت تسطع بالانوار ، وتخرج منها موسيقى . فوقفت أمى ، وأمسكتنى ، وقالت لى : « نللى ، ابقى فقيرة ، ابقى فقيرة مدى الحياة ، ولكن لا تذهبى اليهم ، كائناً من كان الشخص الذى قد يدعوك أو يبحث عنك . انت أيضاً فى وسعك أن تكونى هناك ، غنية ، بثوب جميل . ولكننى لا أريد ذلك . انهم شريرون قساة ، اليك ما آمرك به : ظلى فقيرة ، اعملى ، اطلبى الصدقة ، فاذا جاءك أحد يريد أن يأخذك اليه ، فقولى له : لا أريد أن أذهب اليك . » . هذا ما قالته لى أمى حين كانت مريضة . وأريد أن أطيعها مدى الحياة (أضافت نللى هذا الكلام وهى ترتعش من فرط الانفعال ، وقد احمر وجهها حتى صار بلون الارجوان) سأظل طوال حياتى أخدم وأعمل . اننى أجىء اليكما الآن لاخدم وأعمل ، ولا أريد أن أكون ابنتكما .

صاحت العجوز وهى تشد نللى الى صدرها :

ـ كفى كفى يا صغيرتى كفى . لقد كانت أمك مريضة حين قالت لك هذا الكلام .

وعقب العجوز يقول بلهجة خشنة :

ـ كانت مجنونة .

فأجابت نللى بحرارة :

ـ يجوز انها كانت مجنونة ، ولكن هذا ما أمرتنى به ، وهذا ما سأفعله ماحييت . وبعد أن قالت لى ذلك ، سقطت مغشياً عليها .

صاحت آنا آندريفنا :

ـ يارب يارب .. مريضة ، فى الشارع ، شتاءً .

ـ وأرادوا أن يقودونا الى قسم الشرطة ، ولكن رجلا من المــارة تدخل فى الامر ، وسألنى أين نسكن ، وأعطانى عشرة روبلات ، وأمر سائقه ان يوصلنا الى بيتنا • وبعد ذلك اليوم ، لم تنهض أمى من فراشها أبداً ، وماتت بعد ثلاثة أسابيع •

صاحت آنا آندريفنا :

ـ وأبوها ؟ ألم يغفر لها ؟

فأجابت نللى ، وكانت تسيطر على نفسها ولكن فى كثير من العذاب:

ـ لا •• نادتنى أمى قبل موتها بأسبوع واحد ، وقالت لى : « اذهبى الى جدك مرة أخيرة ، واطلبى اليه أن يجىء ليرانى ويغفر لى • قولى له اننى سأموت خلال ثمانية أيام ، واننى أتركك للدنيا وحيدة ، وقولى له أيضاً اننى يحزننى أن أموت •• » فذهبت اليه ، فطرقت الباب ، ففتح ، فلما رآنى أراد أن يغلق الباب رأساً ، ولكننى تشبثت به بكلتا يدى ، وصحت : « أمى تموت وهى تطلبك ، تعال • » ولكنه دفعنى ، وصفق الباب • فعدت الى أمى ، ورقدت الى جانبها ، واحطتها بذراعى ، ولم أقل لها شيئاً • وأحاطتنى أمى بذراعيها أيضاً ، ولم تسألنى عن شىء •

فى هــذه اللحظة أسند نيقولا سرجتش يده على المائدة ، ونهض ثقيلا ، ولكنه بعــد أن شملنا جميعاً بنظرة غــريبة مضطربة ، هوى على مقعده كمن خارت قواه • وكانت آنا آندريفنا لا تنظر اليه ، وكانت تشد نللى الى صدرها ناشجة •

ـ وفى اليوم الاخير ، قبل أن تموت ، وكان ذلك فى المســاء ، نادتنى ، وأمسكت بيدى ، وقالت لى : « سأموت اليوم يا نللى » ، وأرادت أن تقول شيئاً آخر ، ولكنها لم تستطع • ونظرت اليها ، فخيل الى انها أصبحت لا ترانى ، ولكنها كانت لا تزال تشد على يدى بيديها ، فسللت

يدى برفق ، وخرجت أركض ، وظللت أركض طوال الطــريق حتى وصلت الى جدى . فلما رآنى نهض رأسا ونظر الىّ ، فبلغ من شــدة الرعب انه اصفر اصفراراً شديداً ، وأخــذ يرتعش . تناولت يده ولم أستطع أن أقول له سوى هذه الكلمة « تموت » . فجن جنونه فجأة ، وأخذ عصاه ، وركض ورائى ناسياً قبعته ، وكان الجو بارداً ، فتناولت أنا قبعته ووضعتها على رأســه وخرجنا نعدو . كنت أحثه على الاسراع ، وطلبت اليه أن يستأجر عربة لان أمى قد تموت من لحظة الى أخرى ، ولكن لم يكن معه الا سبعة كوبيكات . فاستوقف السائقين وساومهم ، فكانوا يضحكون منه ، ويهزأون أيضاً بآزور . لقد ركض آزور وراءنا . وواصلنا الركض مسرعين . وقد تعب جدى ، فكان يلهث لهاثاً شديداً ، ولا يكاد يستطيع أن يتنفس ، ولكنه ظل رغم ذلك يركض . وفجأة وقع على الارض وتدحرجت قبعته . فأنهضته وأعــدت القبعة الى رأســه ، وأمسكت بيده أقوده .. ووصلنا قبيل الليل .. ولكن أمى كانت قد ماتت .. فلما رآها جدى ميتة ، ضرب كفاً بكف ، وأخذ يرتعش ، وظــل الى جانبها دون أن يقول شيئاً . عندئذ اقتربت منه وتناولت يده ، وصحت به قائلة : « انظر أيها الانسان الشرير ، أيها الانسان القاسى ، انظر الآن ، انظر . » . فأخذ يصرخ ، وسقط على الارض كالميت .

فرغت نللى من رواية قصتها ، ثم وثبت من مكانها تتملص من عناق آنا آندريفنا ، ووقفت بيننا ، شاحبة الوجه خائرة القوى ، قد بلغت غاية العذاب . ولكن آنا آندريفنا هرعت اليها ، وضمتها مرة أخرى بذراعيها ، وأخذت تصيح كأنما يوحى اليها :

ــ سأكون أنا أمك الآن يا نللى ، ستكونين ابنتى يا نللى ! .. نعم يا نللى ، فلنذهب ، ولندعهم جميعــاً هؤلاء القســاة ، هؤلاء الشريرين ! فليعبثوا بالناس ماشاءوا ، حسابهم عند الله ! .. تعالى يا نللى ، فلنذهب ، فلنترك هذا المكان .

لم أرها في منل هذه الحالة يوماً ، وما كنت لاصدق انها يمكن أن تنفعل هذا الانفعال كله • فنهض نيقولا سرجتش عن مقعده ، وسألها بصوت متقطع :

ـ أين تذهبين يا آنا آندريفنا ؟

ـ أذهب اليها ، الى ابنتي ، الى ناتاشا •

قالت ذلك وهي تجر نللي نحو الباب •

ـ انتظري ، قفي •

ـ لافائدة من الانتظار ، يامن قلبه من صخر • لقد انتظرت طويلاً ، وانتظرت هي أيضاً طويلاً •• وداعاً !

قالت العجوز ذلك ، ثم استدارت ، وألقت نظرة على زوجها ، فتوقفت مشدوهة ، لقد رأت نيقولا سرجتش أمامها ، قد وضع قبعته على رأسه ، وراحت يداه الخائرتان الضعيفتان تسربلانه بمعطفه بسرعة •

ـ وانت أيضاً • وانت أيضاً •• تأتي معي •

ـ ناتاشا ، أين ابنتي ناتاشا ؟ أين هي ؟ أين ابنتي ؟ أعيدوا الي ناتاشا • أين هي ؟

بهذا هتف صدر الشيخ أخيراً •• ومددت اليه عصاه ، فتناولها ، وأسرع نحو الباب •

صاحت آنا آندريفنا :

ـ لقد غفر لها ، لقد عفا عنها •

ولكن الشيخ لم يصل الى العتبة • ذلك ان الباب فُتح فجأة ، واذا ناتاشا تدخل •• شاحبة ، متقدة العينين ، كأن بها حمى • كان ثوبها متجعداً بلله المطر ، وكان المنديل الذي اسبلته على رأسها قد انزلق الى كتفيها •• وعلى خصلات شعرها المنفوشة كانت تلتمع قطرات كبيرة من ماء المطر • دخلت راكضة ، فلما رأت أباها ، ركعت أمامه ، ممدودة الذراعين اليه •

الفصل التاسع

ولكنه تلقاها بذراعيه !..

أمسك بها ، وأنهضنها كطفل ، وحملها الى مقعده، ثم هوى على ركبتيه . كان يقبل يديها ، ورجليها، ويسرع فيقبل وجهها ، ويلتهمهـا التهاماً ، كأنه لم يصدق بعد انها معهما ، وأنه يراها ويسمعها ، هي ابنته ، ناتاشـا . وعانقت آنا آندريفنا ابنتها باكية ، وحضنت رأسها بصدرها ، وكانت تبدو كمن يوشك أن يغمى عليه في هذا العناق ، وخارت قواها فما تستطيع أن تنطق بكلمة .

ـ صديقتى ! . حياتى ! . فرحتى ! .

بهذا كان يهتف الشيخ بصوت متقطع . كان يمسك بيد ناتاشا ! وكعاشق ، كان يتأمل وجهها الشاحب ، النحيل ، الجميـل ، الساحر ، ويتأمل عينيها اللتين تلتمع فيهما الدموع . وكان يردد هتافه « فرحتى ؟ . ابنتى ! . » ثم يسكت من جديد ، ويأخذ يتأملها كالسكران من النشوة . وقال لنا وهو يبتسم ابتسامة سريعة طفولية ومايزال راكعاً أمامها :

ـ من قال لى انهـا نحلت ؟ انها نحلت ، صحيح ، انها شاحبة ، صحيح ، ولكن انظروا اليها قليلاً ! هل ترون ما أجملها ! انها أجمل مما كانت أيضاً ، نعم أجمل مما كانت أيضاً !

قال جملته الاخيرة هذه ، واضطر أن يسكت رغم أنفه ، تحت وطأة هذا الألم ، النابع من الفرح ، الذى كان يحس انه سيشطر قلبه .

ـ انهض يا أبت ، انهض يا أبت • أنا أيضاً أريد أن أقبلك •

ـ يا حبيبتي ، يا حبيبتي ، يا حبيبتي ! هل سمعت يا آنا كيف تتكلم بلطف !

قال ذلك ثم لفها بذراعيه ، وهو يرتعش • وأضاف :

ـ لا يا ناتاشا ، أنا الذي يجب أن أبقى عند قدميك ، الى أن يحس قلبي أنك غفرت لي • انني لا أستحق مغفرتك يا ناتاشا • لقد طردتك يا ناتاشا ، ولعنتك ، هل تسمعين يا ناتاشا ؟ لقد لعنتك ، استطعت أن ألعنك! وأنت يا ناتاشا ، كيف صدقت أنني لعنتك ، كيف صدقت ذلك ؟ • كان يجب ألا تصدقي ذلك ، أيتها القلب الصغير القاسي ! لماذا لم تجيئي الي ؟ انك لتعرفين حق المعرفة كيف يمكن أن أستقبلك •• آه يا ناتاشا •• هل تتذكرين كم كنت أحبك ؟ اذن فاعلمي أنني أحبك الآن وأنني ظللت أحبك طوال هذه المدة ، ضعفين •• ألف ضعف •• كان حبك في دمي! كان يمكن أن أنتزع قلبي من صدري ، وأن ألقيه بين قدميك ! آه يا فرحتي !

ـ قبلني اذن ، أيها القاسي، في شفتي ، في وجهي ، كما تفعل أمي•

هكذا صاحت ناتاشا بصوت ضعيف أليم تحجبه دموع الفرح •

ـ وفي عينيك أيضاً ، في عينيك أيضاً •• هل تتذكرين كيف كنت أقبلك في عينيك يا ناتاشا ؟

ردد العجوز هذا ، بعد عناق طويل عذب • ثم أردف يقول :

ـ هل كنت تحلمين بنا أحياناً يا ناتاشا ؟ أما أنا فكنت أحلم بك كل ليلة تقريباً • كنت تجيئين الي كل ليلة ، وكنت أبكي عليك • وفي ذات مرة ، رأيتك في المنام صغيرة جداً ، كما كنت في العاشرة من عمرك ، أيام بدأت تتعلمين البيانو : كان لك ثوب صغير قصير ، وحذاءان صغيران

جميلان ، وأساور وردية .. كان لها يدان ورديتان صغيرتان .. هل تتذكرين ياآنا ؟ جئت الىّ ، وجلست على ركبتى ، وأحطتنى بذراعيك . كيف ظننت أيتها الطفلة الشريرة أننى لعنتك ، وانى لن أستقبلك اذا جئت ؟ . ولكن .. اسمعى يا ناتاشا ، لقد ذهبت نحو بيتك مراراً .. أملك لم تعلم بذلك ، ولا علم به أحد .. كنت أبقى تحت النوافذ أحياناً ؛ وكنت أحياناً أخرى أنتظر . وفى بعض المرات انتظرت نصف يوم بكامله ، فى الشارع ، فى أى مكان ، قرب بابك .. قائلاً لنفسى : لعلها تخرج بعد قليل ، فأراها من بعيد . وفى المساء ، يكون فى نافذتك شمعة مشتعلة غالباً ، فما أكثر ماذهبت الى هناك ، لا لشىء الا لأرى الشمعة ، لا لشىء الا لألمح خيالك ، فأباركك مباركة المساء . وانت يا ناتاشا هل باركتنى مرة مباركة الليل ؟ هل كنت تفكرين فى ؟ هل كان قلبك الصغير يحس اننى هناك ، تحت النافذة ؟ وما أكثر ماصعدت السلم شتاء ، فى ساعات متأخرة من الليل ! . فكنت أبقى وراء الباب فى الظلام ، وارهف أذنىّ ، عسى أن أسمع صوتك ، أو ضحكتك .. هل يمكن أن ألعنك ، وتلك حالى ؟ وفى ذات مساء ، ذهبت اليك ، وأردت أن أغفر لك ، ولم أنكص على عقبى الا عند الباب .. آه .. يا ناتاشا !

قال ذلك ثم وقف ، فأنهضها عن المقعد ، وحضنها الى قلبه . وقال:

ـ انها هنا ، من جديد ، على قلبى . أحمدك اللهم على كل شىء ، على غضبك وعلى رأفتك !. أحمدك اللهم على الشمس التى تضيئنا الآن جميعاً بعد العاصفة . أحمدك اللهم على هذه اللحظة كلها . اللهم انهم قد أذلونا وأهانونا ، ولكن هانحن أولاء عدنا فالتقينا . ألا فليظفر الآن أولئك العتاة المتغطرسون الذين حقرونا وأهانونا ! ألا فليرجمونا بالحجر ! لاتخشى شيئاً يا ناتاشا ! سأمضى اليهم ، واضعاً يدى بيدك ، وسأقول لهم : « هذه

ابنتى الغالية ، هذه ابنتى الحبيبة ، هذه ابنتى البريئة ، التى أهنتموها وأذللتموها •• ولكننى أحبها ، أنا ، أحبها وأباركها الى الابد • »

قالت ناتاشا بصوت ضعيف وهى تمد الىّ يدها بينما كان أبوها يقبلها :

ـ فانيا ، فانيا !

لن أنسى ماحييت انها تذكرتنى فى تلك اللحظة ونادتنى •

قال الشيخ وهو ينظر حوله :

ـ أين نللى ؟

وصاحت العجوز :

ـ نعم أين نللى ؟ لقد تركناها ، هذه الصغيرة العزيزة •

ولكن نللى لم تكن هناك • لقد تسللت خلسة الى حجرة النوم • ذهبنا الى هناك جميعاً ، فرأيناها فى ركن وراء الباب ، مختفية على خوف •

صاح العجوز :

ـ مابك يا ابنتى ؟

وكان يريد أن يتناولها بذراعيه ، ولكنها ألقت عليه نظرة طويلة ، ثم قالت كالغائبة عن نفسها :

ـ أمى ، أين أمى ؟

ثم صرخت وهى تمد الينا ذراعيها المرتجفتين :

ـ أين أمى ؟

ثم اذا بصرخة فظيعة ، رهيبة ، تخرج من صدرها • وتشنج وجهها ، وسقطت على الارض فريسة نوبة مرعبة •

ذكريات أخيرة

كنا في منتصف حزيران (يونيه) . الجو حار خانق . يستحيل على المرء أن يبقى في المدينة مع الغبـار ، والكلس ، والبيوت التي تبنى ، والبلاط المحرق ، والهواء المسمم بالروائح . ولكن ، يا فرحتنا ! هذا هو الرعد يدوي . وأظلمت السماء شيئاً بعد شيء . وهبت الريح زوابع ذات اعجاج . وهطلت قطرات كبيرة من المطر على الأرض ثقيلة . وما هي الا لحظة ، اذ السماء كأنها تنشق ، واذا الأمطار تنزل على المدينة كأنها السيل ، حتى اذا أشرقت الشمس بعد نصف ساعة ، فتحت نافذة غرفتي الصغيرة ، وتنشقت الهواء الطري ملء رئتي ؛ ففاضت نفسي نشوة ، فأردت أن أدع قلمي ، وأعمالي ، وأن أسرع الى أصحابي هناك في فاسيلي أوستروف . ولكنني استطعت أن أنتصر على نفسي رغم شدة الاغراء ، فعدت الى أوراقي مقهوراً : يجب أن أنجز عملي مهما كلف الأمر . ان ناشري يطالبني بذلك ، ثم انه لن يدفع لي مالاً ، مالم أنجز عملي . انهم ينتظرونني هناك ، ولكنني في مساء هذا اليوم سأكون حراً ، حراً كالهواء ، وستعوضني هذه السهرة عما لقيت من عناء في اليومين الأخيرين والليلتين الأخريين اذ كتبت ثلاث صفحات ونصف الصفحة !

وهأنذا أنجز عملي أخيراً ، فأرمي قلمي ، وانهض . انني أحس بألم في ظهري وفي صدري ، وان بي لصداعاً . أعرف ان أعصابي في

هذه اللحظة مهتزة أشد الاهتزاز • وخيل الى انني مازلت أسمع الكلمات الاخيرة التي قالهـا لى صاحبي الطبيب « لا لا ، ما من صحة يمكن أن تحتمل هذا التوتر كله •• مستحيل» ، ومع ذلك لم يكن ذلك مستحيلاً حتى الآن • ان رأسي يدور ، ولا أكاد أقوى على الوقوف • ولكن فرحاً عظيماً ، فرحاً لا نهاية له ولا حدود له ، يملأ قلبي • لقد أنجزت قصتى انجازاً كاملاً • وناشرى ، رغم انني مدين له بمال كثير ، سوف يعطيني شيئاً على كل حال ، حين يمسك فريسته بين يديه ، سوف يعطيني ولو خمسين روبلاً • وأنا لم أحمل مثل هذا المبلغ منذ مدة طويلة • لسوف أستمتع بالحرية والمال معاً ! • وفاضت نفسى حماسة ، فتناولت قبعتى ، وتأبطت مخطوطتي ، ومضيت مسرعاً ، عسى أن أجد عزيزنا الكسندر بتروفتش •

ووجدته • ولكنه كان يوشك أن يخرج • لقد عقد منذ لحظة اتفاقاً لا شأن له بالأدب ، ولكنه يدر عليه ربحاً وفيراً ، فلما فرغ من تشييع اليهودى القصير الاسمر الذى كان قد مكث معه فى حجرته ساعتين كاملتين ، مدّ يده الىّ هاشاً باشاً ، وسألنى بصوته الرخو الأجش عن صحتى ، وأظهر قلقه عليها • انه أحسن الناس طراً ؟ ولست أمزح اذا قلت ان له علىّ فضلاً • هل ذنبه أنه لم يكن فى الأدب خلال حياته كلها الا رجلاً من رجال الأعمال ؟ لقد فهم ان الأدب فى حاجة الى رجال الاعمال ، وأدرك ذلك فى الوقت المناسب • له العزة والمجد ، من ناحية الاعمال طبعاً •

وابتسم ابتسامة عذبة حين علم ان قصتى قد انتهت ، وان البـاب الرئيسى فى العدد القادم من مجلته قد هيء اذن • وأدهشه اننى استطعت أن أنجز شيئاً • وأخذ ينكت ويمزح بهذا الصدد • ثم مضى الى صندوقه ليأتيني بالخمسين روبلاً ، وناولنى بانتظار ذلك عدداً من مجلة تناصب

مجلته العداء ، مجلة سميكة ثخينة ، ودلني على بضعة أسطر في فصل النقد منها ، تتحدث عن قصتي الاخيرة •

ونظرت فرأيت ان المقالة بقلم « الناسخ » • انه لا يسبني في هذه المقالة ولكنه لا يغمرني أيضاً بالأزهار : فسررت كل السرور • غير ان « الناسخ » يقول فيما يقول : ان المرء يشم في مؤلفاتي « رائحة العرق » ، يعني ان العرق يتصبب مني حين أكتب ، وانني أتكلف جهداً كبيراً ، وانني أسرف في الصقل والصنعة اسرافاً يغدو منفراً •

فضحكنا أنا والناشر ضحكاً شديداً ، وأعلمته ان قصتي الاخيرة قد كتبت خلال ليلتين ، وانني كتبت قصتي هذه خلال هذين اليومين وهاتين الليلتين • لو علم بهذا ذلك « الناسخ » الذي يأخذ عليّ افراطي في التدقيق وبطئي !

ـ ولكن هذا خطأ منك أيضاً يا ايفان بتروفتش ، لماذا تتأخر كل هذا التأخر حتى تضطر الى العمل ليلاً ؟

صحيح ان الكسندر بتروفتش أظرف الناس طراً، الا ان فيه ضعفاً : هو انه يتباهى بأحكامه الادبية أمام أناس يقدّر هو نفسه انهم يعرفونه حق المعرفة ، ولكنني لا أحب أن أناقشه في الأدب ، فتناولت المال وقبعتي، ونهضت • كان الكسندر بتروفتش ذاهباً الى بيته الجميل في الجزر ، فلما علم انني ذاهب الى فاسيلي أوستروف ، تلطف فاقترح أن يوصلني الى هناك في عربته •

ـ هل تعلم انني اشتريت عربة جديدة ؟ انك لم ترها بعد • انها جميلة جداً •• ونزلنا • حقاً ان العربة جميلة جداً • ان الكسندرا بتروفتش فرحٌ بها كل الفرح ، حتى انه ليشعر بنوع من الحاجة الى أن يركب أصدقاءه فيها •

واسترسل الكسندر بتروفتش أثناء الطريق ، عدة مرات ، في

الحديث عن الادب المعاصر • انه لايتحرج أمامي ، بل يردد بكل هدوء الآراء التي سمعها مؤخراً من هـذا أو ذاك من الكتاب الذين يثق بهم ويحترم أحكامهم • ويجب أن أذكر في هذه المناسبة انه يتفق له في بعض الاحيان أن يحترم أشياء غريبة • ويتفق له كذلك أن يفسد رأياً ينقله ، أو أن يضعه في غير موضعه : فتخرج من ذلك بلبلة مابعدها بلبلة • وكنت أصغي اليه دون أن أنبس بكلمة ، وأعجب للأهواء الانسـانية ما أكثر تنوعها وما أشد غرابتها ، قائلاً لنفسي : « هذا الانسان مثلا كان ينبغي أن يكفيه جمع المال ، بهدوء • ولكن لا ، انه يريد لنفسه المجد أيضاً ، المجد الادبي ، يريد أن يشتهر بأنه ناشر ممتاز ، بأنه ناقد جيد • »

لقد حاول في هذه اللحظة أن يعرض عليّ بالتفصيل رأياً سمعه مني منذ ثلاثة أيام ، وتناقشنا فيه • وها هـو ذا الآن يعرضـه عليّ رأياً من آرائه • الا ان نسياناً من هذا القبيل كان يتفق لالكسندر بتروفتش في كل لحظة ، وجميع أصدقائه يعرفون فيه هذا الضعف البريء • ما اعظم سروره الآن ، وهو يخطب ويعظ في عربته ، ما أعظم رضاه عن نفسه ! انه يدير حديثاً أدبياً متفيهقا ، وان صوته الاجش العذب الهادىء يساهم في اضفاء صفة العلم على كلامه • وشيئاً فشيئاً ، انتقل الى لهجـة حرة طليقة ، فعبر عن اقتناعه الريبي البريء بان أدبنا ، وكل أدب بوجه عام ، لايملك أحد من أصحابه شيئاً من الاستقامة أو التواضع ، وانه لم يبق ثمة الا تبادل لطم ولكم • وقدرت بيني وبين نفسي أن الكسندر بتروفتش يميل حتى الى اعتبـار كل كاتب مستقيم صادق شخصاً غبياً ان لم يكن معتوها ، لاستقامته وصدقه • بديهي ان هذا الرأي ناشيء عن ان الكسندر بتروفتش بريء الى أقصى حدود البراءة •

ولكنني لم أصغ اليه • وأنزلني في فاسيلي أوستروف • فأسرعت أمضي الى أصدقائي • هذا هو الشارع الثالث هذا هو بيتهم الصغير •

فلما رأتني آنا آندريفنا لوحت لي باصبعها تسكتني ، وحركت ذراعيها نحوى قائلة « هش » ، وذلك حتى لا أحدث ضجة . وسرعان ما همستْ قائلة :

ـ لقد نامت نللى المسكينة منذ لحظة ، فأناشدك الله لا توقظها ! انها ضعيفة جداً . ونحن قلقون عليها . قال الطبيب : لا خطر عليها الآن . ولكن هيا حاول أن تحصل على كلام معقول من صاحبك هذا الطبيب . الا تستحي يا ايفان بتروفتش ؟ لقد انتظرناك على العشاء .. بعد أن مضى على غيابك يومان !

ـ قلت لك أول أمس انني لن أجيء الا بعد يومين ، لان هناك عملاً كان عليّ أن أنجزه .

ـ ولكنك وعدتنا بأن تتعشى اليوم معنا ، فلماذا لم تجيء ؟ لقد نهضت نللى من فراشها خصيصا ، يا لها من ملاك ! فحملناها الى الكرسى الطويل ، وكانت تقول : « أريد أن أنتظر فانيا معكم » ، ولكن صاحبنا فانيا لم يظهر ! أين كنت تتسكع ؟ آه منكم أيها الغاوون ! كانت المسكينة محطمة ، لم أعرف كيف أبث فيها شيئاً من القوة .. ومن حسن الحظ انها نامت ، هذه الطفلة العزيزة . ثم ان نيقولا سرجتش قد نزل الى المدينة ، وسيعود وقت الشاى . لقد عُرض عليه عمل يا ايفان بتروفتش . ولكن مجرد التفكير في ان هذا العمل سيكون في برم يجمد قلبي .

ـ أين ناتاشا ؟

ـ في الحديقة يا عزيزى . اذهب اليها . انها هي أيضاً غريبة .. لا أفهم ماذا بها . آه ما أشد عذابي يا ايفان بتروفتش ! انها تؤكد لي انها سعيدة مسرورة ، ولكنني لا أصدق هذا الكلام .. اذهب اليها ، يا فانيا ، وستقص عليّ بعد ذلك مابها ، سراً .. أليس كذلك ؟

فهرعت الى الحديقة قبل أن تنهي آنا آندريفنا كلامها . هي حديقة

صغيرة تابعة للبيت ، يبلغ طولها عشرين قدماً ، وكذلك عرضها تقريباً ، مخضوضرة في كل جانب منها : فيهـا ثلاث شجرات واسعة الفروع ، وبضع سندرات ، وغياض من الليلك وزهر الجبل ، وشجرة من أشجار التوت الشوكي في ركن صغير ، وطريدتان زرعتا بتوت الفراولة ، ولها ممران متعرجان ، طولاً وعرضا ٠ ان العجوز يحب هذه الحديقة الصغيرة حب العبادة ، ويؤكد ان الفطر لن يلبث أن ينبت فيها ٠ ونللي خاصة ، أحبت هذا المكان ، فكانوا يحملونها اليه على مقعدها في كثير من الاحيان، اذ لقد أصبحت معبـودة البيت كله ٠ هاهي ذي ناتاشا : انها تقبل عليَّ بابتسامة فرحة ، مادةً اليَّ يدها ٠ ما أشد هزالها وشحوبها ! انها هي أيضاً لم تكد تخرج من المرض ٠

ــ هل أنجزت عملك انجازاً تاماً يا فانيا ؟

ــ نعم ٠٠ وأنا الليلة حر تماماً ٠

ــ الحمد لله ! هل تعجلت الكتابة ؟ هل أساء هذا التعجل الى القصة ؟

ــ ما حيلتي ؟ على كل حال ، لا ضير ! انني حين أعمل وأنا في مثل هذا التوتر النفسي ، أصل الى حالة خاصة ، فيكون ذهني أصفى ، ويكون احساسي أعنف وأعمق، وأكون سيد أسلوبي٠ ان التوتر يحسِّن كتابتي ٠

ــ فانيا ، فانيا ٠

لقد لاحظت ان ناتاشا أصبحت في الايام الاخيرة شديدة الاحتفال بما أحقق من نجاح أدبي ، وبما أصيب من شهرة ٠ انها تقرأ كل ماشرته منذ عام ، وتسألني في كل لحظة عن مشاريعي المقبلة ، وتتابع ما يكتب من نقد يتناول آثاري ، فيغضبها بعض هذا النقد ، وتصر على أن أبلغ مكانة رفيعة في الادب ٠ وقد انكشفت رغباتها هذه قوية عنيفة فلم يسعني ازاءها الا أن أدهش لهذا الميل الجديد ٠

قالت لى :

ـ انت ترهق نفسك يا فانيا ، انت ترهق نفسك ، وتحملها فوق طاقتها . ثم انك تهدم صحتك . انظر الى س ... انه أنفق سنتين فى كتابة قصة واحدة . وانظر الى ن ... انه لم ينشر الا رواية واحدة خلال عشرة أعوام . ولكن كتابتهما مصقولة كاملة ، لا يجد المرء فيها اهمالاً واحداً .

ـ نعم ، ولكن حياتهما مؤمنة ، وليسا فى حاجة الى أن يكتبا فى موعد معين ، أما أنا .. فحصان عربة ! على كل حال ، ليس هذا كله الا سخافات . دعينا من هذه الامور ، يا صديقتى .. والآن ، هل من جديد ؟

ـ نعم ، أولاً : رسالة منه .

ـ أيضاً ؟

ـ نعم .

قالت ذلك ومدت الى رسالة من اليوشا . انها الرسالة الثالثة منذ افترقا . أما الاولى فقد وصلت من موسكو ، ويظهر انه كتبها وهو فى حالة عصبية ، وفيها يقول ان الظروف تمنعه من العودة الى بطرسبرج كما كان ينوى . وأما الثانية فيعلن فيها انه عائد قريباً للزواج بناتاشا ، وان هذا قد تقرر ، وانه مامن قوة فى العالم يمكن أن تحول دونه . ومع ذلك كان واضحاً من لهجة رسالته كلها انه يائس ، وانه يرزح تحت عبء تأثيرات أخرى ، وانه يشك منذ الآن فى نفسه . وقال فيما قال ان كاتيا هى التى تشد أزره ، وانها سلواه الوحيدة وسنده الوحيد .

وأسرعت ففضضت الرسالة الثالثة . هى صفحتان كتبتا بخط متعثر ، مشوش ، متعجل ، لا يكاد يقرأ .. وعليها بقع حبر ودموع . ان اليوشا يعلن منذ البداية انه يعدل عن ناتاشا ، وينصحها بأن تنساه ، ويحاول أن

يبرهن لها ان زواجهما مستحيل ، وان هناك مؤثرات أجنبية معادية أقوى من كل شيء ، وانهما أخيراً لن يكونا معاً الا شقيين لانهما لايصلح أحدهما للآخر • ولكن اليوشا لم يستمر على هـذه النغمة ، فاذا هو فجأة يترك نظرياته وبراهينه بلا لف ولا دوران ، وبدلاً من أن يمزق الرسالة وان يهمل هذا القسم الاول منها ، يتابع كلامه قائلاً انه مجرم في حق ناتاشا ، وانه رجل ضائع ، لم يملك من القوة مايقاوم به ارادة أبيه الذي وصل اليهم منذ مدة قصيرة ، وانه لايستطيع وصف الآلام التي يعانيها وانه يشعر بأنه قادر على اسعاد ناتاشا ، ويصرح فجأة بأن كلا منهما قد خلق للآخر حتماً ، ويأخذ يفند حجج أبيه في عناد واصرار • ثم يرسم ، يائساً ، صورة السعادة التي كان يمكن أن تكون نصيبهما كليهما لو تزوجا ، ويأخذ يلعن نفسه لما يتصف به من جبن • ثم يودع ناتاشا الى الابد •

واضح ان كتابة هذه الرسالة كانت عذاباً له • واضح انه كان خارجا عن طوره وهو يكتبها • واغرورقت عيناي بالدموع ، ومدت الي ناتاشا رسالة أخرى ، من كاتيا • لقد وصلت رسالة كاتيا مع رسالة اليوشا في ظرف واحد ، ولكنها مودعة في غلاف مستقل • وفي هذه الرسالة تقول كاتيا ان اليوشا كان حزيناً حقاً ، وانه كان يبكي كثيراً ، وانه كان يائساً ، حتى انه مـرض قليلاً ، ولكنها هي معـه ، وسيكون سعيـداً • وحاولت كاتيا أن تشرح لناتاشا ان عليهـا ألا تظن ان اليوشـا سيسلوها بسهولة ، فان لوعته ليست بالشيء اليسير : « انه لن ينساك أبداً • لن يستطيع أبداً أن ينساك ، فأنت تعرفين قلبه • انه يحبك حباً لا حـدود له ، وسيظل يحبك مدى الحياة • ولو سلاك ، لو أصبح يوماً لا يتألم لذكراك ، فلن أحبه أنا بعد ذلك • »

أعدت الرسالة الى ناتاشا وتبادلنا نظرة صامتة• وهذا ماحدث للرسالة الاولى فالرسالة الثانية • لقد أصبحنا نتحاشى الحديث عن الماضي ، كأننا

اتفقنا على ذلك ، ولكنها لا تريد أن تتحدث في هـذا أمامي . انها حين عادت الى بيت أبيها ظلت طريحة الفراش ثلاثة أسابيع ، فكانت تعانى من الحمى ولا تكاد تنهض . وكنا لا نتحدث كذلك الا نادراً عن التغير الذى سيطرأ ، رغم انها تعرف ان أباها قد وجد عملاً ، وان علينا أن نفترق في القريب . ورغم الحنان وألوان الرعاية التى كانت تغمرنى بها طوال هذه المدة ، ورغم اهتمامها بكل ما كان يتصل بى من قريب أو بعيد ، ورغم اصغائها الشـديد الى كل ما كان علىّ أن أقوله لها من تلقاء نفسى (وكان يثقل علىّ ذلك في أول الامر) ، فقد كنت أشعر انها تريد أن تعوضنى عما لقيت من عذاب ، لا أكثر من ذلك ولا أقل . غير ان هـذا الشعور المؤلم لم يلبث أن زال . ولم ألبث ان فهمت ان لها رغبة أخرى ، لم ألبث ان فهمت انها تحبنى بكل بساطة ، تحبنى حباً لا حدّ له ، وانها لا تستطيع أن تعيش دون أن يقلقها كل ما يتصل بى من أمر . يقينى انه مامن أخت أحبت أخاها يوما كما تحبنى ناتاشا . كنت أعرف ان فراقنا القريب يسحق قلبها سحقاً ، وانها تتألم أشد الالم . وكانت تعلم هى أيضا اننى لا أستطيع أن أعيش بدونها . ولكننا كنا لا نتحدث فى هذا ، رغم اننا تحدثنا تفصيلاً عن الاحداث التى تتهيأ .

سألتها عن أنباء نيقولا سرجتش ، فأجابتنى :

ــ أظن أنه عائد بعـد قليل ، فلقد وعد بأن يكون هنـا فى موعد الشاى .

ــ ألا يزال يقوم بمساعٍ للحصول على ذلك المركز ؟

ــ نعم .. وسيحصل عليه من غير شك .

ثم أضافت حالمةً :

ــ لم يكن اليوم فى حاجة الى الخروج .. كان يمكنه أن يرجىء ذلك الى الغد .

- فلماذا خرج اذن ؟
- لأنني تلقيت هذه الرسالة •
وأضافت بعد صمت :
- انه مريض بحبي يا فانيا ، وهذا يؤلمني • يقيني أنه لا يحلم الا بي • يقيني أنه لا يهتم الا بشيء واحد : مايحدث لي ، ما أفكر فيه • كل هم من همومي تترجع اصداؤه في نفسه • انه في بعض الاحيان يحاول السيطرة على نفسه ، ولكن في غير طائل • يحاول أن يتظاهر بأنه غير قلق ، بأنه مرح ، يحاول أن يضحك وأن يضحكنا • وأمي أيضاً تتبدل في مثل تلك اللحظات •• انها لا تصدق هذه الحماسة في أبي ، فتأخذ تتنهد • يا لها من خرقاء ! انها مستقيمة مسرفة في الاستقامة (قالت ناتاشا ذلك وهي تضحك) • وهكذا ، حين تلقيت هذه الرسالة اليوم ، أحس أبي بحاجة ملحة الى الخروج، وذلك حتى لايلتقي نظره بنظري•• انني أحبه أكثر من نفسي ، أحبه أكثر من أي شيء في العالم ، أحبه يا فانيا حتى أكثر مما أحبك • (قالت عبارتها الاخيرة هذه وهي تغض طرفها ، وتشد على يدي) •

ودرنا الحديقة مرتين قبل أن تستأنف ناتاشا كلامها • قالت :
- زارنا اليوم ماسلوبويف •
- نعم ، لقد تعوّد في هذه المدة الاخيرة أن يزوركم •

- وهل تعلم ، هل تعلم لماذا يجيء الينا ؟ ان أمي تثق به ثقة مطلقة. انها تعتقد أنه من العلم بكل شيء (بالقوانين وسائر الامور) بحيث يستطيع أن ينجح في حل أية قضية من القضايا • هل تعرف ما الذي يصدع رأسها الآن ؟ انها في أعماق نفسها يؤسفها ألا أكون أميرة • وهي من حزنها على كل ذلك لاتنام • واغلب ظني انها فاتحت ماسلوبويف في هذا الامر • انها لاتجرؤ أن تتحدث في هذا الموضوع الى ابي ، وهي

تعتقد أن ماسلوبويف يستطيع أن يساعدها باللجوء الى القانون • وماسلوبويف لا يعارضها طبعاً ، فتدلله بالشراب (أضافت ناتاشا ذلك وهي تطلق ضحكة صغيرة) •

ـ لا أستغرب ذلك على هذا المشعبذ ! ولكن كيف عرفت كل ذلك ؟

ـ امي نفسها المحت اليه •

ـ ونللي ؟ كيف حالها ؟

ـ استغرب يافانيا انك لم تسألني عن انبائها الى الآن

قالت ناتاشا ذلك بلهجة اللوم •

كانت نللي معبودة البيت كله • كانت ناتاشا تحبها كثيراً ، وكانت نللي قد فتحت قلبها لها أخيراً • مسكينة هذه الطفلة • انها لم يدر في خلدها يوماً انها ستلقى مثل هؤلاء الناس ، وأنها ستجد كل هذا الحب ! كنت ألاحظ ، فرحاً ، ان قلبها الحانق قد رق ، وان نفسها انفتحت لنا جميعا ، فكانت ترد على الحب الذى تحاط به ، كانت ترد عليه بحماسة مرضية تتناقض كل التناقض مع العناد والعداء والحذر الذى كان يملأ نفسها في الماضي • على أن نللي كانت قد عندت مدة طويلة فأخفت عنا دموع الرضا الذى كان يتجمع في قلبها ، ثم اسلمت نفسها أخيراً • وقد تعلقت بناتاشا تعلقا شديداً ، ثم تعلقت بالعجوز ايضاً • اما أنا فقد أصبحت لاتستغنى عني لحظة ، حتى ان صحتها كانت تزداد سوءاً حين أتغيب مدة من أجل أن أنجز العمل الذى أهملته • ظللت أنصحها وأعظها مدة طويلة •• بكلام مغطى ، طبعاً • كانت نللي ما تزال تشعر بشيء من الحياء من اظهار عاطفتها صريحة حرة ••

كنا نشعر جميعاً بكثير من القلق عليها • لقد كان من المتفق عليه ضمناً أن تظل في بيت نيقولا سرجتش • ولكن سفرهم يقترب ، وصحتها

تزداد سوءاً يوماً بعد يوم • لقد مرضت فى ذلك اليوم نفسه الذى أخذتها فيه الى العجوزين ، فى ذلك اليوم نفسه الذى تم فيه الصلح بينهما وبين ناتاشا • على انها ، ماذا أقول ؟ كانت مريضة قبل ذلك كثيراً ، ولـكن مرضها يتفاقم الآن بسرعة لا تصدق • لا أدرى ماذا كان مرضها على وجه الدقة ، ولا أستطيع أن أعيِّنه وان أحدده • صحيح ان نوباتها ازدادت ، ولكن التهدم وانهيار القوى والتوتر والحمى ، هذه الامور خاصة هى التى كانت تلزمها فراشها فى الايام الاخيرة • والشىء الغريب ان نللى كانت تزداد نعومة ورقة وحناناً وثقة فى معاملتنا ، كلما الحّ عليها المرض •

لقد مررت قربَ سريرها الصغير منذ ثلاثة أيام ، فاذا هى تتناول يدى وتجذبنى اليها • كنا وحدنا فى الغرفة • وكان وجهها يحترق من شـدة الحمى (ولقد هزلت هزالاً رهيباً) ، وكانت عيناها تتقـدان • تطاولت نحوى بحركة عنيفة جامحة ، حتى اذا انحنيت عليها أحاطتنى بذراعيها الصغيرين الأسمرين الناحلين ، وقبلتنى بحرارة • ثم ما لبثت أن طلبت ناتاشا ، فناديتها • كانت نللى تصر على أن تجلس على سريرها وأن تنظر اليها •• قالت لها :

ــ أنا أيضا أحب أن أنظر اليك • لقد حلمت بك أمس ، وسأحلم بك الليلة • اننى أحلم بك كثيراً ، كلَّ ليلة •

كان واضحا انها تريد أن تفصح عن شىء ، أن تفضى بعاطفة تنوء بحملها ، ولكنها كانت لاتفهم ماتحسه ، ولا تعرف كيف تعبر عنه •

وكانت نللى تحب نيقولا سرجتش أكثر من أى شخص آخر بعدى أنا •• ويجب أن نذكر ان نيقولا سرجتش يمحضها من الحب مثل مايمحض ناتاشا تقريبا • وكان يملك قدرة مدهشة على افراحها واضحاكها ، فمايكاد يدخل غرفتها حتى يبدأ الضحك والعبث• كانت المريضة الصغيرة تضحك كطفلة ، وتعابث العجوز ، وتهزأ به ، وتقص عليه أحلامها ، وتخترع

وتلفق ، ثم تجبره على أن يحكى هو أيضا ، فكان الشيخ يبلغ من الفرح والسرور وهو ينظر الى « ابنته الصغيرة نللى » ان نشوته بمجالستها تزداد يوما بعد يوم •

قال لى مرة وهو يترك نللى بعد أن رسم عليها اشارة الصليب فى الليل على عادته :

ـ ان الله هو الذى بعث بها الينا تعويضاً عما لقينا من آلام ••

كنا فى المساء نجلس معاً (وكان ماسلوبويف يأتى أيضا ، كل مساء تقريباً) ، وكان الطبيب العجوز الذى تعلق بأسرة اخمنيف تعلقاً شديداً ينضم الينا فى بعض الاحيان • كنا نحمل نللى على مقعدها الى قرب المائدة المستديرة • ونفتح باب الشرفة ، فنطل على الحديقة الصغيرة كلها وقد أغرقتها أشعة الشمس الغاربة • وكانت رائحة الخضرة الطرية والليلك المتفتح تنعش صدورنا • كانت نللى تنظر الينا جميعاً من على مقعدها ، وتصغى الى حديثنا ، وقد فاض وجهها عاطفة وحناناً • وكانت تتحمس من حين الى حين فتقول بضع كلمات •• ولكننا نصغى الى كلامها قلقين ، لأن فى ذكرياتها أموراً يجب ألا تُمس •• وكنا نشعر ، أنا وناتاشا والعجوز واخمنيف ، اننا أذنبنا فى حقها كثيراً يوم حملناها على أن تروى لنا حياتها كلها ، وهى ترتعش متعبة مرهقة • وكان الطبيب خاصة يعارض فى ايقاظ هذه الذكريات ويحاول عادةً أن يغير مجرى الحديث• وكانت نللى تحاول أن تخفى انها تلاحظ جهودنا ، وتأخذ تضاحك الدكتور أو نيقولا سرجتش •

وفى أثناء ذلك كانت صحتها تزداد سوءاً • وأصبحت سريعة التأثر الى أقصى الحدود • فكان قلبها يخفق خفوقاً غير مطرد • حتى لقد قال لى الطبيب انها قد تموت قريباً جداً •

لم أخبر العجوزين بذلك حتى لا أفزعهما •• وكان نيقولا سرجتش يعتقد انها ستشفى قبل السفر •

ـ هذا أبى ، فلنعد يا فانيا •

ذلك ما قالته لى ناتاشا ، وقد سمعت صوت أبيها •

ما كاد نيقولا سرجتش يجتاز العتبة حتى أخذ يتكلم بصوت عال ، على عادته • فلوحت له آنا آندريفنا بذراعيها ، فما لبث أن هدأ ، حتى اذ لمحنا أنا وناتاشا أخذ يقص علينا نتيجة مساعيه بصوت خافت واهتمام كبير : ان المركز الذى يسعى الى احتلاله قد ضُمن له ، وهو سعيد بذلك كل السعادة • قال وهو يفرك يديه ويلقى على ناتاشا نظرة قلقة :

ـ نستطيع أن نسافر بعد خمسة عشر يوماً •

ولكن ناتاشا أجابته بابتسامة وقبلته ، فتبددت شكوكه فوراً • قال فرحاً :

ـ فلنسافر ، يا أعزائى ، فلنسافر • لا تشق علىّ مفارقة أحد غيرك يا فانيا ••

(يجب أن ألفت نظر القارىء الى ان نيقولا سرجتش لم يقترح علىّ مرة واحدة أن أصحبهم • وهذا أمر ما كان ليفوته أن يفعله ، بحكم طبعه ، فى ظروف أخرى ، أى لولا انه علم بحبى لناتاشا •) ولكن ما العمل ، يا أعزائى ، ما العمل ؟ ان فراقك يحز فى نفسى يا فانيا • ولكن تغيير مكان الاقامة سيرد الينا الحياة جميعاً • من غيّر بلده فقد غير كل شىء فى حياته •

قال عبارته الاخيرة هذه وهو ينظر مرة أخرى الى بيته •

كان يؤمن بهذا وكان يسعده أن يؤمن به •

قالت آنا آندريفنا :

ـ ونللى ؟

ـ نللى ؟ انها مريضة الآن قليلا ، ولكنها ستشفى قبل أن نسافر . صحتها قد تحسنت منذ الآن ، ألا ترى ذلك يا فانيا (قال ذلك وقد ظهر فى وجهه الرعب ، والقى علىّ نظرة قلقة ، كأن علىّ أنا أن أبدد مخاوفه) كيف هى الآن ؟ هل نامت نوما هادئاً ؟ ألم يحدث شيء ؟ لا بد انها استيقظت . آنا آندريفنا : سنضع المائدة على الشرفة ، وتأتين بالسماور ، ويجيء أصدقاؤنا ، ونجلس هناك جميعاً ، وتأتى نللى أيضاً .. هذه فكرة حسنة .. ولكن ألم تستيقظ ؟ سأرى .. سأنظر اليها فقط .. لن أوقظها .. لا تقلقى ! (أضاف ذلك اذ رأى آنا آندريفنا عادت تلوح له).

كانت نللى قد استيقظت . وما هى الا ربع ساعة حتى كنا نجلس جميعاً قرب سماور المساء على عادتنا .

حُملت نللى على مقعدها . وجاء الطبيب . ووصل ماسلوبويف . وقد وصل يحمل باقة كبيرة من الليلك لنللى ، ولكن وجهه كان يدل على هم وكدر .

يجب أن أذكر بهـذه المناسبة ان ماسلوبويف كان يأتى كل يوم تقريباً . وقد سبق أن ذكرت انهم أحبوه جميعاً ، ولا سيما آنا آندريفنا ، ولكن أحداً ما كان يتحدث صراحة عن الكسندرا سيمينوفنا . و سلوبيف نفســه ماكان يذكر اسمهــا . ان آنا آندريفنا ، حين علمت منى ان الكسندرا سيمينوفا لم تظفر بعد بأن تصبح زوجتـه الشرعية ، قد رأت بينها وبين نفســها ان من الواجب ألا تُستقبل وألا يذكر اسمهـا . وقد طبقنا جميعاً هذا القرار ، وعلى رأسنا آنا آندريفنا . ولكن يجب أن أشير الى ان آنا آندريفنا ما كانت لتتزمت هذه التزمت كله لو لم تكن ناتاشا هنا ، ولو لم يقع ما وقع .

كانت نللى تبدو فى ذلك المساء أشد حزناً وقلقاً . لكأنها رأت حلماً

سيئاً ما تزال تفكر فيه . ولكنها سُرت كثيراً بهدية ماسلوبويف ، فكانت تتأمل الازهار التي وضعت في آنية الى جانبها ، فرحةً بها . قال العجوز :

ـ أنت تحبين الأزهار كثيرا يانللى ، أليس كذلك ؟

ثم أضاف بحرارة وحماسة :

ـ انتظرى .. غداً .. ترين ! ..

أجابته نللى بقولها :

ـ نعم أحبها ، وأذكر اننا قدمنا في ذات مرة أزهاراً الى أمي . كنا يومئذ هناك (أصبحت كلمة هناك تعني البلد الأجنبي) ، وكانت أمي مريضة خلال شهر بكامله ، فقررنا أنا وهنرى أن نزين جميع الحجرات بالأزهار متى نهضت من فراشها أول مرة لتخرج من غرفتها بعد أن أقامت فيها لا تبرحها مدة شهر كامل . وهذا مافعلناه . قالت لنا أمي ذات مساء انها ستتناول طعام الافطار معنا في الغد ، فاستيقظنا في غد مع الفجر ، ومضى هنرى فجاء بأزهار كثيرة ، فزينا الغرفة بأوراق خضر وأكاليل : كان هناك لبلاب ، وأوراق عريضة نسيت الآن اسمها ، وأوراق أخرى علقناها في كل مكان ، وأزهار كبيرة بيضاء ، ونرجس (والنرجس أحب الأزهار الى) ، وورود ، ورود رائعة ، وكثير جداً من الازهار الاخرى : علقناها كلها أكاليل أكاليل ، ورتبناها في آنية . وكان هناك أيضاً أزهار تشبه أن تكون أشجاراً ، في صناديق كبيرة : وضعناها في أركان الغرفة وقرب مقعد أمي . فلما خرجت أمي من غرفتها دهشت ، وسرها هذا ، وسر هنرى .. أذكر ذلك .

كانت نللى في ذلك المساء قد ازدادت ضعفاً ، وازدادت عصبية . فكان الطبيب ينظر اليها قلقاً . ولكنها كانت تشتهي كثيراً ان تتكلم . فظلت مدة طويلة ، حتى الليل ، تحدثنا عن حياتها هناك . ولم نقاطعها . لقد قامت هناك ، مع امها وهنرى ، بأسفار كثيرة . وذكرياتها تستيقظ

الآن واضحة زاهية • حدثتنا بحرارة عن السماء الزرقاء ، عن الجبال الشاهقة التي تغطيها الثلوج ، عن كتل الجليد التي رأتها واجتازتها ، عن السيول ، عن بحيرات ايطاليا ووديانها ، عن الأزهار والاشجار ، عن سكان القرى ، عن ملابسهم ، عن وجوههم السمراء وعيونهم السوداء ، عن الاشخاص الذين لقوهم ، عن الحوادث التي وقعت لهم • ثم وصفت المدن الكبرى ، والقصور ، وكنيسةً ذات قبة تشتعل فجأة بنيران من كل لون ، ثم وصفت مدينة حارة من مدن الجنوب ، سماؤها زرقاء ، والبحر قربها أزرق ••• لم تقص علينا نللي ذكرياتها بمثل هذا التفصيل قبل اليوم • وكنا نصغي اليها بانتباه شديد • كنا حتى تلك اللحظة لانعرف الا ذكرياتها الاخرى ، تلك التي بقيت لها من مدينة مظلمة كالحة ، ذات قصور ثمينة موسخة بالوحل ، وشمس كابية بخيلة ، وسكان أشرار أشباه مجانين ، كنا لا نعرف الا ذكرياتها عن هذه المدينة التي تألمت فيها هي وأمها كثيراً • وكنت أتصورهما كلتيهما في قبوهما الوسخ ذاك ، ذات مساء مظلم رطب، قابعتين على سريرهما الرديء وقد تشبثت كل منهما بالاخرى ، وراحتا تتذكران الماضي ، هنري الذي مات ، وعجائب البلاد الاخرى • وكنت أيضاً أتصور نللي ، وهي تستعيد هذه الذكريات كلها ، وحيدةً بلا أم ، عند بوبنوفا التي تريد بالضرب والصفع والقسوة الحيوانية أن تجهز عليها ، وان تكرهها على •••

وساءت حال نللي أخيراً ، فحملوها الى سريرها • وذعر العجوز ، وندم على أنها تُركت تتحدث هذا الحديث الطويل كله • وباغتتها نوبة هي نوع من الاغماء •• لقد وقع لها ذلك قبل الآن مرات • فلما صحت طلبت أن تراني على انفراد • كان في صدرها شيء تريد أن تفضي به الي ، وبلغت من الالحاح في طلبها ان الطبيب نفسه أمر في هذه المرة بتلبيته ، فخرجوا جميعاً ، وبقيت معها وحدي ، فقالت لي :

ـ فانيا ، أعرف أنهم يظنون أنني سأسافر معهم ، ولكنني لن أسافر ، لأنني لا أستطيع ذلك : سأبقى معك .. هذا ما أردت أن أقوله لك .

فأخذت أقنعها بضرورة سفرها قائلاً انهم يحبونها جميعاً ، وان العجوزين يعدانها ابنة لهما ، وانهما سيتألمان كثيراً اذا هي رفضت أن تصحبهم في سفرهم ، وان الحياة ستكون شاقة ، وان علينا أن نفترق رغم كل ما أحمل لها من عاطفة . فأجابتني بلهجة جازمة تقول :

ـ لا ، هذا مستحيل . انني أرى أمي كثيراً في المنام ، وهي تطلب الي في كل مرة ألا أذهب معهم ، وأن أبقى هنا ؛ وتقول لي انني اقترفت اثماً كبيراً بترك جدي وحده ، وهي تقول ذلك باكية . أريد أن أبقى هنا وأن أعنى بجدي . فقلت لها دهشا :

ـ ولكنك تعلمين أن جدك مات .

فشرد فكرها ونظرت الي نظرة ثابتة ، ثم قالت :

ـ حدثني مرة أخرى كيف مات .. قص علي كل شيء ، ولا تغفل شيئاً .

شدهت من هذا الطلب ، ولكنني أخذت أقص عليها الحادث تفصيلاً . كنت أعتقد أنها تهذي ، أو أنها على الاقل لم تسترد صفاء عقلها بعد نوبتها الاخيرة .

كانت تصغي الي بانتباه ، وأذكر الآن أن عينيها السوداوين الملتمعتين ببريق المرض والحمى كانتا لا تفارقاني لحظة طوال مدة الحديث . وكانت الغرفة قد أظلمت . قالت لي بلهجة قاطعة بعد أن أصغت الى حديثي حتى النهاية ، وبعد أن فكرت لحظة أيضا :

ـ لا يا فانيا ، انه لم يمت . ان أمي تحدثني دائما عن جدي ، وحين قلت لها أمس ان جدي مات ، أحزنها ذلك كثيراً ، وأخذت تبكي ، وقالت

ان هذا غير صحيح ، وانه قيل لى عمداً ، وان جدى مايزال يعيش ، وانه يتجول فى الشوارع يستجدى النـاس « كما نستجدى ، أنا وانت فى الماضى ، وانه يعود الى المكان الذى لقيناه فيه أول مرة ، حين جثوت بين قدميه ، فعرفنى آزور » •

قلت لها :

ـ يا نللى ، هذا حلم ، هذا حلم مريض •• انك مازلت مريضـة يا نللى !

ـ أنا أيضا قلت لنفسى ان هذا حلم ، فلم أحدث به أحداً • كنت أريد ألا أقص شيئا من هذا كله الا عليك •• ولكننى اليوم ، حين نمت ، لانك لم تأت ، رأيت جدى أيضا •• كان جالسا فى غرفته ينتظرنى ، وكان مخيفا جداً ، كان نحيلاً نحولاً رهيبا •• قال لى انه لم يأكل شيئا منذ يومين ، لا هو ولا آزور •• غضب منى ، وأنحى علىّ باللائمة • وقال لى أيضا ان تبغه الذى يتنشقه قد نفد ، وانه لا يستطيع أن يعيش بدون هذا التبغ • وهذا صحيح يا فانيا ، لقد قال لى ذلك مرة قبل موت امى ، فى يوم ذهبت فيه إليه • كان يومئذ مريضا تماما ، لا يكاد يفهم شيئا • فلما سمعته يقول هذا الكلام اليوم قلت لنفسى : « سأذهب الى الجسر اطلب الصدقة ، ثم اشترى له شيئا من الخبز ومسـلوق البطاطس والتبغ • » وخيِّل الىّ اننى ذهبت الى هناك ، وتسولت ، وان جـدى كان ينتظرنى غير بعيد عنى ، ثم جاء الى ، فرأى كم جمعت ، فأخذ ما جمعته قائلا : « هذا للخبز ، فاجمعى الآن شيئا للتبغ » • ففعلت ما امرنى به ،فجاء واخذ ما جمعته • فقلت له انه لا حاجة به الى ذلك ، فسأعطيه كل شىء ، ولن احتفظ لنفسى بشىء • فأجابنى بقوله : « بل انت تسرقيننى • فقد قالت لى بوبنوفا انك سارقة ، ولهذا لن آخذك ابداً الىّ • اين وضـعت قطعة الخمس كوبيكات ؟ » ، فأخذت ابكى لانه لا يصـدقنى ، ولكنه لم يصغ

اليّ بل استمر يصرخ قائلا « سرقت مني خمس كوبيكات ! » واخذ يضربني على الجسر ضربا موجعا • لقد بكيت كثيراً ، لذلك اعتقد الآن انه ما يزال حيا ، وانه يتجول في مكان ما ، وانه ينتظرني ••

حاولت مرة اخرى ان ارجعها الى صوابها ، وان اردها عن اوهامها، وخيل الي انني نجحت في ذلك • قالت لي انها تخاف أن تنام ، لأنها سترى جدها مرة اخرى • واخيراً احاطتني بذراعيها ، وقالت وهي تضع خدها على خدي :

ـ ومع ذلك لا استطيع ان اتركك •• هب جدي لم يمت فسأبقى معك الى الابد •

ذُعر جميع من في البيت من النوبة التي اصابت نللي • وقصصت على الطبيب احلام الطفلة همساً ، وسألته عما يظن انه مرضها • فقال لي شاردَ الفكر :

ـ لا اعرف مرضـــها بعد • انني احاول ان اعرفه ، انني افكر ، وألاحظ ، واراقب ، ولكنني لم اعرف شـــيئاً بعد • وعلى كل حال ، يستحيل ان تشفى • انها ستموت • لقد اوصيتني بان لا اقول لهم ذلك ، فعملت بوصيتك ، ولكن هذا يؤلمني ، وسأقترح عليهم غداً استشارة احد الاطباء • مسكينة هذه الطفلة ، انني اشفق عليها كأنها ابنتي •• ما اروعها ما ألطف روحها الفكهة ! ••

وكان نيقولا سرجتش متأثراً اشد التأثر • قال :

ـ تراودني فكرة يافانيا ، انها تحب الازهار كثيراً ، فلنهيء لها غداً، عند الصـــباح ، مفاجأة كالتي هيأتها لامها مع هنرى ، كما حدثتنا بذلك اليوم •• لقد قصت علينا هذا منفعلة •

ـ نعم ، ولكن الانفعالات تؤذيها الآن •

ـ صـــحيح ، غير ان الانفعالات الفرحة شيء آخر • صـــدقني يا عزيزى ، انني اعرف بالتجربة ان الانفعالات الفرحة لا تضر ، حتى لقد تحسن الى صحتها ، فتشفيها •

والخلاصة انه بلغ من فرط الافتتان بفكرته أن الحماسة استبدت به ، فلا سبيل الى كبحها • لم اقو على الاعتراض • واستشرت الطبيب ••• ولكن ما ان اخذ الطبيب يفكر في الامر ، حتى كان العجوز قد تناول قبعته وخرج لتنفيذ ما عقد النية عليه • قال لى وهو يذهب :

ـ ليس المكان بعيداً • ها هنا مزرعة رائعة •• تباع أزهارها بأسعار زهيدة جداً ، أسعار زهيدة تبعث على الدهشة • قل كلمتين في هـذا لآنا آندريفنا ، حتى لا يســيئها هذا الانفاق •• اتفقنا •• هـا ، نعم • كنت أريد أن أسـألك يا صـديقي العزيز ، الى أين أنت ذاهب الآن ؟ لقـد فرغت من عملك ، لقد أنجزت عملك ، ولا شيء يستحثك على العـودة الى بيتك • ابق هنا هذه الليلة • سنضعك فوق ، في الغرفة التي تحت السقف ، كما في الماضي ، هل تتذكر ؟ سريرك لا يزال في مكانه ، لم يمسسه احد • ســتنام هنالك كملك • اتفقنا ؟ تبقى ؟ وسنستيقظ غدا مبكرين قليلاً ، فنتعاون على تزيين الغرفة في الساعة الثامنة • وستساعدنا ناتاشا ايضاً : ان ذوقها احسن من ذوقنا •• موافق ؟ تقضى الليلة هنا ؟

وكان للعجـوز ما اراد ، فقـرروا أن ابقى • اســتأذن الطبيب وماسلوبويف بالانصراف ، وانصرفا • كان من عادة اسرة اخمنيف ان لا تتأخر في السهر ، فهى تنام في نحو الساعة الحادية عشرة • وبدا على ماسلوبيف ، حين ذهب ، ان في ذهنه شيئاً كان يريد أن يفضي به الىّ ، ولكنه ارجأ ذلك الى مرة اخرى • وصعدت الى غرفتي التي تحت السقف بعد ان حييت اصدقائي تحية المساء ، فما كان اشد انشداهي حين وجدت فيها ماسلوبويف • قال لى :

ـ عدت ادراجي يافانيا لانني أريد ان اتحدث اليك حالا. انها قصة غبية ، ومؤسفة .

ـ ما هو الامر ؟

ـ صاحبك الامير الوغد هو الذي اثار حنقي منذ خمسة عشر يوماً ، ومازلت الى الآن حانقاً ..

ـ كيف هذا ؟ امازلت على صلة به ؟

ـ هوه .. تظل تسأل « كيف هذا » كأنني قد اقترفت لا ادري اي اثم .. انك مثل الكسندرا سيمينوفنا تماماً .. ومثل جميع هاته النسوة اللواتي لا يُحتملن .. انني لا اطيق النساء .. يكفي ان يسمعن نعيق غراب حتى يأخذن يسألن : « ماهذا ، ولماذا ؟ » .

ـ لاتزعل .

ـ لست ازعل ، ولكن يجب ان يُنظر الى الامور بالمنظار الصحيح. فما تضخم .. هذا كل شيء .

وسكت لحظة ، كأنه لايزال حانقاً عليّ ، فلم اقطع عليه سكوته ، فاستأنف يقول :

ـ اسمع يا فانيا ، لقد وقفت على سر .. أو قل انني لم اقف على سر .. ولكنني استنتجت من بعض الامور ان نللي .. ربما كانت .. الابنة الشرعية للأمير .

ـ ماذا تقول ؟

ـ هوه ! .. عدنا الى اسئلتك « ماذا تقول ، ماذا تقول ؟ » . ان من المستحيل حقاً أن يتحدث المرء مع هؤلاء الناس ؟ هل ذكرت لك هذا

على انه حقيقة لا سبيل الى الشك فيها ؟ .. هل قلت لك ان من الثابت انها الابنة الشرعية للأمير ؟ ما هذا الطيش ! ..

بهذا صاح منزعجاً ، فقاطعته وقد اضطربت اضطراباً شديداً :

ـ اسمع يا عزيزى . ناشدتك الله لا تصرخ . واشرح ما عندك شرحاً واضحا . أؤكد لك اننى سأفهمك ، ولكن تذكر خطورة الموضوع وتصور النتائج التى تترتب ..

ـ نتائج ماذا ؟ اين البراهين ؟ ان الامور لا تعالج بهذه الطريقة ، وانا اقول لك الآن هذا الكلام على انه سر يجب ان لا يُفشى ، وسأشرح لك فيما بعد ماقصدت اليه من مواجهة هذا الموضـــوع . كان لابد من ذلك . اسكت الآن ، واصغ الى ، ولا تنس ان هذا كله سر .. اليك ماحدث . فى هذا الشتاء ، قبل موت سـميث ، ما كاد الامير يعود من فارسوفيا ، حتى بدأ يتابع القضية .. الحق انه كان يتابعها منذ مدة طويلة، منذ السنة الماضية . ولكنه كان يومئذ يلاحق هدفا ، وهو اليوم يلاحق هدفا آخر . المهم انه قد فقد الخيط الذى كان يمسك به . لقد ترك ابنة سميث بباريز منذ ثلاثة عشر عاما ، ولكنه ظل يراقبها طوال ذلك . فكان يعرف انها تعيش مع هنرى الذى جاء ذكره اليوم ، وكان يعرف انها ولدت نللى ، وانها مريضة . اى كان يعرف كل شىء ، ولكنه فقد الخيط فجأة . وقد فقده بعد موت هنرى بقليل ، فيما أعتقد ، أى حين رجعت ابنة سميث الى بطرسبرج . كان فى وســعه ان يعثر عليها ببطرسبرج بسرعة ، مهما يكن الاسم الذى انتحلته عائدة الى روسيا ، ولكن جواسيسه فى الخارج بعثوا اليه بتقارير خاطئة . لقد أكدوا له انها تعيش فى مدينة صغيرة مجهولة بجنوب المانيا . وكانوا يعتقدون هم انفسهم بذلك ، نتيجة اهمال ، فقد تشابهت عليهم مع امرأة أخرى . وانقضى على ذلك عام او يزيد . وفى خلال هذه السنة ساورت الامير شكوك : وكان قد تراءى

له قبل ذلك من بعض الدلائل ان تلك التي يراقبونها امرأة اخرى • فتساءل عندئذ : ترى اين هي ابنة سميث ؟ وخطر بباله (هكذا ، دون الاستناد الى اية معلومات) انها ببطرسبرج • فكلف بعضهم باجراء تحقيق في الخارج ، وبدأ باجراء تحقيق آخر هنا • فتعرف الي ، لانني زكيت له ، وقيل له انني أعنى بمثل هذه الامور ، وانني من هواتها ، وانني كيت كيت ••

فعرض علي القضية ، ولكنه عرضها عرضا غامضا مظلما ملتبسا ، هذا الشيطان بن الشيطان • وكان يخطىء ، فيصور الامور صورا مختلفة في آن واحد •• ان الانسان مهما يمكر ، لا يستطيع اخفاء جميع الخيوط ، هذا امر مسلم به ! فاندفعت في خدمة الامير بكل ما في نفسي من سذاجة ، واخلصت له اخلاص العبد لسيده • ولكنني ، وفقا لقاعدة كنت قد اخذت بها الى الابد ، ووفقا لقانون من قوانين الطبيعة ايضا (ذلك ان هذا قانون من قوانين الطبيعة) تساءلت اولا : هل الامر الذي حدثني فيه الامير هو ما يحتاج اليه حقا ، وثانيا : ألا تختفي وراء هذه الحاجة التي افصح عنها حاجة اخرى لم يكشف الا عن جزء منها • ذلك ان الامير ، ان صح ان هنالك حاجة اخرى ، وانت تفهم هذا من تلقاء نفسك مادمت تملك دماغ شاعر ، يكون قد سرقني : فاذا كان اجر حاجة من الحاجات روبلا واحداً مثلا ، وكان اجر حاجة اخرى اربعة روبلات ، فانني أكون غبياً لو أعطيت بروبل واحد ما يساوي أربعة روبلات • لذلك أخذت أتعمق الموضوع وأتقصى وأنبش ، الى أن وقعت على عدة أمور : الامر الاول اكتشفته بواسطته ، والثاني بواسطة شخص آخر لا شأن له بالقضية ، والثالث وصلت اليه بذكائي وحده • فاذا سألتني كيف خطر ببالي ان اتصرف في الامر هذا التصرف ، اجبتك بأن السبب الوحيد الذي دفعني الى ذلك هو مالاحظته في الامير من اضطراب شديد وقلق عميق •

فتساءلت : ما الذى يخشاه الامير ؟ لقد انتزع فتاة من أبيها ، ثم حملت منه ، ثم هجرها •• اى غرابة فى هذا ! انها شطارة لا أكثر من ذلك ولا أقل • ان امرءاً كالامير لا يمكن أن يضطرب هذا الاضطراب كله لأمر تافه كهذا •• أما وانه خائف ، فلابد ان يكون ثمة امور اخرى • هكذا راودتنى الشكوك ، فمضيت ابحث ، حتى عثرت على آثار هامة ترجع الى هنرى • لقد مات هنرى طبعا ، ولكن احدى قريباته (وهى الان زوجة خبازٍ هنا ببطرسبرج) وكانت تحبه فى الماضى حبا جامحا ، وظلت تحبه خلال خمسة عشر عاما ، رغم خبازها الســـمين الذى انجبت منه ثمانية اولاد دون ان تنتبه الى ذلك ، اقول ان قريبته هذه قد كشفت لى ، بعد مداورات كثيرة متنوعة من جهتى ، عن امر هام • لقد كان هنرى يكتب اليها ، على عادة الالمان ، وكان يبعث اليها بيومياته • وقبل موته بمـــدة قصيرة ارسل اليها بعض الاوراق • لم تفهم الحمقاء قيمة هذه الاوراق ، وكانت لا تعنيها فيها الا الفقرات التى يدور فيها الحديث على القمر وما الى ذلك •• اما انا فقد عثرت فى هذه الاوراق على معلومات كنت فى حاجة اليها ، واطلعتنى هذه الرسائل على امور جديدة • عرفت ، فيما عرفت ، وجود سميث ، ورأس المال الذى سرقته منه ابنته ، وعرفت ان الامير استولى على المال ، ولمحت أخيرا من خلال كثير من اشارات التعجب ومن اللف والدوران والتلميحات والرموز ، لمحت فى هذه الرسائل الجوهر الحقيقى فى هذه القضية : ولكن ، افهمنى حق الفهم يا فانيا ، لست ادعى ان ما لمحته هو الحقيقة الثابتة التى لا شك فيها •• لقد كان هذا السخيف هنرى يتعمد الاخفاء ويكتفى بالاشارات ، ولكن ما يتراءى لى من هذه الاشارات ومن كل هذه الاشياء، ينسجم فى نظرى انسجاماً تاما ، ويدل على ان الامير قد تزوج ابنة سميث • فاذا سألتنى اين تم ذلك الزواج ، ومتى تم ؟ هل تم فى الخارج أم تم فى بطرسبرج ؟ وأين هى الوثائق التى

تثبته ؟ لم أستطع أن أجيبك بشيء •• يستحيل أن تعرف هذه الامور •• لقد بحثت يا عزيزى فانيا ، ثم بحثت ، ليل نهار ، فلم اعثر على شيء ، فكنت اشد شعرى حسرة وأسفا •

واكتشفنا سميث اخيراً ، ولكنه مات فجأة • حتى اننى لم استطع ان اراه حيا • ثم علمت ، صدفة ، ان امرأة كانت تحوم حولها شكوكى ، قد ماتت فى فاسيلى أوستروف • فهرعت الى فاسيلى أوستروف ، وكان ذلك فى اليوم التى لقيتك فيه ، هل تتذكر ؟ واكتشفت يومئذ اشياء كثيرة •

واوجز فأقول ان نللى قد ساعدتنى فى تلك اللحظة مساعدة كبيرة •

ـ اسمع ، هل تعتقد ان نللى تعرف ••

ـ ماذا ؟

ـ انها ابنة الامير ؟

ـ انك تعرف ذلك ، فلماذا تسألنى هذه الاسئلة الزائدة ، ايها الطائش ؟

قال لى ذلك وهو ينظر الىّ نظرة لوم ماكرة • ثم اضاف يقول :

ـ المهم ليس هذا •• المهم هو ان نللى ليست ابنة الامير فحسب ، بل هى ابنته الشرعية ايضا •• هل تفهم ؟

فصرخت قائلاً :

ـ هذا مستحيل !

ـ انا ايضاً كنت فى اول الامر اقول لنفسى « هذا مستحيل ! » •• ومازلت الى الآن اقول لنفسى احياناً « هذا مستحيل » ، ولكن الواقع هو ان ذلك ليس مستحيلاً ، بل أغلب الظن انه هو الواقع •

ـ لا ، ياماسلوبويف ، لا ، انك تذهب بعيداً جداً •• انها لا تجهل

ذلك فحسب ، بل هي ابنة غير شرعية ايضاً • والا ، فكيف كان يمكن ان تحتمل امها ذلك المصير القاسي الذي عاشته ببطرسبرج ، لو كانت تملك اى دليل ، وكيف كان يمكن عدا ذلك ان تترك ابنتها على هذه الحالة ؟ انت تمزح يا ماسلوبويف • هذا مستحيل •

ـ انا ايضا خطر ببالى ذلك ، ومازالت الشكوك تراودنى الى اليوم • ولكن مما لاشك فيه ان ابنة سميث كانت امرأة مجنونة لا تضارعها في جنونها امرأة • فكّر في الظروف والملابسات : لقد كانت حياتها رومانسية عجيبة •• ان اخيلتها وشذوذها وتهاويلها قد بلغت حدوداً غريبة لا تصدق • فكر في هذا فقط : لقد كانت تحلم ، اول الامر ، بنوع من الجنة على الارض ، كانت تحلم بملائكة ، ثم احبت حبا جامحا محموماً ، فمحضت ذلك الذى أحبته ثقه ليس لها حدود ، وأنا على يقين من انها جُنّت لا لانه اصبح لا يحبها ، ولا لانه هجرها ، بل لانها خدعت في امره ، لانه كان قادراً على ان يخونها وان يهجرها ، لان ملاكها قد استحال وحلا ، فلطخها ووسخها • ان روحها الرومانسية الطائشة لم تستطع ان تطيق هذه الاستحالة • وهناك فوق ذلك كله الاهانة : هل تفهم اية اهانة ؟ انها ، في سورة من حنقها ومن كبريائها خاصة ، قد انصرفت عنه باحتقار شديد ،فحطمت جميع الصلات ، ومزقت جميع الاوراق ، واستخفت بالمال ، حتى لقد نسيت انه ليس مالها بل مال ابيها ، ورفضته كأنه تراب او وحل ، كل ذلك من اجل ان تسحق هذا الذى أغواها ، أن تسحقه بأنفتها وشممها ، من أجل أن تستطيع اعتباره لصاً ، من اجل ان يحق لها احتقاره مدى الحياة ولاشك انها رأت في تلك اللحظة ان من العار عليها ان تدعى زوجته • ان الطلاق عندنا لا وجود له ، ولكنها طلقته عملاً • فكيف يمكن ، والحالة هذه ، ان تطلب المعونة ؟ تذكر ما قالته هذه المجنونة لابنتها وهى على فراش

الموت : « لا تذهبى اليهم ، اعملى ، واهلكى ، ولكن لا تذهبى اليهم ، كائناً من كان الشخص الذى يدعوك » (كانت تتوقع ان يدعوها احد ، وأن يتاح لها أن تنتقم مرة أخرى ، وأن تسحق بالاحتقـــار ذلك الذى سيدعوها . والخلاصة انها كانت تتغذى بأحلام الانتقام ، بدلاً من الخبز). لقد امدتنى بمعلومات كثيرة . وما ازال استمد منها بعض المعلومات من حين الى حين . لقد كانت امها مريضة ، مريضة بالسل . وهذا المرض يجعل المريض شديد التأذى ، ويولد فيه جميع انواع السخط والغيظ والحنق . ومع ذلك فأنا أعلم علم اليقين ، بواســطة أشبينة بوبنوفا ، انهـا كتبت الى الأمير ، نعم ، الى الأمير نفسه !

فصرخت نافد الصبر :

ـ صحيح ؟ وهل وصله كتابها ؟

ـ لا أعرف أوصله ام لا . ولكننى أعرف ان ابنة سميث قد اتفقت مع اشبينة بوبنوفا (ألا تتذكر تلك المرأة المبهرجة التى رأيتها عند بوبنوفا؟ انها الآن فى السجن) على أن تحمل اليه الرسالة : وكتبت الرسالة ولكنها لم تدعها لها ، بل استردتها منها ، وهذه الواقعة ذات دلالة : اذا كانت قد قررت ارسال الرسالة ، فليس يضير انها استردتها .. اذ يمكن أن تكون قد ارسلتها بعد ذلك . ولكننى لا أعرف هل أرسلتها أو لا . ومن حقنا أن نقدّر أنها لم ترسلها ، لأن الأمير لم يعلم بوجود ابنة سميث فى بطرسبرج الا بعد موتها . ولاشك ان ذلك سره كثيراً .

ـ نعم أتذكر ان اليوشا قد حدثنى عن رسالة سرّت أباه كثيرا .. ولكن ذلك حدث منذ وقت غير بعيد ، منذ شهرين أو ثلاثة أشهر فى أكثر تقدير . طيب . وبعد ، ما أنت صانع بالامير ؟

ـ أنا ؟ اسمع . اننى فى قرارة نفسى متيقن كل التيقن. ولكن ليس

ثمة برهان قاطع : ليس ثمة أي برهان ، رغم كل ما أنفقت من جهد ، وتحملت من عناء . ان الموقف حرج . ينبغي القيام ببعض التحريات في الخارج . ولكن أين ؟ ما من احد يعرف . لقد قدرت طبعاً انني سأغلب ، وان كل ما استطيعه هو ان اخيفه ببعض التلميحات ، وان اتظاهر بمعرفة اشياء لا أعرفها في الواقع !!

ـ ثم ؟

ـ لم يقع في الفخ . ولكنه ، من جهة اخرى ، خاف كثيراً ، خاف خوفاً شديداً ما يزال يرتجف منه الى اليوم . التقينا عدة مرات ، فكان يصطنع مظهر من يستحق أن يرثى لحاله ، وفي ذات مرة ، اخذ يقص عليّ من تلقاء نفسه كل شيء ، كصديق ، وذلك حين قدر انني اعرف كل شيء . كان يتحدث حديثاً بارعاً ، لا يخلو من لهجة العاطفة والصدق ، ولكنه كان يكذب طبعاً .. عندئذ ادركت مدى خوفه مني . اصطنعت امامه ، خلال لحظة من اللحظات ، وضع شخص غر يتظاهر بالمكر ، وتعمدت الغباء في تخويفه . وأغلظت له القول بعد ذلك عن قصد . واخذت اهدده . كل ذلك من اجل ان يعدني غبيا ابله ، وان يلقي بما عنده . ولكن الوغد ادرك ما ارمي اليه . وفي مرة تظاهرت بالسكر فلم يفلح ذلك ايضاً . انه خبيث . هل تستطيع ان تفهم هذا يا فانيا : كنت اريد ان اعرف اولاً مدى خوفه مني . وان اشعره ثانيا بأنني واقف على امور لست واقفاً عليها في الواقع .

ـ والى ماذا انتهيتما ؟

ـ لم ننته الى شيء . كنت في حاجة الى براهين ، ولم يكن لديّ أي برهان . كل ما رآه هو انني استطيع ان افضحه . هذا هو الشيء الوحيد الذي يخشاه ، خاصة وانه بدأ يعقد هنا صلات . هل تعرف انه سيتزوج ؟

ـ لا •

ـ سيتزوج في السنة القادمة • لقد اختار خطيبة منذ عام • لم يكن سنها في العام الماضي الا اربعة عشر عاما ، وهي الآن في الخامسة عشرة • اعتقد انها ما تزال في « المريلة » ، هذه الطفلة الشقية • وابواها مفتونان بالخطبة ! الآن تفهم كم كان في حاجة الى ان تموت زوجته ! ان الفتاة ابنة جنرال • انها تملك مالاً كثيراً ، كثيراً جداً • لا انا ولا انت يمكن ان نتزوج زواجاً كهذا • ولكن الشيء الذي لن اغفره له مدى الحياة ، هو انني وقعت في احابيله منذ خمسة عشر يوماً ، هذا الوغد الحقير ••

قال ماسلوبويف جملتـه الأخيرة وهو يضرب المائدة بقبضـة يده ضربة قوية •

ـ كيف كان كذلك ؟

ـ نعم : لاحظت انه فهم انني لا املك شيئاً راهنا دامغا ، وشعرت اخيراً انه سيدرك عجزي اذا طال الامر ، فقبلت منه الفي روبل •

ـ قبضت منه الفي روبل ؟

ـ روبل فضة ، يا عزيزي • اخذتها منه وانا اشد على اسناني من الحنق • الفا روبل من اجل قضية كهذه ؟ يا له من ذل •• لكأنه اغرقني بالبصاق ! قال لي : « انني لم أدفع لك بعدُ اتعابك ياماسلوبويف (وكان قد اعطاني مائة وخمسين روبلاً ، مقدماً ، حسب الاتفـاق) ، وانا الآن مسافر ، فاليك هذين الالفين • ارجو ان تكون قضيتنا قد انتهت تماما » • فأجبته بقولي : « نعم لقد انتهت تماما ايها الامير » • حتى انني لم اجرؤ ان انظر الى وجهه ، قائلاً لنفسي : انني لو نظرت الى وجهه لقرأت فيه قوله : « هاءنت ذا تقبض المبلغ الضخم ، ولكنني لا اعطيك هذا المبلغ الا رأفة بك أيها الغبي » • ولا اذكر الآن كيف خرجت من عنده !

صحت قائلاً :

ـ ولكن هذا جبن يا ماسلوبويف . ما انت صانع بنللي ؟

ـ ليس هذا جبناً فحسب ، بل هو حقارة يستحق صاحبها الشنق .. هذا .. هذا .. ما من كلمة يمكن ان يوصف بها هذا العمل ..

ـ رحمـاك يا رب ! ولكن كان يجب على الاقل ان يؤمن مصـير نللي !..

ـ نعم ، كان يجب .. ولكن كيف تجبره على ذلك ؟ بتخويفه ؟ لا يمكن ان ينجح التخويف .. لقد قبلت المال . انا نفسي اعترفت بأن كل الخوف الذي يمكن ان أبثه فيه لا يساوي أكثر من الفي روبل . انا نفسي قدرت نفسي بهذا الثمن ! فكيف تريد ان تخوفه الآن ؟

فصحت ، شبه يائس :

ـ هل يمكن ان تكون قضية نللي خاسرة ؟

فهتف ماسلوبويف ثائراً محتداً وهو يرتعش من قمـة رأسـه الى أخمص قدميه :

ـ مستحيل . لن ادع الامور تمر هكذا . سأشرع في عمل آخر يا فانيا ، لقـد قررت ذلك . لاضـير في انني قبضت الفي روبل . انني لا أقيم وزنا لهذا . لقد اعتبرت المبلغ اهانة ، لقد عبث بي هذا الحقير ، لقد سخر مني . انه يخدعني ، ثم يستخف بي. لا ، لا ، انني لا استطيع احتمال ذلك !.. ونللي هي التي سأبدأ بها الآن .. انني مقتنع اقتناعا تاماً، على اساس بعض الملاحظات التي لاحظتها ، انها هي التي ستحل العقدة . انها تعرف كل شيء .. لقد قصت عليها امها كل شيء . قصت عليها ذلك اثناء الحمى ، اثناء الهذيان .. لم يكن هناك احد تشكو اليه أمرها . لم يكن هناك الا نللي ، فأفضت اليها بأسرارها. حتى لقد نجد بعض الاوراق

(قال هذا وهو يفرك يديه تهللاً وطرباً) • هل فهمت الآن لماذا احوم هنا ؟ اولا للصداقة التى بينى وبينك طبعا • ولكن ثانياً وخاصة لألاحظ نللى ، وثالثا ، يا صديقى ، يجب عليك أن تساعدنى ، شئت أم أبيت ، لأن لك سلطانا على نللى ؟

فهتفت اقول !

ـ طبعا سأساعدك ، أقسم لك ، ولكن ارجو يا ماسلوبويف ان تستهدف من كل هذا مصلحة نللى ، هذه اليتيمة الشقية المهانة ، لا أن تستهدف مصلحتك انت وحدها •

ـ المهم ان نصل الى غايتنا ، كائناً من كان الشخص الذى اعمل لمصلحته • لا شك ان الصغيرة هى اهم ما فى الامر ، فالانسانية تقضى بذلك ، ولكن لا تحكم علىّ حكما قاطعا لا يقبل النقض اذا رأيتنى أهتم قليلا بنفسى ، يا صغيرى فانيا • أنا رجل فقير ، ولا يخطرنّ ببال ذلك الوغد أن يهين الفقراء ! هل تعتقد أن علىّ أن أوفر حقيراً كهذا الحقير أكثر مما فعلت ؟ ••

لم ينجح عيد الازهار الذى هيأناه للغد ، ذلك ان حالة نللى ساءت فلم تستطع ان تخرج من غرفتها •

وأصبح يجب عليها ان لا تخرج ابداً •

وماتت بعد ذلك بخمسة عشر يوماً ! وخلال هذين الاسبوعين اللذين استغرقهما الاحتضار لم تستطع ان تعود الى صوابها مرة واحدة ، ولا أن تتخلص من اخيلتها الغريبة • كان يبدو ان عقلها اختل • ظلت مقتنعة اقتناعا جازما ، الى ان ماتت ، بأن جدها يدعوها ، بأنه حانق عليها لتأخرها عنه ، بأنه يضرب الارض بعصاه ، ويأمرها ان تذهب فى طلب

الصدقة ليشترى خبزاً وتبغاً • وكثيراً ما كانت تبكى اثناء النوم ، حتى اذا استيقظت ذكرت أنها رأت أمها •

وفى بعض الاحيان كان يبدو ان عقلها عاد اليها • ففى ذات مرة كنا وحدنا ، فانحنت علىّ ، وتناولت يدى بيدها الهزيلة المحترقة بالحمى، وقالت لى :

ـ حين اموت يا فانيا ، تزوج ناتاشا •

يخيل الىّ أن هذه الفكرة كانت تحاصرها منذ مدة طويلة • فابتسمت لها دون ان اجيب ، فابتسمت هى ايضا ، ولوحت لى باصبعها الصغيرة المعروقة مهددة ، ونظرت الىّ نظرة متخابثة ، وقبلتنى •

وقبل موتها بثلاثة أيام ، وكان ذلك فى مساء جميل من أماسى الصيف ، أمرت بازاحة الستارة وفتح النافذة التى تطل على الحديقة ، ونظرت طويلاً الى الخضرة الكثيفة ، والى أشعة الشمس الغاربة ، ثم طلبت فجأة ان يتركونا وحدنا ، انا وهى •

قالت لى بصوت لا يكاد يُسمع لانها كانت ضعيفة جداً :

ـ يا فانيا ، سأموت قريبا ، قريباً جداً • وقد اردت ان أطلب منك ان لا تنسانى • وهذا ما اتركه لك على سبيل الذكرى (قالت ذلك وارتنى كيساً صغيراً كان يتدلى من عنقها مع صليبها) • لقد تركت لى امى هذا وهى تموت • فاذا مت انا ، فاخلع هذا الكيس ، وخذه لك ، وستقرأ ما فيه • سأقول لهم اليوم أن لا يعطوا الكيس لأحد غيرك • حتى اذا قرأت ما هو مكتوب فى الكيس ، فاذهب اليه ، وقل له اننى مت ، واننى لم أغفر له • وقل له ايضاً اننى قرأت الانجيل منذ مدة قصيرة ، وفيه يقول المسيح « اغفروا حتى لاعدائكم » ، قل له اننى قرأت هذا الكلام ، ومع ذلك لم

اغفر له ، وان الكلمات الأخيرة التى نطقت بها امى قبل ان تموت ، قبل ان تعجز عن الكلام هى : « اننى ألعنه » • وقل له اننى العنه انا ايضاً ، لا من اجلى ، بل من اجل امى • اذكر له كيف ماتت امى ، وقص عليه كيف بقيت وحدى مع بوبنوفا • اخبره بأنك رأيتنى عند بوبنوفا ، أنبئه بكل شىء ، وقل له اننى آثرت ان ابقى عند بوبنوفا على ان اذهب اليه •

قالت نللى ذلك ، واصفر وجهها اصفراراً شديداً ، واتقدت عيناها ، وأخذ قلبها يخفق خفقاناً قويا حتى انها هوت على الوسائد وظلت بضع دقائق لا تستطيع ان تقول شيئاً •

قالت اخيراً بصوت ضعيف :

ـ نادهم يا فانيا ، اريد ان اودعهم جميعاً ، وداعاً يا فانيا !

وشدتنى بذراعيها شداً قوياً ، مرة اخيرة الى الابد • ودخل اصدقاؤنا جميعاً • كان العجوز لا يستطيع ان يصدق انها ستموت • كان لا يستطيع ان يسلم بهذه الفكرة • وظل الى آخر لحظة يتشاجر معنا فى هذا ، ويؤكد انها ستشفى لا محالة •• لقد اضواه القلق ، و بان يقضى اياماً برمتها امام سرير نللى • وفى الليالى الاخيرة ، لم يغمض له جفن •• اقول لم يغمض له جفن ، واعنى ذلك حرفاً حرفاً • كان يسارع الى تحقيق ايسر نزوة من نزواتها ، وايسر رغبة من رغباتها •• وكان اذا خرج من عندها ، يبكى بكاء مراً • ولكنه ما يلبث بعد دقيقة ان يسترد آماله ، فيؤكد انها ستسترد عافيتها • لقد ملأ غرفتها بالازهار • وفى ذات يوم ، اشترى لها باقة ضخمة من اروع الورود البيضاء والحمراء ، ذهب يشتريها من مكان بعيد ليقدمها هدية الى صغيرته نللى •• وكان هذا كله يحدث فى الطفلة اضطراباً كبيراً • كان لا يمكنها ان لا تستجيب من اعماق قلبها لهذه العاطفة التى يحيطها بها كل من فى البيت • وفى ذلك

المساء ، فى ذلك المساء الذى ودعتنا فيه ، لم يشأ الشيخ ان يكون ذلك هو الوداع الاخير . فابتسمت له نللى ، وحاولت طوال السهرة ان تبدو مرحة ، فكانت تمازحه ، حتى لقد كانت تضحك .. وحين تركناها ، كان قد تحرك فينا شيء من الامل ، ولكنها اصبحت فى الصباح ، فاذا هى عاجزة عن الكلام . وماتت بعد يومين .

ما زلت الى الآن ارى العجوز وهو يزين تابوتها الصغير بالازهار ، وينظر ، وقد هده اليأس ، الى وجهها الهزيل الذى لا حياة فيه والى ابتسامتها الجامدة ، والى يديها المتصلبتين فوق صدرها . لقد بكاها كما يبكى اب ابنته . وحاولنا ، انا وناتاشا والجميع ، ان نواسيه ، ولكن لم يكن ثمة سبيل الى مواساته ، حتى لقد مرض بعد دفن نللى مرضاً خطيراً.

اعطتنى آنا آندريفنا الكيس الصغير الذى انتزعته من عنق نللى . كان الكيس يحتوى على الرسالة التى كتبتها أم نللى الى الامير . وقد قرأتها يوم موت نللى ، فرأيتها تلعن الامير ، وتقول انها لا تستطيع ان تغفر له ، وتصف له الفترة الاخيرة من حياتها ، وتتوسل اليه ان يعمل شيئاً من اجل نللى . « هذه ابنتك ، وانت تعلم انها ابنتك حقاً . لقد قلتُ لها ان تذهب اليك بعد موتى ، وان تعطيك هذه الرسالة .. فاذا انت لم تطرد نللى ، فقد اغفر لك هناك ، فى العالم الآخر ، يوم الحساب الكبير. سأقف يومئذ امام عرش الله اتوسل الى عدالته الالهية ان تُذهب عنك خطاياك . ان نللى تعرف ما فى هذه الرسالة . لقد قرأتها لها ، وقصصت عليها كل شيء ، كل شيء .. » .

ولكن نللى لم تنفذ وصية امها . كانت تعرف كل شيء ، ولكنها لم تذهب الى الامير وماتت دون ان تصالحه .

حين فرغنا من دفن نللى ، مضيت الى الحديقة مع ناتاشا . كان يوماً

حاراً مضيئاً • سيسافرون بعد اسبوع • القت عليّ ناتاشا نظرة طويلة غريبة • وقالت :

ـ فانيا ، فانيا ، كان هذا كله حلماً ، اليس كذلك ؟

ـ ما الذى كان حلماً ؟

وقرأت فى عينيها :

« كان يمكن ان نسعد معاً الى الأبد » •

حواش

صفحة

١٨ — ارنست تيودور آميدى هوفمان (١٧٧٦ — ١٨٢٢) ، كاتب رومانسى ألمانى ، مؤلف « حكايات خيالية » ·

٢٠ — « حبيبى أوغسطين » ، أغنية هزلية ألمانية ، كانت رائجة جدا فى ذلك الزمان ·

٢١ — موريتس جوتليب زافير (١٧٩٥ — ١٨٥٨) ، فكاهى نمسوى ولد فى المجر من أصل يهودى ·

— دورفباربير (حلاق القرية) ، جريدة فكاهية ألمانية كانت تصدر بمدينة لايبزغ فى زمن دوستويفسكى ·

٣٢ — « الفونس ودالند » ، حكاية أخلاقية للاطفال ، نشرت فى مجلة نوفيكوف « قراءة الطفل » سنة ١٧٨٧ بعنوان «ألفونس ودالند» أو « معجزات الفن والطبيعة » ·

٤٨ — الكسندر سوماروكوف (١٧١٨ — ١٧٧٧) ، كاتب مسرحيات تراجيدية وجنرال فى الجيش ·

— جابرييل درجافين (١٧٤٣—١٨١٦) ، شاعر كبير ، نظم قصائد تتغنى بعهد كاترين الثانية ·

— ميشيل لومونوسوف (١٧١١ — ١٧٦٥) ، هو ابن فلاح أصبح عالما محيطا وكاتبا مرموقا ، وقد أسس جامعة موسكو ·

٥٠ — روسلافليف ويورى ميلوسلافسكى ، بطلان من أبطال الروايات الوطنية التى كتبها زاجوسكين ومنها رواية : « روسلافليف أو الروس سنة ١٨١٢ » التى ظهرت عام ١٨٣١ ورواية « يورى ميلوسلافسكى أو الروس سنة ١٦١٢ » التى ظهرت عام ١٨٢١·

٥٢ — « تحرير موسكو » ، رواية تاريخية أصبحت الآن منسية،ظهرت

صفحة

سنة ١٨٤٠ بعنوان : « الأمير بوجارسكى والمواطن الصغير أو تحرير موسكو » ، وهى كرواية زاجوسكين تصف الكفاح ضد البولونيين بعد احتلالهم موسكو .

٥٢ ــ كان الكاتب الشهير جوجول يتقاضى مساعدة من صندوق الامبراطور نيقولا الأول طوال مدة اقامته بايطاليا .

٥٥ ــ « آبادونا » (الملاك الساقط) ، قصة رومانسية للكاتب نيقولا بوليفوى ، ظهرت سنة ١٨٣٤ .

ــ الناقد ب ... هو الناقد الشهير بيلنسكى الذى كانت تهاجمه الجريدة الرجعية « نحلةالشمال » .

٨٣ ــ كان مؤلف المسرحيات الهزلية ، أوجين سكريب ، ذائع الصيت فى روسيا ، يقدره الناس تقديرا عظيما .

٩٩ ــ « القديس اسحاق » ، حين بنى بطرس الاكبر مدينة سان بطرسبرج أهدى فيها كنيستين ، احداهما للقديس بطرس وبولس والثانية للقديس اسحاق الدلماسى الذى يقع عيده فى ٣٠ أيار (مايو) عيد ميلاد القيصر . وجاء الكسندر الأول فبنى كاتدرائية القديس اسحاق وفقا لتصميم وضعه المهندس الفرنسى ريشار مونفران .

١١٠ ــ ايفان الرهيب ، قيصر روسيا من سنة ١٥٣٣ الى سنة ١٥٨٤ ؛ الكسى ميخائيلوفتش قيصر روسيا من سنة ١٦٥٤ الى سنة ١٦٧٦ ، وهو أبو بطرس الاكبر ، « تاريخ روسيا » ، ألفه نيقولا كرامازين ، وظهر فى ١٢ مجلدا بين سنة ١٨١٦ و ١٨٢٦ .

١٢٨ ــ هذه الأبيات مستمدة من قصيدة للشاعر جاك بولونسكى (١٨٢٠ ــ ١٨٩٧) ، نشرت سنة ١٨٥٤ فى مجلة « المعاصر » بعنوان : « الجرس الصغير » .

١٥٥ ــ كان « استحضار الأرواح » رائجا فى أوساط المجتمع الراقى فى ذلك الزمان .

صفحة

١٥٥ ـ « غط قلمك » : فى مسرحية من مسرحيات جوجول نرى عمة البطل المشلولة توقع وصيتها بكلمة Obmokni (غط قلمك) بدلا من أن تذيل الوصية باسمها ٠

١٨٧ ـ ان الشوارع العرضانية فى فاسيلى أوستروف تسمى بأرقام من صفر الى عشرين ٠

١٩٠ ـ « الجادة الصغرى » (أو « الشارع الصغير ») هى احد الشوارع الرئيسية فى فاسيلى أوستروف ٠

٢٠٢ ـ « سيزوبريوخوف » ، اسم نحته دوستويفسكى من كلمتين هما سيزو ، ومعناها الكرش ، وبريوخو ومعناها المزرق ، ويطلق المؤلف هذا الاسم البشع على ابن التاجر سخرية ٠

٢٠٣ ـ « وهو يبدو بمعطفه المخملى من المتعصبين للسلافية » ، كان دعاة السلافية سنة ١٨٤٠ يحبون أن يرتدوا ملابس الشعب الروسى التى هجرتها طبقة النبلاء منذ عهد بطرس الأكبر ٠

ـ « النادى الانجليزى » ، أنشىء بسان بطرسبرج فى عهد كاترين الثانية ، وكان ملتقى الطبقة الارستقراطية ٠

٣٣٣ ـ « الطفولة والمراهقة » ، كتبها ليون تولستوى ، وظهرت سنة ١٨٥٢ ـ ١٨٥٣ فى مجلة « المعاصر » ، وظهرت سنة ١٨٥٦ فى طبعة مستقلة ٠

٣٨٣ ـ « انكم لا تتحدثون الا عن البؤس ، والمعاطف الضائعة ، وناظرى المحطات ٠٠٠ » : الاشارة هنا الى قصة « المعطف » التى كتبها جوجول ، والى قصة ناظر المحطة التى كتبها بوشكين ، والى أمثال هذه القصص ٠

٥٢١ ـ « أنظر الى س ٠٠٠ » : الاشارة هنا الى الكونت ليون تولستوى الذى كتب ثلاثيته التى يعرض فيها قصة حياته على فترات تبلغ كل منها سنتين ، « وانظر الى ن ٠٠٠ » : الاشارة هنا الى الى جونتشاروف الذى نشر « حلم أوبلوموف » سنة ١٨٤٩ ثم لم ينجز كتابة رواية « أوبلوموف » الا سنة ١٩٥٩ ٠

الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الأول

الفقراء
المثل
قلب ضعيف

المجلد الثاني

نيتوتشكا نزفانوفنا
الليالي البيضاء
بروخارتشين
الجارة
المهرج
السارق الشريف
البطل الصغير
قصة في تسع رسائل
شجرة عيد الميلاد والزواج
زوجة آخر، ورجل تحت السرير

المجلد الثالث

قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها
حلم العم

المجلد الرابع

مذلون مهانون

المجلد الخامس

ذكريات من منزل الأموات

المجلد السادس

في قبوي
قصة اليمة
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف
التمساح

المجلد السابع

المقامر
الزوج الابدي

المجلد الثامن

الجريمة والعقاب ـ١ـ

المجلد التاسع

الجريمة والعقاب ـ٢ـ

المجلد العاشر

الأبله ـ١ـ

المجلد الحادي عشر

الأبله ـ٢ـ

المجلد الثاني عشر

الشياطين ـ١ـ

المجلد الثالث عشر

الشياطين ـ٢ـ

المجلد الرابع عشر

المراهق ـ١ـ

المجلد الخامس عشر

المراهق ـ٢ـ
قصص

المجلد السادس عشر

الاخوة كارامازوف ـ١ـ

المجلد السابع عشر

الاخوة كارامازوف ـ٢ـ

المجلد الثامن عشر

الاخوة كارامازوف ـ٣ـ